

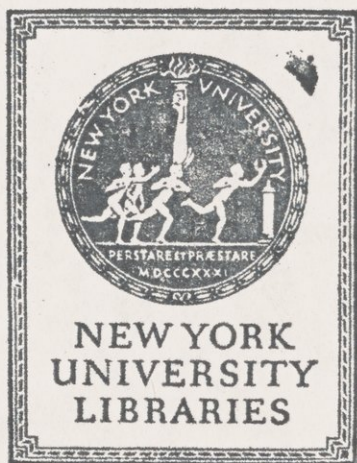
الدكتور محمد فؤاد شكري

دراسة
في التاريخ الأوروبي المعاصر

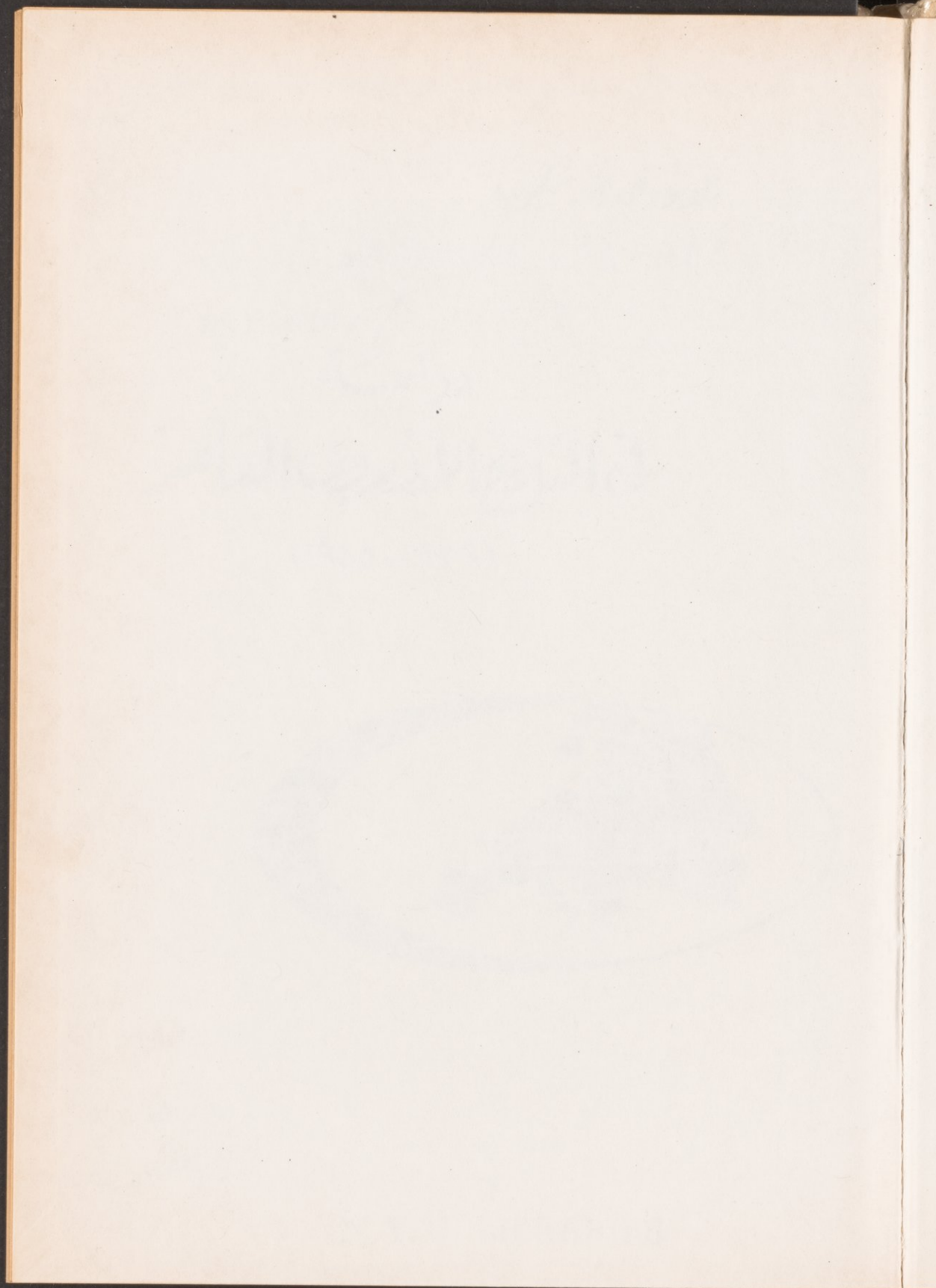
(١٩٣٩-١٩٤٥)

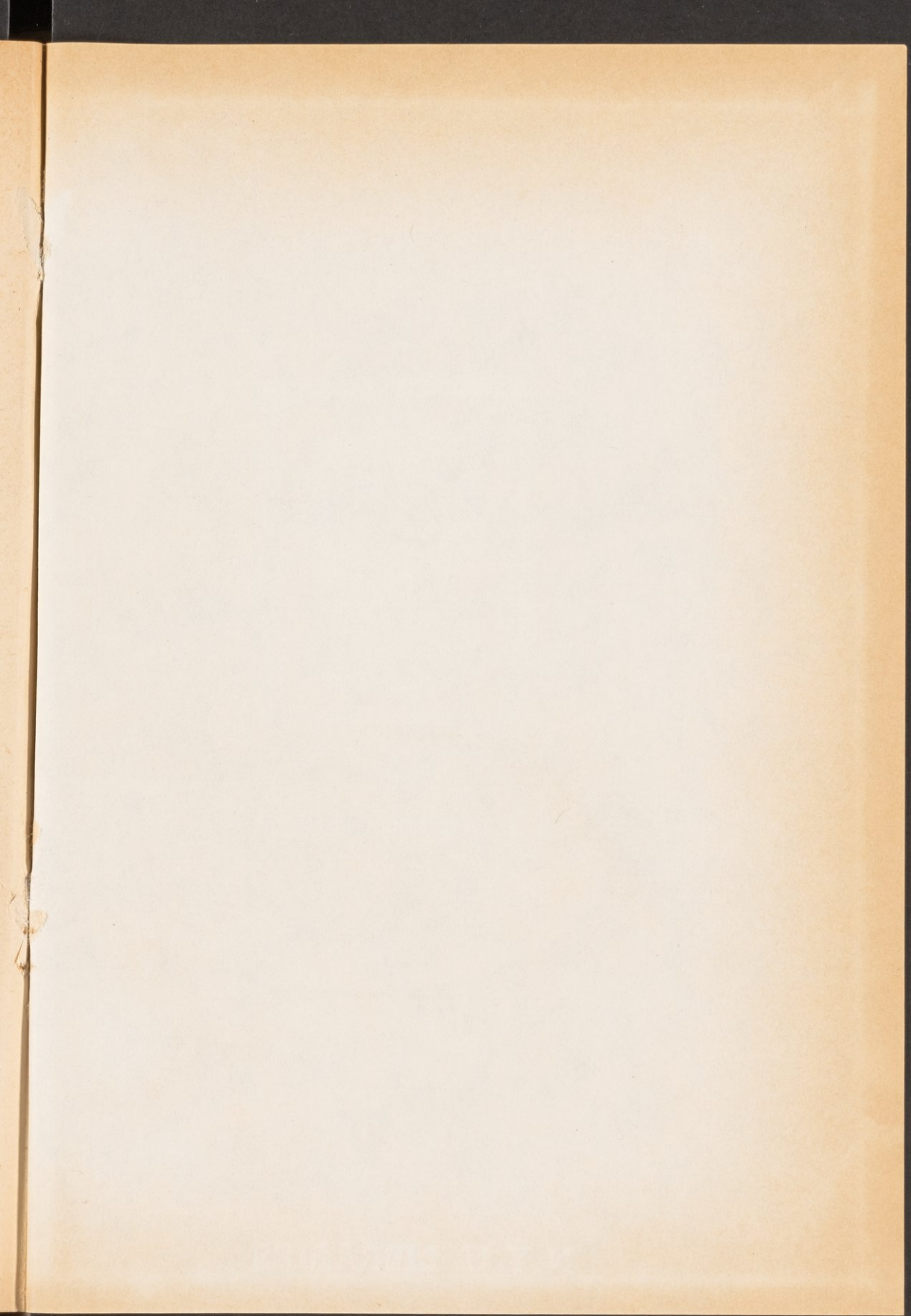


ملثم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY





Shukrī, Muhammad Fu'ād

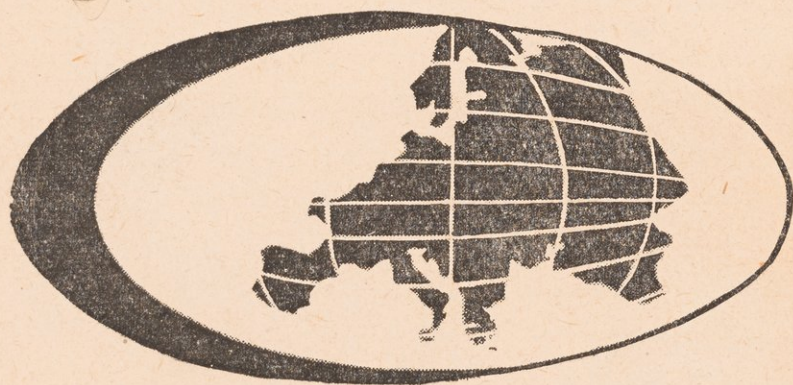
الكتور محمد فؤاد شكري

/Dirasah fī al-tarikh al-'urubī al-
mu'aser/

دراسة

في التاريخ الأوروبي المعاصر

(١٩٣٩-١٩٤٥)



ملزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

N. Y. U. LIBRARIES

Near East

D

743

. S48

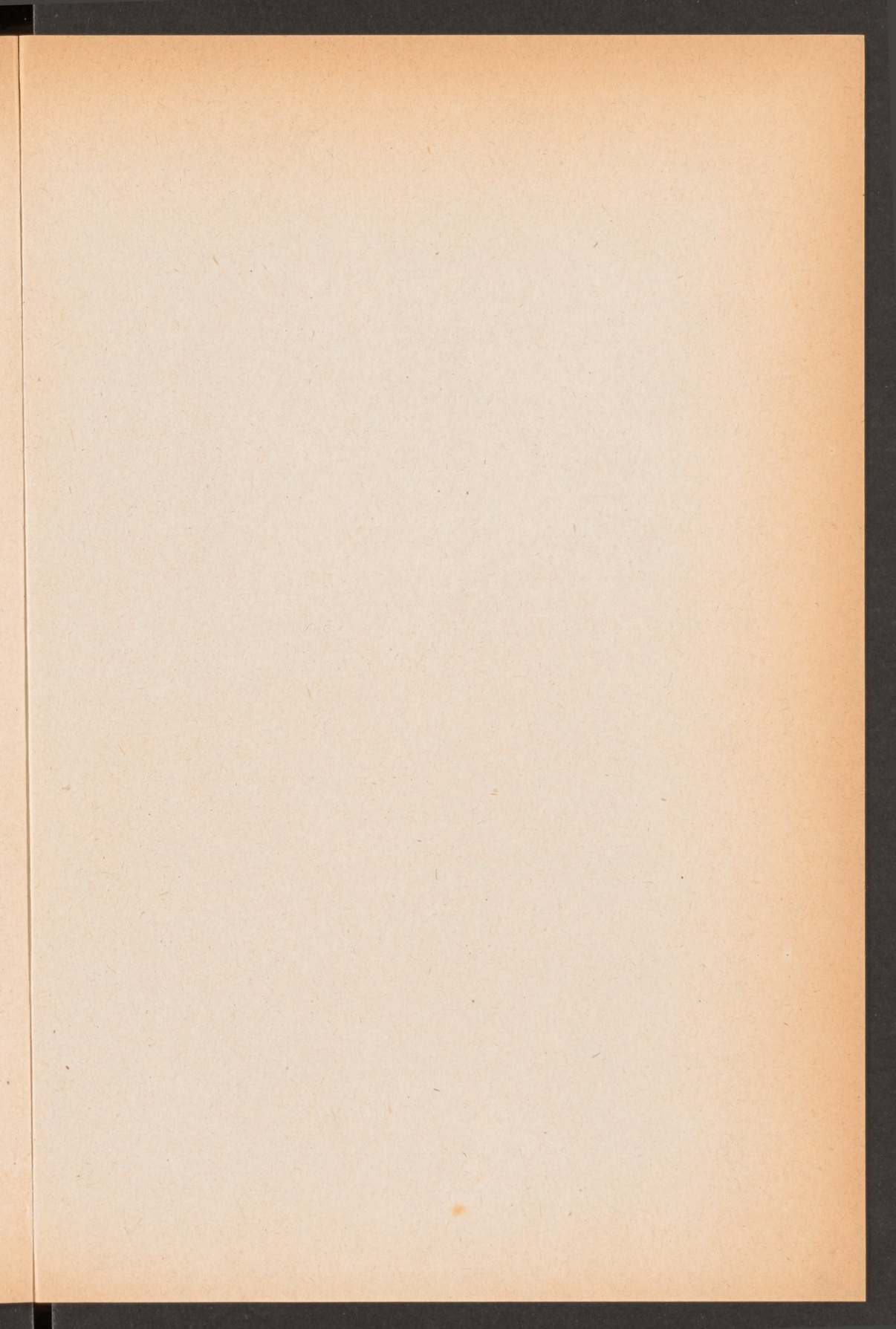
c. 1

الفهرس

[illegible]

فرائط الكتاب :

- ١ — أوروبا عند بداية الحرب العالمية الثانية في سبتمبر سنة ١٩٣٩
- ٢ — مغامر ألمانيا في عهد النازية بين عامي ١٩٣٣ ، ١٩٣٩
- ٣ — أوروبا حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية (كما رسمها النازيون)
- ٤ — تقسيم بولندا (١٩٣٩) .
- ٥ — اسكندنافيا وفنلندا ودول البلطيق (١٩٣٩ — ١٩٤٠)
- ٦ — هولندا وبلجيكا
- ٧ — تقسيم تشيكوسلوفاكيا (١٩٣٨ — ١٩٣٩)
- ٨ — خريطة فرنسا في يونيه سنة ١٩٤٠



الهاربين من وجه النازية في بلادهم . وبدأ الحديث من ذلك الحين عن مشكلة اللاجئين ولما يميز على الهتلريين في الحكم أربعة شهور .

وفي صيف عام ١٩٣٤ اتبحت لى الفرصة لمشاهدة بعض العواصم الأوروبية فوجدت عجباً : باريس لا تزال تتأرجح بين اليسار واليمين وتكاد تقترسها الفوضى على أثر ما اتضح من أن بعض الوزراء في حكومة الميسو (شوطان) Chautemps كانوا ضالعين مع المحتال الفرنسي (ساشاستافينكي) Sacha Stavisky في عملية إصدار سندات مالية مزيفة ، فانتحر ستافينكي في فبراير ١٩٣٤ عند افتضاح أمره وكثرت الإشاعات بأن المسؤولين هم الذين رأوا التخلص منه بقتله فاستقال رئيس الحكومة ووقعت التحامات دموية بين الشرطة والمتظاهرين الذين ثاروا ضد حكومة (دلاديه) Daladier الجديدة . وعندما زرت باريس في صيف ذلك العام كان الفاشيون الفرنسيون بزعامة (دى لاروك) de la Rocque يحملون بشدة على الجمهورية ، ويشيرون الاضطراب في كل مكان ، وكان دى لاروك يدعو لتأييد مبدأ « الزعامة المسؤولة » في فرنسا أى نفس المبدأ الذى كان يركز عليه النظام النازى في ألمانيا .

وفي روما كان موسوليني Mussolini قد بلغ ذروة مجده وحتم الفاشيست على كل زائر عاصمتهم من الأجانب وقتذاك أن يزوروا المعرض الفاشيستى الكبير حيث كانوا يعرضون « تاريخ » الحركة الفاشية في صور وأشكال متنوعة ويضعون في ابهاء المعرض عدة آثار تفسر ما حدث وقت ظهور الحركة الفاشية وزحف الفاشيين على رومه ، على أن أهم ما استلفت نظرى في ذلك الوقت أمران : أولهما أن وزارة الخارجية الإيطالية ما كانت تأذن في تلك الأيام لأحد من الباحثين الذين يدرسون التاريخ بالاطلاع على الوثائق الخاصة بالدبلوماسية الإيطالية في القرن التاسع عشر ، تخالفت بهذا العمل ما درجت عليه الحكومات الأوروبية الأخرى ، وقد اتضح فيما بعد أن إيطاليا كانت تعد العدة للاعتداء على الحبشة واعتبرت لذلك الوثائق التاريخية القديمة من أسرار الدولة التى يجب أن يمنع الباحثون من معرفة شيء عنها ، وأما الأمر الثانى فهو أنه على الرغم من صلابه بنيان الدولة الفاشستية الظاهرى وما كانت تذيبه الدعاية الإيطالية من أن الدوتشى والشعب الإيطالى كانا يدا واحدة وكتلة متماسكة فقد قابلت أفراد عديدين يشقون على حكومة موسوليني ويضمرون لها العداء ولا يحملون الشارة الفاشية إلا مرغمين لأنه بدون هذه الشارة التى تدل على أنهم قيدوا أسمائهم في نقابات العمل المتعددة كانوا معرضين للاحتجاز بدوائر الشرطة أو السجن إذا قوى الاشتباه في أمرهم ،

وفي قينا كان الحرس الأهلى (Heimwehr) الذى استندت إليه حكومة (دلفوس) Dollfuss قد قام بحركة واسعة لإبادة الاشتراكيين الديمقراطيين في النمسا فاستمرت المعركة

في فيينا أربعة أيام (١٢-١٦ فبراير ١٩٣٤) وكانت انتصارات الحكومة (والهايمهفر) كبيرة، وظن دلفوس أن الأمر قد استتب له ونال مؤازرة ايطاليا الفاشية؛ ولكن دلفوس كان قد أخرج على ما يبدو من حسابه قوة أخرى جديدة بدأت تنمو ويقوى شأنها في النمسا منذ وطد الهر هتلر دعائم الحكم النازي في ألمانيا. وسمع الكاتب عديد من النمساويين يتحدثون عن تأييدهم للنازية وتعاليمها ويتوقون للانضمام إلى ألمانيا الكبرى وتحقيق (الانشلوس) Anschluss ويضمرون لليهود عداوة عظيمة؛ ومع أن هؤلاء كانوا ينظرون إلى إخماد حركة الاشتراكيين الديمقراطيين كعمل مجيد فإنهم ما كانوا يرضون عن دلفوس واعتماده على موسوليني وإيطاليا ويريدون إبعاده من الحكم. وعندما لقي الكاتبين روم Roehm وغيره من رؤساء كتائب الهجوم (S. A) حتفهم في ألمانيا في آخر يونيو ١٩٣٤ في حركة التطهير الواسعة للتخلص من العناصر التي اتهمت بالاعتدال زادت حماسة أنصار النازية في النمسا، واكتسفت حكومة دلفوس الصعوبات من كل جانب وفي ٢٥ يولييه اغتال النازيون وصنائعهم دلفوس وهو بدار المستشارية. فعباً موسوليني جيشه على الحدود حتى يمنع تدخل ألمانيا الهتلرية في شؤون النمسا؛ أما ما حدث بعد ذلك من ازدياد بطش النازيين وسطوتهم في أوروبا فإن القارئ الكريم سوف يجد ذلك مبسوطاً في فصول الكتاب؛ ويكفي أن أذكر الآن ما كان لهذه الحوادث الجسم من أثر حملي على التفكير في أمر النازية ومعرفة شيء عن أصولها. وقد أتيت إلى في صيف عام ١٩٣٧ الفرصة مرة أخرى لزيارة إنجلترا وفرنسا: فوجدت باريس مشغولة بمعرضها الدولي العظيم؛ أما لندن فكان الحديث فيها يدور حول ما عرف وقتذاك باسم سياسة «التهدئة والتسكين»؛ ومعناها من الوجهة العملية التسليم بكل ما كان يريده النازيون من توسع على حساب الدول المجاورة وعدم إزعاجهم في شيء حتى لا تتأزم الأمور فتتساق الدول الغربية مرغمة إلى الدخول في حرب كان لا يرغب فيها أحد من أبناء فرنسا أو إنجلترا؛ ووجد أنصار التهدئة والتسكين مسوغاً لسياستهم من تلك الوعود التي كان لا يخل بها الهر هتلر عقب كل حادث من حوادث اعتداءاته المتكررة على الحقوق والالتزامات التي أقرتها وأوجدتها الاتفاقات الدولية، فكان من نتائج هذه السياسة عقد اتفاق ميونخ Munich المشهور في ٢٩ سبتمبر ١٩٣٨ لاقتطاع السوديت من تشيكوسلوفاكيا وضمها إلى ألمانيا النازية؛ واعتقد رئيس الوزارة الانجليزية وقتذاك المستر نيفيل تشامبرلين Neville Chamberlain أنه نجح في المحافظة على السلم في العالم لأنه عاد إلى بلاده يحمل في حقيبته تصريحاً مشتركاً وقع به الهر هتلر وألغى بمقتضاه الحرب كوسيلة لفض ما قد يحدث من خلاف أو نزاع بين إنجلترا وألمانيا في المستقبل. ولكن هتلر جرياً على عادته ما لبث حتى نبذ وعوده ظهرياً واغتصب البقية الباقية

من تشكوسلوفاكيا في مارس ١٩٣٩ . وكان إقدامه على هذه الخطوة منذراً ببداية تحول الدول الغربية من سياسة التهدئة والتسكين إلى خطة مقاومة القوة بمثلها ؛ ومن ذلك الحين لم يغب عن متبعي تطور الحوادث في أوروبا أن الحرب لا بد واقعة . وظلت حفنة يسيرة من أنصار التهدئة يبذلون كل جهد لتجنب العالم ويلات الحرب المدمرة وحاول رجال المال في لندن وغيرها استمالة النازيين إلى السلم بأن صاروا يعرضون على المانيا قروضا مالية عظيمة ويعدون بفتح الأسواق لتجارتها ولكن جهودهم باءت بالفشل ؛ وفي سبتمبر ١٩٣٩ أعلنت انجلترا الحرب على المانيا وتبعها سائر حلفائها وذلك عقب إغارة الألمان على بولندا ؛ ثم أحرز النازيون انتصارات باهرة وافتتحوا معظم بلدان أوروبا الوسطى والغربية وأتاح لهم محور برلين — رومانيا السيطرة على ايطاليا واسبانيا وخشيت كل من السويد وتركيا بأسهم وبقيت انجلترا وروسيا وحدهما تحملان في أوروبا عبء النضال ضد المانيا ؛ وبعد أن بسط النازيون سلطانهم على أوروبا بدأت دعايتهم تتحدث عن النظام الجديد ، وعن إنشاء عالم مثالي لا في أوروبا وحدها بل وفي سائر القارات التي كان يطمع النازيون في امتلاكها تحقيقاً لأهدافهم في بسط السيطرة الجرمانية على العالم أجمع .

وفي أثناء ذلك كله عظم الاهتمام بمعرفة شيء مما كان يجري من حوادث خلف تلك الجدران العالية التي شيدها النازيون حول قلعتهم الأوروبية والتي ظنوا أن أحداً لن يجد بها ثمة ينفذ منها ليشهد بناظره ما كان يفعله النازيون عند تطبيق هذا النظام الجديد الذي بشرت به دعايتهم وكانت قد أتيحت لي الفرصة قبل ذلك فدرست شيئاً عن النازية وأما إياها في السنوات القليلة التي سبقت نشوب الحرب الهتلرية ووجدت في نفسي ميلاً إلى مواصلة هذه الدراسة لاسيما عند ما بدأ (روميل) زحفه في الصحراء صوب الاسكندرية . وحدث في غضون ذلك أن ندبتني وزارة المعارف في أغسطس ١٩٤١ مفتشاً بالتعليم الثانوي فوجدت لدى في أثناء السفر الطويل من بلد إلى آخر متسعاً من الوقت قرأت فيه ما وقعت عليه يداي من مؤلفات ومطبوعات تتناول تاريخ الأمة الألمانية والحركة النازية والسياسة الأوروبية في السنوات التي سبقت قيام الحرب الهتلرية . ووصلت من دراستي هذه إلى تتيحتين أولاهما أن هذا النظام الجديد الذي روج له النازيون إنما هو شر نظام انتهجه قريحة إنسان ، وثانيتهما أن تطبيق هذا النظام في أوروبا سوف يكون الأداة التي يهدم بها النازيون أنفسهم تلك القلعة التي خيل إليهم أنهم قد أحكموا تأسيس بنيناها ؛ ثم وجدت من واجبي أن أبسط شيئاً مما وصلت إليه من نتائج فشجعتني على إلقاء بحث في هذا الموضوع جميع إخواني من أساتذة مدرسة الزقازيق الثانوية الكرام وعلى رأسهم حضرة المربي النابه الاستاذ الكبير السيد هاشم عوض ناظرها

وقتذاك . وفي مساء ١٠ مايو ١٩٤٣ أُلقيت بالقاعة اليونانية بالقازيق محاضرة موضوعها (النازى والنظام الجديد فى أوربا) ، وقد شجعتى ما لقيته من اهتمام حضرات الأفاضل الذين تكرموا بالاستماع إلى هذه المحاضرة على المضى فى دراستى منذ ذلك الحين إلى وقت زوال الهتلرية . والآن أقدم إلى القارئ الكريم قصة انهيار المانيا السريع وهى قصة مروعة حقاً ، راجياً أن أكون قد وفقت فى إبراز صورة واضحة لذلك النظام الذى أرادت المانيا الهتلرية أن تفرضه على أوروبا فأثارت مقساومة الشعوب ضدها وكان تطبيقه السبب الذى أدى إلى انهيارها فى النهاية .

على أن هذا البحث ما كان يمكن أن يتم فى صورته الحاضرة من غير تلك المعاونة الصادقة التى تفضل على بها حضرات الأخوان الكرام الاساتذة المحترمين عبد المقصود العنانى المدرس الأول لل مواد الاجتماعية بمدرسة الحلبية الثانوية وسيد محمد خليل المدرس بالقبة الثانوية والاستاذ فؤاد بطرس زكى لبسانسى فى التاريخ من كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول وعبد الرحمن محمود عبد التواب مفتش الآثار العربية فلحضراتهم جميعاً خالص شكرى وتقديرى .

دكتور

محمد فؤاد شكرى

القاهرة : ديسمبر سنة ١٩٤٧

الفصل الأول

الريخ الثالث

في شهر نوفمبر من عام ١٩١٨ سرت روح التمرد والعصيان في صفوف الجيش والبحرية الألمانية واندلع لهيب الثورة في (كيل) و (همبورج) وعدة مدن أخرى في برلين خرجت الجماهير الصاخبة إلى الشوارع تطلب الصلح والحرية والحزب ! . وفي ٨ نوفمبر أعلن قادة هذه الثورة من الاشتراكيين الديمقراطيين أن آل هوهنزلرن قد نزلوا عن عرش أجدادهم ، ثم نادوا بقيام الجمهورية ، وأرغم القيصر ولهم الثاني على ترك العرش ، وأعلن الاشتراكيون الديمقراطيون الجمهورية . ومع ذلك ظلت المظاهرات على شدتها ووقعت الالتحامات العنيفة في طول البلاد وعرضها ، وخصوصا بين الاشتراكيين والشيوعيين . ووسط هذه الثورات والاضطرابات تغير وجه التاريخ في ألمانيا . فقد انعقدت الجمعية الوطنية لوضع دستور (ويمار) ، ووقع الوفد الألماني في (فرساي) على شروط الصلح — في ٢٨ يونيو ١٩١٩ — وفي أغسطس من السنة نفسها بدأت قانونا حياة (الريخ الثاني) أو (جمهورية فرساي) — على حد قول الهر هتلر — وهي جمهورية ويثمار المعروفة .

ومع أن تاريخ هذه الجمهورية يشتمل على العوامل التي مهدت بشق الطرق لقيام السيطرة النازية في ألمانيا ، فيكفي أن نشير الآن إلى كثرة ظهور الأحزاب السياسية التي تألفت في حياة هذه الجمهورية . وكانت هذه الأحزاب جميعها ترغب في إعادة الطائفة إلى البلاد ، وتنشد الاستقرار الداخلي وتريد غسل العار الذي لحق بألمانيا المغلوبة في معاهدات فرساي ، وتعمل على رد اعتبارها بين مجموعة الدول الأوروبية الكبيرة . وكان من بين هذه الجماعات السياسية حزب العمال الألمان لمؤسسة (أنتون دركسلر) Anton Drexler وهو من العمال المتعطلين . وكان عدد أعضاء هذا الحزب عند إنشائه في عام ١٩١٩ ستة مالبثوا أن صاروا سبعة عندما انضم إليهم في العام نفسه (أدولف هتلر) . ومن ذلك الحين بدأت هذه الجماعة صفحة جديدة من حياتها . فأخذ الحزب ينمو ، واتسعت دائرة نشاطه ، وأطلق عليه هتلر اسم « حزب العمال الألمان الوطني الاشتراكي » ،

ومع أنه لايعتينا في هذا الفصل سرد تاريخ هذا الحزب ، فمن الواجب أن نشير إلى حقيقة واحدة : هي أنه ظل ينمو ويقوى ساعده في الوقت الذي ساءت فيه أحوال ألمانيا

الاقتصادية ، سواء أكان ذلك من أثر التضخم المالى الذى قضى على الطبقة المتوسطة ، أم من أثر الأزمة العالمية الاقتصادية المعروفة فى الثلاثينات الماضية ، وهى الأزمة التى طوحت بملايين العمال إلى خارج المصانع ، ونشرت البطالة فى كل بلد ودولة ، فقد أعطت هذه الظروف جماعة هتلر النازيين الفرصة لرد أسباب ذلك الاضطراب الكبير إلى قسوة معاهدات الصلح فى فرساي ، وإلى جشع اليهود ، وإلى خيانة الشيوعيين وأعداء الوطن الداخلين الذين تعمدوا إشعال الثورة فطعنوا جيش القيصرية فى ظهره ، ومكنوا حلفاء الحرب العالمية الماضية من الانتصار على المانبا وإذلالها . كما جعلت هذه الظروف من السهل على الحزب النازى أن يسرف فى بذل الوعود يوزعها ذات اليمين وذات الشمال ، حتى يستميل إلى صفوفه جماعة العسكريين الناقين بسبب الهزيمة وكبار رجال المال الحانقين لضياغ أرباح صناعة الحرب ، والسياسيين المحترفين من رجال العهد البائد التواقين إلى استئناف نشاطهم السياسى ، وأفراد الطبقة المتوسطة (البورجوازي) الذين هدر الإملاق كرامتهم ، والعمال المتعطلين الذين تذوقوا مر العيش وشظفه ، وغير هؤلاء من الطوائف والجماعات التى حنت إلى يد الزعيم القوى تسيطر من جديد على تنظيم حياتها ونشاطها ، وتتكفل بمسئولية تصريف شئونها حتى تصل بها إلى بر السلامة دون أن تحملها مشقة التفكير فى تدبير شىء من ذلك : شأن الألمان فى كل زمان ومكان .

وفى هذه الظروف الشاذة ، كبر حزب النازى وترعرع . فقد نشرت الصحيفة الألمانية (فولكشير بونختر) فى عدد خاص صدر فى ٢٣ مارس ١٩٣٢ إحصائية بعدد أعضاء هذا الحزب منذ تأسيسه إلى قبيل وصول أدولف هتلر إلى مستشارية الريخ الرلمانى يتبين منها أن الأعضاء الذين كانوا سبعة فى عام ١٩١٩ ومنهم هتلر نفسه ، قد بلغوا ٣,٠٠٠ فى ١٩٢٠ و ٢٧,٠٠٠ فى ١٩٢٥ و ٤٩,٠٠٠ فى ١٩٢٦ و ٧٢,٠٠٠ فى ١٩٢٧ و ١٠٨,٠٠٠ فى ١٩٢٨ و ١٧٨,٠٠٠ فى ١٩٢٩ و ٣٨٩,٠٠٠ فى ١٩٣٠ و ٨٦٢,٠٠٠ فى ديسمبر ١٩٣٢ و ٩٢٠,٠٠٠ فى يناير ١٩٣٢ .

وهذه الإحصائية إنما نهدف من وراء إثباتها إلى توضيح حقيقتين : الأولى ، إزدیاد عدد أعضاء الحزب فى سنوات الأزمة الاقتصادية ؛ والثانية ، أن عدد الأعضاء بالقياس إلى مجموع الأمة الألمانية كان فى الواقع صغيراً ضئيلاً ، ولا يدل بأى حال من الأحوال على أن الحزب النازى كان مرآة الرأى العام الصحيح فى المانيا . بل إن هذه الحقيقة الأخيرة لا تلبث أن تزداد وضوحاً إذا انتقلنا إلى الشهور التالية عندما اشترك النازيون فى الانتخاب لمجلس الريخستاج فى ٦ نوفمبر ١٩٣٢ . فقد نالوا وقتذاك ١١,٧٠٥,٢٥٦ صوتاً من ٣٦,١٣٨,٨٩٢ . أى

بنسبة ٣٢ ٪ تقريباً . ومع أن زعيمهم بلغ منصب المستشارية في ٣٠ يناير ١٩٣٣ بفضل مناورات سياسية وحزبية سوف يأتي ذكرها ، ومع أن النازيين سيطروا على أداة الانتخاب وأحكموا التدبير والتنظيم ، واستطاعوا إثارة الرعب في قلوب الشعب الألماني من خطر البلشفية عقب حريق الريخستاج المدبر في ٢٧ فبراير من العام نفسه ، فقد نالوا في الانتخابات التالية في ٥ مارس ١٩٣٣ نحو ١٥,٨٧٤,٩٧٣ صوتاً أي بنسبة ٤٣,٩ ٪ . فلم يكن للنازيين حتى في أوج عظمتهم الأغلبية التي تمكنهم من الانفراد بالحكم في ألمانيا ، والإدعاء بأنهم يمثلون الشعب الألماني حقيقة .

ومع ذلك استطاع النازيون أن يفرضوا سيطرتهم التامة على بلادهم وبذلك استطاعوا أن يصلوا إلى فرض هذه السيطرة على الشطر الأكبر من القارة الأوروبية ، ثم باتوا يطعمون أخيراً في التمتع بالسيطرة على بقية أنحاء العالم . ولم يكد هتلر يتسلم زمام الحكم حتى أخذ يعمل جاهداً على تنفيذ برنامج الضخم بعد أن أصبح صاحب الحول والطول في ألمانيا .

فمن أقواله المأثورة : « إن الريخ الأول هو دولة بسمارك ، والريخ الثاني هو جمهورية فرساي ، والريخ الثالث هو دولتي » . أي أن الريخ الثالث يبدأ من اليوم الذي عُين فيه أدولف هتلر مستشاراً للريخ الألماني في ٣٠ يناير ١٩٣٣ . وقد ظلت دولة أدولف هتلر قائمة إلى أن زالت من الوجود بسبب تحالف الديمقراطيات ضدها وتحطم ذلك النظام الجديد ، الذي شئت أن تفرضه فرضاً على شعوب أوروبا .

ومنذ قيام الريخ الثالث مرت سياسة ألمانيا الخارجية في مرحلتين : تميزت الأولى منهما ، بمحاولة تمزيق معاهدات فرساي بشق الوسائل تحت ستار العمل على استرداد مكانة ألمانيا كدولة عظيمة بين الدول الأوروبية ، أما المرحلة الثانية فقد تميزت بانتصار ألمانيا في هذه المناوشات التمهيدية وإقدام الريخ على تلك المغامرة الجريئة التي قصد منها بسط السيطرة الجرمانية على أوروبا إما بالوسائل السلمية وإما بخوض غمار الحروب .

لذلك لم تكف تنقضي شهور معدودات على وصول هتلر إلى منصب المستشارية حتى أقدمت ألمانيا في أكتوبر ١٩٣٣ على الانسحاب من مؤتمر تخفيض السلاح . والخروج من عصبة الأمم ، ثم أخذت من ذلك الحين تتسلح علانية وفي غير توان . بينما وقفت الدول الغربية مكتوفة الأيدي حتى لقد رفضت فرنسا ما تقدمت به بولندا من عروض للقضاء على النازية وهي مازال في مهدها . وعلى ذلك فقد نشدت بولندا السلامة في توقيع ميثاق عدم اعتداء مع ألمانيا في ٢٦ يناير ١٩٣٤ ، كان من أثره أن استطاع الريخ تأييد جماعة النازيين في دانتزج

الحرّة أرضاً ومدينة وفي ٣٠ يونيو من العام نفسه قضى الهتلريون في ألمانيا ذاتها على المعتدلين من أعضاء الحزب الوطني الاشتراكي في حركة التطهير الواسعة التي كان من ضحاياها الكابتن (روم) وزملاؤه الذين أخذوا على النازية تطرفها . وفي الشهر التالي دبر النازيون قتل مستشار النمسا (دولفوس) على الرغم من الصداقة القائمة بين هذا المستشار وزعيم إيطاليا الفاشية وقتذاك بل إن قتله كان بسبب هذه الصداقة ذاتها ولم يسفر ضجيج موسوليني ورغأؤه عن شيء ! ثم أحرزت ألمانيا الهتلرية نصراً جديداً عندما أوقف رئيس الوزارة الفرنسية (لافال) كل مساعدة للجماعات المعارضة للنازية في إقليم السار وذلك عندما اتخذت العدة للبت في مصير هذا الإقليم بالتصويت العام ، فحصل النازيون في ١٧ يناير ١٩٣٥ على أكثرية ساحقة مكنتهم في شهر مارس من إدماج السار في ألمانيا . وفي هذا الشهر نفسه أعلن أدولف هتلر أن ألمانيا ترفض المواد العسكرية الخاصة بعدم تسليحها في معاهدات صلح فرساي ، فأدخل التجنيد الإجباري في البلاد ثم مزقت إنجلترا وألمانيا من مواد هذه المعاهدات ما يتعلق بالتسليح البحري ، ووصلتا إلى اتفاق جديد أجاز لألمانيا إنشاء أسطول بنسبة ٣٥ ٪ من قوة الأسطول البريطاني ثم بناء أسطول من الغواصات مساو لأسطول الغواصات البريطاني . وظنت إنجلترا — وعلى رأسها حكومة رمزي مكدونلد في ذلك الحين — إنها إذا أقامت جبهة متحدة من إيطاليا وفرنسا إلى جانبها لمراقبة ألمانيا النازية فإنها تستطيع ضمان السلم فالنشأت جبهة ستريزا Stresa ولكن هذه الجبهة كان مقصداً عليها بالفشل منذ تأليفها . لأن موسوليني عندما انضم إليها كان يرجو في نظيره ذلك أن تطلق يده في أرض الحبشة . لذلك لم يطل عمر جبهة (ستريزا) أكثر من أسبوعين وغزت إيطاليا بلاد الحبشة . ولما ترددت الدول في توقيع « العقوبات » على إيطاليا على نحو جدى ووجد الهتلر أن إيطاليا الفاشية بعد أن أصبحت من وقت اعتدائها على الحبشة وانقسام عرى الصداقة بينها وبين الدول الغربية وخصوصاً بريطانيا قد صارت مرتمية في أحضان ألمانيا ، أقدم الزعيم الألماني على تحطيم اتفاقات لوكارنو Locarno وأرسل جنده في مارس ١٩٣٦ لاحتلال منطقة الراين (وهي منطقة تقرر أن ينزع سلاحها منذ ١٩١٩) وأفاد هتلر من هذه المغامرة عندما فشلت الدول الغربية وبخاصة (فرنسا وإنجلترا) في الاتفاق على عمل مشترك فيما بينهما للمحافظة على اتفاق لوكارنو وتعزيزه . ثم لم تلبث أن رفعت « العقوبات » عن إيطاليا في صيف العام نفسه . وكان معنى هذا انهيار عصبة الأمم فكان من أثر ذلك أن جرؤ (آرثر جريزر) Grieser رئيس مجلس شيوخ مدينة دانتريج الحرّة ومن كبار النازيين على إتهام العصبة مرة بعد أخرى . وعلاوة على ذلك أفاد هتلر من حاجة إيطاليا إلى صداقته ، فضغظت الدولتان (ألمانيا وإيطاليا) على النمسا للحصول من هذه الدولة الضعيفة على عدة امتيازات

في مصلحة ألمانيا في صيف العام نفسه . وفي هذا الوقت أيضا شجع الحليفان الجديدان الثورة المندلعة في أسبانيا ضد حكومتها الجمهورية (٦ يولية ١٩٣٦) ، فأخذنا من ذلك الحين يؤيدان علنا الجنرال (فرانكو) Franco وأنصاره الفاشيين ، بارسمال اعتداد الحرب والرجال لمساعدة الثوار ، ولم تستطع بريطانيا بسبب تردد فرنسا أن تفعل شيئا سوى إرغام هذه الدولة الاخيرة على اتخاذ موقف « الحياد » ، والموافقة على اتباع سياسة « عدم التدخل » في شئون اسبانيا ، أما روسيا السوفيتية فقد ظلت وحدها تمد الجمهورية الاسبانية بالمعونة . وحيال هذا الضعف الظاهر من جانب الدول الغربية ، رأت بلجيكا في أغسطس ١٩٣٦ أن السلامة في اتباع خطة « الحياد » ، فانفصلت عن الدول الغربية وأدى انفصالها إلى تقصير خط الدفاع عن حدود فرنسا الشرقية ، ومنذ أكتوبر اتفقت كل من ايطاليا والمانيا في (برختسجادن) على اتباع سياسة مشتركة عمومية . وعندما منعت بريطانيا الحكومة الاسبانية من إثارة مسألة التدخل الايطالي الألماني في اسبانيا أمام عصبة الامم جرؤ الهرتلر على تمزيق البقية الباقية من مواد معاهدات فرساي ؛ حتى إذا ما حذر (بلوم) رئيس الوزارة الفرنسية الالمان من المساس بمراکش الاسبانية أعلن الالمان والايطاليون في يناير ١٩٣٧ أن المانيا وايطاليا سوف تتبعان من هذا الحين سياسة مشتركة على أساس ما تقتضيه مصالح « محور برلين - روما » الذي خرج إلى عالم الوجود في (برختسجادن) ؛ فكان معنى هذا قيام محالفة المانية ايطالية صريحة ضد الديمقراطية ثم الشيوعية في أوبا وفي العالم أجمع . وبذلك تبدأ المرحلة الثانية من مراحل سياسة النازيين الخارجية .

وبما يميز هذه المرحلة وقوع عدة حوادث جسام أدت في النهاية إلى اشتعال نيران الحرب العالمية الثانية . فقد ظل الالمان والايطاليون في الشهور التالية بين يناير ويولية ١٩٣٧ ، وعلى الرغم من الوعود الشفوية المتكررة التي أصدروها لتقرير رغبتهم في التزام خطة « عدم التدخل » يعملون لتأييد الثوار الفاشيين في أسبانيا بكل وسيلة حتى ظهر في أوائل العام التالي أن النصر في النهاية سوف يكون من نصيب (فرانكو) وجماعته وأن الهزيمة السياسية ولا شك سوف تكون من نصيب تلك الدول الديمقراطية التي التزمت سياسة « عدم التدخل » . وعلاوة على ذلك أفاد النازيون من توتر الموقف السياسي في أوروبا كل فائدة ، فأقدم هتلر على غزو النمسا ، ثم ضمها إلى المانيا عنوة واقتدارا (في ١١ مارس ١٩٣٨) ؛ وحول النازيون أنظارهم بعد ذلك صوب جمهورية تشيكوسلوفاكيا ، فأسفر اتفاق ميونخ (في ٣٠ سبتمبر ١٩٣٨) بين بريطانيا وفرنسا ومانيا وايطاليا عن سلخ يلاذ السوديت وضمها إلى المانيا . ومع أن الهرتلر كان قد أكد للستر تشمبرلين أن السوديت آخر ما يطمع

فيه من الأراضي الأوربية ، فإنه مالبث حتى نقض عهده في مارس من العام التالى وضم مقاطعتى بوهيميا وموراڤيا التشيكية فى حكومة واحدة تحت الحماية الألمانية واحتل سلوفاكيا . وفى ٢٢ مارس طلبت المانيا أرض (ميميل) من (ليتوانيا) واستولت عليها ؛ وفى أول سبتمبر اعتدت المانيا على بولندة ، ثم قرر هتلر يوم الاعتداء عليها أن يضم مدينة دانترج الحرة إلى الريخ الثالث .

وكان الاعتداء على بولندة الشرارة التى أشعلت نار الحرب العالمية الثانية ؛ ومع ذلك كفلت وحشية الغزو الألمانى إخضاع بولندة فى وقت قصير لاسيا وقد اضطرت الجيوش الروسية إلى اختراق حدود بولندة الشرقية حتى إذا كان آخر سبتمبر اقتسمت المانيا والروسيا البلاد البولندية فيما بينهما ، ثم استطاعت المانيا التفرغ للجبهة الغربية فاكتمست جحافلها فى ربيع ١٩٤٠ خمس دول مستقلة فاحتلت الدانمرك فى ابريل ، واخضعت النرويج بين ٩ ابريل و ١٠ يونيه ، وغزت فى ١٠ مايو تلك الدول التى ظلت محايدة وهى بلجيكا وهولندة ولكسمبرج ؛ وبعد تسليم الملك ليوبولد البلجيكي حطم النازيون مقاومة الحلفاء فسقطت باريس فى أيديهم فى ١٤ يونيه ثم احتلوا شطرا كبيرا من فرنسا بما فى ذلك شواطئها الشمالية والغربية بمقتضى هدنة عقدت مع فرنسا فى ٢٢ يونيه ، وفى أغسطس ١٩٤٠ بدأت معركة بريطانيا . وفى سبتمبر تدفق الألمان على رومانيا بموافقة حكومتها . وفى ١٩ نوفمبر اجتمع الملك البلغارى بوريس بالهر هتلر فى برختسجادن ، فكان النظام الجديد ، موضع الاحاديث التى دارت بينهما ؛ وأسفر هذا الاجتماع عن تدفق جيوش النازيين على بلغاريا فى فبراير ١٩٤١ ، حتى إذا كان يوم ٢ مارس من العام نفسه ، أعلن (فيلوف) Filoff رئيس الوزارة البلغارية أن الحكومة الألمانية طلبت إرسال جندها إلى بلغاريا متعهدة فى الوقت نفسه بأن مهمة هؤلاء الجنود وقمية ، وأن الغرض من إرسالهم المحافظة على السلم فى البلقان . بتيسد أنه لم يلبث أن اتضح فى الشهر التالى أن «السلم» المقصود إنما كان اتخاذ بلغاريا قاعدة للهجوم منها على يوغسلافيا واليونان ؛ وقد احتل النازيون هذه البلاد مع شركائهم الايطاليين فى أوائل ابريل ؛ وفى مايو احتل الألمان جزيرة كريت ؛ وفى يونيه ١٩٤١ بدأ الغزو الألمانى لروسيا .

* * *

تلك إذن كانت الحرب الخاطفة . وفيها انتصر الألمان على طول الخط كما شهدنا حتى نهاية عام ١٩٤١ . ولكن هذه الانتصارات كانت ضئيلة القيمة فى الواقع إذ كان الألمان قد خسروا معركة بريطانيا ، وكان فى استطاعة الانجليز أن يحشدوا أكبر قواتهم الامبراطورية ، أو يضموا

إلى صفهم الديمقراطية الأمريكية الكبرى ، الولايات المتحدة ، ثم غيرها من الشعوب الحرة في الشرق والغرب . لمنازلة عدوهم في معركة حاسمة .

ومن جهة أخرى صادف الألمان منذ البداية عدة صعوبات سببها هذه الحرب الخاطفة أهمها ، أن كثيرا من مراكز الإنتاج الصناعي والزراعي مالبث أن دمر أو تعطل بفعل الحرب ، كما أن أسرار عديدة سرعان ما صارت تفر أمام جحافل النازيين الزاحفة على بلادها ، يطلب أفرادها مكانا آمينا يلجأون إليه من شبح الموت الذي يطاردهم ؛ وكان من هؤلاء الحيارى الفارين كثير من الزراع والصناع الذين هم دعامة الإنتاج الاقتصادي في أوطانهم ، وعدا هذا فقد فضل عديدون من زعماء الصناعة في البلاد المهدة بالغزو والاحتلال مغادرة منشآتهم الصناعية والهجرة إلى الدول المحايدة أو المتحالفة ضد ألمانيا ؛ فنجم من ذلك كله أن حل الارتباك محل الجهد « المنظم » ، وتوقف الإنتاج أو كاد في البلدان الخربة المنهوبة . فإذا يصنع النازيون لتدارك هذه الحال ؟

كان لابد من إصلاح أداة الإنتاج الاقتصادي بأي ثمن لأمور واضحة جليلة ؛ فالحرب ما تزال مستعرة الأوار والتعبئة الكاملة تقتضى الانتفاع بكافة الموارد لمواصلة القتال . ناهيك بالرغبة في إحراز النصر ضد بريطانيا ، ولا يتسنى كل ذلك بغير استقرار تلك الشعوب المغلوبة على أمرها واستكانتها إلى العمل المنتج في الحقل والمصنع . ولكن كيف يطمئن المغلوبون إلى التعاون مع الغالبين إذا كان مجرد العيش في ذلة هو ما ينبغي عليهم أن يطمعوا فيه ؟ لابد إذن من تخدير أعصابهم ؛ ولابد إذن من التويه عليهم . وكان الحيارى الذين أصابهم الهزيمة ونزلت بهم الكوارث أشد الناس إقبالا على تصديق كل قول موه وتعليل النفس بقرب إنقشاع الغمة ؛ وعرف شيطان النازي هذا الضعف في الشعوب المقهورة فراحت الدعاية تدق الطبول وتنفخ في الأبواق مبشرة بأن شمس (النظام الجديد) سوف تبدي تلك الحلولكة المخيمة على الدول التي خضعت لسلطانهم .

وما كان النازيون يقصدون من تخدير أعصاب المغلوبين استئشاف النشاط الاقتصادي وتوفير أسباب التعبئة الكاملة لحسب ؛ بل أن كسب الوقت كان من أهم أهدافهم ، حتى تتوطد دعائم ذلك النظام ، وحتى تمر فترة من الزمن تكفى لتغلغله في كيان أوروبا الاقتصادي والسياسي . لأن هذا التغلغل من شأنه أن يرغم الشعوب المغلوبة على تعود هذا النوع الجديد من الحياة ، فيكفل مرور الزمن ورسوخ العادة إخماد المقاومة وريدا وريدا ويضمن استسلام الشعوب إلى العيش في ظل السيطرة النازية في النهاية . فإذا ما انقضى زمن طويل على سريان هذا النظام صار من المتعذر على الديمقراطية حتى بعد انهزام هتلريين وانقضاء دولتهم اجتثاث هذا النظام من أصوله ومحو أثره من الوجود .

وكانت الدعوة إلى النظام الجديد وسيلة مؤاتية تتيح الفرصة باسم المساهمة مع ألمانيا المنتصرة في تشييد صرح الحضارة الجديدة لأولئك النفعيين من الكويسلنجيين واللافاليين الذين لا تخلو منهم أمة مقهورة ، ولأولئك المغامرين المكتوبين من الكتاب وأشباه المفكرين الذين إذا فشلوا في حياة الفكر الحر الطليق وازور المجتمع عنهم وأهمل أمرهم تلمسوا في فلسفة (النظام الجديد) ينبوعاً جديداً يهلون منه — كأنما قد تفتت أذهانهم هم وحدهم حتى فهموا ما استغلّق على غيرهم — ثم انقلبوا يكيدون لأبناء أوطانهم انتقاماً لما توهموه غمطاً لمواهبهم وازدرا. لثرات قرائحهم .

وعلى ضوء الاعتبار السابقة نستطيع أن ندرك لماذا لم تعمل النازية على الدعاية للنظام الجديد في بداية العراك ولماذا لم يكن النظام الجديد نفسه من أهداف الحرب ، فلم يسمع به أحد إلا بعد انهيار فرنسا وإخفاق الألمان في معركة بريطانيا . وعلى ذلك فقد بدأت الدعوة لهذا النظام وثيدة وانية في شهرى يوليه وأغسطس من عام ١٩٤٠ ولم تبلغ ذروتها إلا في أغسطس وسبتمبر ، وكان الغرض منها اقناع الشعوب المهزومة بأن النازيين إنما يريدون إعادة تنظيم الحياة الأوروبية في عالم مثالي جديد ؛ وأن بريطانيا هي العقبة الكأداء التي يحول عنادها وإصرارها على المقاومة دون تحقيق هذا النظام ؛ وأنه لاسيلاً إلى تشييد صرح هذه الحضرة المثالية إلا بالتعاون مع النازيين حتى يمكن أن توضع أسس ذلك البنيان السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى يريدونه للعالم ؛ وأن من شروط النجاح في هذا العمل الباهر أن يتم التضامن الوثيق مع ألمانيا من أجل مكافحة الانجليز وإرغام بريطانيا العظمى على التعاون مع النازيين وأحلافهم في إقامة هذا النظام والاعتراف بمزاياه وإنها لكثيرة .

الفصل الثاني

النظام الجديد

وهنا يصح للقارئ يسأل وما أمر هذا النظام الجديد ؟ .

ونحن إنما نستمد معلوماتنا عن هذا النظام من كتب النازيين ونشراهم وصحفهم وما إلى ذلك وفي مقدمة هذه المصادر كتاب (كفاحي) للهر هتلر ويعتبره النازيون ضروريا لتقريب الإشتراكية الوطنية إلى أذهان الجماهير على الرغم من صعوبة أسلوبه وغموض معانيه، وكذلك مؤلفات (الفرد روزنبرج) Rosenberg رسول النازيين وفيلسوفهم الأكبر ومن بينها كتابه في عام ١٩٢٢ عن مبادئ الحزب الإشتراكي وأهدافه ، وكتابه المشهور في عام ١٩٣٠ عن « خرافة القرن العشرين » . وقد أعد هذا الكتاب لطبقة المفكرين من « ذوى المواهب العقلية » الذين توسم فيهم النازيون القدرة على إدراك ما يدق فهمه على الجماهير من خفايا هذه الوطنية الإشتراكية ، أما كتاب المطالعة أو القراءة الأولية فقد وضع لجماعة الشباب الهتلري . ومن بين تلك المصادر كذلك كتاب (أرنست برجمان) Bergmann عن « عقائد الدين الجرمانى الخمس والعشرين » وبحوث كل من (رويين) Dr Ruppen و (هينكل) Hinkel و (ازوالد شبنجلر) Spengler و (فردريك سيبورج) Sieburg ، والأستاذ (أرنست هوير Hauer وغيرهم . وكذلك لا ينبغي أن يفوتنا أن نذكر برنامج الحزب النازى نفسه وقد وضع فى عام ١٩٢٠ .

ويتضح مما يذكره جميع هؤلاء الكتاب أن (التعاليم النازية) تركز على حقيقة أساسية واحدة ، هى أن الحضارة الحالية يهودية فى صميمها تنسك البطولة وترفض النضال والصراع من أجل الحياة ، فتحرم الإنسان لذلك من صفات النبيل والشرف . ولذلك كانت هذه الحضارة التى يقوم عليها النظام اليهودى العالمى فى الوقت الحاضر ملوثة بجرائم الانحلال وينخر فيها الفساد ولا مفر من تخطيطها فى النهاية حتى ينفسح الطريق لقيام نظام آخر معارض لهذا النظام اليهودى المادى . وعلى أساس هذه المغالطة استند النازيون فى رسم تلك القواعد التى شيدوا عليها صرح النظام الجرمانى الجديد فى ألمانيا أولا ومن بعد ذلك فى أوروبا .

وخلاصة هذه القواعد أنه كان للوطنية الإشتراكية فضل سبق فى إدراك حقيقة العالم فى وضعه الصحيح ، فهى لذلك صاحبة الحق وحدها فى قيادة الحرب الصليبية أى حرب

الصليب المعقوف من أجل بعث الانسانية وإحيائها وتغيير النظام القائم ، على أن يتم ذلك البعث والتغيير على أيدي جنس بشرى كتبت له السيادة منذ الأزل على بقية شعوب العالم : الأمر الذى لا يتسنى حدوثه قط دون ان يطبق ما أسماه النازيون « مبدأ الزعامة » أو « الزعامة المسؤولة » Feuhrer Prinzip ومعناه أن تنقاد الحياة فى الدولة لتنظيم عسكرى دقيق من شأنه تركيز السلطة فى شخص زعيم مطلق التصرف يطيعه المجتمع طاعة عمياء . ويكون وحده المسئول عن هذا المجتمع . ويفسر ذلك (فردريك سيبورج) فى قوله « إن الجرمانى يتميز فقط بمقدار الخدمة التى يؤديها للدولة ، فلا ينبغى أن يوجد بألمانيا مجرد أفراد عاديين من البشر ؛ وإنما المطلوب هو وجود جرمانيين يفنون أنفسهم فى تأدية هذه الخدمة والدولة التى من هذا النوع تعرف باسم دولة الزعامة Feuhrerstaat وشعارها « أمة واحدة ، ودولة واحدة وزعيم واحد »

ولذلك لم يلبث ؛ زعيم هذه الوطنية الاشتراكية (أدولف هتلر) أن نال بفضل مبدأ الزعامة المسؤولة ، حقا مقدسا يتحتم بمقتضاه على كل جرمانى أن يدين له بالطاعة العمياء وينفذ إرادته دون مناقشة . وقد وضع ذلك (هانز فرانك) Hans Frank وكان من فطاحل القانونيين النازيين — عندما قال فى خطبة له فى اكتوبر ١٩٣٥ : « أن الاعتراف بقديسية القوانين التى توقع عليها أدولف هتلر باسمه هو أعظم واجباتنا إطلاقا لأنها مستلزمة من روح الأمة الجرمانية ذلك أن الله وحده أعطاه السلطة فهو لذلك الرسول الذى أرسله الآله ليذود عن حقوق الجرمان فى العالم » بل لقد تطرف النازيون فى هذا الخلط إذ أكد (فابريكوس) Fabricus أن الزعيم هتلر إنما ينتمى إلى « أولئك الذين ينفذون إرادة الله ويحققون حياة السيد المسيح فى هذه الحياة الدنيا على نحو منقطع النظير »

ومن أسس التعاليم النازية كذلك أن الجرمان هم سادة الجنس البشرى وهم أولئك الذين قدر لهم من الأزل أن يؤلفوا الطبقة الحاكمة فى العالم ، ويعتمد النازيون فى ذلك على أن الشعب الجرمانى أرقى الأجناس البشرية وأنقاها قاطبة . ورغبة فى تدعيم هذه السيطرة العالمية ابتدع النازيون ما أسموه « نظرية الدم » ، بمقتضاها وزعت أجناس البشر طبقات ومنازل . فوضعوا فى الطبقة العليا الجرمان أهل الريخ الألمانى (Reichdeutsche) ، ويلهم فى نفس الطبقة العليا الجرمان الذين لا يعيشون فى الريخ ويعرفون باسم « الأقرباء » (Volksgenosse) أو (Volksdeutsche) . ويأتى بعد هؤلاء النورديون الخالص ، (أمثال الدانماركيين والنرويجيين والسويديين) ، ثم النرلنديون والنورمانديون ، ثم الانجلو سكسون وغيرهم من « الأقرباء » ، التوتون ؛ أما الطبقة السفلى فقد وضعوا فيها الزنوج ، ثم وزعوا فيما بين هاتين

الطبقتين العليا والسفلى بقية الأجناس الأخرى بالترتيب التالى : الطورانيون؛ ومنهم الأتراك والهنغار ، ثم المغول ومنهم الفن والبلغار ، ثم الأجناس الخليطة مثل الرومانيين ، ثم السلاف ثم اليهود ، ثم شبه الزنوج .

ومما تجدر ملاحظته أن النازيين أخرجوا من هذا التقسيم الكلت واللاتين ، على أن يجرى اختيار الطبقة التى يليق فى نظر النازيين وضعهم فيها حسب الظروف ومقتضيات الأحوال مستر شدين فى اجراء هذا الاختيار بأمر ثلاثة : هى وثوق الصلة والقربة التى تربط بين هذين الجنسين والأجناس التى تتألف منها الطبقة العليا ثم درجة نقاوة الدم وأخيرا مقدار استعداد هذين الجنسين لممارسة شؤون الحكم .

وعدا هذا أنكر النازيون أن آسيا والشرق الأوسط وحوض البحر الأبيض كانت جميعها مهد الحضارة ، بل ادعوا أن أقدم ثقافات العالم إنما ظهرت فى البقاع النوردية ، أى فى طرف بحر البلطيق الغربى ، ولذلك سهل عليهم الإدعاء بأن عبقرية الجنس الجرمانى ونشاطه أو حيويته هما وحدهما اللذان أخرجنا إلى الوجود كل ما كان ذا قيمة فى عالم الفن والعلم والصناعة . وفضلا عن ذلك سوغ النازيون فكرة السيطرة الجرمانية بادعائهم أن الجرمان من الناحية البيولوجية الصرفة أصلح الأجناس قاطبة للنضال من أجل البقاء ، ومن شأن هذه الصلاحية ذاتها أن تمكنهم فى النهاية من السيطرة على العالم أجمع ، فالأقدار وحدها إذن هى التى اختارت الجنس الجرمانى لهذه السيطرة .

وقد ترتب على القول بوقوع الاختيار على الجرمان منذ الأزل لممارسة هذه السيطرة العالمية أن أصبح من الواجب على الجرمانين ألا يعترفوا بغير قانون واحد هو ذلك القانون الجرمانى الذى يخول هذا الجنس المختار أن يفعل كل ما يحقق فى النهاية دعم السيطرة الجرمانية العالمية ، مهما كانت هذه الفعل مخالفة للقواعد الخلقية والأحكام القانونية المعروفة ، بل رفض الجرمان أن يعترفوا بهذه القواعد والأحكام بدعوى أنها من مخلفات الحضارتين الرومانية والمسيحية وكل منهما فى نظر النازيين حضارة منحلة تمسكت بها أجناس وضيعة ولا يمكن أن يسترشد بمبادئها الجنس الجرمانى الرفيع الشأن سواء أكان ذلك فى حياته الداخلية أو فى علاقاته الخارجية مع الدول وسائر الأمم . وإلى جانب هذا ، اعتبر النازيون أن الغرض من كل نشاط خارجى إنما هو تعزيز الكيان الجرمانى الداخلى ، حتى يستطيع الريخ أن يبدل بفضل القوة التى يكسبها نشاطا خارجيا جديدا لا تلبث ثمرة نجاحه أن تندمج فى الكيان الجرمانى الداخلى فيبدل الريخ بفضل ذلك نشاطا خارجيا أقوى ، وهكذا يستمر هذا النشاط قويا مجددا حتى يتم للجنس الجرمانى « المبعجل » احراز السيطرة على العالم . أى أن التنظيم الداخلى فى نظر النازيين

كان حجر الأساس في بنيان « دولة الزعامة » والاداة التي لاغنى عنها لتحقيق السيطرة الجرمانية العالمية .

وقد استرشد النازيون في هذا التنظيم الداخلي بقواعد مرسومة أهمها ضرورة استخدام جميع القوى البشرية والمادية الموجودة في الدولة واستغلالها إلى أقصى حدود الاستغلال ، وذلك لتهيئة أداة الحرب والقتال التي تمكن الجرمان من الاستيلاء على الأرض التي يدعى النازيون أن من حقهم أن يملكوها ، ثم توطيد مركزهم كأسياذ مسيطرين على هذا العالم . وكان معنى ذلك أن يعي النازيون جميع الأيدي العاملة ثم أدوات الصناعة والزراعة وسائر وسائل الانتاج في الدولة وهو عمل شاق جسيم ما كان يستطيع النازيون أن يقدموا عليه دون الالتجاء إلى الحيلة والدهاء تارة والقسوة الصارمة والغدر تارة أخرى حتى يزيلوا ما يوجد من عقبات داخلية قد تحول دون تنفيذه .

وعلى ذلك فقد اصطنع النازيون الاعتدال في أول الأمر مع مخالفهم من المواطنين الذين لم ينضوا تحت لواء الوطنية الاشتراكية . وأفاد النازيون من هذا الاعتدال المصطنع لأنهم كما سبق القول لم يكونوا بالأغلبية التي تستطيع الأفراد بالحكم عند وصولها إليه كما استطاعوا عن طريقة تسخير جميع الأيدي العاملة والانتفاع بموارد الثروة التي كان يملكها رجال الصناعة والمال ولم يكن هؤلاء قد أدركوا بعد جسامه الخطر الذي يهددهم وكان غرض النازيين من تسخير هذه القوى إعداد آلة الحرب اللازمة لتنفيذ برنامجهم .

وفي سبيل تهيئة وسائل الحرب استرشد النازيون في إدارة شئون الدولة بمبدأ الاكتفاء الذاتي أو الأوتاركية الاقتصادية Economic Autarchy حتى تستطيع الدولة في وقت الحرب مقاومة الحصر البحري إذا استلزمت ذلك خطة الدفاع وحتى تجد من المواد الداخلية المستمدة من انتاج الأرض ما يكفيها إذا اتخذت خطة الهجوم . أضف إلى هذا أن الأوتاركية الاقتصادية من شأنها إيجاد الموازنة ، بين العوامل الداخلة في تكوين الدولة الاقتصادية ، فلا تصبح الدولة صناعية صرفة أو زراعية صرفة وقد عارض النازيون في أن تظل دولة الريخ صناعية صرفة لأن النازية نظرت دائما إلى الزراعة كعمل حيوي لتربية العقل السليم في الجسم السليم وهي تربية ضرورية لإنشاء ذلك الجنس وتلك الطبقة من السادة الجرمان الذين كان من حقهم ممارسة شئون الحكم والسيطرة على العالم دائما .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن العمل بمبدأ الاكتفاء الذاتي يحرم على النازيين إنشاء الصلات التجارية مع العالم الخارجي وبخاصة لأنهم كانوا يخشون أن تؤدي هذه الصلات إلى ضياع ذلك الحلق الجرمانى الرفيع ، الذى يميزهم من غيرهم كأمة . ومع ذلك أجاز النازيون التجارة

ومع العالم الخارجى فى حالات معينة أهمها أن تكون هذه التجارة وسيلة يتمكن النازيون بفضلها من تجهيز أداة الحرب وإعدادها بكل سرعة ثم تحقيق (الاكتفاء الذاتى) نفسه وذلك إما بافتتاح الأقاليم الغنية بالموارد الطبيعية التى كانت تنقصهم ، وإما بتهيئة الوسائل لإنتاج ما يمكن أن يستعصوا به عن تلك الأشياء التى لم توجد فى داخل دولتهم ، وهذا فضلا عن جلب الكماليات التى قد يطلبها الشعب لمجرد الترفيه عن نفسه كالبن مثلا ، ثم إجاز النازيون الاتجار مع الأمم الأخرى إذا نجم من ذلك ربح لهم أو توقعوا إصابة هدف سياسى معين من وراء هذه التجارة .

وكان من قواعد التنظيم الداخلى كذلك أن توجد الدولة مجتمعاً من أفراد متجانسين فى تركيبهم الجسمى والعقلى وتعمل للمحافظة على كيانه وضمان رقيه وذلك حتى تحقق غرضاً أسمى بفضل إشرافها على التربية والتعليم هو تنشئة إجمالى جديدة من الشباب القادرين على حمل السلاح وبذل النفس فى سبيل تأدية الرسالة الجرمانية على خير وجوها وحرص النازيون لذلك على أن ينشئوا شبابهم تنشئة صارمة حتى يصبحوا قساة غلاظ الأكباد لا يعرفون شفقة ولا رحمة وأحباب عجرفة وعنجهية وكبرياء لا تلين قلوبهم الصلدة لعاطفة حب أو صداقة . بل إن النازيين كان يشترطون الالتحاق فى المعارك الدموية كأخر مرحلة من مراحل التعليم والتربية لتنشئة أولئك الرجال الأفذاذ (Supermen) الذين تتألف منهم طبقة الأسياد المعدة للحكم والسيطرة وكانت الأعمال اليدوية الوضيعة من نصيب تلك الشعوب المسخرة المغلوبة على أمرها .

ومع أنه كان من واجب الدولة على حد قول النازيين المحافظة على كيان المجتمع وضمان رقيه فقد كان من رأيهم أن على الدولة أن تضجى بهذا الواجب المزدوج إذا دعت الحاجة الملحة إلى إنصرافها بدلاً من تحقيق هذه الغايات إلى امتلاك تلك الأراضى التى كان من حق الجنس الجرمانى أن يملكها فى سبيل الوصول إلى السيطرة العالمية .

* * *

هذه إذن كانت أهم القواعد التى بنى عليها النازيون صرح النظام الجديد فى أوربا ؛ ومن الواضح أنهم كانوا يعتبرون الجنس الجرمانى أرقى أجناس البشر إطلاقاً وأنقاها دماً . ومن حقه بفضل هذه الرفعة ونقاوة الدم أن يتمتع بالسيطرة على العالم ولا بد للوصول إلى هذه السيطرة من تسخير سواد الأمة الألمانية لخدمة طبقة السادة الممتازين أصحاب الحكم فى الدولة ثم تسخير سواد الشعوب الأوربية وشعوب العالم جميعها لخدمة الجنس الجرمانى وكانت دعامة هذا النظام الجديد ومساك حياته ، الزعامة المسئولة ، أى تلك الزعامة التى كانت مسئولة فى

داخل الريخ عن الشعب الألماني ، وفي خارج الريخ عن بقية شعوب العالم في النهاية . وهي زعامة تقوم على أساس الطاعة العمياء لشخص الزعيم في جميع التنظيمات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في الريخ وفي أوروبا وفي العالم ؛ وأما رسالة الجنس الجرمانى فكانت لا تقتصر على تقويض أركان الحضارة الرومانية المسيحية في أوروبا بل تريد أن تفرض على الإنسانية نوعا جديداً من الحضارة التى عرفوها باسم حضارة الصليب المعقوف أو حضارة الأرض والدم ، الأرض التى تخلق العقول السليمة فى الأجسام السليمة والدم الذى يخول الجنس الجرمانى حق السيطرة العالمية .

* * *

وكان النازيون يعتقدون أنه لا معدى لهم عن إخضاع القارة الأوروبية لسيطرتهم الجرمانية حتى يتسنى لهم أحرار السيطرة العالمية واستندوا فى ضرورة إمتلاك القارة إلى أنه كما تختم عليهم أن يقيموا فى داخل ألمانيا كتلة صلبة متماسكة قوية تمكن الريخ من احتلال ذلك المركز المعدل فى أوروبا ، فانه تختم عليهم كذلك أن يضموا إلى هذا الريخ أرضا شاسعة فى القارة الأوروبية ذاتها حتى يؤلفوا من هذه الممتلكات كتلة أخرى صلبة متماسكة تمكن الجرمانية من فرض سيطرتها الثامة على سائر أنحاء العالم . لأن النازيين كانوا يعتبرون أوروبا مركز العالم أو المحور الذى يشد إليه ويجذب حوله أقاليم الأرض وبلدانها بفضل الروابط التاريخية والثقافية والاقتصادية والصناعية والعسكرية التى ربطت بين أوروبا وكل أقطار العالم .

ولذلك فكر فلاسفة النازيين وجهاذتهم تفكيراً طويلاً عميقاً فى الطرق والوسائل التى يجب أن يتبعوها من أجل « جرمئة » القارة الأوروبية وأسفر هذا التفكير الطويل العميق عن نظرية عرجاء مشوهة هى نظرية « الحكم بحق الدم » ، وهى تكمل فى الحقيقة نظرية « الزعامة المسئولة » ، ومعناها أن تكون السيطرة الحكومية فى جميع البلدان المفتوحة والتى خضعت لقواعد النظام الجديد من نصيب الجنس الجرمانى وحده فيباشروا أبناءه شؤون الحكم بها ويحرم أهلها فى الوقت نفسه من ضمانات القانون الألمانى والأنظمة الألمانية التى وضعت لصون نقاوة الدم والشرف الألمانى . وكان ذلك منشأ الصلة بين هذه النظرية ونظرية الدم السابقة بيد أنه مما تجدر الإشارة إليه أن السادة النازيين ما كانوا يقصدون فى يوم من الأيام تطهير أو تنقية دماء تلك الأجناس الوضيعة غير الجرمانية لانهم امتنعوا عن إدماجها فى الجنس الجرمانى « المبجل » .

وعلى ذلك فقد سلك النازيون عند محاولة « جرمئة » أوروبا طريقين ، فقدميزوا بين المناطق التى يقطن بها جرمانيون أنقياء الدم وما زالت واقعة خارج حدود دولة الريخ الثالث وقتذاك

والمناطق التي تقطن بها شعوب غير جرمانية ، فسموا الأولى (المناطق المفقودة) ، أى تلك التي خسرها الجرمان في العصور السابقة وبات من واجهم أن يعيدها إلى أحضان الجرمانية ويدمجوها في الريخ الألماني بشرطة أن يجرى ذلك من غير إعداد أو تهيئة سابقة فتسرى عليها القوانين الألمانية مباشرة وتخضع بمجرد هذا الاندماج لجميع الأنظمة النازية . وأما عند جرمنة المناطق الأخرى فقد وجدوا من الضروري إجراء إعداد وتهيئة سابقة قبل إدماج هذه المناطق في الريخ الألماني نهائيا . واتبع النازيون في ذلك عملية ذات شبه كبير بما يعرف بنظام الدوائر ذات المركز الواحد ؛ وتفسير ذلك أن النازيين كانوا يبدمون باعتبار الريخ مركزا لدائرة أولى يضم محيطها عدة أقاليم تقطن بها أجناس غير جرمانية فصاروا يعملون لإعداد وتهيئة هذه الأقاليم الواقعة في داخل محيط الدائرة حتى إذا ما فرغوا من ذلك أدمجوها في مركز الدائرة وهو الريخ الألماني واستطاعوا بفضل ذلك أن يؤلفوا من الريخ والأقاليم المندمجة فيه مركزا ثانيا لدائرة أخرى جديدة أجروا بداخلها نفس العملية وهكذا دواليك حتى يتمكنوا من « جرمنة » شطر من القارة الأوروبية قبل أن تنزل بساحتهم الهزيمة .

وكان الأسلوب الذي اتبعه النازيون في تهيئة وإعداد الأقاليم التي أرادوا إدماجها في الريخ الألماني سهلا قوامه ضمان سيادة الجنس الجرمانى أولا ثم ربط هذه الأقاليم بالريخ الألماني ربطا وثيقا من الناحية الاقتصادية على أساس أن يكون الغنم كله في نصيب الألمان والغرم كله واقما على الأهليين الذين صاروا يستخرون في خدمة الريخ . وفضلا عن ذلك فإن النازيين ما كانوا يتورعون عن استخدام جميع الحيل والطرق الشيطانية لإبادة العناصر الأجنبية في الأقاليم التي أرادوا إعدادها قبل إدماجها في الريخ ، فكان من وسائلهم تلك الهجرة الاختيارية التي أسفرت عن « إرغام » اليهود على مغادرة ألمانيا ؛ ثم اقتلاع أسرات بأكملها من مواطنيها بقضها وقضيضها للعيش والعمل في مناطق غربية بعيدة كما فعلوا مع التشيك واليهود في بقية أوروبا ؛ ثم إقفار البلاد من أهلها وسكانها وذلك بمنع النسل أما بالتفرقة بين الزوج وزوجه على غرار ما فعلوا مع البولنديين عندما نقلوهم للعمل الانتاجى في الريخ ، وأما بتعقيم الأفراد تعقيا إجباريا ، أو العمل بنصيحة فلاسفة النازيين أمثال (بانز) Banse و (جونثر) Geunther وغيرهما بمن أشاروا باستخدام الطرق العلمية لتقليل العناصر الأجنبية أو إبادةها وكان غرضهم من ذلك التخلص من البولنديين وإفناءهم ، ومن هذه الطرق قتل المرضى وذوى العاهات بدعوى الإشفاق عليهم من أن تستبدبهم الآلام على نحو ما فعلت ألمانيا مع الأشرار والمعتهين والمرضى الميثوس من شفائهم وغير المرغوب في وجودهم عموما واستطاع النازيون أن يقتلوا حوالى مائة ألف شخص في داخل الريخ نفسه في مدة عامين (١٩٣٩ ، ١٩٤٠)

وتولى هذا العمل الرهيب رجال الجستابو فاختاروا مراكز هذه المجزرة في البلدان الثلاثة الآتية : (جرافنيك) Grafeneck بالقرب من (شتوتجارت) ، (هارثيم) Hartheim و (بيرنا) Pirna بالقرب من درسدن .

وكان من أثر هذه الأساليب الجهنمية أن انتشرت « موجات الانتحار » التي ذهب ضحيتها كثيرون في بلدان أوروبا المقهورة . من ذلك ما جاء في جريدة (لوفوفوطان) البارسية في عدد ١٦ يناير ١٩٤١ أن حوالى نصف سكان بلدة (أبفيل) Abbeville القريبة من ساحل القنال الانجليزى لقوا حتفهم في موجة انتحار غريبة جعلت هؤلاء المتكويين يلقون بأنفسهم في نهر (السوم) أو يختفون من عالم الوجود دون أن يتركوا أثرا وراءهم وقد اتضح بالكشف الطبى على بعض الجثث التي أمكن العثور عليها في النهر أن الوفاة إنما حدثت من جراء ضربات شديدة على الرأس بآلة ثقيلة ، أى أن الوفاة لم تكن بسبب الفرق .

* * *

وقد كسب الألمان الجولة الأولى من معركة السيطرة على أوروبا وفي أثناء الأعوام الثلاثة الأولى من إنتصارهم ظهر كأنما قد توطدت أركان قلعهم الأوربية نهائيا فمضوا يطبقون النظام الجديد في البلدان التي اقتنحوها واحتواها الريخ الثالث ضمن حدوده . وظهر عند تطبيق النازيين هذا النظام الجديد أنه كان يشتمل على ناحيتين إحداها سياسية والأخرى اقتصادية يتمان بعضهما بعضا وهدفهما المشترك فرض السيطرة الجرمانية على القارة الأوربية ، مستندين إلى ذلك التراث التاريخي القديم الذى انحدر إليهم من دولة الجرمان العتيقة ذات السيطرة على أوروبا في العصور الوسطى . وعلى ذلك فقد ارتكزت الفكرة الرئيسية التي قامت عليها « جرمنة » أوروبا على جوهر التنظيم الأوربى في تلك العصور . فقد أنكر النازيون أن العالم الأوربى استطاع خلال القرون العشرة الماضية أن يقطع شوطا بعيدا في تكوينه الاقتصادى والسياسى حتى ظهرت تلك الدول التي جمعها إطار الخريطة الأوربية في عام ١٩٣٩ ، وهى الدول التي بنت وجودها في الحقيقة على قيام (الدولة الوطنية) منذ أن أخذ في التصدع كيان العصور الوسطى السياسى والاقتصادى والاجتماعى في عصر النهضة الأوربية الحديثة ، وعلى وجه الخصوص منذ بزغت شمس القرن السادس عشر . فمن أقوال (الفريد روزنبرج) المشهورة « كانت الدولة الوطنية المثل الأعلى الذى أرادت أن تحققه الثورة الفرنسية . أما الثورة الوطنية الاشتراكية العظيمة (أى الثورة النازية) فقد تمخضت عن مولود جديد ، هو الأمبراطورية الجنسية ولذلك ينبغى أن تزول الدولة الوطنية من الوجود أو تتحول إلى امبراطورية قوامها الجنس وحده . »

ولما كان النازيون ينقمون على الحضارة الأوربية أنها يهودية مادية ويريدون إلزائها ، فقد سهل على الدعاية النازية كخطوة تمهيدية ، وفي سبيل الدعوة إلى السيطرة الجرمانية أن تمجد تراث العصور الوسطى على اعتبار أن الحضارة في تلك العصور بلغت أوجها في الفترة التي ظل الجرمان فيها قوام الإمبراطورية الرومانية المقدسة . فذكرت إحدى صحفهم (Deutsche Allgemeine Zeitung) في عدد ٢٧ يناير ١٩٤١ ، لا نجد نحن الألمان ما ينجحنا من العصور الوسطى ؛ بل على العكس من ذلك كانت تلك العصور فترة من الزمن تثير الإعجاب وتدعو حقاً إلى الفخر بها لأنها أنتجت نوعاً من الحضارة أو الثقافة الممتازة وهذا على الرغم من ذبوع بعض الآراء الطريفة التي نبج الانجليز في الإيحاء بها إلى الأمريكيين عن هذه العصور ، حتى انطبعت في أذهان هؤلاء كأنها حقائق ثابتة . وقبل ذلك ببضعة أعوام ذكر (ملرفان در بروك) Moeller Van Der Bruck في كتابه الذي ظهر عن المانيا وأمبراطوريتها الثالثة ، في عام ١٩٣٤ ، نحن لا نفكر في أوروبا القائمة اليوم لأنها حقيرة وتافهة ؛ ولكننا نفكر في تلك التي قامت بالأمس ، والتي سوف تقوم في الغد بفضل ما يمكن انتشاله وانقاذه منها ! نحن نفكر في المانيا الخالدة على مر الأيام والدهور ! في المانيا القديمة ! أي تلك التي مضى ألفان من الأعوام على ظهورها . وقبل ذلك أيضاً ذكر الاستاذ (بانز) Banse في كتابه عن « المجال والأمة في عالم الحرب » . ان من واجب النهضة الجرمانية أولاً أن تعمل على بعث الروح الجرمانية من الأعماق ثقافياً وسياسياً على أن يكون من غرضها جعل التفكير والحديث والنشاط (أو العمل) جرمانياً خالصاً في الأرض الجرمانية ومن واجبها ثانياً أن تجعل الأرض التي تقطن بها شعوب جرمانية داخلية بأملكم ضمن حدود دولة موحدة قوية لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون الدولة الألمانية المعروفة بمحدودها المرسومة في عام ١٩١٤ .

وفي الواقع أراد النازيون إعادة الخريطة الأوربية إلى ما كانت عليه بين عامي ٩١٨ ، ١٢٦٨ ميلادية أي من وقت قيام أسرة سكسونيا إلى سقوط آل هوهنشتاوفن . فنشروا في كتاب المطالعة الأولية للشعبية الهتلرية خريطة بعنوان « الجرمان يحققون وحدة أوروبا » . وهي خريطة الإمبراطورية الرومانية المقدسة حوالي عام ١٠٠٠ ميلادية أي بمحدودها الممتدة من جنوبي مملكة الدانمرك في الشمال إلى أعلى الحذاء الإيطالي في الجنوب ؛ وتقع في داخل حدود هذه الإمبراطورية الجرمانية كل من دوقية بوهيميا ومارك (أو عواصم) مورافيا والنمسا ودوقية كارينثيا وفريزلند ودوقية اللورين . وكل هذه كانت تقطن بها شعوب جرمانية ؛ وفي شرقي هذه الحدود رسم النازيون دوقية بولندة ثم مملكة هنغاريا ؛ وفي الغرب رسموا مملكة

برجنديا . وقد أظهر النازيون في هذه الخريطة مملكة الدانمرك ودوقية بولندة ومملكة هنغاريا ومملكة برجنديا كدويلات أو إمارات تدين بالتبعية والطاعة للامبراطورية الرومانية المقدسة . هذه إذن كانت الخريطة التي أراد النازيون أن يرسموها للمجتمع الأوربي الحديث لإحياء المجد القديم على حد قولهم أو لتحقيق سيطرة السادة الجرمان على أوربا . وفي السنوات الثلاث الأولى استطاع النازيون إدراك ما أرادوا إلى حد كبير ، ذلك بأنهم أدمجوا في الرايخ الثالث كل المناطق الجرمانية مثل النمسا (التي سميت بالعواصم الشرقية Ostmark) ، والسوديت ودانترج والممر البولندي ، وأقاموا من دانترج والممر البولندي ما أسموه الأقليم أو المقاطعة الشرقية Ostgebiet ، وأسموه كذلك أقليم الملاحظة أو المراقبة Warthegau وعينوا عليه حاكما هو (زعيم الأقليم) Gauleiter ؛ ثم أدمج النازيون أرض (أوبين ومالميدى) Oupen-et Malmédy ، وكانت هذه مقاطعة بلجيكية منذ عام ١٩١٩ ؛ ثم اللورين على أن تكون جزءاً من مقاطعة ألمانية أسموها العواصم الغربية Westmark . فضلا عن ذلك عمد النازيون إلى تهيئة كل من لكسمبرج والإلزاس وشلزيوچ — هولشتين الدانمركية لإدماجها جميعا في الرايخ الألماني واتخذوا من التدابير ما يكفل ذلك فأبعدوا العناصر الأجنبية القاطنة بها كاليهود أو الفرنسيين أو البولنديين ؛ ثم جعلوا (الرايخمارك) العملة المتداولة قانونا في هذه الأقاليم وأدخلوا لكسمبرج والإلزاس واللورين ضمن سياج ألمانيا المجرى وقد مر بنا كيف جزأ النازيون تشيكوسلواكيا وأنشأوا من بوهيميا ومورافيا حكومة واحدة وضعوها تحت الحماية الألمانية . على أن هذه الحماية ، ما لبثت أن أدمجت في الرايخ الثالث ابتداء من أول أكتوبر ١٩٤٠

وكان من أثر الهدنة التي وقعها الألمان مع الفرنسيين في غابة (كومبيين) Compiègne في ٢٢ يونيه ١٩٤٠ أن رسمت خريطة فرنسا على نحو أسفر عن اقتطاع جميع الأراضي التي كانت تقطن بها شعوب جرمانية حوالى عام ٩٠٠ ميلادية ، ثم انضمام هذه الأراضي من الناحية العملية إلى ألمانيا . فقد استرشد النازيون باعتبارات عسكرية واقتصادية معينة عندما احتلوا أقاليم السواحل الفرنسية المطلة على القنال الانجليزي والمحيط الاطلنطي ولكن هذه الاعتبارات وحدها لا تفسر سبب استيلائهم على شبنانيا وبرجنديا وأقليم جبال الجورا الصخرية . ومن السهل معرفة السبب الذي دعاهم إلى احتلال هذه الأقاليم إذا روجعت خريطة (شعوب أوربا حوالى سنة ٩٠٠ م) . وهي خريطة رسمها (شپرد) W. R. Shepherd في أطلسه التاريخي المعروف ؛ إذ يتضح من هذه الخريطة أن النازيين إنما اقتطعوا من فرنسا جميع الأقاليم التي كانت تسكنها شعوب جرمانية حوالى القرن التاسع الميلادي .

ولم يقف النازيون عند ذلك بل إنهم جزأوا يوغسلافيا ، فأنشأوا دولة كرواتيا الجديدة Croatia في مايو ١٩٤١ ورسموها نفس الحدود التي كانت للمملكة كرواتيا القديمة حوالى عام ١٠٠٠ ميلادية ، ثم أدمجوا في الريخ أجزاء يوغسلافيا الأخرى التي كانت تابعة للمملكة الجرمانية أو الإمبراطورية الرومانية المقدسة في ذلك الحين وهى كرينولا Carniola وسلوفينيا . أما بولنده ، التي كانت في القرن العاشر الميلادى تدفع الجزية للإمبراطورية الرومانية المقدسة أى للأمة الجرمانية فقد أراد النازيون أن يقيموا بها « حكومة » على غرار دوقية بولنده القديمة ولم يكن يقطن بها جرمانيون ولذلك فانه بمجرد إخضاعها واقتطاع تلك الأراضي التي اقتسمتها فيما بينها كل من ألمانيا والروسيا وسلوفاكيا ، أنشأ الريخ مما تبقى من أرضها ، الحكومة العامة لبولنده Le Gouvernement Général ، وعين (هانز فرانك) Hanz Frank حاكما عليها ويعد من فطاحل رجال القانون النازيين ، وكان يشغل وقتذاك منصب وزير العدل في الريخ الألماني . ولما كان معروفا أن نظرية نقاوة الجنس الجرمانى تمنع النازيين من محاولة « جرمته » العناصر الأجنبية فقد أصبح من المتوقع أن تظل هذه « الحكومة العامة » بمثابة دولة بولندية يقطن بها إلى جانب البولنديين أولئك اليهود الذين طردهم الألمان من البلاد التي استحوذوا عليها . وخصص النازيون لإقامة اليهود مساحة معيشة عند لوبلين Lublin قرب الطرف الجنوبي الشرقى لهذه « الحكومة العامة » واهتم النازيون بتوثيق الروابط الاقتصادية بين هذه « الحكومة العامة » وألمانيا على أساس استغلال مرافق البلاد لفائدة الريخ وتسخير أهلها في خدمته . غير أنه سرعان ما حدث في ١٥ أغسطس ١٩٤٠ أن أفصح (هانز فرانك) عن نوايا الريخ الجديدة عندما قال « نحن نقيم الآن في هذه البلاد وكجرمانيين لن نغادرها أبداً ، ولذلك فإننا سوف نعامل هذه البلاد في المستقبل كجزء لا يتجزأ من ألمانيا الكبرى ، لاغنى عنه لجمال قوتها (Macht-raum) ولن ينظر إليها على أنها أقاليم محتلة خسب » . وكان مما دعا النازيين إلى تغيير خطتهم الأولى انهم وجدوا من السهل عليهم بعد انتصاراتهم الساحقة في مايو ١٩٤٠ ، أن يتبعوا أسلوب « الدوائر ذات المركز الواحد » من أجل جرمته بعض أجزاء بولنده المتاخمة للريخ ، فأرادوا إنشاء كتلة جرمانية من تلك (الحكومة العامة) التي أسسوها ، وذلك بإقصاء وإبادة العناصر البولندية وغيرها من العناصر التي كانت تقطن بهذا المركز الجديد الذى أرادوا انشاءه فضلا عن التمهيد لإعداد دائرة الحكومة العامة قبل إدماجها في الريخ الألماني وبناء على ذلك ألغى الألمان في ديسمبر ١٩٤٠ « الرعية البولندية » قانونا وأصبح البولنديون في وضعهم الجديد بمثابة « القصّر » أو « المحميين » Schutzgebefohlene ثم مالبث حتى ظهر أثر تطبيق النظام الجديد من الناحية العملية في فرض ضريبة إضافية قدرها

١٥ ٪ يدفعها البولنديون المقيمون في الحكومة العامة ، علاوة تلك الضرائب التي تدفعها الطبقتان الأخريان ، طبقة جرمان الريخ Reichdeutsche ، وطبقة الجرمان الأقرباء Volksdeutsche ، أى أن البولنديين صاروا هم واليهود في مستوى واحد ، وكانت هذه الضريبة الإضافية تدعى ضريبة «الموازنة الاجتماعية» (Sozialausgleichsabgabe) وكان الغرض من ذلك أن يدفع البولنديون الضريبة الإضافية على حد قول النازيين كنوع من التفكير أو التعويض عن ذلك المركز الوضع الذي كانوا يشغلونه بالقياس إلى مركز طبقة الجرمان الرفيعة الشأن ، ولم ينتظر اهتلريون حتى تتم عملية إعداد «الحكومة العامة» لإدماجها في الريخ الألماني نهائيا بل عمدوا إلى تجزئة أرضها إلى إقطاعات أعطيت للنازيين الذي صاروا يؤلفون طبقة «البارونات» على غرار ما حدث إبّان العصور الوسطية. وبما عزز هذا التنظيم الإقطاعي ، أن العلاقة بين الجرمان (النازيين) والشعب البولندي كانت تشبه في جوهرها علاقة السيد برقيق الأرض في إقطاع العصور الوسطى ؛ وفضلا عن ذلك فقد اختار النازيون الموظفين انذين أوفدوهم إلى بولندا لتطبيق (النظام الجديد) بها من حثالة القوم ثم نفتق ذهنهم عن اصطلاح جديد أضافوه إلى معجم اللغة الألمانية ، ترجمته الحرفية « صالح أو لائق للخدمة في بولندا » . Polendiensttauglich وكانوا يطلقونه على كل شخص سىء السمعة يميل إلى الإجرام وإتيان المخازى ؛ فإذا ارتكب أحد الألمان جرما يستحق عقوبة الحبس طبع النازيون على تذكرة تحقيق الشخصية أو بطاقة العمل المعطاة له كلمة « لائق للخدمة في بولندا » أما إذا تكرّر إجرامه ألحق على الفور بالخدمة في بولندا .

وفي الواقع كان هناك عدا ما ذكرنا أدلة كثيرة ، تشير إلى رغبة النازيين في الرجوع بأوربا إلى التنظيم الذي كان سائدا خلال العصور الوسطى على أن المهم في ذلك كله أن هؤلاء النازيين كانوا متأثرين بالاعتبارات التاريخية والسياسية والاقتصادية والعسكرية التي سلف بيانها فأرادوا فتح القارة الأوبية بأسرها : من (نارفيك) شمالا ، إلى بحر إيجه جنوبا حتى يمكنهم إتساع رقعة ممتلكاتهم من امتلاك ذلك المجال الذي عدوه ضروريا لاستمرار حياتهم (Lebens-raum) وقوتهم (Macht-raum) . وقد أدرك هذه الأطماع الظاهرة حلفاء النازيين وأولئك الذين تعاونوا معهم ، فاعترف (موسوليني) في خطاب له في ٢٣ فبراير ١٩٤١ بدخول كل من فرنسا المحتلة وبلجيكا وهولندا ولكسمبورج ، واسكندناوه والدانمرك في نطاق النفوذ الألماني . وكان هناك ميدان واحد فحسب يستطيع أن يجد فيه مجالا للتوسع

حلفاء النازيين والمتعاونون معهم من أمثال إيطاليا وأسبانيا ولم يكن هذا الميدان سوى القارة الأفريقية .

* * *

إما وقد أفلح النازيون إلى حد كبير في تحقيق حلم العصور الوسطى ورسموا للقارة الأوروبية تلك الخريطة التي تمكنهم إنتصارهم من تخطيطها فإن معرفة النتائج التي أسفر عنها تطبيق النظام الجديد في البلدان المفتوحة من شأنه أن يبين مقدار مالحق بالشعوب المقهورة من أذى جسيم في عهد السيطرة النازية إذ أن تطبيق النظام الجديد من الناحية الاقتصادية خاصة كان معناه سلب الشعوب المغلوبة ونهب كنوزها وتجريدها من وسائل العيش وحرمانها حق الحياة في أمن واستقرار وقد اتبع النازيون عدة أساليب شيطانية حتى يكسبوا سرقاتهم الصبغة القانونية كابتكار ما أسموه سياسة الريخمارك وإصدار أوراق نقد معينة وسك قدر من العملة الصغيرة كي يستخدمها الجنود الألمان في البلدان التي افتتحوها ثم المطالبة بنفقات الاحتلال الألمانى في أوروبا المحتلة ، هذا عدا أعمال السلب والنهب سافرة كانت أو مقنعة مما يدخل في قائمة الأسلاب والمغانم .

وكان المقصود من سياسة الريخمارك أن يصبح المارك الألماني Reichmark العملة المتداولة قانونا في جميع البلدان التي خضعت لسيطرة النازيين . وذلك حتى يسلب النازيون الشعوب المغلوبة على أمرها وينهبوها . فقد عمد النازيون إلى وضع سعر (المارك) حسب مشيئتهم وأهوائهم يرفعون قيمته أو يخفضونها تبعاً لما كان عليه سعر العملة المحلية في البلدان المفتوحة فتجدهم مثلاً في هولنده ولكسمبرج وأوبين وما لميدى وغيرها يرفعون سعر المارك بدرجة عظيمة حتى تصبح العملة المحلية رخيصة بالقياس إلى الريخمارك مع أنها كانت في تلك البلدان ذات قيمة أعلى من قيمة المارك الألماني قبل الغزو النازي . وفي البلدان التي أدبجها النازيون مباشرة في الريخ الثالث مثل داننبرج والنمسا وغيرها خفض هؤلاء سعر المارك الألماني حتى تصبح قيمته متساوية مع قيمة العملة المحلية وكان سعر هذه العملة أقل من سعر الريخمارك قبل الفتح الألماني . وما هو جدير بالذكر أن رفع الريخمارك وخفضه كان من حيث الشكل عملاً قانونياً لا غبار عليه .

وكان المقصود من خفض سعر الريخمارك صون العلاقات التجارية والاقتصادية واستقرار هذه العلاقات بين البلدان التي أراد النازي إدماجها في الريخ وبين الريخ نفسه ؛ أما في غير ذلك من البلدان التي كانوا لا يريدون إدماجها في الريخ فأنهم كانوا يقصدون من رفع سعر الريخمارك إعطاء الفرصة للألمان حتى يتمكنوا من شراء منتجاتها بأبخس الأثمان فضلاً عن

استطاعهم أن يبيعوها المنتجات الألمانية بأثمان باهظة ؛ أضف إلى هذا أن بعض هذه البلدان التي قصد النازيون أن ينهبوها كان يقطن بها عناصر أجنبية كالبولنديين في (وارتجو) Warthegau والبلجيكيين والفرنسيين في لوكسمبورج والبلجيكيين في (أوبين وملبيدي) وكان هؤلاء يمتلكون الشطر الأكبر من ثروة هذه البلاد المادية والنقدية وعلى ذلك أعطى رفع الريخمارك الفرصة للنازيين حتى يفتصبوا لأنفسهم تلك الثروة بأقل ثمن ممكن ؛ وعلاوة على ذلك فإنه لم يكن يقصد من وضع سعر للريخمارك على هذا النحو الاستيلاء على السلع والمنتجات والغلات الزراعية لحسب بل تمكين الألمان على وجه الخصوص من شراء أسهم الشركات والمؤسسات الصناعية والمالية بأثمان بخسة أى الاستيلاء على شطر كبير من رؤوس الأموال منقولة كانت أو ثابتة كخطوة لاغنى عن اتخاذها في تلك البلدان المفتوحة تمهيداً لفرض سيطرة الجerman الاقتصادية على أوروبا بأجمعها في النهاية .

وقد ظهر أثر وضع سعر للريخمارك في التبادل التجارى كذلك بين الريخ الألماني وتلك البلاد التي خضعت لسلطان النازيين . فمن المعروف أن التجارة الدولية تؤثر دائماً في سعر العملة بمعنى أنه إذا زادت صادرات دولة عما تستورده نتج عن ذلك (فائض) في ميزانها التجارى واعتبر ذلك في صالحها كما أنه ينهض دليلاً على أن السعر يرتفع في الدولة المستوردة عما هو عليه في الدولة المصدرة ؛ وفي ظروف التجارة الدولية العادية ، تسعى الدول التي زادت وارداتها على صادراتها من أجل إعادة الموازنة وإزالة هذا (الفائض) باتخاذ وسائل شتى معروفة من أهمها محاولة زيادة الصادرات وعقد القروض الخارجية والدفع من أرصدة الذهب وغير ذلك . ولكن التبادل التجارى بين الريخ الثالث والبلدان المفتوحة كان يخضع لقواعد أخرى .

فقد عمد النازيون من أيام الفتح الأولى إلى استنزاف جميع منتجات الدول المغلوبة على أمرها لحاجتهم إلى هذه المنتجات صناعية كانت أم زراعية فعظمت صادرات الدول المفتوحة إلى الريخ دون أن تستطيع استيراد شيء يذكر من ألمانيا ونجم عن ذلك أن صار لهذه الدول كافة (فائض) لمصلحة ميزانها التجارى أى أن الريخ الألماني أصبح — بمعنى آخر — مديناً لهذه الدول بمبالغ طائلة . حتى لقد بلغ دين الدانمرك على الريخ الثالث حتى يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٤١ ٨٤٩ مليون كرونر وهذا فضلاً عن قروض من نوع آخر نشأت من قيام الدانمرك بنفقات الاحتلال الألماني لبلادها وقد بلغت هذه النفقات حتى ٣١ ديسمبر ١٩٤١ حوالى ٩٠٧ مليوناً أى أن الاحتلال الألماني كلف هذه البلاد مدة عام ونصف ما يزيد على ١٧٠٠ مليون كرونر . وفى أول يناير ١٩٤٢ بلغ دين الدانمرك على ألمانيا ٢٠٠٠ مليون كرونر .

ومع هذا فقد منع الألمان تلك الدول « المصدرة » التي ظلت دائنة للريخ بأموال طائلة من أن تستورد من دولة أدولف هتلر شيئاً من تلك السلع والمتاجر اللازمة لها والتي كان لا غنى عن استيرادها حتى تتعادل كفتا الميزان التجارى بين الريخ وهذه الدول المغلوبة على أمرها من جهة ، وحتى تستخلص هذه الدول ما كان لها من ديون جسيمة على ألمانيا من جهة أخرى . وقد ابتكر شيطان النازى وسيلة أخرى للإمعان فى نهب الأمم المقهورة إذ صار الريخ يتمتع عن دفع أثمان السلع المصدرة إليه بدعوى عدم إخراج العملة الألمانية من الريخ واعتراض عن ذلك بأن صار يطلب إلى البنوك المركزية فى البلدان المفتوحة أن تقوم بسداد المطلوب من الريخ لحساب تلك البلاد على شريطة أن يكون الدفع بالعملة المحلية الوطنية نفسها فلا يكون السداد بالريخأرك الألمانى . ولما كانت قيمة الريخأرك تزيد كثيراً على قيمة العملة المحلية حسب السعر الحكومى فى البلدان المنهوبة فقد ترتب على ذلك أن أضحت الأثمان التى يدفعها النازيون للسلع والمتاجر المصدرة إليهم بخسة ضئيلة وعلاوة على ذلك كان معنى تكليف البنوك المركزية بالدفع من الناحية العملية خصم هذه الأثمان من حساب نفقات الاحتلال الألمانى التى فرضوها على البلدان المختلفة وبفضل هذه الأساليب المتتوية صار الألمان يستولون على منتجات البلاد المقهورة ، دون أن يدفعوا شيئاً من أثمانها ؛ ولا جدال فى أن هذا العمل كان ضرباً من السرقة يسترته قناع قانونى زائف .

وكان من خطط النازيين عند فرض السيطرة الجرمانية الاقتصادية على أوروبا اتخاذ برلين مركزاً للتجارة الأجنبية فى هذه القارة حتى تحتل ذلك المركز الممتاز الذى استتمعت به لندن فى عالم الاقتصاد والمال قبيل الحرب الأخيرة فأصروا على أن تجرى المعاملات التجارية والمالية بين أية دولة وأخرى عن طريق برلين دائماً ؛ مثال ذلك أنه إذا كان أحد الهولنديين مديناً بمبلغ من المال لشركة بلجيكية فإنه يستحيل عليه أن يسدد حسابه بالدفع رأساً إلى الشركة البلجيكية ، بل صار حتماً عليه أن يدفع هذا الدين بالريخأرك إلى مؤسسة معينة أنشأها الألمان فى برلين لمباشرة جميع العمليات التجارية والمالية الخاصة ببيعها فتتولى هذه المؤسسة الدفع بالريخأرك إلى الشركة البلجيكية ؛ أما ما كان يحدث فعلاً فهو أن تكلف هذه المؤسسة (البنك المركزى) فى بلجيكا بأن يقوم هذا البنك بعملية الدفع من حساب نفقات الاحتلال بالطريقة التى سبق بيانها . أضف إلى ذلك أن الألمان كانوا يحتمون على الدول المحتلة التى تتبادل التجارة فيما بينها أن تودع برلين مبلغاً من الريخأرك يرصد لحسابها ويستخدم فى أعمال التصفية التجارية ؛ ويتكون هذا الرصيد بسبب إرغام هذه الدول على تصدير منتجاتها إلى الريخ ومطالبتها بتأدية خدمات مالية معينة وأجبارها على إعطاء ضمانات من الذهب والسندات

وما إلى ذلك من وسائل أخرى بيد أن هذه الدول ما كانت تحصل على شيء من الريخ في مقابل إنشاء هذا الرصيد ذلك بأن الريخ درج دائماً على الدفع عن طريق البنوك المركزية بالأساليب التي سبق ذكرها ؛ على أن الريخ إلى جانب ذلك كله كان يحصل على عمولة كبيرة في نظير قيامه بهذه العمليات المالية والتجارية بين الدول . فكان من نتائج ذلك كله أنه أصبح من المتعذر على أية دولة من الدول التي خضعت لسلطان النازيين أن تنظم شؤون حياتها الاقتصادية على النحو الذي كانت تقضيه مصالحها أو بما يمكنها على الأقل من مواجهة مطالب الألمان الاقتصادية والمالية المرهقة .

وثمة ترتيب آخر ابتكره النازيون لصرف مرتبات جنودهم في البلدان المحتلة . فقد اخترعوا ما أسموه « سندات إذنية عسكرية » *Wehrmachtspverpflichtung* ، وكانت هذه من فئات كبيرة (٥٠,٠٠٠ ريخمارك فما فوق) وتحمل تعهداً بدفع قيمتها . وقصر التعامل بهذه السندات الإذنية العسكرية على البلدان التي تصدر فيها ومنع التعامل بها في داخل الريخ نفسه كما أنه تعذر تحويلها إلى الماركات الألمانية بالرغم من أن القيمة المدونة بها كانت بالريخمارك . ثم طبع النازيون أوراق بنسكوت أسموها أوراق مكاتب أو بنوك الإقراض الألمانية *Reichskreditkassenschiene* ومهمة هذه المكاتب أو البنوك إصدار أوراق البنسكوت من الفئات الصغيرة (٥٠ ، ٢٠ ، ١٠ ، ٥ ، ٢ ، ١ ، ٥٠) ريخمارك) علاوة عن سك عملة نقدية صغيرة للعمليات اليومية وكان من المتعذر كذلك التعامل بهذه الأوراق والنقود خارج المنطقة المحتلة التي كانت تصدرها ومن باب أولى الريخ نفسه . على أنه مما تجدر ملاحظته أن تلك السندات الإذنية وأوراق البنسكوت ما كانت في الحقيقة إلا وسيلة لإقراض مبالغ معينة للجنود الألمان تمكّنهم من شراء منتجات البلدان المحتلة ، وذريعة يتخذها الريخ للامتناع عن صرف مرتبات الجنود بالعملة الألمانية حتى لا تنتقل العملة الألمانية إلى البلدان المفتوحة أو تنفق بها ؛ وفضلاً عن ذلك أرغمت (البنوك المركزية) في البلدان المحتلة على قبول هذه السندات الإذنية أو البنسكوت والنقود وتحويلها إلى عملة محلية على أن ترصد في مقابل ذلك السندات الإذنية العسكرية وغيرها لحساب الريخ الختامي فتخصم قيمتها من نفقات الاحتلال ووعده النازيون بتسوية حساباتهم في آخر الأمر مع البلدان المحتلة عند انتهاء الحرب . وبلغت قيمة ما أصدرته البنوك المتنقلة في بولنده في العامين الأولين من الاحتلال ١٠٠٠ مليون ريخمارك وفي الترويج والدانمرك ٥٠٠ مليون ، وعندما امتدت الحرب إلى الأراضي المنخفضة صدر قرار في ١٥ مايو ١٩٤٠ أجاز لتلك البنوك إصدار أو « إقراض » ما قيمته ٣٠٠٠ مليون ريخمارك لقوات الاحتلال النازية وهيئاتها في الدانمرك والترويج وهولنده وبلجيكا ولكسمبورج وفرنسا ،

فبلغت قيمة ما صدر حتى أواخر عام ١٩٤١ في جميع البلدان المحتلة — ماعدا تشكوسلواكيا — ٤٠٠٠ مليون رينخارك أو حوالى ٣٤٠ مليون جنيه إنجليزى . ولم يكن إصدار هذه السندات الإذنية وما إليها يستند إلى غطاء كاف من الذهب أو غير ذلك من الضمانات الثابتة ، ثم ما لبثت كمية الأوراق والعملة المتداولة أن زادت ولكن اختفت من الأسواق السلع والمنتجات ، لأن الألمان كانوا يستولون عليها أولا بأول مما أدى إلى تضخم فى النقد كبير ، ارتفعت بسببه أثمان الحاجيات ارتفاعاً فاحشاً جعل الشعوب المقهورة وقتذاك تعيش فى ضنك وبؤس شديدين .

وكانت (نفقات الاحتلال الألمانى) من وسائل السلب والنهب التى تفتقت عنها أذهان النازيين فقد استغلت الدعاية النازية فى البلدان المحتلة مسألة تعويضات الحرب التى فرضها الحلفاء على ألمانيا المهزومة فى أعقاب الحرب العالمية الأولى وطفق دعائهم يتحدثون عن تلك الأضرار البليغة التى أصابت بلادهم بسبب هذه التعويضات ثم أخذوا يطمثون ، الدول المقهورة بأنهم بالرغم من انتصارهم لا يريدون أن يفرضوا أية تعويضات من ذلك النوع عليها بل يكتفون عوضاً عن ذلك بتحصيل النفقات التى يسببها احتلال الجنود الألمان لبلادهم حتى إذا وضعت الحرب أوزارها لم يعد للرينخ وجه للبطالية — كما فعل الحلفاء فى الحرب السابقة — بأية تعويضات عند عقد الصلح النهائى . ولم يكن ذلك كله إلا وعوداً كاذبة لأن الغرض من نفقات الاحتلال كما فرضها الألمان على البلدان المحتلة إنما كان مجرد السلب والنهب . ذلك بأن النازيين لم يقدروا قيمة نفقات الاحتلال على أساس ما كانت تستطيع أن تدفعه البلدان المفتوحة دون إرهاب لمواردها أو تعطيل لمرافقتها وإنتاجها ؛ بل أنهم لم يحاولوا اتخاذ مايتكلفه جند الاحتلال الألمانى من نفقات معتدلة كانت أم فادحة أساساً لتقديرهم وإنما قدر النازيون نفقات الاحتلال على أساس ما كانت الدول قبيسل انهارها قد خصصته من أموال فى ميزانياتها للدفاع عن سلامتها فى أثناء الحرب مع العلم بأن النفقات المخصصة للدفاع فى أوقات الحروب إنما هى نفقات غير عادية ويستلزم تقديرها تقليل المصروفات فى أبواب الميزانية الأخرى . وعلى ذلك كانت نفقات الاحتلال التى طلبها النازيون جسيمة مرهقة بلغت نسبتهما فى فرنسا مثلاً ١٤٠ ٪ من مجموع ميزانية الحرب فى عام ١٩٣٩ ، وفى بوهيميا ومورافيا حوالى ١١٤ ٪ من مجموع ميزانية الحرب فى تشيكوسلوفاكيا للعام نفسه وهكذا كان الحال فى سائر البلدان المحتلة ؛ ويتبين جسامه ما نهبه الألمان بسبب نفقات الاحتلال هذه إذا وقفنا على حقيقة التعويضات التى أرغمت ألمانيا على دفعها بعد صلح فرساي ، فقد بلغ مادفعته إلى الحلفاء المنتصرين فى الحرب العالمية الأولى ١٠ بليون مارك تقريباً فى مدة سبع سنوات بين عام ١٩٢٤ ، ١٩٣١ ، وذلك

عندما كان الاتفاق الخاص بالتعويضات ما يزال سارياً ؛ وسكن الألمان استطاعوا أن يجمعوا من فرنسا وبلجيكا وهولنده والدانمرك والنرويج وتشيكوسلوفاكيا ورومانيا في سنة واحدة من سنوات سيطرتهم على أوروبا حوالى ٧ أو ٨ بليون مارك . أى أنهم جمعوا في عام واحد حوالى ٨٠ ٪ مما دفعه الألمان من « تعويضات » كانت موزعة على سبع سنوات بل إن التعويضات التى دفعها ألمانيا إلى فرنسا فى خلال هذه السنوات السبع كانت أقل من ٤ بليون مارك . أما النازيون فقد استمروا حتى نهاية الحرب يحصلون مثل هذا المبلغ من فرنسا كل ستة شهور كنفقات احتلال . وبما يجدر ذكره أن ألمانيا فى سنوات التعويضات السابقة (١٩٢٤ - ١٩٣١) استطاعت أن تعقد قروضاً خارجية بلغت ٢٥ بليون مارك ، أى ما يزيد على ما دفعته هى من تعويضات مرتين ونصف مرة . من المعروف أن ألمانيا لم تسدد معظم هذا الدين بل رفضت أن تدفع التعويضات بعد عام ١٩٣١ وزيادة على ذلك منع النازيون فى ظل نظامهم الجديد الدول المحتلة من أن تعقد أية قروض ؛ وظلت ألمانيا متمسكة بنفقات الاحتلال حتى وقت انهيارها .

غير أن كل هذه الوسائل لم تكن كافية لسد جشع النازيين ونهمهم ، فلجأوا إلى حيل أخرى لابتزاز الأموال واغتصاب ثروة البلدان المقهورة وكان من أساليب النهب والسلب التى درجوا عليها مصادرة أملاك العدو ، وقد بلغت قيمة هذه الأملاك فى بولنده مثلاً ١٠٠ مليون جنيه إنجليزى - والاستيلاء على رؤوس أموال الأعداء المستثمرة فى البلدان التى احتلها النازيون : وقد بلغت قيمة رؤوس الأموال البريطانية وحدها حوالى ٢٥٠ مليوناً من الجنيهات الانجليزية ؛ والاستيلاء كذلك على أملاك اليهود ومصادرة ثرواتهم وكانت قيمتها فى الرينخ الثالث وحده تتراوح بين ٢٥٠ ، ٥٠٠ مليون جنيه إنجليزى وفى تشيكوسلوفاكيا حوالى ١٢٥ مليون جنيه إنجليزى ؛ هذا إلى مصادرة أموال الجمعيات أو الهيئات التى اعتبرها الرينخ معادية له على غرار ما فعلوا فى هولنده بمقتضى قرار أصدره فى ٦ يوليه ١٩٤٠ - وبجانب هذا كله فرض النازيون الغرامات على المجالس البلدية والسلطات المحلية فى المدن ، مثال ذلك إنهم فرضوا على بلدة (تروندهيم) Trondheim فى النرويج غرامة قدرها ٦٠,٠٠٠ كراون أو ما قيمته ١٣,٠٠٠ دولار ، نظير ما بدا منها من العداء نحو الجنود الألمان ، كما فرضوا على (لهای) فى هولنده مبلغ ٦٠,٠٠٠ جلدرد أو ٣٠,٠٠٠ دولار مقابل إتلاف ثلاث سيارات عسكرية ألمانية كانت متروكة على قارعة الطريق ؛ وعلى مدينة باريس ٢٠ مليوناً من الفرنكات أو ٤٠٠,٠٠٠ دولار . لأن أحد الأفراد رفع العلم البريطانى فوق أحد الفنادق بدلا من علم الصليب المعقوف ؛ وعلى (أورليان) بفرنسا مليوناً من الفرنكات لتعطيل

أسلاك التليفون ثم تسكرت الغرامة ثلاث مرات وللسبب نفسه أجبرت المدن النرويجية (ستافنجر) Stavanger و (روجالنسد) و (هوجيسند) على دفع غرامات بلغ مجموعها ٥٠٠,٠٠٠ (كراون) .

ولم يكن هذا كل ما نهبه النازيون من البلدان المحتلة . فقد استولى الألمان بمقتضى اتفاقات الهدنة التي عقدها مع البلدان المغلوبة على أسلاب كثيرة كما أنهم ما لبثوا حتى صادروا الذهب المودع بالبنوك ، فبلغ مقدار ما جمعه حتى أواخر عام ١٩٤١ حوالى ٩٠ بليون مارك أو ٣٦ بليون دولار أو ٩٠٠٠ مليون جنيه انجليزي . وهذا المبلغ بالذات على حد قول الهر هتلر فى سبتمبر ١٩٣٩ ، يساوى كل ما أنفق على التسليح فى ألمانيا منذ أن وصل النازيون إلى الحكم فى بداية عام ١٩٣٣ إلى وقت سيطرتهم على أوروبا .

* * *

ولم تقف أعمال السلب والنهب التى انطوى عليها النظام الجديد عند هذا الحد فقد عمدوا إلى نقل الآلات وأدوات الصناعة بله المعامل برمتها من البلدان المفتوحة إلى الريخ الألمانى ؛ وإرغام (العمال) على الهجرة إلى ألمانيا والعمل فى مناجمها ومصانعها وحقولها ؛ ذلك بأن الألمان كانوا قد أنشأوا منذ ١٩٣٥ ما أسموه (الوحدات المتحركة الاقتصادية) ووضعوها تحت إشراف الجنرال (توما) أحد قوادهم ، وكانت مهمة هذه الوحدات فى وقت السلم أن تقسم ألمانيا إلى « أقاليم دفاعية » (Wehrkreise) بلغت ثمانية عشر أقلية وذلك لتعبئة النشاط الاقتصادى فى البلاد استعداداً للحرب ؛ حتى إذا نشبت فعلاً أصبحت مهمة هذه الوحدات المتحركة أن تنقل أدوات الصناعة وآلاتها من المناطق المعرضة للخطر فى داخل الريخ نفسه إلى أماكن أكثر أمناً وكذلك نقل أدوات الصناعة من البلدان المفتوحة إلى الريخ الألمانى ، وقد نجم عن هدم المصانع ونقل آلاتها إلى ألمانيا أن انتشرت البطالة فى البلدان المحتلة وحرّم ملايين العمال وسائل العيش فى بلادهم . وابتدع النازيون لحل مشكلة البطالة الطارئة ، علاجاً ، زاد من بؤس الشعوب المحتلة ، ذلك بأن النازيين كانوا فى حاجة مستمرة إلى الأيدي العاملة لإدارة ومواصلة الإنتاج الحربى فعمدوا إلى إرغام العمال المتعطلين فى بلادهم على « الهجرة » إلى ألمانيا للعمل بمصانعها ، وابتكروا وسيلة شيطانية لإحصاء هؤلاء العمال المتعطلين وإجبارهم على الذهاب إلى ألمانيا وذلك بأن سلطات الاحتلال النازية ما لبثت حتى ألزمت العمال العاطلين أن يقيسوا أسمائهم بسجلات مكاتب العمل نظير إعطائهم (بطاقة بطالة) يتألون بمقتضاها مكافأة معينة يعترضون بها عما كان يدفع لهم من أجور فى أثناء العمل ؛ وكان العمال لا يستطيعون الحصول على المقادير المخصصة لهم ولأمراتهم من المؤن والأغذية إلا إذا أبرزوا هذه البطاقات

إلى جانب بطاقات التكوين العادية المعطاة لهم ، غير أن السلطات النازية كانت تشتري في الوقت نفسه أن يجد العمال المتعطلون عملاً دائماً في زمن قصير ، وكان ذلك مما يستحيل تنفيذه للأسباب التي بسطناها . وعلى ذلك كان يطلب إلى هؤلاء العمال إما أن يرضوا بالذهاب إلى ألمانيا وإما أن تسحب منهم بطاقات البطالة فإذا رفضوا السفر إلى ألمانيا كان من السهل بعد ذلك على مخازن البيع الحكومية أن تتذرع بشتى الوسائل حتى لا تصرف مقادير التكوين المخصصة للعامل وأسرته . ولم يكن للعامل أراء ذلك إلا أن يقبل الذهاب إلى ألمانيا حتى يطرد شبح الجوع عن نفسه وذويه . وقد ذكرت الإحصاءات الرسمية الألمانية أن عدد العمال الأجانب في ألمانيا حتى ١٢٧ أكتوبر ١٩٤٠ بلغ ١,٦٠٠,٠٠٠ منهم حوالي ٥٠٠,٠٠٠ من أسرى الحرب . وفي يناير ١٩٤١ بلغ عددهم ٢,٠٠٠,٠٠٠ . وكان لا يدخل في عدادهم التشيك لأن العمال من التشيك صاروا لا يعدون من الأجانب بعد إدماج (حماية بوهيميا ومورافيا) في الرايخ الألماني منذ أول أكتوبر ١٩٤٠ ثم زاد عدد العمال الأجانب في الرايخ بعد أن وافقت إيطاليا في فبراير ١٩٤١ على إرسال ٣٢٠,٠٠٠ عامل إلى ألمانيا ، وكان من أثر حملة الألمان في بلاد البلقان أن أسر الألمان حوالي ٥٠٠,٠٠٠ من يوغوسلافيا أرسلوا منهم للعمل في الرايخ ٢٥٠,٠٠٠ ؛ وكذلك جمع النازيون من مملكة كرواتيا الجديدة ٥٠,٠٠٠ عامل وبلغ عدد الأسرى من البريطانيين واليونانيين الذين أرسلوا للعمل في ألمانيا ٢٣٠,٠٠٠ . فكان عدد الأجانب المشغولين في ألمانيا حتى صيف ١٩٤١ بين ٢,٧٠٠,٠٠٠ و ٣,٠٠٠,٠٠٠ رجل يضاف إليهم عدد من التشيك وأسرى الحرب الذين كانوا يشتغلون بعض الوقت فقط

وكان هؤلاء جميعاً يعملون في ظروف قاسية مرهقة إذ أن متوسط ساعات العمل في الأسبوع الواحد بلغت حوالي ستين ساعة على أقل تقدير وكان العمال يقيمون في ثكنات ثم طلب إليهم أن يدفعوا من أجورهم الضئيلة نفقات السكن والطعام عدا بعض الضرائب المحلية والتأمين ضد المرض والحوادث وما إلى ذلك . وأما إذا استطاع العامل بعد هذا كله أن يرسل شيئاً من المال لمساعدة أسرته فإن حكومة الرايخ كانت تستولى على ما يرسله ثم تكلف بتوك الدول المحتلة بدفع ما تساويه هذه المبالغ من العملة المحلية .

ولعل أقصى ما في هذه المسألة أن الألمان كانوا يرسلون هؤلاء العمال الأجانب إلى المناطق المعرضة لغارات الطائرات البريطانية ، وقد ذاق العمال الدانمركيون الأمرين بسبب اشتغالهم في مصانع وأحواض (لوبيك) و (همبورج) وغيرها . بل أن الألمان ما كانوا يسمحون بوقف العمل حتى في أثناء الغارات وهلك بسبب ذلك عدد عظيم من العمال الهولنديين بميناء (همبورج) في إحدى الغارات الشديدة في نوفمبر ١٩٤١ . أما النازيون فقد فسروا هذه الكارثة بقولهم « إن هؤلاء العمال كانوا متعبين إلى حد لم يدع لأحد منهم فرصة لمقادرة المسكن والالتجاء إلى الخافي . . »

الفصل الثالث

أوروبا « الحرة »

طبق (النظام الجديد) أول ما طبق في البلدان المحتلة وكان ينطوي على ضروب من السلب والنهب حرص النازيون على أن يصبغوها بصبغة قانونية ولذلك فقد بات من المتوقع ألا تخضع الشعوب المهزومة لسيطرة النازيين ، وأن تعمل على تقويض أركان النظام الجديد الذي فرضه الألمان عليهم بشتى الطرق ؛ وقد سبق القول أنه كان من أهداف الدعاية النازية استمالة بعض العناصر في البلدان المحتلة إلى التعاون مع النازيين في سياسة النظام الجديد بدعوى المساهمة في تشييد صرح ذلك العالم المثالي الذي يكفل تحت زعامة الريخ الثالث كل طمأنينة وعيش سعيد للشعوب الأوروبية كافة . ومع أن النازيين قصدوا من هذه الدعاية دعم السيطرة الجرمانية على أوروبا ، ثم على العالم أجمع ؛ ومع أن تطبيق النظام الجديد أسفر قبل كل شيء عن نهب هذه الشعوب المهزومة وتسخيرها في خدمة «السادة» الألمان ، فقد أفلح النازيون في تصيد طائفة من المغامرين الذين قبلوا التعاون معهم في كل بلد فتحوه . فقد وجدوا في فرنسا أنصارا يؤيدونهم بزعامة (لاغال) و (دارلان) ومارسيل ديا Déat ؛ ثم في النرويج الميجر فيدكون كويسلنج Vidkun Quisling ؛ وفي تشيكوسلفا كيا الكولونيل مورافيش Moravec والدكتور فوسيك Fousek وغيرهما ؛ في يوغسلافيا الجنرال نديش Nedić (عن سربيا) والدكتور بافليش Pavélic (عن كرواتيا) ؛ وفي هولندا الدكتور مسرت Mussert ؛ ثم في الدانمرك كلا من فريتز كلوسن Frits Clausen ، والدكتور سكفينوس Scavenius (وزير الخارجية) وبيترسن Petersen (وزير العدل) ؛ ثم في اليونان تسولا كجلو

· Tsolakoglu

غير أنه إذا استثنينا فرنسا حيث كان يحاول المارشال (بيتان) و (لاغال) و (ديا) استمالة شطر كبير من الشعب الفرنسي للتعاون مع الريخ الثالث ، لأصبح عدد الكويسلنجيين في كل بلد من البلدان المفتوحة والمحتلة لا يزيد في الحقيقة على ٥ ٪ من مجموع سكانها بل إن هذه النسبة تقل كثيرا في بولندا وتشيكوسلفا كيا وسربيا واليونان والنرويج ودول البلطيق فلا يزيد في هذه الدول عدد المتعاونين مع النازي على ١ ٪ من السكان . وفي بولندا على وجه الخصوص لم يستطع النازيون استمالة أحد إليهم ، فلم يجدوا بها غير الألمان الأقارب

Volksdeutsche على استعداد لمؤازرتهم . والاوكرانيون وحدهم هم الذين كانوا يميلون إلى التعاون مع الهر هتلر .

ولذلك لم يكن سواد الشعب في هذه الدول المغلوبة على أمرها يوماً من الأيام قانعاً بالعيش الذليل في ظل الاستغلال النازي المرهق ، والأدلة على ذلك متوفرة ، فهناك الصحف النازية نفسها في الريخ وفي البلدان المحتلة والمفتوحة كانت تشكو من الشكوى من امتناع الشعوب المقهورة عن التعاون مع الريخ في دعم أركان النظام الجديد ؛ كما كانت هذه الصحف تنشر بعض أخبار المقاومة المنظمة لتعطيل الإنتاج الإقتصادي على وجه الخصوص ؛ ثم هناك الأخبار والنشرات التي كانت تتسرب إلى العالم الخارجي ؛ هذا إلى جانب ما يقصه عدد من سعداء الحظ الذين أفلتوا من معسكرات الاعتقال أو من قبضة الجستابو المملخة بالدماء .

ومن هذه المعلومات كافة يتبين أن مقاومة هذه الشعوب المقهورة كانت على نوعين : إيجابية وسلبية .

فقد اهتم الغزاة الألمان دائماً من بداية الفتح ، في البلدان التي سقطت في قبضتهم بتجريد الجيوش الوطنية والمدنيين من الأسلحة لأن النازيين الذين يعرفون حق المعرفة مقدار كراهية هذه الشعوب المغلوبة لهم لم يطمئنوا إلى العيش بين وطنيين مسلحين . ولذلك تشدد النازيون في جمع الأسلحة وكثف الجستابو ورجال الشرطة بهذه المهمة ؛ ووقع النازيون عقوبة الإعدام فوراً في البلدان المفتوحة على كل ممتنع عن تسليم ما لديه من أسلحة وذخيرة . ومع ذلك أخفق النازيون فيما أرادوا إخفاقاً ملبوساً . إذ استطاع أهل الدول المهزومة إخفاء عدد لا يستهان به من الأسلحة سرعان ما ظهر أثرها في حوادث الاغتيال المتكررة التي ذهب ضحيتها كثيرون من الألمان ومن صنائعهم الذين قبلوا التعاون معهم . ومع أن الألمان عمدوا إلى اتباع طريقة أخذ الرهائن ثم إعدام المئات منهم عند وقوع حوادث الاغتيال ، فإن هذه القسوة لم تفد شيئاً في ردع الوطنيين أو تخفيف وطأة هذا النوع من المقاومة الإيجابية . بل إن هذه البلدان المفتوحة والمحتلة سرعان ما أصبحت مراكز شديدة الخطر للمقاومة الإيجابية ضد السيطرة النازية .

وكان تنظيم أول مراكز المقاومة الإيجابية في تشيكوسلوفاكيا ، وسبب ذلك أن حكومة هذه البلاد أدركت من أيام (ميونخ) المعروفة أن الحرب لا عمالة واقعة ، وأن الوطن سوف يسقط عاجلاً أو آجلاً تحت نعال الألمانين ، وأن الاحتلال الأجنبي لبلادهم سوف يطول أمده فعمدت الحكومة منذ سبتمبر ١٩٣٨ بوضع الإرشادات والتعليقات المفصلة لتوضيح ما ينبغي أن يقوم به أهل البلاد من ضروب المقاومة ضد العدو في المستقبل ، وبعد انهيار

الجيش التشيكوسلواكي . وكان أهم ما عني به التنظيم الحكومي السري التأكد من وجود أكبر مجموعة ممكنة من الأسلحة الحديثة لدى الأهالي ، كالبنادق والمدافع الرشاشة وغير ذلك مخبأة في حُرز مكن يعجز الجيستاو أو الجيش الألماني عن العثور عليه . وكذلك نظمت الحكومة جيش المقاومة الإيجابية تنظيماً دقيقاً ، فأنشأت الرتب العسكرية ووزعتها على العسكريين والمدنيين على السواء فكان هناك القواد والضباط والجنود وهكذا .

فما هو إلا أن احتل الألمان من غير قتال بلاد السودان في أكتوبر ١٩٣٨ ، ثم بوهيميا ومورافيا في مارس من العام التالي حتى خرجت إلى عالم الوجود هذه المقاومة الإيجابية المنظمة تبغى إلحاق الأضرار البليغة بعتاد الحرب النازي واغتيال الألمان وصنائعهم . وقد برع التشيكوسلواكيون في هذا النوع من المقاومة حتى أن « حامي » بوهيميا ومورافيا (هيدريش) Heydrich والمعروف باسم « جزار مورافيا » ، الذي اغتيل في ٢٧ مايو ١٩٤٢ على أيدي جمعية سرية تابعة للجيش الوطني ، رأى أن يوقع عقوبة الإعدام على ٤٠٠ من القواد وأركان الحرب والموظفين والصناع والفلاحين التشيك ؛ كما قبض على عدد من الوطنيين بلغ (١,٤٠٠) ، ووجه الجيستاو إلى هؤلاء جميعاً طائفة من التهم المتنوعة : منها أنهم نجحوا في إخفاء بعض الأسلحة التي أنتجتها المصانع التشيكية للحرب لأسباب وطنية وإنهم نظموا حركة المقاومة المعروفة باسم « الإبطاء المتعمد » في الإنتاج وإنهم قاموا بأعمال « تخريب » واسعة ؛ أو كانوا على اتصال مستمر بطريق اللاسلكي مع لندن ؛ أو أثلفوا آلات وأدوات الصناعة العسكرية الألمانية وهكذا . وكان من بين الذين أعدموا (الدكتور فرانكسبرجر) ، وهو من كبار رجال وزارة الزراعة ، اتهمه الجيستاو بالعمل على تعطيل تسليم الحبوب والغلات الزراعية الأخرى (التشيكية) إلى سلطات الاحتلال الألماني . ومع ذلك ، وعلى الرغم من بطش الجيستاو وقسوة الاحتلال النازي ، فقد ظلت تشيكوسلواكيا من مراكز المقاومة الإيجابية القوية ضد النازي في أوروبا .

وأما ثاني المراكز الهامة لهذه المقاومة الإيجابية فكان يوغوسلافيا إذ جعل نشاط الجماعات السرية المنظمة حياة الجنود الألمان والإيطاليين والهنغاريين والبلغاريين الذين يحتلون بلادهم حياة شقاء وإرهاق مستمر ؛ فهناك شطر من الجيش اليوغوسلافي السابق تحت قيادة الجنرال دراجا ميخائيلوفتش كان يعمل جدياً كوحدات مدربة على القتال العنيف في غابات البوسنة ، ثم في سائر أنحاء البلاد بعد ذلك ؛ وهناك جماعة التشتك Cetnik كانت مهمتها العمل في الجبل الأسود وكرواتيا ودلماسيا ؛ ثم هناك جماعة الشيوعيين ويعرفون باسم (البارتيزان) Partisans كانت مهمتهم الهجوم على مدن يوغوسلافيا الشمالية ؛ ثم

أخيرا هناك ، حزب الفلاحين الكروات ، القديم وكانت يوغسلافيا الجنوبية ميدان نشاطه .
وكان جيش الجنرال ميخائيلوفتش يتراوح بين العشرين والمائة ألف جندي نظامي ،
ويضم إليه عدداً من النساء . وقد درب هذا الجيش بحيث كان من السهل على جنده خلع
الأردية العسكرية وإخفاء السلاح في الليل ، حتى إذا بدأ النهار عادوا إلى أعمالهم العادية
كفلاحين أو رعاة خنازير أو صناع أو عمال وهكذا . فلا يمضي وقت قصير حتى يلتحم
هؤلاء ثانية في معركة دامية مع جيش الاحتلال ؛ وعشا كان يحاول الجستابو والجنود الألمان
عقب المعركة البحث عن الأسلحة أو الذخائر أو الأردية العسكرية . وفي خريف ١٩٤١
خاض هذا الجيش غمار معركة حامية في (سابو) Saboé استخدم فيها اليوغسلافيون المدافع
الثقيلة تحت أنوف الجستابو وسلطات الاحتلال . ومن ضروب المقاومة التي برع فيها هذا
الجيش الهجوم على السكك الحديدية ومناجم الفحم ومحطات توليد الكهرباء والجسور
والقناطر ومخازن الذخيرة وثكنات الجنود الألمان والمطارات وهكذا .

وفي كثير من الأحيان كان يتعاون (التشيتنيك) و (الباريتزان) و (حزب الفلاحين
الكروات) مع جيش ميخائيلوفتش . إلا أن مهمة (التشيتنيك) الأساسية كانت مفاجأة
جيش الاحتلال في جماعات شبه عسكرية سريعة الحركة مسلحة بأسلحة من الطراز الأول ،
فينزلون بالعدو أضرارا بليغة ويفرون بسلام . وأما مهمة (الباريتزان) و (الفلاحين
الكروات) فكانت إرهاب المدن التي يحتلها الألمان والإيطاليون واغتيال الخونة والألمان
المتغالين في أساليب التعذيب والإجرام ، ثم تخليص الرهائن والغنائم أو تعطيل نقلها .
وعندما كانت هذه الجماعات تعمل متضامنة كانت تؤلف قوة كبيرة وجد الألمان

والإيطاليون من جراء نشاطها أن يحتفظوا في هذه البلاد في أثناء الشهور الستة الأولى من
عام ١٩٤٢ بعدد من الفرق العسكرية لا يقل عن ست أو سبع فرق على الرغم من الحاجة
الملحة إلى استخدام هذه القوة العسكرية في ميادين القتال . وهناك أدلة متعددة على مقدار ما أنزلته
هذه القوات بالألمان وحلفائهم وصنائعهم من خسائر جسيمة في الأرواح والعتاد الحربي .
فقد حدث في يولية ١٩٤٣ أن قتل الوطنيون اليوغوسلافيون ما لا يقل عن ١٠٠ ، إيطاليا
عندما هجموا فجأة على الثكنات الإيطالية في جزر دلماسيا التي تقع في البحر الأدرياتيكي تجاه
إيطاليا . وقد ترتب على هذا الهجوم أن إيطاليا لم تلبث أن أعلنت التعبئة العامة في ألبانيا ؛
وكذلك ألغيت إجازات جميع أفراد قوات المحور في البلقان وأرسلت سريعا للبعثات الكبيرة
إلى اليونان . بيد أنه لم تمض أيام قلائل على هذا الحادث المروع حتى اشتبك اليوغوسلافيون
الوطنيون مع الألمان ، في معركة كبيرة في منطقة وادي كمارينكا التي تبعد نحو ٥٠ إلى ٦٠ ميلا

جنوب سراجيفو الشرقى عاصمة البوسنة ؛ ثم حدث فى شهر سبتمبر من العام نفسه أن التحم اليوغوسلافيون الشيوعيون مع الألمان ومع جماعة الأوستاشى الكرواتية الموالية لهم فى منطقة (سنج) ، كما استعرت نيران الحرب بينهم وبين الألمان فى الجبل الأسود وفى الهرسك ، وغنم اليوغوسلافيون كميات كبيرة من الذخائر واستولوا على عدة مدن . وفى أكتوبر كانت قوات الجيش اليوغوسلافى الوطنى لاتزال تواصل عملياتها الهجومية بنجاح فى الجبل الأسود والهرسك والبوسنة ، ودارت معارك عنيفة فى ساحل دلماسيا وفى سلوفينيا وعلى حدود ألبانيا وفى كرواتيا ، خصوصا مقاطعة سلافونيا على طول حدود هنغاريا ؛ ثم استطاعت العصابات الوطنية أن تقف على بعد ميل واحد من زغرب وأن تقطع خطوط تموين المدينة ، هذا عدا ما فعلته من أعمال التخريب المتعددة كانتزاع خطوط السكك الحديدية ونسف الجسور فى جميع هذه المناطق . واضطر الألمان من جراء ذلك إلى اتخاذ عدة تدابير منها ما أذاعه راديو بودابست منذ يولييه عن استعداد القيادة العسكرية الألمانية فى سربيا لمنح مكافأة مالية كبيرة لمن يأسر الجنرال ميخائيلوفتش حيا أو ميتا ، أو يستطيع استبعاد شره بأية وسيلة كانت ؛ وفى أكتوبر أعلنت الحكومة المجرية الأحكام العرفية فى مناطق المجر الجنوبية وفى المناطق المحتلة وفى المنطقة المتاخمة لدولة كرواتيا الضالعة مع الألمانين . وفى ١٤ أكتوبر أذاع الراديو الألمانى أن الفيلد مارشال روميل تولى القيادة العليا للأعمال الحربية الموجهة ضد الثوار اليوغوسلافيين ؛ وعبثا حاول الألمانئون استمالة زعيم حزب الفلاحين الكرواتى عندما عرضوا عليه منصب رئيس الدولة إذا أيد الألمان وحث العصابات الكرواتية على التخلي عن نشاطهم ، فوضعه الألمان تحت رقابة شديدة ؛ وكان من جراء تسليم إيطاليا أن صارت الوحدات الإيطالية الباقية فى يوغوسلافيا تتعاون مع الجيش اليوغوسلافى الوطنى فى الجبل الأسود وفى سلوفينيا وفى دلماسيا ، وفى أكتوبر كانت جميعها تقاتل إلى جانب اليوغوسلافيين . وفى ٢٦ من الشهر نفسه أحرز اليوغوسلافيون الأحرار انتصارا عظيما عندما استولوا بعد قتال عنيف على بلدة (فارس — ميدان) وهى آخر مركز للصناعات الثقيلة فى البوسنة كان لا يزال فى أيدي الألمان . وفى أواخر عام ١٩٤٣ تفوق فى الميدان الماريشال (تيتو) Tito يقود القوات (الوطنية) وسمى جيشه بجيش التحرير ، واستطاع أن يقض مضاجع الألمان ، حتى تمكن جيشه — إلى جانب القوات الوطنية الأخرى — أن يشغل ما لا يقل عن أربع عشرة فرقة ألمانية ؛ واضطر الألمان إلى جلب إمدادات من اليونان وألبانيا لا تقل عن خمس فرق . وفى بداية عام ١٩٤٤ كان القتال لا يزال محتدما فى جميع ساحات الجبهة فى شرق البوسنة وفى كرواتيا وبالقرب من زغرب وفى دلماسيا وغيرها .

وقد نجم عن نجاح هذه الجيوش الوطنية تعطيل السكك الحديدية الرئيسية والخطوط الاحتياطية الممتدة صوب الجنوب الشرقى إلى البلقان واليونان ، كما عطلت الملاحة فى نهر الدانوب باغراق السفن فى مجرى هذا النهر ، فاختل النقل من جراء ذلك بين ألمانيا وبلاد البلقان اختلالا كبيرا . وهكذا لم يلبث أن وجد الألمان الذين بنوا آمالا عريضة على إمكان الاستفادة من استغلال ثروة يوغوسلافيا المعدنية والاستيلاء على غلاتها الزراعية أن الفشل يحق بخططهم جميعا .

وقد سبقت الإشارة إلى الأساليب التى اتبعها النازيون فى إبادة البولنديين واليهود منهم خاصة . ولذلك فقد ظلت بولندا منذ سقوطها فى أيدي النازيين مركزا رئيسيا من مراكز المقاومة الإيجائية والسلبية فى أوروبا النازية . ومع أن الألمان ارتكبوا مع أهل هذه البلاد فظائع تقشعر من هولها الأبدان إلا أن ذلك لم يخفف شيئا من حدة هذه المقاومة ؛ بل على العكس من ذلك ، قويت هذه المقاومة وزادت عنفا من جراء هذه الفظائع . وكان من المنتظر بعد الغزو ، منذ أن تم للنازيين ما أرادوا من تنظيمات تضمن لهم السيطرة وبخاصة فى أثناء عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ ، أن يرتفع قليلا ذلك الكابوس الجاثم على صدور البولنديين . ولكن هروب الكثيرين منهم إلى الخارج للقتال مع جيوش الأمم المتحدة ، ثم إصرارهم على المقاومة فى داخل بلادهم ، وزيادة مشاغل الألمان من جانب آخر منذ اشتعلت الحرب الروسية الألمانية كل ذلك جعل النازيين يعمنون فى أساليبهم الوحشية لإبادة البولنديين . فأوقعوا بيهود وارسو مذابح كانت أقساها مذبحه شهر مايو ١٩٤٣ المروعة ، كما أكثروا من اعتقال المئات من المثقفين ، وفى يونية أنهم حوالى السبعائة شخص من هؤلاء بأنهم اشتركوا فى هيات سرية تعمل ضد الألمان . واشتد بطش النازيين فنسفوا بالدynamite أو أحرقوا ٢٠٠٠ (ورشة) ٣٠٠٠ متجرا ، ١٠٠ ألف بيت فى المنطقة المخصصة لليهود فى مدينة وارسو وحدها . ومن بين المأساى التى وقعت فى عام ١٩٤٣ أن النازيين لم يلبثوا أن نقلوا الأطفال البولنديين الذين تزيد أعمارهم على اثنتى عشرة سنة مع غيرهم من المراهقين إلى معسكرات العمل الإيجارى فى ألمانيا وحدث عندما وصلت فى شهر مارس قوافل كثيرة من صغار الأطفال إلى بوميرانيا وكانت أعمار أغلبهم تختلف بين أربع سنوات وعشر أن هرع النساء البولنديات فى هذه الجهات لتولى هؤلاء الصغار بعنايتهن . فقامت سوق لبيع الأطفال وكان الحراس الألمان يبيعون الطفل الواحد بأربعين ماركا فحسب . ولم يكن غريبا بعد هذا كله أن تصبح بولندا من مراكز المقاومة الخطيرة فى أوروبا المحتلة .

وقد حاول النازيون بشئ الوسائل أن يخدموا هذه المقاومة بنوعها (سلبية وإيجائية)

وهي لا تزال في مهدها ولكنهم أخفقوا . فلم تلبث الصحف النازية أن نشرت أخبار المقاومة وكان أهم ما شكت منه ظهور العصابات المسلحة من « اللصوص وقطاع الطرق » البولنديين الذين دأبوا على مفاجأة مراكز الشرطة الألمانية المنعزلة والحراس الألمان ، ومقر قيادة الجستابو نفسه . بيد أنه لم يكن من أغراض هذه العصابات المسلحة الاستيلاء على المال أو الطعام ، بالرغم من انتشار المجاعة في بولندية ؛ بل إن أهم ما كان يعنى هؤلاء اللصوص وقطاع الطرق العثور على أولئك « الجلادين » و « الجزارين » الألمان الذين أهلكوا ألوف البولنديين ليقتلوهم ويستولوا على سلاحهم وذخيرتهم . ومنذ خريف ١٩٤١ نظمت هذه العصابات المسلحة ، ونجم عن هجومها المتكرر على مخازن الذخيرة والسلاح أن صارت بولندية تحتفظ بقدر وافر من الأسلحة والذخائر مخبأة في جهات متعددة انتظارا لليوم الذى يستطيع البولنديون فيه رفع راية الخلاص والاقتصاص من « جلادهم » وقت الهجوم على قلعة هتلر الأوربية .

وكانت اليونان كذلك مركزا رئيسيا للمقاومة الايجائية في أوروبا . فقد أنزل الألمانيون والاطاليون الذين اشتركوا في احتلال هذه البلاد كما أنزل الألمانيون في كريت ، والبلغاريون في مقدونيا صنوف العذاب بالأهليين . ولعل أقسى ما نزل بهم حرمانهم من الأطعمة واستيلاء سلطات الاحتلال على العقاقير الطبية والضادات وما إلى ذلك ، حتى انتشرت المجاعة المخيفة في اليونان وكريت ، ومات الأطفال من الجوع والبرد والمرض ، وسقط الرجال في شوارع المدن منهوكى القوى ؛ وظلت جثث الموتى مبعثرة في الطرق . وقد بلغ عدد ضحايا الجوع والتعب والبرد والمرض خمسمائة في كل يوم من أيام سنة ١٩٤٢ ، واشتدت وطأة المجاعة في العام التالى ، حتى ذكرت المصادر العلمية في أنقرة أن حوالى خمسمائة يونانى من طبقة العمال في أثينا وبيريه ماتوا جوعا في النصف الأول من شهر أكتوبر (١٩٤٣) ؛ وفي نوفمبر كانت اليونان تواجه كارثة وطنية لا مثيل لها بسبب ما تعانيه من نقص في الأطعمة . أضف إلى ذلك أن « السادة » الألمان والاطاليين ثم البلغاريين بعد ذلك ظلوا يتفننون في إبشكار الأساليب للاحاق الأذى بالأهليين كأنما الغرض من الاحتلال هو إبادة الشعب اليونانى عن بكرة أبيه ولذلك كله لم يكن هناك بد من أن تكون اليونان من مراكز المقاومة الشديدة في البلقان . فان فلول الجيش اليونانى الباسل ظلت تحارب في جبال (أبيروس) ومقدونيا وتساليا وطراقية وكريت . حتى اضطر الايطاليون بسبب هذه المقاومة العنيدة إلى الاحتفاظ (١٩٤٢) بعدد من الفرق لا يقل عن ست عشرة فرقة في اليونان وكريت ، وأرغم الألمان على الاحتفاظ بثمان فرق . وفضلا عن ذلك فقد عمد الألمان إلى إعتقال عدد كبير من أهل القرى وبخاصة في كريت بمثابة رهائن ، وأعدموا معظمهم ؛ ثم صاروا يحرقون القرى كلها نشبت بينهم وبين

العصابات اليونانية أو الكريتيّة معركة من المعارك ؛ أو اعتدى اليونانيون على ضباط الاحتلال الألمان أو الإيطاليين ، أو أتلقت عصاباتهم القنارات أو عطلت النقل العسكري . ومع ذلك أعد رجال العصابات بجزيرة كريت في شهر سبتمبر ١٩٤٣ جيشاً من ١٥,٠٠٠ محارب ، بينهم جنود من البريطانيين والنيوزيلنديين للهجوم على حاميات المحور عندما يغزو الحلفاء هذه الجزيرة وتتصدع أركان القلعة الهتلرية ، واستطاعت العصابات الكريتيّة إنشاء مستودع للأسلحة بفضل الهجوم على حاميات المحور وقوافله ، وألقوا لهم قيادة عامة تحت أوامر الجنرال (مانداكاس) . وقد استمرت أعمال المقاومة في اليونان على شدتها ثم لم تلبث أن امتدت إلى المناطق التي كان يشملها الاحتلال البلغاري في شمال اليونان ؛ ثم احتج اليونان على الاحتلال البلغاري لمقدونيا ونزح كثيرون من سكان هذه المناطق المحتلة إلى الجبال حيث ألقوا العصابات تحت قيادة ضباط الجيش اليوناني . ومع أن النازيين عندما غزوا بلاد اليونان واجتاحوها صادروا جميع السفن الشراعية ، فقد استولى رجال العصابات على عدد من هذه السفن وسلحوها بالمدافع السريعة وصاروا يستخدمونها لنقل الإمدادات إلى الأسر الجائعة . وفي نوفمبر شرع الألمان يعدون العدة للقيام بأعمال حربية هجومية ضد خمسين ألف جندي من رجال العصابات اليونانية المرابطين في المنطقة الجبلية بين تساليا وأبيروس .

* * *

وكان من أساليب المقاومة الإيجابية ، ما يعرف باسم « حركة الإبطاء المتعمد » في العمل والانتاج (Go-Slow Movement) ؛ وكذلك أعمال التخريب (Sbotage) وهذان النوعان في الحقيقة من أشد ضروب المقاومة الإيجابية خطراً على النازيين ، في وقت اشتدت فيه حاجتهم إلى كل ما يمكن إنتاجه من أغذية وأردية صوفية وقطنية وأسلحة وذخائر ومصنوعات وغيرها ، لأعداد التعبئة العامة ومساعدة النازيين على إحراز السيطرة الجرمانية في القارة الأوربية . ثم دعم هذه السيطرة في النهاية .

فمن المعروف أنه كان يوجد لدى الألمان في الحرب العالمية الثانية من الأغذية الاحتياطية — بفضل ما سلبوه من الدول الخاضعة لسيطرتهم — كمية تزيد على ما كان لديهم من الأغذية في الحرب الأولى . بيد أن « التخريب » الذي كان يحدث في أدوات الانتاج كان أعظم خطراً عليها بلا مراء من تخريب أعوام الحرب الأولى (١٩١٤ — ١٩١٨) . وكذلك أدت حاجة الألمان الملحة إلى المنسوجات الصوفية والقطنية إلى تدبير حملة الشتاء المعروفة في عام ١٩٤١ — ١٩٤٢ ، من أجل جمع الملابس الصوفية والقطنية . ودل اهتمام الألمان بهذه الحملة على أن مخازنهم ومصانعهم في الرينخ وفي البلدان الخاضعة لهم ، قد أصبحت خالية من الصوف

والقطن ، حتى كان الجنود الألمان المرسلون للقتال في الميدان الروسي يرتدون ملابس النساء الداخلية من صوفية وقطنية طلبا للتدفئة .

وعدا ذلك دلت الحملة الروسية على أن القيادة العسكرية الألمانية أخطأت التقدير إلى مدى بعيد ، فقد ظل القتال على شدته منذ نشوب الحرب مع روسيا في صيف ١٩٤١ . ولذلك لم يستطع الهر هتلر الاستغناء عن مقاتلته في شتاء ١٩٤١ — ١٩٤٢ لارسالهم من ميدان القتال إلى المصانع والمناجم وغيرها لإنتاج الأسلحة والذخائر الضرورية لهجوم الربيع . بل على العكس من ذلك أرسل النازيون منذ يناير ١٩٤٢ سيلا من القوات الجديدة إلى الجهة الشرقية ، حتى أقفرت المصانع تماما من العمال الألمان واضطر النازيون إلى الاعتماد كل الاعتماد على الصناع والعمال الأجانب الذين جلبوهم بكثرة عظيمة من البلدان المحتلة للعمل في المصنع والمنجم والحقل ، مع العلم بأن الألمان كانوا حتى صيف ١٩٤١ يستخدمون من هؤلاء العمال ومن بينهم أسرى الحرب ، حوالى ٣,٠٠٠,٠٠٠ رجل كما سبق ذكره ،

يبد أن الاعتماد في الإنتاج على العمال ، الأجانب ، سواء في داخل الرينخ أو في الدول المحتلة ، لم يلبث أن مهد الفرصة لظهور حركة الإبطاء المتعمد كأسلوب من أساليب المقاومة الإيجابية الشديدة . ومعنى الإبطاء المتعمد : الإهمال المقصود في العمل ، وإتلاف الآلات بدعوى جهل طرق استعمالها ، وتضييع الوقت سدى في مناقشات لاطائل تحتها ؛ وتظاهر العمال بالغباء والبلاهة والجهل والخوف في المصنع ، وعدم فهم الأوامر والإرشادات والتعليمات على الرغم من إلقائها عليهم المرة بعد المرة ، وترك المواد والآلات تسقط وتتحطم أو تلف « سهوا » أو « قضاء وقدر » ، وهكذا مما يجر إلى تبديد الوقت والجهد ويؤدي في النهاية إلى نقص الإنتاج إلى حد ملحوظ .

ولم تكن حركة الإبطاء المتعمد هذه مقصورة على المصنع وحده ، بل كانت منتشرة في الحقل وفي مصالح النقل بالسكك الحديدية والأنهار وغيرها ؛ وفي المنازل حيث يقوم بخدمة « السادة » الألمان النساء البولنديات خاصة ، فيتعمد العاملون في هذه الفواحي بسبب لإبطائهم الشديد تضييع الوقت سدى ، ثم تخريب أو إتلاف الآلات والأدوات وما إليها ؛ وكل ذلك بدعوى الجهل والنسيان أو التظاهر بالغباء ومن أمثلة ذلك وضع الزجاج أو المسامير خطأ أو سهواً في علف المواشى ، أو إحراق الملابس الصوفية أو تعمد الإبطاء في أوقات الحصاد حتى تلف المزروعات بتعرضها للعواصف والعوامل الجوية ، أو إخفاء الحبوب ، أو ذبح الماشية ، أو تعريضها للموت فجأة ، ولعل أكبر نجاح صادفته هذه الحركة ، كان في مناجم الفحم حيث يتعذر على الملاحظين الألمان مراقبة كل عامل على حدة . ومع أن

النازيين كانوا يوقعون عقوبات شديدة ، تبلغ حد الاعدام على كل من تثبت عليه تهمة الابطاء المقصود أو إتلاف الآلات وغيرها أو التخريب عموماً فقد ظلت حركة « الابطاء المتعمد » على شدتها بل كثيراً ما وجد العمال الأجانب وسيلة للانتقام شر انتقام من رؤساء العمل الألمان الذين كانوا يشهدون في ملاحظة العمال المشتغلين في المصانع وغيرها ويوقعون عليهم العقوبات الصارمة لابطائهم .

وقد نجحت حركة الابطاء المتعمد وانتشر التخريب في أوروبا النازية انتشاراً كبيراً ، فصارت الشعوب المقهورة يبارى بعضها بعضاً في إتقان هذا النوع من المقاومة الإيجابية . فامتاز البولنديون — إلى جانب قيامهم بأعمال التخريب الكبيرة — بالبراعة في إرهاب أعصاب الأسرات الألمانية التي اعتمدت في إدارة منازلها على « الخدم » البولنديين ، كما اعتمدت في أعمال زراعتها على سواعدهم فأنزل البولنديون بهذه الأسرات خسائر فادحة في المنزل وفي الحقل على السواء . أما الترويجيون الذين كانوا يشتغلون في المصانع وأحواض السفن الألمانية فقد اتخذوا لهم شعاراً : « العمل مدى ساعتين في اليوم فحسب لحساب هتلر وست ساعات لحساب الملك ها كون ! » . ولم يقل عنهم حماسة في ذلك البلجيكيون والهولنديون والتشيكي . ومن الحوادث التي تدل على إمعان التشيك في هذا النوع من المقاومة ، ما وقع في فيينا في ١٧ نوفمبر سنة ١٩٤١ عندما ألقى القبض على ثلاثة منهم وأعدموا رمياً بالرصاص « لادعائهم — كما جاء في التقرير الرسمي — أنهم من رجال الجستابو حتى يستطيعوا المضى في أعمالهم غير القانونية ! » . والحقيقة هي أن هؤلاء الرجال كانوا بدعوى تنفيذ أوامر الجستابو ، يكلفون المصانع إنتاج أشياء ومصنوعات لاداعي لها ، اقتضى صنعها استهلاك كمية كبيرة من الخامات سدى ، إلى جانب تضییع جهود العمال وأوقاتهم في هذه المصانع .

* * *

وكان من آثار هذه « الحركة » ، أن نقص الانتاج كثيراً في المصانع التي كانت تشتغل في أوروبا النازية لحساب الألمان . مثال ذلك أن الانتاج في تشيكوسلفاكيا في خريف ١٩٤١ كان يقل ٤٠ ٪ عما كانت هذه الدولة تنتجه في الظروف العادية . هذا على الرغم من توفر الخامات والأيدي العاملة بها . وفي مصانع (سكودا) المشهورة قل الانتاج بنسبة ٣٣ ٪ وفي مصانع مدافع (برين) Bren المعروفة قل الانتاج بنسبة ٤٠ ٪ . وفي مناجم الفحم البلجيكية قل الانتاج منذ خريف ١٩٤١ بنسبة ٣٦ ٪ . ومع أن الألمان أحضروا إلى هذه المناجم عمالاً كثيرين ، وزادوا من ساعات العمل بها ، فقد ظل الانتاج في ديسمبر ١٩٤١ ويناير ١٩٤٢ ينقص ٣٠ ٪ عن إنتاج العام السابق .

* * *

أما الفرنسيون فقد كانوا في طليعة الشعوب التي أتقنت هذا النوع من أنواع المقاومة الإيجابية . حقيقة ظل الفرنسيون في بادىء الأمر في شبه ذهول كبير من صدمة ذلك الانهيار الذى حطم في نفوسهم كل أمل وكل رجاء في المستقبل ، حتى نجحت الدعاية النازية في استمالة الأنصار والمتعاونين مع رسل النظام الجديد في فرنسا ؛ ولقيت هذه الدعاية كل تأييد من جانب حكومة فيشي . ولكن الأساليب النازية لم تلبث أن أزال الغشاوة الثقيلة التي أسدلت على عيون الفرنسيين وأبصارهم عندما وجدوا « السادة » الألمان لا يبغون من تطبيق النظام الجديد سوى نهب فرنسا وسلبها ؛ كما أنهم ظلوا محتفظين بالأمري الفرنسيين كرهائن حتى يضمنوا سكون هذا الشعب المقهور إلى العيش الذليل وإرغامه على الرضا وقبول السيطرة الجرمانية على أمل الإفراج عن هؤلاء (المليونين) من الرجال الذين ينتظر عودتهم الأهل والأقرباء في كل بيت من بيوت فرنسا تقريباً ؛ وهذا أيضاً عدا حوالى ١٠٠,٠٠٠ عامل فرنسى ، حتى أغسطس ١٩٤٢ أرغموا على العمل في ألمانيا بالوسائل التي تقدم ذكرها . وكان من عوامل إحياء الأمل والرجاء في قلوب الفرنسيين إخفاق الألمان في معركة بريطانيا ، وإخفاقهم الأول في الحملة الليبية المعروفة ، وكذلك عنف القتال في الجبهة الروسية . فأفاق الفرنسيون من سباتهم رويدا رويدا ، ثم أدركوا أن الجحافل النازية لم تعد تلك الجيوش المظفرة والتي يستحيل قهرها .

لذلك بدأ الفرنسيون منذ أواسط عام ١٩٤١ يتقنون أساليب المقاومة الإيجابية ولما كان النازيون يعتمدون على العمال الفرنسيين في المصانع الفرنسية لإنتاج آلات الحرب ، فقد وجد الفرنسيون مجالا واسعا « للتخريب » و « الإبطاء » في المصانع . ومن ذلك الحين كشف الألمان أن الطائرات التي تخرجها المصانع الفرنسية لا تصلح للملاحة الجوية ، وأن كثيرين من طيارهم يفقدون الحياة عند محاولة اختبارها قبل إرسالها إلى ميدان القتال ؛ كما كشفوا أن « خرطوش » البنادق والمدافع المرسل من المصانع الفرنسية يصل في الغالب خاليا من المواد المفرقة . وفي مرسليليا وجد الألمان أن جزءا كبيرا من الأغذية المعدة لتكوين الجيش الأفريقي يتلف ويعطب قبل إنزاله إلى سفن النقل . ومن طريف ما يذكر عن أساليب حركة الإبطاء المقصود أن ضابطا نازيا عهد إليه في إنشاء مطار في فرنسا في أرض مهيبة نوعا . فاستخدم في هذا العمل عددا كبيرا من الفرنسيين ولكن انقضت أربعة شهور دون أن يتم إعداد هذا المطار . وعند البحث اتضح أن سبب ذلك هو أن العمال الفرنسيين كانوا يتظاهرون دائما بعدم فهم الأوامر والإرشادات والتعليمات الألمانية . فإذا طلب إليهم مثلا إقامة بناء في ناحية ما حفروا الأرض بدلا من ذلك ، وإذا طلب إليهم العكس أقاموا عليها بناء أو شقوا بها

ترعة أو حفروا فيها خندقا وهكذا . حتى لم تعد الأرض بعد هذه الشهور الأربعة تصلح لإنشاء المطار على الإطلاق وكان الفرنسيون يعمدون إلى المناقشة والجدل مع رؤساء العمل الألمان دائما عند إعطاء التعليمات الخاصة بأى عمل فى المصنع أو فى الحقل ؛ فيستخذون من الجدول الطويل وسيلة لتضييع الوقت وتحقيق فكرة « حركة الإبطاء المتعمد » . ولم تفلح عقوبات الألمان الصارمة ومنها الإعدام فى إخماد هذه المقاومة .

وكان من أسباب ازدياد المقاومة ما طلبه الهر هتلر من تقديم فوج جديد من العمال الفرنسيين عددهم (٤٧٠,٠٠٠) يرسل منهم إلى ألمانيا قبل نهاية شهر يونيه من عام ١٩٤٣ (٢٢٠,٠٠٠) ، أو أن يوضعوا على الأقل تحت تصرف جماعة (تودت) فى فرنسا ذاتها بينما يقدم الباقون وعددهم (٢٥٠,٠٠٠) فى أثناء الأشهر الثلاثة التالية ، فقابل الشبان الفرنسيون هذا الطلب بكل أنواع المقاومة العنيفة ، واعتصم أهل مقاطعة ساقوى بالجبال فرارا من التعبشة ، وبلغ عدد الذين لجأوا إلى الجبال والغابات حوالى الثلاثة آلاف ؛ ثم حدث مثل هذا تماما فى البرينيه العليا وبريتانى والفنديه ، وبلغت نسبة الهاربين فى هاتين المقاطعتين الأخيرتين ٧٥ ٪ من الأهلىن ؛ وقذف الشعب فى إحدى موانى بريتانى الصغيرة ببعض رجال النازى إلى البحر؛ واتسعت حركة العصيان بين الفلاحين فى مدن أخرى وتفاقت تفاقماً كبيراً . وفى مقاطعتى سانت كلو وجورا عظمت المظاهرات احتجاجا على نقل العمال الفرنسيين عنوة إلى ألمانيا ، ووقع اعتداء على رجال الشرطة ؛ وعندما أرغم العمال الفرنسيون على الذهاب إلى القطارات لحملهم إلى ألمانيا عطل المتظاهرون سير هذه القطارات ، وأتاحوا الفرصة لفرار كثير من هؤلاء المجندين . وفى ساقوى أخذ الإيطاليون يحاصرون الشبان الفرنسيين الذين التجأوا إلى بلدة (أنسى) الصغيرة ؛ ولم يعدم هؤلاء بدورهم وسيلة للانتقام من مطارديهم فانقضوا فجأة ذات يوم من أيام شهر أغسطس على أحد المراكز الإيطالية على حدود سويسرة وقتلوا قائد هذا المركز . بينما احتدمت المعارك فى الشهر نفسه فى ساقوى العليا بين رجال العصابات والقوات المسلحة ، واضطر الألمان إلى إرسال النجيدات لاحتلال منطقة الحدود بأكملها ، فوصل فى سبتمبر إلى دوفيني وإيفيان وغيرها حوالى ٩٠٠٠ جنسدى ألمانى لمحاولة القضاء على (الماكي) وهى « عصابات » الوطنيين الفرنسيين الذين اعتصموا بالجبال فى ساقوى العليا فراراً من العمل تحت إمرة الألمان . وفى سبتمبر كان عدد عصابات (الماكي) حوالى ١٢,٠٠٠ من الشبان المزودين بالأسلحة والأدوات الخاصة وأجهزة الراديو ، وكل ما يفيد فى تخريب السكك الحديدية بنوع خاص .

وقد روى مراسل جريدة « جازيت دى لوزان » قصة ما يجرى فى المنطقة الجبلية من

الحوادث ، فقال : — « ترى شابا من عمال المزارع يبدو مسالما لا خوف منه يدخل بدراجه مزرعة معينة خصصت له . ثم يستقر في حجرة من حجرات بيت صاحب المزرعة بعد تبادل كلمات مع زوجته . ولا يكاد يستقر به المقام في تلك الحجرة حتى يخرج من حقيبته جهاز اللاسلكي ويأخذ في استخدامه . ويجد هذا الشاب بعض الصعوبة في الاتصال بالذين يريد الاتصال بهم . ومع أنه يعلم أن في استطاعة سيارات « البوليس » السرى الألماني معرفة مكانه بعد عشرين دقيقة من استخدامه جهازه اللاسلكي فانه يظل يرسل رسالته إلى نهايتها . على أن إرسال هذه الرسالة يستغرق عادة مدة طويلة حتى إن الشاب لا يكاد ينتهي من عمله حتى يرى إحدى سيارات الجستابو تدخل المزرعة ، ويخرج منها الجنود الألمان مسرعين إلى الحجرة التي كمن فيها الشاب وهم يطلقون النار دون إنذار إلى أن يقع الشاب صريعا مضرجا بدمائه . ويمكن أن يقال ، قياسا على ما يحدث هناك أن قانون هذه العصابات لا يعرف رحمة ولا شفقة إذ أن أبناء هذا الحادث لا تكاد تنتشر في البلاد وتبلغ مسامع رؤساء هذه الجماعة حتى يعمدوا إلى حيلة للانتقام . ذلك بأن سيارة « البوليس » السرى الألماني بعد أن تلتقط رسالة مستعجلة تقصد إلى « جراج » معين ويخرج منها جنود الجستابو ويتقدمون نحو أبواب « الجراج » ، وبينما هم يحاولون فتح هذه الأبواب إذا بوابل من رصاص المسدسات يفاجئهم الألمان ويقتلهم جميعا عدا السائق . فانه يضرب ضربا أليما ويطلق سراحه . وفي الواقع يحيا هؤلاء الشبان حياة محفوفة بأشد الخطر ويضحون بكل شيء حتى بأرواحهم في سبيل إداء واجباتهم . ومنذ استسلام إيطاليا (٨ أغسطس وسبتمبر ١٩٤٣) ترك الجنود الإيطاليون كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر في أيدي الثوار في مقاطعتي سافوى وسافوى العليا ، كما أن عددا من الضباط والجنود الإيطاليين الذين لم يستطيعوا الالتجاء إلى سويسرة لم يلبثوا أن انضموا إلى هؤلاء « الثوار » كي لا يتمكن الألمان من نزع سلاحهم . وفي نوفمبر نشب القتال بين الألمان والوطنيين الفرنسيين في عدة مدن منها تولوز ومرسيليا ثم لم يعد نشاط الوطنيين مقصورا على الجبال ، بل أخذ يمتد بسرعة في جنوب فرنسا وفي بريتانى . وفي تولوز اعتدى الوطنيون على الجنود الألمان وقتلوا كثيرا منهم ، وفي مرسيليا وقعت مصادمات خطيرة في الشوارع قتل فيها عدد من الألمان ، وفي (كان) وغيرها صار لا ينقطع صوت إطلاق الرصاص كلما أرخى الليل سدوله . وقد يكفي أن نذكر آخر الإحصائيات التي عملت وقتذاك عن خسائر الفرنسيين الوطنيين لمعرفة مبلغ ما وصلت إليه المقاومة الإيجابية في فرنسا من عنف وشدة . فقد قدر عدد ضحايا الوطنيين الفرنسيين في حوادث المقاومة بنحو (٤٠.٠٠٠) ، هذا بينما بلغ عدد المسجونين لأشراكهم في حركة المقاومة السرية نحو نصف مليون ..

ويتضح مبلغ خطر هذه المقاومة الإيجابية من مراجعة طائفة من حوادث التخريب التي وقعت في أوروبا النازية بين أغسطس ١٩٤١ ، ونوفمبر ١٩٤٣ .

ففي شهر أغسطس ١٩٤١ كان عدد حوادث السكك الحديدية في بولندة ، — حسب الإحصاءات الرسمية الألمانية — ١٢٨ حادثاً أي بما يزيد على أربعة حوادث يوميا . وفي ليلة من ليالي سبتمبر ١٩٤١ استولى حوالى ٤٠٠ من التشيك و ١٥٠٠ من المدنيين على مناجم الفحم في لجلسلاني Ljeslani في البوسنة (في يوغسلافيا) ؛ وكان يقوم على حراسة هذه المناجم ٧٥ رجلاً قتلوا جميعهم في ملحمة دامية نسفت بعدها هذه المناجم بالديناميت . ثم ضرب التشيك محطة توليد الكهرباء المجاورة قبل انسحابهم . وقدرت الحكومة الكرواتية هذه الخسارة بمبلغ ١٢ مليون كونا (العملة الكرواتية الجديدة) .

وفي ١٦ سبتمبر ١٩٤١ نسفت بالديناميت في بولندة قنطرة السكة الحديدية الرئيسية بين (برسلو) و (وارسو) ؛ وهذا الخط من أعظم خطوط التوين أهمية بين ألمانيا والجهة الشرقية (الروسية) .

وفي ١٠ أكتوبر أذاع الحاكم الألماني في إقليم (أليسوند) (Allesund) في النرويج أن الأهالي ألحقوا أضراراً جسيمة بالتحصينات الألمانية .

وفي ١٥ ديسمبر نسفت بالديناميت في بلجيكا الشرقية الأسلاك الرئيسية في محطة (بريسو شارات) (Bresoux Charatte) لتوليد الكهرباء وهي تمتد ألمانيا الشمالية الغربية .

وفي ٤ نوفمبر نسفت بالديناميت أجزاء في منجم فحم (موتيجني) في إقليم (جراند — ليسج) وفي يناير ١٩٤٢ أصدر رئيس الشرطة في باريس أمراً بالقبض على عصاة من المحاربين يتزعمها عامل يبلغ من العمر ٢٢ سنة . مهمتها إشعال الحرائق في المصانع وتخريب الآلات . وفي الشهر نفسه أعلنت الحكومة الألمانية رسمياً أن صعوبة تموين يوغوسلافيا واليونان بالطعام ناشئة من أن عدداً كبيراً من موظفي السكك الحديد اليوغوسلافية قد انضموا إلى جيش الجنرال ميخائيلوفتش وإلى جماعات (التشتيك) .

وفي ٢ فبراير عين المايجور كويسلنج رئيساً لحكومة النرويج ، فتبع ذلك سلسلة من أعمال التخريب ، إذ أشعلت الحرائق في محطة السكة الحديد في (أوسلو) ؛ ثم انفجرت عدة قنابل في بناء البرلمان النرويجي (Storting) وفي الجامعة والمسرح الحكومي ؛ ثم أشعلت النيران في أكبر مصنع نرويجي للبطاط في (أسكيم) Askim ، وفي مصنع آخر في (درامن) Drammen وقد خرب المصنعان تماماً ؛ وكذلك اشتعلت النيران في (برجن) وفي (لكسفاغ) Laxevaag في مصنع للالات وفي أحواض السفن .

وفي ٢١ مايو ١٩٤٣ أذيعت أنباء عن وقوع إضرابات خطيرة في عاصمة بلجيكا وأن الوطنيين البلجيكين دمروا أخيرا ٣٣ قاطرة منها ٥ قاطرات كانت تبحر ١٨ مركبة محملة بالذخيرة وعطلوا أو حطموا مؤسسات هامة أخرى .

وفي ٣١ مايو ١٩٤٣ أشعل رجال عصابات التخريب النار في أعظم مصنع نسيج في رومانيا للمرة الثانية وأتلفوا ألوف الكيلو جرامات من المواد الخام وقدرت الخسائر ببضعة ملايين لي .

وفي اليوم نفسه أذاعت وكالة الأنباء البلجيكية أن المخرين نسفوا ثلاث محطات مترو في منطقة لياج . وقد نسف منزل عمدة بلدة شوشين .

وفي ٣ يونيو دمر الوطنيون الفرنسيون منتجا يستخرج منه الهوكسيت وهو أهم مصدر الألومنيوم وكذلك دمروا في المدة القصيرة السابقة نحو ٣٠٠ قاطرة ، ١٢٠٠ عربة مشحونة بمعدات الحرب والمواد الغذائية والجنود ، ثم نسفوا ثلاثة جسور .

وفي ١٨ يونيو قتل أكثر من أربعائة جندي ألماني كانوا في طريقهم إلى اليونان عندما هاجمت جماعة من المخرين القطار الذي كان يقلهم في مترو فيكا في كرواتيا وأخر جوه عن الخط وقد ثار الألمان لأنفسهم باحراق المدينة ولم تعد القطارات تمر بهذه المنطقة لكثرة حوادث التخريب في السكك الحديدية حتى بلغ المعدل خمسة قطارات في اليوم الواحد على الرغم من الوحشية التي يستخدمها الألمان في التشفي والانتقام .

وفي ٢٨ يونيو أذاعت وكالة الأنباء البلجيكية أن ثلاثة من البلجيكين وفرنسيا أعدموا على أثر وقوع انفجار شل حركة النشاط في منجم فحم في (لامبوسارت) بمقاطعة هانيوات في بلجيكا . وكذلك نشرت الصحف السرية البلجيكية في هذا الوقت خبرا مفاده أن ٣٨ قاطرة و ٢٥١ عربة وست (ورش) تابعة للسكك الحديدية دمرت في خلال شهر واحد ؛ وقالت إحدى الصحف السويدية أن الوطنيين البلجيكين نسفوا بالديناميت القضبان الحديدية بين (كوترى) و (موسكرون) ، وبين (تيرلون) و (لوفان) في عدة أماكن . وقد خرج قطار محمل بالجنود النازيين العائدين إلى ألمانيا عن القضبان ؛ واعتدى الوطنيون كذلك على عدة قطارات ألمانية محملة بالجنود والعتاد الحربي في (غنت) و (جودارفيل) و (ترموند) و (لياج) .

وفي ٢٣ يولييه جاء من اليونان أن العصابات دمرت جسرين على نهر لوروس ؛ ثم هاجمت القوات المعادية التي كانت تريد إصلاح الجسرين وقطعت المواصلات التليفونية بين بعض المدن .

وفي ٢٣ اغسطس أذيع من ستوكهولم نبأ خاص جاء فيه أن أكبر مصنع الألومنيوم في الدانمرك ، وهو مصنع « دانسك اليومنيوم فابريك » في كوبنهاجن دمر تدميراً تاما بفعل الأيدي المخربة

وفي ٢٧ أغسطس وردت الأنباء بأن الجنود الألمان أطلقوا النيران على المتظاهرين في ساحة — الراد هوسيلادن — الواقعة في قلب كوبنهاجن . وقد اشتدت مقاومة الدانمركيين النازيين حتى أذيع عن طريق الراديو الدانمركي أن الضرر الذي أحدثه المخربون بمصنع المعدات الكهربائية في كوبنهاجن يقدر بمائة ألف جنيه استرليني على قاعدة أسعار ما قبل الحرب . وقد ظهر من التحقيق أنهم دخلوا المصنع وهم يحملون المسدسات وتغلبوا على الحراس ووضعوا ثلاث قنابل أحدثت ضرراً مروعا .

وفي ٢٩ أكتوبر وضعت العصابات الفرنسية أربعين طناً من المواد المتفجرة في مصنع بارود بمدينة (لانجو) حدث انفجار مروع سمع في أنحاء ولاية المارن العليا وأحدث الانفجار ضرراً بليغاً .

وفي ١٧ نوفمبر حدث انفجار في (جرينوبل) . نسفت من جرائمه محطة توليد الغاز ، وكذلك مصنع الأسلحة والبارود الألماني .

وفي ١٩ نوفمبر جاء في الأنباء التي أذيعت من زوريخ أن أعمال التخريب في إزدياد مطرد في موانئ كونستنتزا وفيينا ولتر وباساد الواقعة على نهر الدانوب . وكانت تخرج من هذه الموانئ صنادل مشحونة طعاماً من النمسا ورومانيا عادة إلى ألمانيا .

وفيما يلي بعض الأمثلة التي توضح مبلغ الضرر الذي ألحقته هذه المقاومة الإيجابية بأداة الحرب الألمانية .

من ذلك أن حوالي مليون ونصف خرطوشة صنعتها الشركة (الوطنية البلجيكية) لصنع الأسلحة في (هرستال) Herstal ، لم يلبث أن وجدها الألمان عند وصولها إلى ألمانيا خالية من المواد المفرقة ، كما أن شركة (ستروين) الفرنسية انتجت كمية كبيرة من أجزاء الدبابات وجدها الألمان غير صالحة للاستخدام ، فانتقموا من عمال هذه الشركة ، بأن اختاروا منهم عدداً أعدموهم رمياً بالرصاص أمام زملائهم ؛ ومن هذه الأمثلة كذلك أن النازيين عندما احتلوا فرنسا الشمالية وأحصوا ما يمكن أن تنتجه مصانعها من دبابات وطائرات قدروا ما يمكن أن تنتجه هذه المصانع في الشهر الواحد بمائتي دبابة وخمسمائة طائرة . وعلى أساس هذا التقدير وزعوا الخامات على المصانع ؛ ومع ذلك وجد الألمان بعد مدة أن متوسط ما يمكن أن تنتجه هذه المصانع في الشهر الواحد لا يزيد على خمسين طائرة ، وأربعين دبابة .

على أنه كان من أهم عوامل المقاومة بنوعها (الإيجابي والسليبي) تأليف ذلك الجيش

الكبير الذى يضم تحت لوائه جميع الشعوب المغلوبة على أمرها فى أوروبا النازية ، والى تنوق إلى الخلاص من نير النازى وطغيانهم ، هذا الجيش هو جيش النصر (V. Army) . وعلامته حرف (V) المشهور . ومقر قيادة هذا الجيش فى لندن ، ويتولى تنظيمه الكولونيل (بریتون) Britton . وكان لجيش النصر عدة فروع منظمة فى الدول المحتلة ، بل لقد امتد نشاطه إلى كل بلد وقرية من بلدان أوروبا النازية وقراها وكان يربو عدد « جنده » على ملايين كثيرة من الرجال والنساء . ومع أن أكثر هؤلاء كانوا عزلا من السلاح ، إلا أنهم لم يعدموا وسيلة تمسكهم دائما من النضال ضد الخونة والكويسلنجين وغيرهم من أنصار العدو الذين باعوا أرواحهم رخيصة للنازيين فى أوروبا .

وكانت مهمة جيش النصر الكبرى مراقبة هؤلاء الخونة والكويسلنجين لمنعهم من إلحاق الأذى بأوطانهم عن طريق التعاون مع النازيين ، ومحاربة فض جماعاتهم وأحزابهم . وكان لدى جيش النصر قوائم كاملة بأسماء هؤلاء ، فكان جنود هذا الجيش يكشفون أمر الخونة للناس ويخطون أسماءهم على الجدران فى الشوارع ويهقونهم بتكرار الوعيد والتهديد فى خطابات يرسلونها إليهم من غير إمضاءات ، وكثيرا ما كان ينفق نفر من هؤلاء الكويسلنجين دون أن يتركوا أثرا وراهم ، أو إذا أمكن العثور على جثة واحد منهم ، وجد حرف (V) مرسوما عليها . ولم يفلح النازى والجستابو فى حراسة أنصارهم أو فى تعطيل جهود جيش النصر . بل إن جند هذا الجيش كثيرا ما وجدوا فى الظلام الدامس من جراء الإغارات الجوية المتكررة فى فرنسا وبلجيكا وهولندا فرصة مواتية للبضى فى نشاطهم ، فكانوا يشتحون المجارى ، ويزيلون بوابات وحواجز القنوات (خصوصا فى هولندا) ، ويفيرون وضع المصاييح الحمراء لتضليل الدوريات الألمانية ، وكثيرا ما كان رجال الجستابو يجدون فى الصباح عددا من الجند الألمان ملقى فى المجارى أو فى القنوات أو مصابا بجراح .

وكان لجيش النصر يعضى فى نشاطه وفق برنامج منظم فيذيع قائده (الكولونيل بریتون) على الأثير أسماء الخونة ذوى الخطر الذين ينبغى التخلص منهم ، أو أسماء أولئك الذين يعملون كجواسيس لحساب الجستابو ، فلا ينقضى وقت قصير حتى يكون أكثر هؤلاء قد اختفوا من الوجود ، بينما يعمد الجستابو أنفسهم إلى قتل الجواسيس الذين تذاع أسماءهم حرصا على سلامة نظام « البوليس » السرى الألمانى نفسه .

وفى الحق أن جيش النصر كان يطيع أوامر قائده وإرشاداته بكل دقة ومن أمثلة ذلك أن (الكولونيل بریتون) نشر فى بداية عام ١٩٤٢ اسم الدكتور وليم منجلبرج Mengelberg من كبار الموسيقيين الهولنديين ، بين أسماء الخونة الذين يتعاونون مع النازى ، فحدث فى

أول احتفال موسيقى أقامه (منجلبرج) في امستردام بعد هذه الإذاعة أن قابله الجمهور في قاعة كادت تكون خالية ، بكل أنواع الاستنكار حتى شعر (منجلبرج) بتعذر الإقامة في وطنه واضطر إلى مغادرة هولندا والطواف في سويسرة واليورثغال يقيم بها الاحتفالات الموسيقية غير أن أكبر الخدمات التي كان يؤديها جيش النصر ، إنما هي نشر المقاومة السليبية وتنظيمها في أنحاء أوروبا النازية .

* * *

وكان يقصد بالمقاومة السليبية امتناع الشعوب المقهورة عن التعاون مع النازيين الذين يحتلون بلادهم ؛ وعدم الدخول معهم في غير الصلات التي تفرض الظروف الواقعية وجودها وفي حدود الاتفاقات أو التنظيمات الرسمية أو شروط الهدنة ، وما إلى ذلك ؛ وإعطاء كل معونة ممكنة لقوات الأمم المتحدة في الحرب ضد النازي ، ويدخل في ذلك : تغذية الرأي العام عن طريق الصحافة السرية الحرة - وسيأتي الكلام عنها - وذلك لتأليف كتلة وطنية متماسكة ، ترفض التعاون مع الألمان ، وتعد العدة لاستقبال يوم الخلاص من نيرهم ؛ ثم إيواء الطيارين البريطانيين وغيرهم من طياري الأمم المتحدة الذين ينجون من الموت عند سقوط طائراتهم في أرض (العدو) ؛ وتدير فرار هؤلاء الطيارين ومعاونتهم على اجتياز الحدود أو عبور المانش بسلام إلى شواطئ إنجلترا ؛ كما حدث في الترويج والدانمرك وهولندا وبلجيكا وفرنسا ، ثم تسهيل مرور اللاجئين ، والفارين من معسكرات الاعتقال الألمانية ، كالبولنديين واليهود وأسرى الحرب ؛ وترك الأنوار مضيئة من أعلى النوافذ (سهوا) وقت الغارات على أمل إرشاد الطائرات المغيرة إلى أهدافها .

وهكذا كثرت أساليب هذه المقاومة السليبية وتنوعت ، وكانت أعظم ظهوراً في البلدان التي لا تساعد جغرافيتها أو ظروفها السياسية أو وقوعها تحت رقابة جيش الاحتلال ورجال الجستابو الشديدة على اتقان أهلها أساليب المقاومة الإيجابية ؛ ومن ثم امتازت كل من الدانمرك وهولندا وبلجيكا وبولندا وفرنسا أخيراً بإتقان أساليب المقاومة السليبية ، ولو أنه مما ينبغي ذكره أن هذه البلاد جميعاً قد أخذت تتحول من مجرد أتباع أساليب المقاومة السليبية الآتفة إلى القيام بأعمال التخريب على نطاق واسع والاشتباك مع العدو في معارك دامية وكان الدانمركيون أصحاب الفضل الأول في ظهور نوع المقاومة المعروف باسم « إعطاء الكتف البارد » ، للضيوف النازيين (Den kold Skudde) : أي إهمال أمرهم ، وعدم الاهتمام بهم ، والتمسك بحرفية الاتفاقات الرسمية في المعاملات التي لا مناص من وجودها بين الألمان والدانمركيين ، مما أحاط العلاقات المحدودة القائمة بين النازيين وأهل البلاد بجو من

والبرود ، الشديد . وكان الملك الدانمركى (كرستيان) نفسه زعيم هذه الحركة التى كانت تجعل النازيين يشعرون بعمق الهوة التى تفصل بينهم وبين الشعب الدانمركى كما كانت تجعل من المستحيل على هؤلاء النازيين أن ينتظروا من الدانمركيين غير العداوة الشديدة نحوهم . ومن مظاهر هذه الحركة امتناع الشباب الدانمركيات عن مخالطة الألمان أو الاجتماع بهم فى المرافق والحقاق الإهانة والأذى بأنصار المعاونة مع النازى من جماعة (فريتز كلوسن) Clausen ؛ والتظاهر بجمل اللغة الألمانية ، أو الإجابة على ما يلقيه الألمان على الجمهور من أسئلة باللغة الإنجليزية ، وكذلك وضع الورود والأزهار على قبور الطيارين الانجليز الذين يجدون مشواهم الأخير فى الدانمرك ورسم حرف النصر — V — والحروف الأولى من اسم سلاح الطيران الملكى البريطانى (R. A. F.) على جوانب قبورهم . إلى غير ذلك من الأمور التى دفعت أحد الواصلين من الدانمرك يصف هذه المقاومة بقوله : « من المشكوك فيه أن يلقى أى غاز من ضروب المقاومة نوعا أشد إزعاجا وإيلاما مما يلقاه الألمان فى الدانمرك » .

يبد أن الدانمركيين لم يقتنعوا بهذه الأساليب ، بل أخذت تظهر إلى عالم الوجود حركة سرية واسعة النطاق غرضها التدمير والتخريب فى المصانع التى تشتغل لحساب ألمانيا ، حتى اضطرت حكومة برلين فى أواسط عام (١٩٤٣) إلى إرسال « بلاغ نهائى » بشأن القضاء على هذه الحركة الخطيرة . والمطالبة بمحاكمة الذين يقرّفون أعمال التخريب أمام محاكم ألمانية بدلا من المحاكم الدانمركية التى لا تعترف بعقوبة الأعدام . وفى أغسطس أعلنت حالة الطوارئ . فى عدة مدن هامة مع أن الملك (كرستيان) لم يلبث أن أصدر نداء إلى شعبه ناشده فيه التمسك بأهداب الهدوء والنظام ، وسواء أحدث ذلك نتيجة ضغط السلطات الألمانية عليه أو لأنه كان لا يزال يفضل خطة « أعطاء الكتف البارد » للضيوف الألمان ، — فإنه لم تمض ساعات من صدور هذا النداء حتى عادت حوادث التخريب سيرتها الأولى ، بل واشتدت وطأتها ، ودمر المخربون مصنع (دانسك اليومنيوم فابريك) فى كوبنهاجن ، — مما سبق ذكره — وعلى ذلك احتل الألمان فى ٢٤ أغسطس ١٩٤٣ مدينة كوبنهاجن احتلالا تاما ، وأذاع راديو (كالاندبرج) وكان تحت سيطرتهم ، نداء يحض العمال فى كوبنهاجن على عدم الانقياد إلى دعاة الاستفزاز والثورة ، الذين يوزعون منشورات غفلا من التوقيع يدفعونهم بها إلى أعمال التخريب والتدمير .

ومع هذا فقد ذهبت نضائح الألمان سدى ، وترتب على الاحتلال الجديد وقوع حوادث خطيرة ؛ منها التحام الجنود الألمان مع الدانمركيين فى مناقشات دامية ، ونسف مستودعات الذخيرة فى منطقة الأحواض فى كوبنهاجن ، وفرار جزء من الأسطول الدانمركى إلى موافق .

السويد ، وإفدام البحارة الدانمركيين على إغراق جميع البوارج الحربية التي كانت في ميناء كوبنهاجن والتي لم تستطع الخروج من الميناء ، ثم تمكن عدد كبير من ركوب الزوارق البحرية وفروا عليها إلى السويد أيضا .

وعندما قدمت السلطات الألمانية بسبب هذه الحوادث ، إنذاراً إلى حكومة الدانمرك طلبت فيه السيطرة العامة على البلاد ، رفضت الحكومة هذا الإنذار ، وهدد الملك بالاستقالة إذا قبل إنذار الألمان ، فأعلن (فون هانيكين) القائد العام الألماني الأحكام العرفية في منشور جاء فيه : « إن الحوادث الأخيرة برهنت على أن الحكومة الدانمركية عاجزة عن المحافظة على النظام في الدانمرك . ولما كانت الاضطرابات التي يسببها سماسة العدو موجهة ضد الجيش الألماني ، فأني بناء على ذلك أعلن الأحكام العرفية في البلاد كلها ، . وكانت الخطوة التالية ، أن اعتقل الألمان الملك والوزراء وولى العهد وأسرته ، وحدثت من جراء ذلك التحامات عنيفة بين جنود الحرس والألمان عند قلعة (سود جنفري) التي اعتقل بها الملك ، على بعد عشرة أميال شمالي كوبنهاجن ؛ وكذلك وقعت التحامات أخرى في ثكنات (ريجرسيورجس) وفي مدينة (سفند بورج) و (مستفيد) بجوار كوبنهاجن . وزيادة على ذلك أعتقل الألمان جميع الضباط النظاميين في الدانمرك وقبضوا على رئيس حزب المحافظين ، وزعيم هذا الحزب في البرلمان ووزير الشؤون الكنسية السابق وزعيم الشباب المعروف (إكسل مولر) ، وأخذ الشيوخ ، وزعماء نقابات العمال ، ثم شرعوا يضطهدون اليهود ، فقبضوا على رئيس الجالية اليهودية في كوبنهاجن وكان شيخاً يناهز الثانية والسبعين ، ومعه خمسون من زعماء اليهود ، كما عمدوا إلى أخذ « الرهائن » لقوية الحكم الإرهابي ؛ وهددوا باعتقال زعماء العمال « كرهائن » حتى يخمدوا موجة الإضراب التي اكتسحت (هلسنيجور) وتوسع مناطق أخرى ثم زادت الأزمة تعقداً عندما استقال في آخر الأمر (سكاثينوس) رئيس الوزارة ورجال حكومته ؛ ورفض رجال « البوليس » الدانمركي أداء يمين الإخلاص للقائد الألماني العام (فون هانيكين) . ونجم عن هذا الأمر الأخير أن احتل رجال الجيستابو وجنود الهجوم جميع مراكز الشرطة بالعاصمة في آخر أغسطس ١٩٤٣ .

ومع هذا ، فإن الإجراءات الألمانية الصارمة لم تأت بالنتيجة المرجوة ؛ فقد استمرت الاضطرابات في كوبنهاجن وفي غيرها من المدن ، واتسعت حركة التخريب في الفترة التالية واضطر الألمان بسببها إلى إصدار منشور جديد يعمم حالة الطوارئ في الدانمرك كلها ويصر على التشدد في تنفيذها (٧ سبتمبر) ؛ ولكن أحدا لم يرتدع . فقد جاء في نيا من استكهولم في ٢٩ أكتوبر أن المواصلات والحركة العامة قد عطلت في أنحاء الدانمرك بسبب ظهور حركة

تخريب جديدة واسعة النطاق ، وأن العصابات دخلت محطة ومصنعا آلات اللاسلكي التي تكشف اقتراب الطائرات المغيرة ، فقتلت حارساً وتغلبت على بقية الحراس وحطمت جزءاً من المصنع بالقنابل ؛ وأن عصابات أخرى أشعلت النار في مخازن الألمان في (أودنسي) و (اسبرج) .

وفي أواخر عام (١٩٤٣) كانت هذه المقاومة لا تزال على أشدها ، فالمصانع تنقطع عن العمل ، ويضرب عمالها لآفته الأسباب ، وتكثر حوادث النفس والتدمير بدون توقف في جميع أنحاء البلاد ؛ من ذلك نصف قطار حرب ألماني كان ينقل قوات ألمانية إلى الدانمرك لتعزيز الحامية النازية فيها . وإزاء هذه المقاومة الخطيرة ، اضطر الألمان على ما يبدو ، إلى تعديل خططهم بعض الشيء ، فبعث الهرفنر في أواخر نوفمبر رسالة إلى الملك كريستيان الذي كان لا يزال حتى هذا الحين في شبه اعتقال رسمي ؛ يقول فيها إنه يقدر موقف الملك ويدرك الصعوبات التي تكتنفه من كل جانب ، وأنه لهذا يتوق إلى مقابله للبحث عن الوسائل التي تكفل علاج هذه المشاكل من الجانبين ، ولا سيما أن الدانمرك أصبحت في مفترق الطرق ، ويجب أن تساهم بنصيب كامل في جهود المحور الحربية . وهذا الغرض الأخير كان يستحيل على الملك قبول تحقيقه . لذلك رفض (كريستيان) هذه المقابلة واعتذر عن ذلك بأنه لا يزال مقيد الحرية ولا يستطيع فعل شيء مادام محروماً من الحرية الكاملة في العمل ، وما لم يرد وزارؤه المعزولون إلى مناصبهم ؛ هذا إلى أن حاله الصحيحة لا تمكنه من تجشم مشاق الأسفار ولما كان يعرف أن هناك ما يشغل الفوهرر في الوقت الحاضر ، فقد أمل أن تتاح لهما فرصة أخرى للاجتماع في وقت قريب ! وهكذا جاء رد الملك كريستيان مثلاً في الحقيقة من أمثلة حركة إعطاء الكتف البارد ، للضيوف النازيين ، التي يتقنها الملك الدانمركي الآن كلّه .

وكذلك اتقن الهولنديون أساليب المقاومة السلبية ، وبذل النازيون من مدة جهوداً جبارة لاقتناع سواد الشعب الهولندي بأن الألمان يلقون إقبالا على معاشرتهم والتعاون معهم من جانب شطر كبير من أهل البلاد ؛ وحتى يقيموا الدليل على صحة دعواهم أكثروا من نشر الصور الشمسية المزيفة . فنها ما أظهر جماعة من الضباط الألمان يجلسون في أحد الأندية إلى جانب شابات هولنديات ، أو بعض الجنود الألمان يتحدثون مع الأطفال ويلعبونهم وهكذا ، كما نشروا صوراً جميلة (مزيفة أيضاً) ل هتلر الطفل ، ترسمه كلاك طاهر ، وذلك حتى يجتذبوا قلوب الهولنديين إلى محبة زعيمهم . ولكن الأخفاق التام كان نصيب هذه المحاولات المزرية جميعاً .

بل على العكس من ذلك ، لم يلبث الهولنديون بدورهم أن عمدوا إلى أعمال التخريب والتدمير

واتخاذ جميع الوسائل التي تؤدي إلى تعطيل الانتاج وإثارة القلاقل والإضطراب في أنحاء البلاد وتنضج خطورة الحالة في هولندا وما بلغت إليه من التوتر أن رئيس الجستابو في هذه البلاد اضطر إلى إصدار عدة أوامر (في أواخر يولية ١٩٤٣) ، جاء في أحدها : « أن على قوات البوليس العسكرية والمدني إطلاق النار في الحال وبلا إنذار على كل تجمع يمشي في الميادين العامة أو الشوارع يشترك فيه أكثر من خمسة أشخاص » ؛ أضف إلى هذا إعلان الأحكام العرفية في جميع البلاد الهولندية على أيدي « سايس إينكار » ، حامى هولندا النازي . . . وقد جاء في مرسوم هذه الأحكام مانصه : « يحاكم أمام المجلس العسكري ويحكم عليه بالإعدام كل شخص يشترك في الاجتماعات العامة مهما يكن نوعها ؛ وكل من يرفض أن يقوم بالعمل المكلف به ولو كان رفضه سلبياً ؛ وكل من يشترك في الاعتصاب أو يضرب عن العمل ، وكل من يحمل سلاحاً أو يكون السلاح في حوزته ؛ وكل من يتمرد أو يثور ضد السلطات العامة ؛ وكل من يكتب أو ينشر أو يوزع منشورات من شأنها إثارة الخواطر أو تكبير صفو النظام العام وهذه الفقرة الأخيرة أهمية خاصة لأنها تشير إلى وجود وذبوع ما يعرف في أوروبا النازية باسم « الصحف السرية » ؛ وهذا إلى أنها تتضمن اعترافاً واضحاً بخطور الدور الخفي الذي كانت تلعبه هذه الصحافة الحرة في تقويض أركان النظام الجديد لا في هولندا وحدها ، بل وفي أوروبا الهتلرية جميعها .

* * *

وقد انتشرت المقاومة السلبية في البلدان المحتلة في أوروبا النازية حتى أن الأطفال وصغار السن لم تكن حماسهم تقل عن حماسة البالغين وكبار السن في إظهار كراهيتهم للألمان ، وإصرارهم على عدم التعاون معهم . من ذلك أن جريدة (لوباي ريل) Le Pays Réel البلجيكية ، وهي صحيفة (ليون ديجريل) Dégrelles من كبار أنصار النازي في بلجيكا ، شكت ذات يوم من أن المدارس تحرض الأطفال على الثورة ، ثم ذكر المحرر لإثبات ذلك « أنه صادف تلميذين صغيرين تنشدان في الترام أنشودة وطنية تنتهى بما معناه أن بريطانيا العظمى سوف تكسب الحرب لا محالة ؛ فلما سألهما أن تعلتا هذه الأنشودة أجابته : « في المدرسة ، ولم يلبث البلجيكيون أن أخذوا يحتلون مكاناً ظاهراً بين الشعوب المقهورة التي أقتنت أساليب المقاومة السلبية ضد النازي ؛ وبما لاشك فيه أن هذه المقاومة كانت تستمد قوتها من « الصحف السرية » المتعددة التي ما فتئت تعمل على نقل أخبار العالم الخارجية إلى البلجيكيين في صورتها الصحيحة ، وتحض أهل البلاد على عدم التعاون مع الألمان وتحفي في نفوسهم الأمل في قرب ساعة الخلاص ، وتشجعهم على التأزر في سبيل إلحاق الأذى بألة الحرب الألمانية .

ومع أنه كانت هناك فئة من البلجيكيين الضالعين مع الألمان إلا أنها كانت أقلية لا تذكر وقد أصبحت موضع الكراهية والازدراء في البلاد كما أن العمال والمهندسين البلجيكيين الذين سخرهم الغزاة لإنتاج ما يحتاجون إليه لم يكونوا يزدون على عشر السكان ، ومع هذا فقد اتحدت كلتهم على تعويق الإنتاج بكل مافي طاقتهم من حيلة أو جهد ، أضف إلى ذلك أن ملك البلجيكيين (ليوبولد) قد لزم العزلة منذ مدة طويلة في قصره في (لاكن) على بعد عشرة كيلو مترات من بروكسل ؛ لا يقابل أحداً من الغزاة ، ويأبى التعاون معهم ، ولذلك تركه الألمان في مقره مقيد الحرية ، غير عابئين به ، كما قالوا ، مادام لا يستطيع شيئاً في سجنه الحالي .

وكان من أهم أنواع المقاومة السلبية تدمير المظاهرات في البلدان المحتلة احتجاجاً على أساليب النازي الحكومية وإقامة البرهان على أن هذه الشعوب المغلوبة ترفض التعاون مع النازيين إطلاقاً . وفي أغلب الأحيان وكان الطلبة يتزعمون هذه المظاهرات ، كما حدث في (مظاهرات الجامعات الهولندية) في عام ١٩٤٠ ، في جامعتي (دلفت) Delft وليدن Lyden عندما احتج الطلبة على إخراج الأساتذة اليهود من هاتين الجامعتين . بل إن إصرار (سايس إنكارت) Seyss Inquart حاكم هولندا النازي على تشريد اليهود الهولنديين وإبادتهم سرعان ما أسفر عن وقوع التحامات دموية بين الهولنديين الوطنيين من جانب والنازيين والهولنديين المتعاونين معهم من أنصار (مسيرت) Mussert - كويستلج هولندا - من جانب آخر ؛ ووقعت هذه المعارك خصوصاً في أمستردام ولهاي في شهر يناير وفبراير ١٩٤١ .

وفي العامين الآخرين امتدت عدوى المظاهرات إلى البلدان الأخرى التي وطد النازيون فيها أقدامهم ، فجاء من (أثينا) في مايو من عام ١٩٤٣ أن الطلبة فيها أحدثوا شغباً على أثر حادث قتل فيه الجنود الإيطاليون أحد الطلبة اليونانيين ، وقد اعتصم الطلبة في أحد أبنية الجامعة ، وأخذوا يرمون الجنود الإيطاليين بالحجارة وهم يشدون الشيد الشيوعي الدولي وكذلك جاء من سلوفاكيا في الشهر نفسه ما يفيد قيام مظاهرات كبيرة في المدة الأخيرة في شرق هذه البلاد احتجاجاً على قلة المواد الغذائية بها ، ووقوع حوادث مخزنة أمام المتاجر الخالية .

وفي شهر نوفمبر من العام نفسه (١٩٤٤) جاء من استوكهلم أن سياسياً أجنبياً زار فيينا بعد مؤتمر موسكو (أغسطس ١٩٤٤) أفضى إلى مراسل جريدة (داجنس) في زورنخ بتصريح جلد فيه قوله : — « تحتاج النمسا كلها موجة من التفاؤل حتى لقد زاد فيها نشاط الجمعيات السرية وأعمال التخريب زيادة ملحوظة . وقد أعيد تأليف اللجنة الوطنية التي أنشئت في خريف

سنة ١٩٤١ ، وعهد اليها بإدارة الأعمال السرية في البلاد ، واختيرت لجنة فرعية للجنة المعروفة باسم لجنة المقاومة لغرض واحد هو عرقلة أعمال النازي . وقد أصدرت هذه اللجنة منشوراً دعت فيه جميع العاملين ضد النازي إلى توحيد صفوفهم والتعاون في أعمالهم ، وناشدت النساء جميعاً الاهتمام بالاشتراك مع جميع الشعوب المقهورة وخاصة جيرانهم منها في الجهود التي تبذلها لتظفر بحريتها ؛ وكان هذا المنشور يتضمن آراء عملية بشأن طريقة تنظيم المقاومة ويطلب إلى الجنود أن يفروا إلى إقليم الحدود وينضموا إلى الوطنيين المحاربين ، وكثيراً ما كان يحدث الاعتداء على الموظفين وجنود الهجوم الألمان مما أدى إلى القبض على الناس جملة وصدور أحكام كثيرة بالإعدام . ويقول مصدر آخر إن عقد مؤتمر موسكو شدد عزائم المقيمين في التيرول ، وستيرمارك ، فأخذوا يشعلون نيراناً هائلة في أعلى الجبال ؛ وقد سارت مظاهرات في أحياء العمال في فيينا ورفعت الرايات النمساوية على كثير من المباني ، فتدخل جنود الهجوم الألمان حينئذ ، وقبضوا على مئات من الناس ، وقد أبدى السكان مقاومة عنيفة فأطلق الجنود النار عليهم وجرحوا كثيرين . وقد شوهدت أعلام كثيرة مرفوعة كتبت عليها العبارة التالية : — « لتحيي الجمهورية النمساوية » .

وفي باريس دبر الطلبة المظاهرات ضد النازي ، ومن أمثلة ذلك المظاهرات التي دبرها الطلبة في الحى اللاتيني في أغسطس ١٩٤٠ ، في أثناء معركة بريطانيا ، وعقب فشل الألمان في هذه المعركة ، وقد أطلق الألمان الرصاص على هؤلاء المتظاهرين في كل مرة . ثم مظاهرات ١١ نوفمبر ١٩٤٠ وهذه دبرها الطلبة واشترك فيها أهل باريس لإحياء ذكرى الهدنة وزيارة قبر الجندي المجهول تحت (قوس النصر) . ولم ينفذ المتظاهرون في ذلك اليوم إلا بعد إطلاق رصاص المدافع الرشاشة عليهم في ميدان (الاتوال) Place de l'Etoile ، وقبض الجستابو على مائة وخمسين طالباً تراوح أعمارهم بين ثلاث عشرة وثمان عشرة سنة ، لم يعرف أهلهم عن مصيرهم شيئاً منذ ذلك الحين . وهناك عدا ذلك ، المظاهرات والالتحامات العديدة التي سبقت الإشارة إليها عند الكلام عن مقاومة الفرنسيين ضد تعبئة العمال لتسخيرهم في العمل الإنتاجي في ألمانيا . وكان من جراء أقدام الرينخ على تعبئة العمال الفرنسيين أن توجه طلاب الجامعة والمدارس العليا في باريس إلى الماريشال (بيتان) في يولية ١٩٤٣ بالحطاب التالي : « امتنعنا منذ أكثر من عامين عن كل مظاهرة من شأنها أن تعكر صفو الأمن العام وتعرقل أعمال الحكومة ، ولكن سكوتنا لا يعني أننا قبلنا الحوادث التي وقفنا منها موقف المتفرجين المنكوبين . فقد وقع حادث ترحيل آلاف العمال الفرنسيين إلى ألمانيا موقع الاستمزاز والسخط في نفوسنا وكان إعجابنا كله متجهاً إلى الكثيرين من زملائنا الذين تركوا

البلاد لمواصلة الكفاح ضد العدو الذي يحتل أرضنا ويستغلنا . وقد كنا في الوقت نفسه نعمل النفس بآمال النهضة الوطنية التي كنت تمثلها في نظرنا والتي وعدتنا بها في رسائلنا . ولكن الحوادث مع الأسف كذبت وعودك وأدت إلى انهيار صرح آمالنا . فقد رأينا فرنسا تزدد خضوعاً للألمان وذهبت إلى حد التطوع تحت أعلام قاهرها تلك الأعلام التي بدأ النصر يتحول عنها . أما الآن فقد أزفت الساعة التي يجب علينا فيها أن نستأنف تقاليد الجامعة التي كانت فيما مضى تعرب للوك بكل حرية عن شكاوى الأمة وتعبير بكل قوة عن مطالب الفرنسيين إننا مثلك نبغض تلك الأكاذيب التي أضرت بنا ضرراً كبيراً . ويجب أن نضيف إلى هذه الأكاذيب أكاذيب الهدنة والتعاون التي دفعت بنا إلى قبول ما قبلته بلجيكا وهولندا والنرويج وبولندا ويوغوسلافيا مكرهة . ولندكر بوجه خاص أكاذيب « الحملة في سبيل الحضارة » تحت لواء زعيم ينكر جوهر هذه الحضارة ويحتقر حقوق الإنسان ، وتلك الأكاذيب الأخرى التي تنحصر في استبدال خمسين ألف مريض من الأسرى بخمسة ألف عامل ونحن الآن نرفض أن نكون ألعوبة لمثل هذه الأكاذيب ؛ ونصرح بأن الواجب يقضي على جميع الفرنسيين بأن يرفضوا رفضاً تاماً كل أمر يري إلى العمل لتأمين انتصار ألمانيا . وإنه لمن العار علينا أن نعمل في سبيل قضية نعلم حق العلم أنها غير عادلة ولا تتفق مع استقلال فرنسا والمحافظة على حضارة البشر . لجميع زملائنا سيهريون متى وجدوا الفرصة المؤاتية بدلاً من أن يساهموا في تعزيز أداة الحرب الألمانية . إن فرنسا ملأى بالغابات والجبال حيث يمكننا انتظار الساعة التي نستطيع فيها الانضمام إلى جيش تحرير الوطن . أما من يستطيع منا الفرار فلن يتردد في الانضمام إلى الزعماء الذين يمثلون روح المقاومة ويستحقون ثقتنا وإعجابنا وسيسافر الذين يكرهون منا على السفر إلى ألمانيا وهم يعتزمون مساعدة إخوانهم العمال على تحطيم الروح المعنوية فيها ، وتخريب مهمات عدونا اللدود . إننا لسنا من الملكيين ولا من المجانين ، ولكننا طلبة وطنيون وسنكافح ونتألم مع زملائنا البواسل في جامعات وارسو وبلغراد ولوبليانا وأكسفورد وكبريدج وهارفرد ، ومونتريال ، ولوفان ، ولينين ، في سبيل انتصار مثلنا المشتركة . . .

هذه صورة موجزة لما كان يجري من ضروب المقاومة في أنحاء أوروبا النازية وقد ألحقت أضراراً لا يستهان بها بعتاد الحرب الألماني من جهة ، كما عطلت أداة الإنتاج الاقتصادي إلى درجة كبيرة . وقد ظهر كيف أرغمت هذه المقاومة الألمان على الاحتفاظ بقوة مسلحة كبيرة في جميع البلدان المقهورة لصيانة قلعهم الأوربية من أن تنهار جدرانها ، هذا عدا جيش

الجستابو الجرار الذي انبت أعضاؤه في كل قرية ومدينة لتأييد الاحتلال الألماني ، ولمراقبة أعداء النظام الجديد ، في أوروبا المثرية . فأبقى الألمان عدة فرق في البلقان منذ تحولت هذه البلاد ، بفضل الجيوش والعصابات اليوغوسلافية واليونانية خصوصاً إلى ميادين قتال جديدة ، أصبح من واجب النازيين أن يخوضوا فيها غمار معارك دموية عنيفة حتى يعيدوا فتحها من جديد ؛ وبدأوا يدفعون أثمنا غالية لا انتصاراتهم ، ؛ ثم عبأ الألمان قوى البوليس ، النظامي ، ورجال الجستابو في بقية أوروبا النازية لصون الأمن ، والقضاء على عناصر الفوضى والاضطراب ، والمحافظة على حياة رجال الاحتلال الألمان ، وحياة معاونيهم الكويسلينجيين من أهل البلاد الذين قبلوا التعاون معهم .

ومع ذلك — فإن هذه المقاومة لم تكن وحدها مصدر كل متاعب النازيين في أوروبا فسرعان ما صارت مقاومة أهل البلاد المقهورة ، منذ أفاقوا من الذهول الذي أصابهم على أثر صدمة الغزو الأولى ، تستند إلى تيار خفي لم يلبث أن زادها قوة على قوة ، وأقضى مضاجع الألمان وشرع يقوض أركان النظام الجديد في أوروبا . هذا التيار الخفي ، هو الدعاية المضادة ، أو الدعاية الخفية ، ذلك السلاح السري الذي ظل نصله مرهف رغم أنوف النازيين لافي أوروبا النازية وحدها بل وفي الرينخ الثالث ، دولة أدلف هتلر نفسه .

الفصل الرابع

الدعاية الخفية

كانت الدعاية من الأسلحة القاطعة التي أجاد النازيون استخدامها كل الإجابة منذ قبضوا على أزمة الحكم في ألمانيا ، ومن الحقائق المعروفة الآن ، أنهم كانوا يقصدون من نشر دعايتهم إلى تأييد أركان الحزب النازي في دولة الرينغ الثالث ، ثم إدماج الرينغ في الحزب النازي نفسه ، وفرض مبادئهم وتعاليمهم فرضاً على الشعب الألماني ، حتى يتمكنوا من تأليف تلك الكتلة الصلدة المتماسكة التي كانوا يرون أنه لا غنى عن وجودها إذا أرادوا الوصول إلى السيطرة العالمية المنشودة وكانوا يقصدون كذلك إلى تهيئة بقية الشعوب الأوروبية وإعدادها لاعتناق هذه المبادئ . وقبول سيطرة السادة النازيين عليهم . وقد نجحوا في داخل بلادهم نجاحاً منقطع النظير كان من نتيجته أن أصبح الحزب يسيطر كل السيطرة على الحياة الألمانية ، ويدفع بالامة دفعا عن يقين وعقيدة ، أو دون تفكير وتدبر أو تحت ضغط ماسلطوه من صفوف الإرهاب على الشعب الألماني ، إلى مناصبة الأمم الأخرى العداء والالتحام معها في معارك الحرب الطاحنة . ولم يكن من أهداف (الدعاية) الداخلية بطبيعة الحال أن يعود الشعب الألماني التفكير مطلقاً ، لأن التفكير من شأنه أن يبعث المرء على أن ينقد كل ما يعرض له من مشاكل ، ويدعو إلى مناقشة أعمال رجال الحكم ، ويسبب لذلك صعوبات جمة تتطلب جهوداً معينة لازالتها ، ولا يتفق وجودها مع برامج النازيين وخططهم .

ومن ناحية أخرى ، أصاب النازيون نجاحاً كبيراً في بقية أوروبا . وبخاصة في فرنسا والأراضي المنخفضة والبلقان ؛ فظهر في هذه البلدان التي خضعت لطغيانهم سلباً ، أو من غير مقاومة تذكر ، فريق من السكوسلنجهين تقدم ذكرهم ، قبلوا التعاون مع النازيين ، وأبدوا السيطرة الأجنبية في بلادهم . ومع أن خروج كل هؤلاء إلى الميدان ، بمجرد وقوع الاعتداء النازي على أوطانهم ، كان مفاجأة دهش لها العالم . فان الحقيقة هي أن النازيين ظلوا منذ مدة طويلة يلقون بشبابهم في البلاد المجاورة لهم وكذلك في الأقطار البعيدة عنهم حتى يتصيدوا الموالين لهم ؛ وحتى يجذبوا إليهم الانتصار والمؤيدين ، يشترتهم بالمسال تارة وبالوعد (أو الوعيد) تارة أخرى . ولعبت الدعاية النازية في ذلك كله دوراً دلاً على مهارة فائقة ، واستطاعت أن تقنع كثيرين من هؤلاء الموالين والانتصار ، بالأمور ،

التي شاء النازيون أن يقف العالم كله على « حقيقتها » . ومن هذه « الأمور » — على سبيل المثال — : أن اليهود والشيوعيين يأتمرون بالعالم ؛ وأن من الخير كل الخير أن تتحد الشعوب الأوروبية مع النازيين في بناء حضارة جديدة ؛ وأن الكاثوليك أيضاً مع أعداء الحضارة ؛ وأنه ينبغي أن يمهّد السبيل إلى ذلك كله بإزالة مالحق بألمانيا من إساءات في معاهدات صلح فرساي المعروفة ، وإدخال هذه الدولة في زمرة الدول الكبيرة على قدم المساواة معها وإشراكها في توزيع موارد العالم الأولية ، ومن بين هؤلاء « المقتنعين » ، بصحة هذه الأقوال وجد النازيون ضالّتهم ؛ وبفضل مؤازرتهم استطاعوا شيئاً فشيئاً تحطيم روح الشعوب المعنوية حتى إذا جد الجد وأزف موعد الغزو ، اعتمد النازيون على تسليم أهل هذه البلاد في غير حرب أو مقاومة . ثم كان لهم ما أرادوا حتى قيل إن الجيش الألماني في فتوحه الخاطفة الأولى دخل بلاداً كان قد سبق فتحها وإخضاعها منذ مدة طويلة .

يبد أن دور الدعاية النازية لم ينته في الحقيقة عند ذلك ؛ بل سرعان ما طلب إليها بعد الانتصار الخاطف أن تنشر الدعوة بين الشعوب المهقورة لقبول النظام الجديد على نحو ما تقدم ذكره . ومن ذلك الحين صار النازيون يحرصون على تفسير معنى النظام الجديد ، و يقيمون البرهان بعد البرهان على أنه النظام الذي يكفل من جميع النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية دعم أركان تلك الحضارة الجديدة التي أطالوا الحديث عنها في السنوات الماضية . ثم اجتهدوا حتى يحجبوا أساليبهم وطرائقهم إلى أهل البلاد المفتوحة ، وينشروا بينهم تعاليمهم ومبادئهم ويشوقوهم إلى الاقبال على مناصرتهم وتأيدهم والتعاون معهم لا لتعزيز شكل الحكم الجديد وتأيد أداة ، بل ومن أجل إقصاء العناصر المعارضة جميعها ، والقضاء على المقاومة بمختلف أنواعها ، وتسخير الأهالي في إنتاج عتاد الحرب ، ثم اشراكهم أخيراً في معارك الحرب القاتلة .

واعتمد النازيون على الصحافة والراديو في نشر الدعوة إلى النظام الجديد ، ووجدوا في إثارة الإشاعات والأقاويل سلاحاً ماضياً لا يقل في أثره عن فعل الكلمة المكتوبة ، أو الأحاديث التي ينقلها الأثير إلى كافة الأرجاء ؛ واستند النازيون فيما كانوا يذيعون إلى مبادئ معينة . وصلوا إليها كما قالوا بعد دراسة سيكولوجية الجماعات والشعوب . وأهمها : أن التكرار الكثير من شأنه أن يلصق في ذهن المخاطب نوع الصورة أو الفكرة التي يريد أصحابها أن تعلق في ذهنه وتتغلغل في فؤاده ؛ وأن الكذب الفاضح يجد من سامعه قبولاً وتصديقاً ، لأن الشخص إذا اعتاد الكذب الصغير ، في حياته اليومية ، صار لا يصدق الاكذوبة الصغيرة ؛ بل الاكاذيب الضخمة وحدها هي التي تترك أثراً عالقاً في نفسه ؛ وأن مثل

الجمهير في قدرتها على التفكير كالمقطع من الغنم الذي لا إدراك له ولا تمييز عنده .
ولما كان من شرائط نجاح الدعاوة ، أن تظل الآراء والأقوال الموحى بها والمنقولة إلى
الجماعات من نوع واحد وعلى وتيرة واحدة ، فقد أصبح ضروريا أن تحاط هذه الجماعة
بسياج قوى يعزلها عن غيرها من الجماعات ، فلا تجد الآراء والأقوال المغيرة طريقا تنفذ
من هذا السياج إليها . ولذلك انشئت الرقابة ، وصارت مهمتها في الدول الديكتاتورية وفي
ألمانيا بطبيعة الحال ، السهر على أن يكون الكتاب والناشرون والقصيصون والمهمنون على التعليم
وتربية النشء ومن إليهم ، كالمسامين ، ومديري المسارح ، ومخرجي الصور المتحركة وشركات
النشر والتوزيع ، من طراز معين . ذلك بأن هؤلاء جميعا من أصحاب العلم والرأى ، وينبغي
لذلك أن يسير تفكيرهم في مجرى واحد ، فلا يترك الفكر حتى يخرج عن هذا الطريق المرسوم
أو يطغوا على جوانب هذا المجرى . ولما كانت عدوى الرأى والفكر أخطر من غيرها على
النظم القائمة وكانت الصحف السيارة ، بفضل ما تنشره من أخبار أو تعدده من بحوث مبسطة
تقرب المعاني وما تشاء من آراء إلى أذهان الجماهير ، وتوحى إليها بما تريد أن توحى به ،
أعظم أداة إلى جانب الراديو لإذاعة ما ينبغي أصحابها وكتابها إذاعته ، وضع النازيون مراسلي
الصحف على وجه الخصوص تحت رقابة شديدة ؛ ثم صار الرقيب لا ينشر رسائلهم إذا اشتملت
على خبر أو رأى من شأنه أن يفتح أذهان القوم ، أو يجعل الشك من ناحية ما يعيشون فيه
يتسرب إلى نفوسهم .

ولذلك لم تكد الدعاية النازية تبدأ في نشر الدعوة إلى النظام الجديد من أواسط عام ١٩٤٠
تقريبا حتى طبق النازيون الرقابة ، الصارمة في البلاد المفتوحة ، فسيطروا على الصحافة وعلى
الراديو . وكانت لهم في ذلك أساليب وطرائق متنوعة . الغرض منها جميعا تنظيم نشر
الأخبار وإذاعة الآراء التي يوافق النازيون على نشرها وذيوعها . ومن بين تلك الأساليب
والطرائق أن يحدث نشر الخبر في البلدان المفتوحة في وقت واحد ، على شريطة أن يدرج
الخبر أو يذيع المقال في صفحة معينة وفي مكان معين في جميع الصحف وفي جميع المدن . وإذا
كان الغرض ترويج فكرة معينة والإيحاء برأى من الآراء لخدمة مآربهم أفرغوا هذه الفكرة
وهذا الرأى في قوالب متنوعة تستسيغها أفهام الجماهير والشعوب التي يراد نقل الخبر إليها أو
نشر الرأى المعين بين ظهرانيها . والغاية من ذلك ألا يتسرب خبر أو يذيع رأى لا يرغب
النازيون فيه ، وأن يكون النشر مقصورا على ما يريدون أن يعرفه سواد الناس وخاصتهم ، وفي
الصيغة التي تروقهم .

ولهذا التصرف في نظر النازيين عدة مزايا أولها : تهية الفكر حتى يقبل تفسير حادث

معين سبق أن دبر النازيون وقوعه منذ مدة . مثال ذلك ، الحملة العنيفة التي أثارها النازيون ضد بولندية بدعوى أن البولنديين يسيئون إلى الأقلية البولندية التي تنتمي إلى أصل ألماني (Volks genosse) في بلادهم شر إساءة ، ولايتورعون عن ارتكاب كل جرم من أجل إفناء هذه الأقلية . وذلك حتى يشعلوا نيران الحقد والكراهية في نفوس الألمان ضد الشعب البولندي ، وحتى يستنكر الرأي العام الأوروبي أعمال البولنديين الإجرامية المزعومة ، فلا تجد بولندية من يعطف عليها حينما تنزل بها الكارثة ، ويحتاج الألمان أرضها .

والمزية الثانية ، هي أن يألف أهل الريخ أنفسهم ، بسبب ماتعمرهم به الدعاوة النازية من أخبار وآراء متلاحقة وعلى وتيرة واحدة ، — السكون إلى مايتلقونه من زعمائهم والرضى بما يلقى في روعهم ، فينصرفون عن إعمال الفكر والروية ، إطمئنانا إلى أن قادتهم انما يقومون بمهمة التفكير وإعمال الرأي بدلا عنهم فيصبحون في الحقيقة شبه آلات مسيرة بحركها الزعماء ويوجهونها حسبما يريدون .

ولزيادة احكام هذا الجهد التوجيهي المنظم ، — أو كما يسميه النازيون « Gleichschaltung » ، عني النازيون بكل صغيرة وكبيرة من مسائل النشر ، فأصدروا أوامر عدة تقيد الصحف فيما تنشره وترغمها على اتباع أنظمة خاصة في تدوين الأخبار . ولما خشوا أن تسرب إلى الصحف آراء مغايرة لآرائهم على الرغم مما قد يتخذونه من احتياطات ، حرص النازيون على أن يكون محررو الصحف والكتاب من الأفراد الذين يثقون بهم كل الثقة ، ويطمنون إلى ميولهم ، ونوع تفكيرهم ؛ ومن ثم أخذوا يبعدون عن إدارات الصحف في جميع البلدان المحتلة ، الكتاب والمحررين المشكوك في إخلاصهم ، والذين يعتبرونهم من أعداء النظام الجديد وأحلوا مكانهم أفراداً من الذين يقبلون التعاون معهم ؛ ثم لم يلبث أن دعاهم الحرص إلى إنشاء صحف محلية تكتب باللغة الألمانية في عواصم البلدان المفتوحة ، حتى يضمنوا تنفيذ التعليمات التي تصدرها مراكز الدعاوة الألمانية الرئيسية في الريخ ، على علاقتها ومن غير تعديل أو تحوير يذهب ولا شك بقيمتها وأثرها ، مهما كان التعديل أو التحوير طفيفا في ظاهره . ومن ثم أصدر النازيون في باريس صحيفة Pariser Zeitung الألمانية ، وفي وارسو Warschauer Zeitung كما أصدروا صحفا أخرى في كراكو ، وبلغراد ، وبراج ، والبروك ، والدانمرك ، وكرواتيا ، وسلوفاكيا ، هذا عدا المئات بل الآلاف من الصحف الصغيرة والمجلات المصورة والنشرات وغير ذلك . ومع أن هذه الصحف كانت تصدر في بلدان مختلفة ، فقد جاءت جميعها متفقة في الشكل والتبويب وفي نوع الأخبار والبحوث التي تنشرها ، حتى لتكاد تكون كلها في الحقيقة نسخا متعددة من صحيفة واحدة ، فلا يشعر القارئ بأي اختلاف ، ولا يميز بعضها عن بعض سوى ما يدرج في مكان الأنباء المحلية .

وكان من أثر هذه الرقابة الصارمة ، وهذا الجهد التوجيهي المنظم ، الذي تقوم عليه الدعاية النازية وإدارتها ، أن وجد أهل البلاد المقهورة أنفسهم آخر الأمر في عزلة كاملة عن بقية العالم ، يقرأون ما يسمح به التنظيم النازي فحسب ولا يدرون من أحوال الشعوب الأخرى غير ما يجيز النازيون معرفته . ولكن سرعان ما نجم عن هذا الوضع الشاذ رد فعل عميق في نفوس هؤلاء المقهورين ؛ والسبب في ذلك ، تلك العزلة ذاتها التي فرضت عليهم في وقت عظمت دعاوة النازيين إلى النظام الجديد ، وكثرت أقاويلهم التي وصفوا بها « مزايا » النظام المزعومة . هذا بينما وجد الأهليون بالبرهان الساطع مما يلبسونه في حياتهم اليومية أن هذه الدعاية وهذه الأقاويل كاذبة لأنه بدلا من العيش في ظل حياة وادعة مطمئنة - كما أسرف النازيون في وعودهم - أصبح الأذى من نصيبهم ، وصار الظلم ينزل بهم من كل جانب ، ويعيشون عيش الذل والضعفة في كنف نظام ، يعمل على انحلال الأسرة وتشتيت أفرادها ، ويستخر الشباب والنساء وكبار السن والصغار في العمل الانتاجي المرهق لمصلحة الربح وحده ، ويسلب أقوات الأهليين ويتركهم يتضورون جوعا ويموتون من العرى والبرد زرافات ووحدا كما حدث في بلاد اليونان وغيرها . لذلك صار من الطبيعي أن ، يداخلكم الشك في كل ما يقرأونه ويسمعونه عن النظام الجديد ، وباتوا لا يصدقون ما تروجه الدعاية النازية من ادعاءات وأقاويل عن مزايا هذا النظام ويتوقون إلى الخلاص منه ،

ومنذ شعرت هذه الشعوب المقهورة بأن الدعاية النازية : إنما تريد أن تضللهم بما تنشره عليهم من أكاذيب لم يكن المقصود منها في الحقيقة سوى إخماد الروح المعنوية فيهم وتستخيرهم في خدمة مآرب النازيين ، وإحكام السيطرة الجرمانية على الشعوب الأوروبية المحقرة . بدأ عهد ماصار يعرف في تاريخ المقاومة في أوروبا المحتلة باسم « الدعاية المضادة » ، أو الدعاية الخفية ،

والواقع أنه كان من المنتظر أن تظهر إلى عالم الوجود هذه « الدعاية المضادة » ، عندما تنتهي موجة الفتوح الخاطفة النازية وبمجرد أن تفيق الشعوب المقهورة من أثر صدمة الغزو العتيقة إذ يسترد المذهول ، سمعه وبصره ، ويستعيد إدراكه ووعيه ؛ ومن ثم يصبح في استطاعته أن يميز بين أقوال النازيين وفعالهم ، ويمعن النظر فيما يشاهده حوله . ولم يكن من السهل على المثلوب المقهور أن يفيق من ذهوله ، ما دامت آلة الحرب النازية الضخمة ماثلة أمامه ، وما دام النازيون المنتصرون يستأثرون بأكاليل الغار ، ويدوسون تحت نعالهم شعوبا برمتها . وما دام النصر حليفهم في كل مكان وزمان . لذلك أصبح من الضروري أن تلحق بالنازيين الهزيمة ، وأن تعترض أعمالهم العسكرية بعض العقبات الكأداء ، حتى يزول من الأذهان ذلك

الزعم بأنهم شياطين لا سبيل إلى قهرهم ، وحتى يدرك أهل البلاد المفتوحة أنهم بشر يقعون في الخطأ ويعتريهم الضعف وأن مقاومتهم والتغلب عليهم في حين الإمكان .

ولما كانت التعاليم النازية لا تستند إلى شيء من المبادئ التي أخذ بها العالم المتحضر منذ أجيال وقرون ، ولما كانت دعواهم في إنشاء النظام الجديد الذي يريدونه دعوى عات جبار لا يرضى عن إذلال الشعوب غير الجرمانية بديلاً ، ولما كان البرهان قد قام على أن النازيين بشر قد يفلت النصر من أيديهم ، وقد تدركهم الهزيمة ، فإنه سرعان ما اجتمعت الأسباب التي أفضت إلى ظهور ضروب المقاومة المختلفة التي شهدناها في أوروبا المحتلة ، وإلى ظهور الدعاوة المضادة . وغنى عن البيان أن المقاومة والدعاية الخفية سارتا جنباً إلى جنب ، بل إن الذي حدث فعلاً هو أن الدعاوة المضادة سبقت المقاومة بعض الشيء ، كما أنها كانت في الحقيقة من أساليب المقاومة السلمية المبكرة ؛ هذا إلى أنها كانت من عوامل انتشار المقاومة ذاتها وتوجيهها كما سيأتى ذكره بعد .

وعلى ذلك كان من أسباب ظهور الدعاوة المضادة ، مسلك النازيين أنفسهم في تطبيق النظام الجديد في أوروبا المحتلة ، كما كان من عواملها المباشرة هزيمة النازيين في معركة بريطانيا المشهورة (من ٨ أغسطس إلى ٣١ أكتوبر ١٩٤٠) هذا على الرغم من جهودهم الجبارة المتوالية ، وبخاصة عندما أطلق (جورج) سلاحه الجوى على لندن في ثمانية وعشرين هجوماً كبيراً في وضع النهار ما بين السادس من شهر سبتمبر والخامس من شهر أكتوبر ، فقد تطلع أهل البلاد المقهورة إلى نتيجة هذا الصراع العنيف ؛ ولم تغد « رقابة » النازيين الصارمة شيئاً في كتم أخبار الخسارة الجسيمة التي نزلت بسلاحهم الجوى . وفي هذه الشهور العصيبة أخذ ينمو الشعور بضرورة المقاومة لدى الشعوب المغلوبة . ثم لم يلبث أن وجد هذا الشعور مكاناً في صحف البلدان المحتلة تحت أنوف النازيين وعلى الرغم من وجود « الرقابة » الصارمة التي أنشأوها . فكان فشل النازيين في هذه المعركة الجوية الهائلة موضع أحاديث القوم وتعليقاتهم ؛ بل وموضع « نكاتهم » في بعض الأحيان . وزادت جرأتهم عندما صار البريطانيون بعد ذلك يرسلون الحملات الجوية المدمرة على أوروبا المحتلة وعلى ألمانيا ذاتها — وهي التي قال عنها جورج ، أنها محوطة بحلقة حديدية من الاستحكامات القوية — فتكررت لغارات البريطانيين على فرنسا الشمالية والغربية وعلى الدانمرك وهولنده وبلجيكا والنرويج . ومن هذه الأحاديث والتعليقات بدأت تظهر « الدعاوة المضادة » ؛ ووجدت هذه الدعاية الخفية في بادئ الأمر طريقها إلى الصحف التي أجاز النازيون صدورها . فقد صارت هذه الصحف تنقل أخبار المعارك الجوية إلى قرائها بكل دقة وأمانة ، وكثيراً ما حاول محرروها

الإفلات من الرقابة الصارمة وقد نجحت محاولاتهم في بعض الأحيان . ومن أمثلة ذلك أن صحيفة بلجيكية نشرت ذات يوم خبراً فخواه أن « خمسين قاذفة قنابل ألمانية شوهدت تطير صوب بريطانيا ، ولم يعد منها ست وأربعين » فخاها إنذار شديد من سلطات الاحتلال الألمانية . ولم تكذب بضعة أيام حتى نشرت هذه الصحيفة نفسها خبراً آخر عن قاذفات ألمانية ذهبت للإغارة على بريطانيا فقالت : « شوهدت اليوم ٣٤ قاذفة ألمانية تطير صوب إنجلترا ، وقد عادت منها ٣ طائرة إلى قواعدها سالمة ! » ، فأغلقت السلطات إدارة هذه الصحيفة . وهناك تلك الصحيفة الدانمركية التي أرادت أن تنقل إلى قرائها خبر إغارة موقفة قامت بها الطائرات البريطانية ودمرت مصنعاً كان يشتغل لحساب ألمانيا في هذه البلاد ، ومنعت سلطات الاحتلال نشر خبر هذه الإغارة ، حتى مضى يومان ، فذكرت إدارة الأخبار الألمانية في اليوم الثالث من وقوعها ، أن الإغارة التي حدثت لم تكن ناجحة وأن كل ما أصابه الطيارون الانجليز بقذائفهم كان بقرة واحدة . فانهزت الصحيفة الدانمركية إذاعة خبر الغارة ، وحاولت أن تبين لقارئها مدى الضرر الحقيقي الذي نجم عنها ، على خلاف ما أدعته الدعاية النازية ، فأثبتت الخبر كما صاغته السلطات الألمانية ، ثم أضافت التعليق الآتي : « ولا تزال هذه البقرة تحترق ! »

وبطبيعة الحال لقيت قصة البقرة التي لا تزال تحترق ، ذيوماً كبيراً ، لا يقل في الحقيقة عن ذيوغ قصة الطيارات النازية الثلاثة والأربعين التي عادت إلى قواعدها سالمة ! ووجد الأهليون في الأراضي المنخفضة والدانمرك وغيرها في ترديد هاتين القصتين على وجه الخصوص وسيلة للسخر بالساداة النازيين الذين ظلوا في فترة الحرب الأولى يمتنون النفس بقهر البريطانيين وغزو بلادهم ، وأعلنوا عن هذه الأمتية العزيزة لديهم مراراً وتكراراً ، وأكثرها من ترديدها زهواً وافتخاراً حتى وضعوا « أغنية » في هذا المعنى :

« نحن ذاهبون (أو مبحرون) إلى إنجلترا ، Wir fahren gen Engelland ، وصارت الدعاية النازية تذيب هذه الأغنية في برامجها وأصبحت الأغنية المفضلة أيضاً من الجند النازيين في كل مناسبة . وكان الغرض من إذاعة هذه الأغنية وترديدها إخماد أى أمل لدى الشعوب المقهورة في إمكان الاعتماد على بريطانيا في نجدهم . ولذلك لم يكذب يظهر فشل النازيين وعجزهم ، وتعرف حكاية الطائرات الثلاثة والأربعين وقصة البقرة ذات الحظ السيء حتى زالت هيبة الألمان إلى حد كبير من النفوس ، كما تزعزع الاعتقاد في أن النصر لابد أن يكون دائماً من نصيب السادة الألمان ، ثم اتخذ السخر بالنازيين في هولنده وبلجيكا والدانمرك وفرنسا خصوصاً أشكالاً متنوعة . منها أن أهل الموانئ في هذه البلدان المفتوحة صاروا

ينقبون عن الاعلانات القديمة وجداول مواعيد قيام السفن في القتال الإنجليزي ، حتى إذا عثروا على عدد من هذه الجداول أو الاعلانات ، أعادوا لصقها على جدران ثكنات الجند الألمان ، والبنابات العسكرية الألمانية ، ثم كتبوا في ذيلها يستفهمون : « وما موعد قيام المركب التالية إلى إنجلترا ؟ » . وفضلا عن ذلك فإن كثيرين من أهل هذه الموانئ صاروا يعترضون الجند الألمان في الطريق حتى يسألوهم إذا كانوا يعرفون أن المهر هتلر قد ابتاع حديثاً أقوى جهاز للراديو في العالم ! فإذا لم يكن الجندى لبقاً متيقظاً وسأل بدوره ولماذا يشتري المهر هتلر هذا الجهاز ، أجابوه على الفور : « لأن هذه هي الوسيلة الوحيدة التي يمكن أن تأتيه بانجلترا ! » . ولعله كان من نتائج إخفاق الألمان في مشروع غزو إنجلترا إخفاء « الأغنية » السابقة ، ثم ظهور أغنية أخرى سماها أصحاب « الدعاوة المضادة » ، بأنشودة « عدم الوصول قط إلى هناك — أى إنجلترا — » ، « "Niegelungenlied" »

وكان من أسباب نمو « الدعاوة المضادة » قيام الحرب بين ألمانيا النازية والروسيا في يونيه ١٩٤١ . صحيح أن النصر ظل حليف الألمانين في المعارك الأولى من هذه الحرب ، واقتطع النازيون من دولة السوفييت أقاليم شاسعة ؛ وكان من المنتظر أن يضعف إيمان الشعوب المقهورة من جراء هذا الانتصار السريع في بداية الحملة الروسية . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث ، لعدة أسباب : منها أن اشتباك النازيين في حرب مع الروسيا التي لاتعرف الجماهير عنها سوى أنها من الأقطار السحيقة ذات الموارد التي لاتنضب من الرجال الصالحين لحل السلاح ، لابد وأن يخاف لأداة الحرب النازية مشا كل عويصة ، لا يكفي النصر السريع لتذليلها ما دام هذا النصر غير حاسم ، وما دامت الجيوش الروسية الجرارة تتخذ خطة المراوغة والاستدراج ، وتفوت على النازيين كل فرصة للاتحام مع أعدائهم في معركة فاصلة ترغب الروس على التسليم وطلب الهدنة ثم الصلح مع ألمانيا . وقد أصابت الشعوب المغلوبة كبد الحقيقة في تفكيرها هذا ، وسرعان ماوضح على الرغم من الانتصارات الأولى ، أن النازيين لا يستطيعون شن الحرب الخاطفة في أملاك الاتحاد السوفييت ذات الأطراف المترامية ومناطق الإنتاج الكثيرة المتباعدة . ولذلك فانه بدلا من أن يكون النصر النازي المبكر في هذه الحرب سببا في إخماد « الدعاوة المضادة » ، أصبح على العكس من ذلك من أسباب ازدياد « الدعاوة الخفية » ، وانتشارها

أضعف إلى هذا أن الحملة الروسية — على نحو ما سبقت الإشارة — اقتضت إرسال مئات الألوف من الألمان المجندين إلى جبهة القتال ؛ هذا إلى جانب الفرق المتعددة من أبناء الدول

البلقانية الضالعة مع النازيين خصوصاً . ونشأت عن هذه الحال معضلة جديدة في الريح الثالث ،
هى تزويد المصانع المشتغلة فى إنتاج عتاد الحرب الألمانية بالأيدي العاملة . وعمد النازيون إلى
تذليل هذه الصعوبة بنقل العمال الأجانب للعمل بالمصانع والمناجم الألمانية ، ثم تنظيم إنتاج
المصانع والمناجم فى البلدان المحتلة تحت إشراف سلطات الاحتلال ورجال الجستابو . وقد
تقدم بحث مشكلة العمال الأجانب فى الريح عند الكلام عن « الاقتصاد النازى » فى أوروبا .
ولذلك كانت تعبئة الأيدي العاملة وتسخير الأهلى فى الإنتاج الألمانى من أهم أسباب نمو حركة
« الدعاوة المضادة » ، ثم إمعان أهل هذه البلدان المغلوبة فى اتباع خطة المقاومة بنوعىها معا :
السلبى والإيجابى .

وزيادة على ذلك ، فانه سرعان ماظهر أن الحملة الروسية قد كلفت النازيين أثمنا باهظة فى
العتاد والرجال ؛ وأن تقهر الروس أمام الجحافل النازية الزاحفة عليهم ، كان يجرى وفق خطة
موضوعة إلى حد كبير . لأن الروس علمتهم تجارب الحروب الماضية منذ أكثر من مائة عام
— وبخاصة إبان حملة نابليون المشهورة على بلادهم فى عام ١٨١٢ — ، أنه كلما أوغل العدو فى
أرضهم الشاسعة وبعد عن مراكز تموينه ، سهل على عصابات المقاتلين الروس قطع خطوط
مواصلاته وإرهاق مؤخرته ، مما يجعل النصر بعيدا عن متناول يده والغلبة فى نهاية الأمر لهم
ومن المعروف أن الروس اتبعوا فى حملة نابليون خطة « الأرض المحروقة » . واتبعوا فى
الحرب الهتلرية الماضية خطة إحراق الأرض بما عليها ، وتدمير المرافق وأنايب المياه وتخريب
المساكن وإفقار القرى والدساكر من أهلها ، ونقل مخزونها من المؤن والأغذية وذلك حتى
لا يجد الفاتح مأوى أو مأكلا أو موضعا لراحة أو استجمام . وقد ظهرت نتائج ذلك كله عندما
اعترف النازيون بأن الحرب الروسية سوف يطول أمدها ، وأن الشتاء سوف ينزل عليهم
ببرده القارس وهم فى الميدان الشرقى المتعب ، وأن أساليب الحرب الخاطفة والوحدات
الميكانيكية السريعة ، لا تفيد شيئا فى كسب نصر سريع ، على غير ما كان جمهور القادة وسواد
الشعب الألمانى يتوقع ، وهناك أدلة كثيرة على أن النازيين ما كانوا ينتظرون أن يمتد أجل
الحرب إلى شتاء العام التالى (١٩٤١ — ١٩٤٢) . وقد أحدثت هذه الخيبة المرة أثرا عميقا
فى نفوس النازيين كما أحييت آمالا عريضة فى صدور الشعوب المقهورة . وفى الفصول التالية
سوف نتحدث عن أثر هذه الخيبة فى داخل ألمانيا ذاتها .

* * *

وفى نهاية العام نفسه (ديسمبر ١٩٤١) ، جد عامل آخر كان ذا أثر بعيد فى نمو الدعاية
الخفية ، وانتشار الدعاوة المضادة فى أوروبا النازية : هذا العامل هو دخول الولايات المتحدة

الأمريكية الحرب ضد النازيين وأحلافهم . وجاء دخول الولايات المتحدة الحرب — إلى جانب اعتبارات أخرى قيمة — بمثابة الهزيمة الشنيعة لأداة الدعاية النازية . فقد كان انضمام هذه الديمقراطية العظيمة إلى جانب البريطانيين والأمم المتحدة معهم في الصراع ضد طغمة النازيين نذيراً بأن الحملة الروسية المشثومة على السادة النازيين سوف تزداد شؤماً عليهم بمرور الأيام والشهور ، وأن الحرب سوف تجد ميادين جديدة خارج القارة الأوروبية تنتقل إليها ، ولا يكون للنازيين أمل الانتصار فيها أو الاحتفاظ بالقدرة على السبق في العمليات العسكرية دائماً ، وأن الحلفاء الجدد عاملون ولا شك على إيجاد جهات للقتال ثانية ، وثالثة ، توزع جهد النازيين وتشتت قوى إنتاجهم ؛ وأن عتاد الحرب من مؤن وأغذية وخامات وذخائر وأسلحة وعقاقير وأدوية ، وأيد عاملة ورجال ، سوف يتدفق تدفقاً على روسيا المحاربة الصامدة ؛ وأن أى أمل لدى النازيين في النصر لا بد وأن ينقضى ويذول عاجلاً ، وأن فرصة التحرر من سلطان النظام النازي الجديد لا بد آتية ، وأن العاملين من أجل الحرية في جميع البلدان المغلوبة على أمرها سوف يظفرون بالخلاص قريباً إذا هم ساهموا من جانبهم بنصيب في إلحاق الهزيمة بالماحقة بالنازيين وبأذنانهم من الكويستلتيين والمتعاونين معهم في أوروبا النازية والواقع أن انحياز الديمقراطية الأمريكية إلى المبادئ التي ناضل البريطانيون وحلفاؤهم من أجل تعزيزها كان حدثاً عظيماً لا في تاريخ هذه الحرب الضروس وحدها ، بل وفي تاريخ الحضارة والإنسانية كذلك — فمن المعروف أن النازيين ظلوا ينشرون دعاوتهم في جميع أرجاء العالم المتمدين — ومنها الأمريكتين الشمالية والجنوبية ، منذ اللحظة التي وصلوا فيها إلى مراكز الحكم في ألمانيا (١٩٣٣) . وقصة الطابور الخامس ونشاط أعضاء هذا الطابور من الموضوعات التي صار لا يحفلها إنسان منذ أن خلعت ألمانيا النازية القناع وامتشقت حسام الغزو والفتح في وجه الديمقراطية « المتداعية » ، ولم تتورع دولة الريخ الثالث لنشر دعاوتها عن استخدام سفاراتها وقنصلياتها في الدول الأجنبية ، كـ « لايا ومارا » لجمع شتات رعاياها فيما وراء البحار ، وتنظيمهم في شكل جماعات تأتمر بأمر (الفوهرر) وتدعن لمشية الزعيم ورعايته ، حتى تألفت من بين الألمان ، وأقارب الجرمان ، والذين ينحدرون من أصل ألماني ولكنهم تجنسوا بجنسيات غير ألمانية ، جماعة ضخمة صارت بمثابة الاداة التي يعتمد عليها الريخ في إضعاف الروح المعنوية لدى الشعوب غير الجرمانية ، وبذر بذور الانقسام بين الأهلين ، واستمالة الأنصار وهلم جرا . ثم ظهرت من بين أعضاء الطابور الخامس الكبير طائفة من الخربين والمدمرين الذين كانت مهمتهم إضعاف أداة الانتاج الاقتصادي وتعطيلها في الدول التي شعر النازيون بالخوف من ضخامة مواردها . ولذلك حرصت الدعاية النازية كما حرص

وكلاء النازي في الولايات المتحدة الأمريكية على أن يكثر إنشاء الخلايا النازية بحيث تكون شبكة عريضة تمتد في أرجاء هذه الديمقراطية العظيمة . وكان الغرض من هذا التنظيم نشر الدعاوة القوية ضد دخول الولايات المتحدة الأمريكية هذه الحرب الطاحنة بأى حال من الأحوال ، مستندين فيما يثبتونه من آراء وينشرونه من كتابات ووجوده من أقوال ، إلى رغبة سواد الشعب الأمريكى فى التمسك بخطة الحياد التقليدية وعدم الاشتباك فى حروب قد يخرج منها صفر اليدين إلى جانب ما تكلفه هذه الحرب عادة من ضحايا جسيمة فى الأموال والأرواح كما حدث فى الحرب العالمية الأولى . . . ، أو كما قال النازيون وصنائعهم !

ومع هذا فإن تمسك الولايات المتحدة بخطة الحياد حيال ذلك الصراع العالمى لم يكن كل مارغبه النازيون بل كان من أهدافهم القريبة تنظيم مقاومة فعالة تقف فى وجه كل محاولة ترمى بها الدولة إلى تحديد أسلحتها وزيادتها وتقوية استحكامات الدفاع ؛ بما يقتضيه هذا الدفاع من بناء السفن الحربية ونجهاز أدوات الحرب الحديثة وما إليها ؛ حتى اذا جد الجدد حدث ما لم يكن فى الحسبان ، شعرت هذه الديمقراطية العظيمة بنقص استعدادها العسكرى ، وخشيت لذلك دخول الحرب . فإذا لم يمنعها هذا الخوف ، لحقت بها الهزيمة سريعا ، أو ظلت عاملا ثانويا لا يقدم ولا يؤخر فى سير الحرب ولا يغير شيئا من نتائجها الحاسمة .

وقد أصاب النازيون بعض النجاح فيما أرادوا ، وتأخر بالفعل دخول الولايات المتحدة الحرب مدة ، وظلت الشعوب المقهورة تردد أثناء ذلك هذا السؤال : هل تخوض هذه الجمهورية العظيمة غمار الحرب إلى جانب (الديمقراطية) وتساهم فى تحرير الأمم وخلاصها ومتى تنحاز الولايات المتحدة إلى جانب البريطانيين وأحلافهم ؟ ولا شك فى أن انضمام هذه الجمهورية إلى جانب الأمم المتحدة كان غنما كبيرا يقدر أهل البلدان المغلوبة قيمته ، كما كان النازيون يدركون خطر الآثار المترتبة عليه . وقد شمرت الدعاية النازية عن ساعدها فى شهور الحرب الأولى حتى تمنع نزول هذه الكارثة . . وكانت المهمة شاقة متعبة . لأنه لم يكن من واجبها تعزيز رغبة الحياد فى داخل الولايات المتحدة فحسب بل كان عليها أيضا أن تدخل الطمأنينة إلى قلوب الشعب الألمانى نفسه فى دولة الريح الثالث . لأن الألمان كانوا مايزالون يذكرون ما أحدثه اشتباك الولايات المتحدة الأمريكية من رجحان كفة الحلفاء السابقين فى الحرب العالمية الأولى ثم هزيمة القيصرية وانتشار القوضى والاضطراب فى البلاد سنوات عدة حتى وصل النازيون من جراء ذلك كله إلى الحكم والسلطان على أنقاض جمهورية ويمار البائسة . ولعبت الدعاية النازية فى هذه المسألة الشائكة دورا غريبا ، فبينما كان وكلائها وعمالها يبذلون كل جهد فى العالم الجديد لاستمالة الرأى العام الأمريكى إليهم وإلى قبول مبادئهم ، وكسب صداقة

الأمريكيين وعطفهم على «مطالبهم» ، والتمتع بثقتهم ، كانوا من ناحية أخرى في داخل ألمانيا ذاتها يحطون من قدر الأمريكيين ، ويعتبرونهم من بين الأمم المشحلة التي يسيطر اليهود على شؤونها وينفثون سموهم القاتلة في كيائها .

بيد أنه سرعان ما تبين أن الدعاية النازية في الولايات المتحدة كانت فاشلة . فلم يكدمضي عام واحد على بداية اعتداء النازيين على أوروبا حتى أصدر رئيسها (فرانكلين دي لانوروزفلت) تصريح « الحريات الأربع » المشهور في ٧ يولييه ١٩٤٠ الذي قال فيه : « نأمل أن يطلع علينا المستقبل الذي نعمل على إعدادة في الوقت الحاضر بمدينة تقوم دعائمها على حريات البشر الأساسية . وأولى هذه الحريات : حرية القول والرأى ، والثانية : الحرية التي تجعل في استطاعة كل إنسان أن يعبد الله وفق معتقده ، والثالثة : الحرية التي يحصل عليها الإنسان بالتححرر من نير البؤس ، والرابعة : الحرية التي تلتج عن التحرر من الخوف . وليست هذه الحريات أحلاماً بعيدة المنال يتطلب تحقيقها أجيالاً طويلة ، ولكنها مبادئ حقيقية ملبوسة يجب على جيلنا الحاضر أن ينشرها في العالم أجمع » . فدل هذا التصريح — « تصريح الحريات الأربع » — على أن الديمقراطية الأمريكية العظيمة لا يمكن بأى حال أن توافق على مبادئ النازيين وتعاليمهم أو تقبلها ، وأنها تسير في الحقيقة بخطى حثيثة صوب الانضمام إلى جانب بريطانيا ومجموعة الأمم المتحدة ، وأن الفشل الذريع كان في نهاية الأمر نصيب الدعاية النازية في الولايات المتحدة الأمريكية . وفي الواقع كان التناقض واضحاً بين هذه « الحريات الأربع » التي أراد الرئيس الأمريكي ذيوها حتى تصبح أساساً تقوم عليه حضارة البشر ، وبين المبادئ التي انطوى عليها ذلك النظام الجديد ، الذي كان يطبقه النازيون في أوروبا المحتلة تمهيداً لفرض السيطرة الجرمانية على أمم العالم قاطبة .

وفي الشهور التالية ترقبت الشعوب التي وقعت تحت نير النازيين بزوغ فجر ذلك اليوم الذي يصبح فيه وقوف الولايات المتحدة إلى جانب الأمم المتحدة حقيقة واقعة ، ولم يقد طغيان النازي على أيدي رجال الجستابو الملتطخة بالدماء ، ولا قسوة سلطات الاحتلال الألماني ولا الرقابة الصارمة ، شيئاً في إخماد آمالهم أو عزلهم عن بقية العالم ومنع تسرب الأخبار إليهم . وظل الحال على ذلك ، حتى جاء اليوم الذي استطاع أن يجتمع فيه رئيس الحكومة الانجليزية (ونستون تشرشل) برئيس الجمهورية الأمريكية على ظهر سفينة حربية وسط المحيط الأطلسي ، ووضع الزعيمان « وثيقة الأطلسي » التاريخية في يوم ١٤ أغسطس ١٩٤١ . فكانت هذه الوثيقة بمثابة العهد الأعظم الذي يتمسك به كل شعب يرغب في الحياة الحرة الصادقة في عالم يقوم على مبادئ إنسانية عالية تضمن له البقاء في ظل سلام مستقر

لا يهدده طمع الدول الكبيرة ولا يجد فيه النازيون ومن سلك مسلكهم طريقاً يمكنهم من تحقيق أغراضهم . وأى برهان أقوى على إيمان الديمقراطيه الأمريكية بقديسيه المبادئ الإنسانية النبيلة التي تناضل من أجلها بريطانيا والأمم المتحدة ، من قول الزعيمين في المادة السادسة من هذه الوثيقة أنهما يأملان بعد سحق الاستبداد النازي أن تتوطد دعائم السلم الذي ينتج لجميع الأمم وسائل العيش بسلام في دائرة حدودها ، ويمكن الناس في جميع أنحاء المعمورة من العيش في مأمن من الشقاء والخوف . وأى تنديد أشد من هذا التنديد بمبادئ النازية الفاشية وتعاليمها والحقيقة أنه لم تكن تسمى فترة وجيزة على وضع هذا الميثاق التاريخي حتى اعتدى اليابانيون اعتداءهم الأثيم الغادر على (بيرل هاربور) في ٧ ديسمبر ١٩٤١ ، وفي ١١ منه أعلنت ألمانيا وإيطاليا الحرب على الولايات المتحدة الأمريكية ، فأعلنت أمريكا الحرب عليهما !

وجدد صدور وثيقة الأطلنطي نشاط أنصار المقاومة السلبية والإيجابية في أوروبا النازية ووجدت « الدعاوة المضادة » في المبادئ التي تضمنتها هذه الوثيقة وسيلة لحياء الأمل في النفوس وزيادة الثقة في النصر القريب . ولعل أظهر آثار هذه « الوثيقة » ، أن الشعوب المهضومة صارت تتخذها مثالا تسج على منواله في تحديد الأغراض والأهداف التي تسعى جماعات المقاومة لتحقيقها . فقد استرشد أنصار المقاومة السرية في فرنسا بمبادئ هذا الميثاق في وضع أسس الاتفاق الذي أرادوا أن يجمع بين جبهة المقاومة الداخلية في فرنسا والفرنسيين الأحرار من أنصار (ديغول) De Gaulle في العمل المشترك من أجل تحقيق البرنامج الذي يرتضونه لتنظيم الحياة الحرة المستقبلية في فرنسا ذاتها وفي امبراطوريتها . وجرت هذه المفاوضة تحت أنوف النازيين وعلى الرغم من سيطرة الجستابو الرهيبة ، على أساس إزالة حكومة فيشي الآثمة ، وتمتع فرنسا « الموحدة » بمطلق السيادة في داخل البلاد وفي الامبراطورية ، بعد استرداد هذه السيادة وهذه الوحدة . ومعنى ذلك أن يسترد الشعب الفرنسي جميع حرياته المفقودة ، بالقضاء على دكتاتورية النظام الوطني الاشتراكي الذي أنشأه النازيون في البلاد ، وبانزال العقوبة الشديدة بأولئك الذين تعاونوا مع أعداء الوطن وساعدوا على تحطيم حقوق الفرنسيين وألحقوا الأذى بمصالحهم ودنسوا شرفهم وبإعطاء فرنسا جميع الضمانات الداخلية والخارجية ، التي تكفل الحرية والاحترام والأمن والطمأنينة لكل مواطن في داخل البلاد ، وتمنع عدوها التاريخي من غزوها ، ثم تمكنها من رد عدوانه إذا حدثته النفس بالاعتداء عليها مرة ثانية ، وكذلك بالابقاء على فرنسا أمينة على تقاليدها الجمهورية والديموقراطية ، وإحياء مثلها العليا في الحرية والإخاء والمساواة ! وقد سمي هذا الاتفاق الذي عقد في عام ١٩٤٣ بـ « الميثاق الأطلنطي الفرنسي » .

وفي الحق إن الدعاوة المضادة أو الدعاية الخفية قد بلغت أشدها في عام ١٩٤٢ وصار من المتعذر على النازيين إخمادها مهما استخدموا من أساليب . بل إن حوادث المقاومة الإيجابية التي زادت زيادة كبيرة في ذلك العام أيضاً ، كان من شأنها هي الأخرى تأييد الروح المعنوية لدى الشعوب المقهورة ، وتغذية الدعاوة المضادة بسلسلة لا تنقطع من الأخبار يجد الأهليون في قراءتها شاحداً لهممهم من جهة ومسرياً عن نفوسهم من جهة أخرى . وفضلاً عن ذلك فقد لحقت بالنازيين في ذلك العام أكبر هزيمة حاسمة ، في ميدان من الميادين التي عقدوا على الانتصار فيها آمالاً عريضة : وهو الميدان الأفريقي . ولم يكن هذا الميدان في يوم من الأيام — كما أذاعت الدعاية النازية والمحورية ، بعد أن تذوق السادة النازيون طعم الهزيمة — من الميادين الثانوية ، لأن فرض السيطرة الجرمانية على القارة الأوروبية ودعم أركان هذه السيطرة كان يقتضى نشر سلطان النازية أيضاً في حوض البحر الأبيض . ومنذ بداية الحرب أدرك ثقة الخبراء العسكريين ، وفي مقدمتهم (ماكس فرنر) Max Werner أن السيطرة على هذا البحر يقتضى دعمها الاستحواذ على الأراضي الواقعة في حوضه والتي تحدها البحر من جنوبه ، أى الاستيلاء على أقطار البحر الأبيض الشرقى والقطر المصرى وأفريقية الشمالية والغربية . فكان يوماً عظيماً ذلك اليوم الذى فوت فيه البريطانيون وأحلافهم على النازيين فرصة النصر في معركة العلبين التاريخية في ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٢ . ولذلك كله لم يكن غريباً أن تظل الشعوب المغلوبة في أوروبا النازية ، أشد الشعوب قلقاً وترقباً لتتأجج هذه المعركة الفاصلة ولم يكن غريباً أن يكون البولنديون وهم من أشد أنصار المقاومة بنوعها السلبى والإيجابى ، أول من عرف بخبر هذه الهزيمة !

فقد حدث في الساعة العاشرة والرابع من مساء ٤ نوفمبر ١٩٤٢ أن كان جماعة من الرجال والنساء البولنديين من أنصار الدعاوة المضادة مجتمعين في أحد الأقبية حول جهاز للراديو ينصتون إلى الأخبار بسماعات وضعوها على آذانهم خوفاً من أن يتسرب صوت الاذاعة إلى الخارج ، فيكشف الجستابو مقرهم ويكون جزأؤهم الأعدام ، وإذا بصوت المذيع يتحدث إليهم بلغتهم البولندية من محطة لندن (B.B.C.) وينقل إليهم خبر اندحار (روميل) في معركة العلبين وهزيمته في أفريقية الشمالية ! فكان لهذا الخبر وقع عظيم الأثر في نفوسهم : كيف لا وقد أحرز الحلفاء بعد ثلاث سنوات نصراً حاسماً !

ولم يكن البولنديون وحدهم في هذا المساء هم الذين أنصتوا إلى الاذاعة البريطانية . فقد سمع هذا الخبر أيضاً البورتغاليون ، نقله إليهم الراديو بلغتهم البورتغالية . ولم يكن على البورتغاليين من حرج إذا استمعوا إلى إذاعة المحطة الانجليزية . ولذلك لم يكذب يشرق

صباح اليوم التالى (٥ نوفمبر) حتى كان الخبر قد انتشر فى أرجاء أوروبا النازية ، ولم يكن الراديو وحده صاحب الفضل فى ذبوع خبر الهزيمة المنكرة الفاصلة . بل خرجت على أهل البلاد المقهورة فى صباح اليوم نفسه « الصحف السرية » تحمل هذا النبأ العظيم إلى قرائها فى بولندة والنرويج وهولندة وبلجيكا وفرنسا وغيرها ، وكانت الصحف السرية من أعظم وسائل الدعاوة المضادة شأناً ومن أشدها خطراً على سلطان النازيين فى أوروبا .

وهكذا بدا كأن إله الحرب قد أخذ ينصرف عن تأييد النازيين ، وبدأت من ثم تنزل الهزائم بقواتهم بعد ذلك فى كل ميدان تقريباً . ثم تفاقمت حوادث التخريب والتدمير فى قلب قلعة هتلر الأوربية . وقد مر بنا كيف أرغم النازيون على خوض غمار الحرب مع العصابات والجيش اليوغوسلافية واليونانية وغيرها فى البلقان ، كما أنما الحرب قد استؤنفت من جديد من أجل أن يفتح النازيون هذه البلدان مرة ثانية . وفى العام التالى (١٩٤٣) انهزم (روميل) نهائياً فى أفريقية الشمالية والغربية ، واستسلم (فون باولوس) قائد الجيش السادس الألمانى مع هيئة أركان حربه أمام ستالينجراد . ثم غزا الحلفاء صقلية وإيطاليا وتوالت هزائم النازيين فى روسيا . وكان من حوادث هذا العام أيضاً اجتماع أقطاب الديموقراطيات العظيمة فى سلسلة من المؤتمرات فى موسكو والقاهرة وطهران لتوحيد الجهد من أجل إحراز النصر النهائى فى الحرب ضد ألمانيا واليابان وإيطاليا ، وتخليص الإنسانية من شرور النازية المستطيرة ، ودعم الأسس التى ينبغى أن يقوم عليها عالم المستقبل على قواعد « الحريات الأربع » ومبادئ ميثاق الأطلسنطى .

تلك إذن كانت العوامل التى أدت إلى ظهور الدعاوة المضادة فى أوروبا النازية وسببت ذبوعها وانتشارها . وإنه يحق لنا الآن أن نتساءل عن أغراض هذه الدعاوية الخفية ، ثم ننقل من ذلك إلى بحث الوسائل التى استخدمتها فى دعاوتها ضد الطغيان النازى فى أوروبا .

كان للدعاوة المضادة من أول الأمر غرض واحد ، هو المساهمة فى الجهد الذى تتطلبه زحزحة كابوس النازيين الجاثم على صدور أهل البلدان المقهورة ، ومن أول الأمر أيضاً ، عرف الأهليون الذين حز فى نفوسهم ماشهدوه من وقوع أوطانهم فريسة فى أيدي الطغاة الباغين أنه كان من المستحيل عليهم أن يطردوا هؤلاء الغزاة الفاتحين من غير سلاح يشحذونه فى وجوههم ولم يكن هناك من سبيل إلى الحصول على الأسلحة أو إعداد الجيوش المنظمة فى عدد كبير من هذه البلدان المغلوبة على أمرها مادام النازيون أصحاب الحكم والسيطرة ، وما دام النصر

حليفهم ، وما دام سواد الشعب — في المراحل الأولى من الحرب — ينظر اليهم كأنصاف آلهة خلقوا من غير طينة البشر وقدت قلوبهم من الصخر لا يلبثون ولا يرحون . بيد أنه من جهة أخرى ، لم يلبث أن تبدد الذهول الأول رويداً رويداً . وسرعان ما صار طبيعياً أن يتساءل القوم عن خير الطرق المؤدية إلى جمع الشمل وتوحيد الكلمة وتوجيه الرأي لتدبير المقاومة ضد السادة النازيين وإضعاف شوكتهم . ومن ثم ظهرت أغراض الدعاوة المضادة أو الدعاية الخفية منذ اللحظة الأولى ذات معالم معينة واضحة يمكن تلخيصها في أن أصحابها صار دأبهم الآن إحياء الآمال في صدور مواطنيهم وانتشالهم من الوهدة التي أوداهم فيها النصر الألماني ، وإقناعهم بأن ساعة الخلاص لا بد آتية إذا هم أيقنوا أنه يستحيل على الغزاة مهما أوتوا من قوة وسلطان ، أن يمحوا من عالم الوجود تقاليد الأمم وأمانها وآمالها ، وأن صاحب الإيمان في قدسية قضيته وعدالتها لا بد منتصر في النهاية . ثم كان من مقتضيات إحياء هذا الأمل في النفوس أن يسترد الأهليون الثقة ، وأن تزول من أذهانهم الصورة التي رسمتها انتصارات النازيين الخاطفة ، وأن يقوى الشعور بأنه ليس من العسير قط هزيمة أنصاف الآلهة هؤلاء .

ولذلك عنيت الدعاية الخفية عقب الإحتلال النازي في أوروبا بعدة أمور : أولها ، نشر الأخبار المحلية التي منعت الرقابة النازية نشرها . وأكثرت هذه الأخبار متعلق بموقف كبار الشخصيات حيال سلطات الإحتلال الألماني وعدم إذعان بعض هذه الشخصيات لأوامر النازيين الضارة بمصلحة الوطن . وكذلك حرصت الدعاوة المضادة على إذاعة أنباء المقاومة وحوادث التخريب والتدمير والمظاهرات في أرجاء البلاد . والغرض من ذلك كله إقامة البرهان على أن عرق الحياة مازال ينبض في جثمان الأمة ، وأن هناك من يرفض التسليم ، وأن من الخير ألا يقنع الأهليون بالدليل في ظل الإحتلال الألماني .

أما الأمر الثاني فهو أن الدعاية الخفية اتبعت أسلوب السخر بالسادة الألمان ، وكان ذلك من السهولة بمكان ، بسبب ما كانوا يبذلون من محاولات خادعة لكسب محبة الشعوب المقهورة وصدقتها ؛ الأمر الذي جعلهم يتغالون في التودد إلى الأفراد وإظهار العطف على الأطفال وحديث السن ، وهذا في وقت كانت أداة الحرب النازية تجد في سلب محصولات البلاد وأموالها وثرواتها ، وتسخر الأهلين في الإنتاج المهرق لمصلحة الريخ ، وتنقل النقائس التاريخية والتحف والكنوز ، وتحرم الأهلين من الأقوات ووقود الدفء ، وتستولى على الماشية ، وتصدر الألبان ومنتجاتها إلى ألمانيا ، وتترك أطفال الأمم المقهورة جوعى لا يجدون من الغذاء ما يسد الرمق ويقيم الأود ، ثم لاتهاون أخيراً في القبض على المئات والآلاف من الرجال والنساء

وإرسالهم إلى معسكرات الإعتقال ، ولا تحجم عن إعدام الرهائن زرافات ووحدانا . بعد أن ترغم هؤلاء التعساء على حفر قبورهم بأيديهم !

أما الأمر الثالث فهو أن الدعاوة كانت تعتمد دائماً إلى نشر أخبار العمليات العسكرية التي يقوم بها البريطانيون وحلفاؤهم ؛ كما كانت تحرص على إذاعة أنباء الهزائم الألمانية بكل وسيلة ، ولو أن هذه الهزائم كانت قليلة ومتباعدة في بداية تلك الحرب الطاحنة . وكان غرض الدعاية الخفية من ذلك إقامة الدليل على أن السادة النازيين لم يكسبوا المعركة الأخيرة بعد ، وأن أمما تزال تناضل من أجل الحرية ، وأن الألمان ما دام النضام قائماً لا يستطيعون الإدعاء بأن في قبضتهم تقرير مصير الشعوب نهائياً ؛ وأن الإيمان بالنصر الأخير والثقة الكاملة هما أداة الشعوب العزلاء ، وأن المستضعف وحده هو الذي يرضى بالعيش الذليل

لذلك لم تكدمضى مدة طويلة على استقرار الاحتلال الألماني في أوروبا النازية ، وظهور جماعة الكويسلنجيين الذين دبروا مع النازيين منذ أمد طويل هزيمة أوطانهم ، ثم أقبلوا يؤيدون الحكم الجديد ويتعاونون مع الطغاة ، حتى أضطلعت الدعاوة المضادة بمهمة أخطر شأناً من غيرها ؛ هي كشف القناع عن حقيقة ذلك النظام الجديد الذي فرضه السادة النازيون على أوروبا فرضاً ، وتحذير الأهلين مغبة التعاون مع الغزاة الفاتحين . لذلك نشطت الدعاية الخفية في إظهار أكاذيب الألمان وادعاءاتهم ، وعكفت على تفسير القواعد التي بنى عليها هؤلاء نظامهم الجديد بأمثلة مستمدة مما كان يفعله الألمان كل يوم في البلدان المحتلة ؛ ولما كان الاستقرار ضرورياً لدعم أركان النظام الجديد ، وكان من أهم عوامل هذا الاستقرار إقبال الأهلين على التعاون مع الفاتحين ، فقد أثارت الدعاية الخفية حرباً شعواء ضد الكويسلنجيين الذين أجرموا في حق الوطن بتيسير السبل على الألمان حتى يقيموا نظامهم الجديد على انقاض الحريات القديمة والمثل العليا الانسانية التي كسبها البشر بعد نضال قرون عدة . ولذلك أذاعت الدعاية الخفية أسماء « المتعاونين » ووجهت لهم النصيح تارة والوعيد تارة أخرى ، وحذرت الأهلين أن يثقوا بهم أو يركنوا إليهم أو ينسجوا على منوالهم . وبما يجدر ذكره أنه كثيراً ما حدث من جراء إذاعة شخصية بعض الكويسلنجيين المستترين — وكانوا أشد خطراً من بقية المتعاونين مع السادة الألمان ، لأنهم يعملون في كثير من الأحيان كعيون لقوات الجستابو على مواطنيهم — أن كان نصيب هؤلاء الموت في ظروف مريبة . وكانت الوفاة دائماً على أيدي الجستابو نفسه تخلصاً منهم ، حتى لا يحملهم الشعور بالخزي والعار بعد افتراسهم أمرهم على السعي للتكفير عن خطاياهم بكشف الستار عن كويسلنجيين آخرين ما يزال سواد الشعب يحجل وجودهم ، وحتى لا يبوحوأ بشيء مما قد يعرفونه عن نظام الجستابو الخفي في بلادهم .

وفي المدة الأخيرة ، وعلى الخصوص بعد ذبوع خبر « ميثاق الأطلنطي » الذي سبق الكلام عنه والحديث عن أثره في أرجاء أوروبا النازية ، صارت الدعاية الخفية تعنى بجمع كلمة الشعوب المقهورة على النظام الذي يصح لها اختياره من أجل العيش في ظل حياة هادئة مستقرة عند زاول دولة الصليب المعقوف من القارة الأوروبية . مثال ذلك مافعلته هذه الدعاية في فرنسا ووضع مبادئ الميثاق الأطلنطي الفرنسي ، في عام ١٩٤٢ ، وما نشر في موسكو في يناير ١٩٤٤ عن البرنامج الذي تحدثت عنه جريدة (وولنا بولسكا) ، وهي صحيفة إتحاد الوطنيين البولنديين ، إذ قالت أن البرنامج يتضمن عدة مسائل : منها مد حدود بولندية المحاربة غربا ، وتسوية جميع الخلافات القائمة بين بولندية والاتحاد السوفيتي ، وإنشاء نظام ديموقراطي برلماني في البلاد ، وإخراج جميع العناصر الرجعية من بولندية ، وتوزيع الأراضي على الفلاحين ، والتوحيد بين البولنديين من غير نظر إلى عقائدهم السياسية مع استثناء العناصر الرجعية في الخارج . كما ذكرت أن مهمة البدء بتغيير مركز بولندية في العالم ، وإدخال التغييرات المنتظرة في بولندية نفسها يجب أن يكون من شأن البولنديين أنفسهم ، ولا بد للديموقراطية البولندية من أن تبحث لها عن مخرج مما هي فيه وأن تجد هذا المخرج ، وينبغي لها أن تبعث الوحدة الوطنية وتثبت أركانها في أثناء مناضلة المغير ومكافحته .

* * *

هذا ، وقد تنوعت وسائل هذه الدعاية وتعددت . ومع هذا فإنه لم يكن قط من السهل على أصحابها — وهم جميع الوطنيين في كل أمة منهزمة ماعداتلك الفئة القليلة التي قبلت التعاون مع الألمان — أن يوحّدوا جهود دعاوتهم المضادة ، أو ينشئوا بعض الصلة بينهم جميعا حتى يعرف فريق منهم ما يفعله الفريق الآخر ، أو تبذل جماعة مساعدة قيمة قد تكون جماعة أخرى في حاجة إليها ، إلى غير ذلك ؛ بل إن من أبرز مظاهر هذه الدعاية الخفية استقلال « خلاياها » في العمل فكانت . كل منها منفصلة عن الأخرى ؛ وبلغ من إمعان أصحابها في المحافظة على سرية هذا النشاط حدا جعل توزيع العمل ضروريا على الأفراد متفرقين حتى لا يعرف فرد ما يقوم به فرد آخر من نفس الجماعة الواحدة . وسبب ذلك ، الخوف الشديد من بطش سلطات الاحتلال الألمانية في البلدان المقهورة ، والخوف من الوقوع في مخالب رجال الجستابو المنتشرين في كل بلد وقرية ، ثم الحذر من أن يقف أنصار النظام الجديد من الأهلين على حقيقة ما يفعله أصحاب هذه الدعاية الخفية ، فيبلغون ما يعرفون إلى النازي ، ويكون نصيب الوطنيين التشريد في معسكرات الاعتقال أو الإعدام ، أو الاقتصاص الصارم من ذويهم . وفي الواقع كان الأفراد ، وحدهم في أول الأمر هم الذين أخذوا على عاتقهم نشر الدعاوة

المضادة وترويجها ؛ ووجد الفرد ، في اعتماده على نفسه فحسب فيما يريد فعله أو إذاعته وسيلة تخلصه من الوقوع في قبضة الجستابو ؛ فظهر من ثم الى عالم الوجود في أوروبا المحتلة فريق من الافراد (أو الأشخاص) الذين ظل سرهم مكتوما الى يومنا هذا . وكان بعض هؤلاء أصحاب جرأة عظيمة ؛ إذ قاموا بعمليات التخريب والتدمير في الحقول والمصانع ومحطات السكك الحديدية وأحواض السفن وما إليها . ثم ظهر الى جانبهم فريق من نوع آخر اكتفى أفرادُه بنقل الأنباء التي منعت الرقابة ذبوعها ونشرها بين مواطنيهم ، حتى اذا وجد الناقل أو المتحدث مستمعاً له ، جمعت بين الاثنين روابط الكراهية للحكم النازي . ثم لم يلبث أن ينضم اليهم ثالث ، ثم رابع ، وهكذا حتى تكبر جماعتهم ويتعاون جميعهم في نقل الأخبار بعد أن يسلكوا كل الطرق في سبيل الحصول عليها . ومن أهم تلك الطرق الاستماع الى الإذاعات الأجنبية « المحرمة » ، وعلى وجه الخصوص الإذاعة البريطانية المشهورة B.B.C. وهم في الأقبية ووراء جدران البيوت المغلقة ، وكلهم عيون وآذان حتى لا تأخذهم الغفلة فيفتضح أمرهم ويكون نصيبهم الموت .

ومع أنه قد يسهل على المرء أن يعترف بأن الجماعة المخربة المدمرة كانت أكثر الجماعات جرأة وشجاعة ، فإن ناشري الأخبار المسيئة الى سمعة النازيين ، ومروجي الدعاوة المضادة كانوا أيضاً أصحاب جرأة وشجاعة فما كان في مقدورهم أن يفلتوا من أقسى العقوبات النازية . اذا قدر لهم الوقوع في قبضة سلطات الاحتلال الألمانية .

ولم يكتف هذا الفريق من أنصار الدعاية الخفية بأن يظل نشاطهم مقصوراً على نقل الأحاديث أو الاستماع إلى الإذاعة المحرمة ، بل إنهم سرعان ما صاروا يجدون طرقاً متنوعة للهزء بالألمان والسخر بهم وإظهار أباطيلهم في كل فرصة مناسبة . وكانت فرنسا في طليعة الأمم التي أنقن أبنائها هذا النوع من أساليب الدعاية الخفية . وعلى الخصوص في شهور الاحتلال الأولى . فمن ذلك أنه كثيراً ما كان يحدث أن يجد الألمان في باريس مكتوباً على إعلانات السيارات : « زوروا إيطاليا ! » أو « تطوعوا في الجيش اليوناني ! » ، وكثيراً ما كانوا يعثرون في مدن أخرى على عبارات مخطوطة على جدران المنازل وغيرها : « أيها اليونانيون قفوا هنا . لأن هذه فرنسا ! » . وحدث عقب معركة بريطانيا أن قرأ الباريسيون معهم بطبيعة الحال رجال الجستابو وسلطات الاحتلال — عبارات بالطباشير على الجدران تنادى بحياة فرنسا وحياة إنجلترا ، وحياة تشرشل والروسيا . كما وجد الألمان أن كثيراً من أعلام الصليب المعقوف قد أنزلت ، ورفعت بدلا منها أعلام الجمهورية الفرنسية . ولم يستطع الألمان مكافحة هذه « الحملة الطباشيرية » ؛ بل زاد أصحابها جرأة ، ثم صاروا يصوغون عبارات

جديدة مثل « يحيا ديجول ، ويسقط الألمان ! » . ووجد أنصار الدعاية الخفية ميدانا واسعا لنشاطهم في داخل المصانع المشتغلة لحساب النازيين في فرنسا . فوزعت المنشورات العدة بين الصناع ، وعينت هذه المنشورات على وجه الخصوص بإذاعة أنباء هزيمة الألمان في معركة بريطانيا . وحدث ذات صباح أن قرأ الباريسيون بين مجموعة الإعلانات التي أجازها الألمان إعلانا طريفاً فات ذكاء النازيين إدراك معنى ما به من عبارات التهكم اللاذع ، لانه كان يحمل عنوانا جذابا : « إني أتهم إنجلترا ! » أما بقية الاعلانات فكان كالآتي : « إني أتهم إنجلترا لان إنجلترا هي التي غزت فرنسا في عام ١٩٤٠ ، ولان إنجلترا هي التي أخرجت الى عالم الوجود فكرة المانيا العظمى أو الكبرى ؛ ولان إنجلترا هي التي ضمت اليها النمسا ، ولان إنجلترا هي التي اغتالت ما نحن ، وماجينو ، وبارتو ، والملك اسكندر الأول (ملك يوغسلافيا) ولان إنجلترا هي التي قامت بتسليم نفسها تسليحا خطيرا وعبأت جيشها كله ، بما في ذلك الرقيق ، ولان إنجلترا هي التي غزت النمسا وتشيكوسلوفاكيا ، وهولندا ، وبولندا وبلجيكا والنرويج ؛ ولان إنجلترا ... ! أوه يا للعجب من هؤلاء الإنجليز !! » . ولم يفتن النازيون الى حقيقة ما يحمله هذا الإعلان من دعاوة مضادة الا بعد أن شاهدوا الباريسيين يستغرقون في الضحك بعد قراءته ، فأزالوه بعد مضي أربع وعشرين ساعة .

وفي بقية أوروبا النازية لم يقل أنصار هذا النوع من الدعاوة المضادة عن زملائهم في فرنسا . فالحملة « الطباشيرية » كانت تجد ميدانا فسيحا في كل بلد مقهور . ومن الحكايات المشهورة الواقعية ما حدث في بروكسل عاصمة بلجيكا . ذلك بأن الألمان علقوا ذات مرة في شوارع هذه المدينة إعلانا يحمل رسم (ونستون تشرشل) واقفا يطل على أسرة من أم واولاد صغار أضنانهم الجوع ولا يحدون على مائدتهم سوى صحاف فارغة ؛ ثم كتبوا تحت هذه الصورة : « أيها الوحش ! إنك تسقينا من العذاب كؤوسا مرة ؟ » . وكان الغرض من لصق هذا الإعلان إظهار أن بريطانيا وحدها هي المسؤولة بسبب الحصار البحري الذي ضربته على أوروبا النازية ، عن انتشار المجاعة في بلجيكا . ولكن حدث أن انتهن الأهالي فرصة الظلام الدامس فأجروا تغييراً في الصورة ، حتى بدت رأس المستر تشرشل في الصباح التالي ، وقد أعطيت « قصة » عجيبة كما نبت له شارب صغير . فظهر (أدولف هتلر) بدلا من المستر تشرشل يطل على هؤلاء الأطفال الجياع ، وانطبق عليه القول : « أيها الوحش ! إنك تسقينا من العذاب كؤوساً مرة ! » .

ومن أمثلة هذه الدعاوة المضادة ، ما كان يحدث في الدانمرك على نحو ما سبقت الإشارة إليه . فقد وجد أهلها أن خير وسيلة لبعث الثقة في النفوس وإشعال جذوة الوطنية إحياء

الأناشيد والأغاني القومية الشعبية ، وخصوصاً في جوتلند الجنوبية (أو شلويج) . حيث يعز القوم هناك هذه الأغاني القديمة ويجدون في ترديدها عزاء وسلوى . ولذلك صار مئات منهم يجتمعون للإنشاد في الهواء الطلق ، وذاع خبر هذه الأناشيد القومية في أنحاء الدانمرك وسرت العدوى إلى كل مدينة وقرية ، وخرج الأهلون في كل مكان لترديدها . وهكذا حدث في سبتمبر من عام ١٩٤٠ أن قامت أكبر مظاهرة « غنائية » في كوبنهاجن ، عندما اجتمع حوالى ١٥٠,٠٠٠ دانمركى في ساحة (Faelled Park) للقضاء ذات مساء ، وحدث مثل ذلك أيضاً في بلدة Esbjerg حيث احتشد عشرون ألفاً من سكانها البالغين ٣٦ ألفاً للغرض نفسه وكذلك في (هازل) Hasle . ووقع ذلك كله في وقت واحد وفي يوم واحد ، حتى يعبر الدانمركيون عما يشعرون به نحو الوطن . وفي الواقع كان شهر سبتمبر من ذلك العام شهراً تاريخياً في قصة الدانمرك الوطنية . إذ قرر الشباب في أنحاء الدانمرك تأسيس جماعة « الشباب الدانمركى العامل » برئاسة (هال كوش) Hal Koch أحد الأساتذة المعروفين . ثم تأسست في طول البلاد وعرضها «أندية تشرشل» تحت أنوف الجستابو وأنصارهم ، وغنى الدانمركيون النشيد القومى الانجليزى بعد أن وضعوا له معنى جديداً : « سوف يكسب تشرشل الحرب لا محالة ! » ، حتى سبى النازيون تلك الحماسة الدافقة « بالمرض الانجليزى ! »

وفي هذه الظروف لم يكن من العسير على أصحاب الدعاوة المضادة أن يروجوا ما يشاءون من أقوال وأقاصيص من أجل إضعاف شوكة النازيين والسخر بهم . ومن النوادر التى انتشرت في هذه البلاد أن أحد بائعى السمك اعتاد المناداة على سمكه في أسواق كوبنهاجن : « سمك من الطراز الأول ، وسمين كالماريشال جورج ! » فألقى القبض عليه وحبس مدة أسبوعين . ولكن لم يكذب يطلق سراحه حتى استأنف المناداة على بضاعته قائلاً : « سمك من الطراز الأول : ما يزال سميناً كما كان منذ أسبوعين ! » . وكذلك ظل الدانمركيون زمناً يجدون في موقف ملكهم كريستيان مثلاً يحتذى في مقاومة الألمان ، وحرصت الدعاية الخفية على إذاعة واقعة من وقائع هذا الملك مع السادة الألمان . وهى أنه كان من عادة الملك كريستيان أن يخرج كل صباح على حصانه للتجول في شوارع كوبنهاجن ، فحدث ذات مرة أن مر ببناء من الأبنية العامة ، فوجد الصليب المعقوف مرفوعاً على أعلى البناء ، فطلب إليه ضابطاً ألمانياً وأخبره بمخالفة هذا العمل لنصوص الاتفاق القائم وقتذاك بين الدانمرك وألمانيا ، فلما أجاب الضابط بأن العلم النازى قد رفع على هذا البناء بمقتضى أمر صادر من برلين ، أعلن كريستيان نيته على إرسال جندى دانمركى لانزال العلم النازى إذا ظل العلم مرفوعاً إلى وقت الظهر . وفى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الخامسة والخمسين كان العلم ما يزال مرفوعاً ، فظهر الملك وقال

إن أحد الجند الذمركيين سوف ينتزع العلم من موضعه في الساعة الثالثة عشرة تماما . فهدد الضابط بإطلاق الرصاص على ذلك الجندي . فأجاب الملك : إذن يمكنك إطلاق الرصاص على ، لأنني أنا هذا الجندي ! ، فاضطر الألمان إلى إنزال العلم بعد دقيقة واحدة .

وهكذا تنوعت الأمثلة وتعددت في كل بلد من بلدان أوروبا المحتلة . على أنه كان أيضا من أهم أساليب نشر الدعاية الخفية استخدام ما يعرف بإسم « الخطابات المسلسلة » ، وذلك أنه لما كان من المتعذر في كثير من الأحيان الحديث علانية في موضوع يهم الوطنيين تحت رقابة الجستابو وعميونهم ، فقد كان ناقل الخبر يعتمد إلى كتابة ما يريد إذاعته في رقعة صغيرة يضعها في كفه ، حتى إذا صافح أحد الوطنيين ترك هذه الرقعة في يد ذلك الوطني الذي يعتمد بدوره إلى نسخ عدة رقع منها يوزعها على أصدقائه ومعارفه الذين يثق بهم ، فيقوم هؤلاء بتوزيعها على آخرين بعد أن ينسخوا منها أعدادا أخرى وهكذا . وتتضمن هذه الرقعة عادة ، خبر هزيمة لحقت بالنازيين ، أو ذكر حادث تخريب أو تدمير ، أو أمر تدبير مظاهرة كبيرة ، أو مجرد تحذير الجمهور من بعض حيل النازيين الجديدة لسلب أموال الأهلين أو مواشيهم أو أغديتهم . وكثيرا ما كانت هذه الرقع تنقل بعض الأقاصيص التي يقصد من إذاعتها الترويج عن النفس والزراية بالساداة النازيين والسخر بهم وتقوية الروح المعنوية وشد أزر المقاومة ضد سلطات الاحتلال الألماني بجميع الطرق الممكنة ومن ذلك ما يذكره في الترويج حيث أراد النازيون في بداية الاحتلال أن يجتذبوا النزويجيين بالتودد اليهم ، ووجدوا (فيدكون كويسلنج) وأنصاره مقبلين على التعاون معهم ، وكان من واجب أصحاب الدعاية المضادة أن يبذلوا كل جهد حتى يعرف سواد الشعب أنه كان هناك أناس ما يزالون يشيدون بذكر الملك والوطن ويرفضون في قرارة نفوسهم العيش الذليل في ظل الاحتلال الألماني ، هذا إلى ضرورة التمسك بأهداب الأمل والرجاء دائما . ومن الوقائع التي أذاعت أنباءها الدعاية الخفية ما حدث في (أوسلو) إذ دخل أحد النازيين محلا تجاريا ، ثم رفع يده بحميا بالتحية الهتلرية وسأل البائعة أن ترشده إلى مكان يبيع ملابس الرجال . وكان هذا النازي ينتظر أن تجيبه الفتاة بالتحية النازية ولكنها أبت ذلك . فأجابته على الفور : « يحيا الملك ! خلفك إلى الشمال » ، وفي أبريل ١٩٤١ حدث أن استفسر رجال الاحتلال الألماني من أحد وكلاء الكنائس النزويجيين (تليفونيا) ، عن مكان في كنيسة يتسع لايواء مائة جندي ألماني . فأجاب الرجل : « بكل تأكيد ! في استطاعتنا أن نجد مكانا يتسع لايواهم في فناء الكنيسة المخصص لدفن الموتى » .

غير أن الدعاية الخفية سرعان ما وجدت في « الراديو » ، و « الصحف السرية » أكبر أدواتها الفعالة في نشر دعاوتها ضد النازيين ونظامهم الجديد في أوروبا. ودل استخدام الراديو في الحقيقة على مهارة كبيرة وجرأة عظيمة من جانب أنصار المقاومة في أوروبا النازية. والسبب في هذا ، أنه كان من مقتضيات التنظيم الألماني « الرقابة » الصارمة التي أنشأوها من أجل ترويج دعاوتهم للنظام الجديد من جانب ، ومن أجل إخماد أية دعاوة مضادة من جانب آخر ، أن يجرى النازيون تفتيشاً دقيقاً لمصادر جميع أجهزة الراديو ذات الموجات القصيرة خصوصاً ، وإصدار العقوبات القاسية على كل من يضبط متلبساً بجريمة الإستماع للإذاعات الحرة الأجنبية ، وفي مقدمة هذه ، الإذاعات المرسلة من محطة لندن المشهورة . B.B.C. وزيادة على ذلك قام النازيون من جهة أخرى بتوزيع أجهزة الراديو ذات موجات معينة تمكن صاحبها من الإستماع للإذاعات النازية المحلية فحسب . هذا إلى أنهم دققوا على وجه الخصوص في التفتيش عن كل أجهزة الإرسال في حوزة الأفراد . وكان غرض النازيين من ذلك كله ألا يستمع الأهلون في البلدان المقهورة إلى أنباء لا يريد النازيون ذبوعها بينهم ، وإن يتعذر على الوطنيين الذين رفضوا التعاون معهم ، وكان ما يزال لديهم بقية من أمل في الخلاص من سلطانهم أن يقف بعضهم على حقيقة ما يفعله البعض الآخر ويقوم به من ضروب المقاومة ويأتيه من حوادث التخريب والتدمير ، أو أن يستطيعوا إنشاء صلة تؤدي إلى جمع الكلمة وتوحيد الصفوف في وجه سلطات الاحتلال الألمانية .

ومع هذا فقد نجح كثيرون من أهل الشعوب المقهورة في الإحتفاظ بأجهزة الراديو ذات الموجات القصيرة ، واتخذوا التدابير لإخفاء هذه الأجهزة ، ورتبوا الاجتماعات (السرية) في أوقات الإذاعة الأجنبية للإستماع إلى ما يقوله أنصار الحرية في الأمم الديمقراطية . ثم عظم الإقبال على استخدام (الراديو) عندما صارت محطة الإذاعة البريطانية تنظم برامج باللغات الأجنبية وقد بلغ عدد اللغات التي كانت تذيع بها هذه المحطة سبعة وأربعين . وتحتل الإذاعة البريطانية مكاناً ظاهراً في تاريخ الدعاية الخفية والدعاوة المضادة بسبب ما كانت تنشره من أنباء وتعليقات على هذه الأنباء ، ولم يكن يقصد من إذاعتها أن تقف الشعوب المقهورة على حقيقة ما يقع من حوادث وتطورات في أرجاء العالم من أجل القضاء على الطغيان النازي فحسب بل كانت تبغى إلى جانب ذلك إحياء الأمل والرجاء في صدور الأهلين وشد عزيمتهم بفضل ما تنشره من أخبار القوات المحاربة الحرة إلى جانب جيوش البريطانيين والأمريكيين في ميادين القتال المتعدده ثم بفضل ما كانت تنقله إليهم من أقوال الزعماء الأحرار الذين كانوا يتولون قيادة هذا النضال إلى جانب أقطاب الديمقراطية المعروفين في العالم وكانت تظهر لهم بين وقت وآخر طرفاً من الأساليب

التي كان يتبعها النازيون لدعم أركان نظامهم الجديد في أوروبا وبسط سيطرتهم العالمية . وأخيرا صارت الإذاعة البريطانية إلى جانب ذلك كله تعنى أيضا بجمع كلمة الوطنيين الذين آلوا على أنفسهم مقاومة الاحتلال الألماني في بلادهم .

وقصة الإذاعة البريطانية - B.B.C - طريفة حقا . فمن المعروف أن النازيين منذ خلعهم الحكم في ألمانيا ؛ كانوا أول من استخدم الراديو في الإذاعة السيامية لترويج مبادئهم قبل نشوب الحرب الماضية بعدة أعوام ، ثم اتقن زعيم الدعاية والنشر في ألمانيا الدكتور جوبلز تنظيم هذه الأداة حتى أصبح الراديو من أدوات الحرب الفعالة . وكان يعتمد عليه النازيون في تعبئة الرأي العام الألماني في بلادهم بما يذيعونه من أخبار وإدعاءات مضللة كاذبة وكذلك في حرب الأعصاب المشهورة لاضعاف جبهة المقاومة والدفاع في البلدان التي أرادوا اجتياحها . أما الإذاعة البريطانية فظلت في سنوات السلم لا تعنى بالإذاعة الأجنبية . ثم استمر الحال على ذلك المنوال إلى أن وقعت الأزمة التشيكوسلوفاكية المعروفة في سبتمبر ١٩٣٨ ، وعندئذ أدركت الحكومة الانجليزية خطر الموقف ، وأيقنت أنه من المتعذر عليها أن تنشر على الملأ آراءها ورأى رئيس حكومتها وقتذاك المستر نيفيل تشمبرلين ، بين الشعوب الأوروبية بصدد هذه المسألة الشائكة مادامت محطة الإذاعة البريطانية لا تعنى بتنظيم برامج أوربية تاركة للنازيين وحدهم ترويج آرائهم وإدعاءاتهم في أنحاء العالم وكانت تقوم بذلك (وزارة الدعاية) النازية بإشراف الدكتور جوبلز وأعوانه . ولهذا تقرر في ٢٧ سبتمبر من العام نفسه أن تنشر محطة الإذاعة البريطانية (B.B.C) باللغات الفرنسية والإيطالية والألمانية جميع الخطب التي يلقيها رئيس الوزارة الانجليزية ، ثم الأنباء الهامة . واقتضى تنفيذ هذا القرار وقتذاك تنظيما واسعا لاعداد المترجمين والمذيعين ، هذا إلى جانب إجراء تغييرات فنية متنوعة ، ثم لم تلبث هذه الصعوبات الفنية أن زادت عندما صارت (المحطة) ترتب برامج للإذاعة باللغتين الأسبانية والبرتغالية في صيف العام التالي (١٩٣٩) . كما صارت تذيع بلغات أخرى بلغت في ذلك الحين سبعة . ثم ازداد العبء الملقى على عاتق هذه الإذاعة الأجنبية عقب نشوب الحرب الماضية مباشرة ، وماتبع ذلك من نجاح الألمان في اجتياح عدة دول في وقت قصير ، وإنشاء الحكومات « الحرة » التي صارت تمثل مجموعة الأمم المتحدة في لندن واتجاه الأنظار إلى بريطانيا كممثل للاجئين السياسيين والمضطهدين ، ومن إليهم ، بل وكرز لتنظيم المقاومة الشديدة ضد الطغيان النازي ، ثم غدت بريطانيا قلعة الحرية التي شاء النازيون أن يفرضوا عليها العزلة فرضاً قبل غزوها هي الأخرى . وعلى ذلك نشطت الإذاعة البريطانية نشاطاً عظيماً في عامي ١٩٤٠ ، ١٩٤١ وكان واجها الأكر

أن تسمع أوروبا المقهورة صوت بريطانيا عالياً مرتفعاً وسط ضوضاء أسلحة الحرب الميكانيكية وإغارات الطائرات النازية ، وأن تسمع القلقين أو اليائسين دقات (ساعة بن) المشهورة وكان عصيباً ذلك اليوم من أيام ربيع عام ١٩٤١ عندما هدمت قذائف النازيين بناية محطة الاذاعة البريطانية . ومع هذا فقد أعيد البناء على عجل وكانت الاذاعة النازية في هذه الأيام الشديدة (من عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١) تكاد لاتلقى منازعا أو منافساً في ميدان الدعاية الاوربية أو العالمية .

ولكن الحال سرعان ما تبدل بعد ذلك إذ تمكنت الاذاعة البريطانية من تنظيم برامج للإذاعة في أنحاء الممتلكات المستقلة وفي بلدان الامبراطورية المختلفة ؛ وفي أغسطس وسبتمبر ١٩٤٠ كانت قد أحكمت الصلة بطريق الأثير ، بين لندن والولايات المتحدة الأمريكية . وقد مهد لذلك ولاشك ماقررت الولايات المتحدة ذاتها من ضرورة النزول إلى ميدان الصراع المستعر منذ أبريل في العام السابق (١٩٣٩) فلم يكده يمضى أسبوع واحد على استيلاء (موسوليني) على مملكة البانيا ، حتى ألقى (روزفلت) خطابه المشهور على هيئة الاتحاد الأمريكى (Pan American Union) في ١٤ ابريل سنة ١٩٣٩ ، وقال أن المسألة باتت في الواقع مسألة إختيار بين اقحام الحضارة الحالية في النزاع والحروب التى يثيرها العسكريون ، وبين التمسك بمثل السلام العليا واحترام حقوق الفرد والحرص على المدنية التى ينبغى أن تظل لجميع الشعوب متمتعة بها . ثم حدث بعد ذلك أن ذهبت أدرج الرياح جميع الجهود التى بذلها الرئيس الأمريكى من أجل تأمين سلامة الأمم ومنع نشوب الحرب ، حتى جاء في آخر الأمر انهيار فرنسا في يونيه ١٩٤٠ مؤذنا في نظر الكثيرين من أهل الولايات المتحدة بقرب إنتهاء الحرب في مصلحة ألمانيا ، وبأن مقاومة بريطانيا لاطائل تحتها وانه من المنتظر أن ترضى هذه الدولة بالتسليم عاجلا أو آجلا . وفي هذه الظروف ، كان من واجب بريطانيا أن تبذل كل جهد حتى يقف الشعب الأمريكى على مقدار المقاومة التى تبديها من أجل الدفاع عن سلامتها ، وإقامة البرهان على أن هذه الجزر العظيمة لا يمكن أن ترضى بالتسليم للامان حتى يفنى آخر رجل وأمرأة بها . ووقع على عاتق الإذاعة البريطانية (B. B. C) إبلاغ هذه الرسالة إلى العالم الجديد . وكان لصوت المستر (ونستون تشرشل) السحري ، أبلغ الأثر في نفوس الأمريكيين . وزيادة على ذلك فقد ظهر في تلك الآونة أن رأى والشعور قد تحولاً نهائياً إلى جانب الديمقراطية البريطانية في النضال الدائر . لأن الأمريكيين سرعان ما صاروا يطلبون في خريف ١٩٤٠ معرفة الشئ الكثير عن جهود بريطانيا الحرة ويتساءلون لماذا تذيع لندن إلى الشعوب البريطانية في كندا ونيو فوندلند ، والهند الغربية

بينما تترك الأمريكيين من غير الاذاعة لهم ؟ ثم كان لأهل هذه الديموقراطية العظيمة ما أرادوا فكشفت جريدة (نيويورك تيمس) في ١٤ يولية ١٩٤٠ تنفى على جهود محطة الاذاعة البريطانية ، ثم قالت مامعناه إنه سرعان ما تبين من فحص بعض البرامج التي تذاع من هذه المحطة أن بريطانيا أصبحت الآن لاتضيع وقت المستمعين سدى في الاصفاء إلى روايات خيالية ١ . ومن ذلك الحين أصبح الأثير الصلة الفعالة التي ربطت بين بريطانيا وأمريكا ، ونقل الأثير خبر ميشاق الاطلنطي بين روزفلت وتشرشل في أغسطس ١٩٤١ ، وأسدت الإذاعة خدمات جليلة عقب حادث (بيرل هاربور) المشهور وذلك في أثناء زيارة المستر تشرشل للولايات المتحدة وكندا . ومنذ صارت الولايات المتحدة ترسل جندھا إلى الشرق الأوسط والهند ، نقلت محطة الاذاعة البريطانية إلى هؤلاء برامج مذاعة من المحطات الأمريكية .

بيد أنه إلى جانب هذا كله ، سرعان ما أتمت محطة الاذاعة تنظيم إذاعاتها الأجنبية لاقوات الأمم المتحدة المحاربة في الميادين فحسب ، بل ولأهل البلدان المقهورة في أوروبا النازية ثم كان أظهر آثار هذا التنظيم ما حدث في ربيع عام ١٩٤١ عند بدء الدعوة لحملة جيش النصر (V-Army) المشهورة . ومع أنه قد سبق الحديث عن هذا الجيش عند الكلام عن ضروب المقاومة الايجابية والسلبية في أوروبا الهتلرية ، فان ثمت حقيقة واحدة لا ينبغي أغفالها ، هي أن الفضل في قيام هذه الحملة الواسعة يرجع في الحقيقة إلى الشعوب الأوروبية المقهورة نفسها أكثر من أى شيء آخر ؛ وتفسير ذلك أن أحد أعضاء الحكومة البلجيكية السابقين ، (المسيو فكتور ديلافيلي (Victor Delaveleye) ، وهو من أولئك الذين عاهدوا النفس على الحديث من لندن إلى البلجيكيين في أرض الوطن ، أراد أن يتحقق من أن هناك من يستمع لأحاديثه من مواطنيه ، فاقترح عليهم ذات مرة أن يحملوا شارة معينة ترمز إليهم هي حرف (V) حرف النصر ، وأن يخطوا هذا الحرف بالطباشير على الجدران حتى يكون ذلك بمثابة علامة يعرف بها كل مستمع لاذاعته اللندنية غيره من المستمعين الآخرين ونال هذا الاقتراح قبولا لدى مذيع آخر ، يدعى (جيرسن Geersens) . فطلب إلى مستمعيه من البلجيكيين في إذاعته الفلسكية أن يفعلوا هم أيضا مثل إخوانهم فاجاب أهل بلجيكا — من والون وفلمنك — هذه الرغبة ، ثم لم يلبث أن ذاع الخبر ، فتبع هؤلاء أهل البلدان الأخرى وهكذا لم يجيء شهر ابريل من عام ١٩٤١ ، حتى كان حرف النصر (V) منتشرآ من أقصى القارة الأوروبية إلى أقصاها من النرويج في الشمال إلى البلقان في الجنوب ، وقد تقدم كيف تسلم الكلونيل (بریتون Britton) إدارة هذه الحملة من لندن . وفي خريف العام نفسه أسدت هذه الحملة خدمة كبرى ، عندما انتشر في أرجاء أوروبا رمز ، جديد لنوع المقاومة الايجابية

الخطيرة - وهو رسم السلحفاة ، وكان هذا رمزا لحركة الابطاء المتعمد ! . وقد سبق ذكر مبلغ الأضرار التي لحقت بأداة الحرب الألمانية من جراء هذا النوع من المقاومة .

* * *

هذا هو الدور الخطير الذي لعبته محطة الاذاعة البريطانية (B. B. C.) في إثارة المقاومة الفعالة في وجه السادة النازيين في أرجاء القارة . وواضح أن استخدام هذه الاذاعة كان من أمضى أسلحة الدعاوة المضادة أو الدعاية الخفية التي كانت ترمى إلى تقويض أركان النظام الجديد في أوروبا النازية . ولذلك ، وقع النازيون عقوبات صارمة على كل منهم بالاستماع إلى الاذاعة البريطانية خصوصاً . وتنوعت هذه العقوبات ، من الحبس الانفرادي أو الارسال إلى معسكرات الاعتقال ، إلى السجن عدة سنوات أو الاعدام (وذلك على وجه الخصوص في كل من بولندة والنرويج ، ثم في ألمانيا ذاتها) ، إذا ثبت أن المستمع للاذاعة البريطانية يمتلك جهاز الراديو ، ويدعو اخوانه ومواطنيه إلى منزله أو أى مكان آخر للاستماع معه . إذ أن النازيين كانوا يعتبرونه في هذه الحالة مروجاً لدعاوة العدو ضد سلطات الاحتلال . وقد عثرت حكومات الأمم المتحدة المحاربة (في خارج أوروبا النازية) بإعداد قوائم طويلة بأسماء سيء الحظ الذين ارتكبوا « جريمة » الاصغاء إلى محطات الاذاعة الأجنبية ، وخصوصاً محطة B. B. C. ؛ وصدرت ضدهم أحكام بالسجن أو الاعدام واشتملت هذه القوائم أيضاً على تواريخ صدور هذه الأحكام ذاتها بكل دقة . ولم يكن من العسير على الحكومات إعداد مثل هذه القوائم الكاملة . لأن الصحف النازية نفسها في البلدان المحتلة درجت على نشر أخبار هذه الأحكام بين الأنباء المحلية ، على أمل أن يكون هذا النشر زاجراً للأهليين ، يمنعهم من الاستماع للإذاعات الأجنبية . بيد أن صرامة هذه الأحكام لم تفد شيئاً في ردعهم ، لأن هؤلاء ما كانوا يجدون طريقاً يعرفون به شيئاً يحدث في بلادهم أو يجري في أوروبا النازية وفي العالم عموماً غير الاستماع لآباء محطات الاذاعة الحرة وعلى وجه الخصوص المحطة البريطانية . وعلى ذلك فإنه بدلا من أن يفاح الألمان في اقناع سواد الشعوب المقهورة بالانصراف عن الإذاعة اللندنية ، زاد إقبال الأهليين على هذه الاذاعة وصاروا يحكمون الأساليب التي تمكنهم من مراوغة الجستابو والافلات من أيديهم .

وانتشرت في أرجاء أوروبا المحتلة أقاصيص عن وقائع كثيرة تبين في الحقيقة مدى فشل سلطات الاحتلال الألماني في مقاومة الاذاعة البريطانية . من ذلك أن أحد الجنود الألمان سأل ذات يوم في شارع من شوارع مدينة (بروكسل) رجلا من البلجيكيين عن الوقت فتجاهل الرجل معرفة الألمانية ، فسأل الجندي آخر ، ولكنه لم يظفر منه بطائل . وعمدئذ

تقدمت إليه ابنة صغير وأظهرت دهشتها كيف لا يعرف هذا الألماني الوقت ، مع أن كل إنسان يعرف أن الساعة هي السابعة والرابع مساء . فدهش الألماني بدوره ، وسألها كيف استطاعت هي أن تحدد الوقت بهذه السهولة دون أن تنظر إلى ساعة ما ؟ . فقالت : « الأمر يسير هل ترى أحداً من الناس في الشارع ؟ » فأجاب الألماني بالنفي . فقالت : « حسناً كل الشوارع تكون مقفرة الآن ، لأن الناس يهرعون في هذه اللحظة إلى بيوتهم حتى يستمعوا للإذاعة الحرة . وهذه موعدها كل مساء الساعة السابعة والرابع تماماً ! » .

وحدث أن كتب أحد المتحمسين من أنصار التعاون مع ألمانيا في بلجيكا إلى جريدة (نوفو جورنال) البلجيكية ، يشكو من أنه سمع في الترام حديثاً بين تليذتين . قالت إحدهما في أثنائه : « أن مدرس الانجليزية في مدرستنا رجل عظيم حقاً ! هل تدرين ماذا يفعل ؟ إنه يبدي كل يوم تعليقات متنوعة على الأنباء المذاعة من إنجلترا . إن النصرآت لا محالة ! » .

ومن الأفاصيص الطريفة ما حدث في بروكسل أيضاً عندما غادر رجل مسن أحد المقاهي ، فسأله رفاقه إلى أين ؟ فقال : إلى المنزل لأن هذا وقت الاستماع إلى الإذاعة البريطانية ! ثم ذهب الرجل إلى حال سبيله . ولكنه لم يكديستقر به المقام في بيته حتى سمع طارقاً . ثم لم يلبث أن دهش عندما وجد الجسّابو في ردهة البيت يسألونه : « هل أنت الرجل الذي يستمع إلى الإذاعة البريطانية ؟ » فأجاب : « نعم وأفعل ذلك كل يوم ! » فسألوه : « وأين هذا الراديو ؟ » فأجاب : « واكنى لا أملك جهازاً للاستماع . وإنما جدران المنزل رقيقة لدرجة تمكنني من الاستماع لإذاعة جهاز الراديو الذي يملكه جاري . وحضرته ضابط ألماني » .

الفصل الخامس

الصحف السرية

أما أخطر وسائل الدعاية الخفية وأشدّها أثرا فكانت الصحف السرية التي انتشرت في أرجاء أوروبا النازية. وظهور هذه الصحف كان معناه في الحقيقة وجود حركة مقاومة خفية واسعة يصعب على سلطات الاحتلال الألماني ورجال الجستابو اخمادها على الرغم من أن النازيين كانوا أصحاب السطوة في البلدان المفتوحة . ويعتبر ظهور هذه الصحف السرية ورواجها برهانا ساطعا على أن الهتلريين قد فشلوا تماما ، أولا في كسب صداقة الشعوب المقهورة ، واستمالتهم إلى التعاون معهم في ظل النظام الجديد من أجل دعم السيطرة الألمانية ، وثانيا على أنهم بالرغم من تنظيماتهم الواسعة ظلوا عاجزين عن كبح جماح الأهلين والقضاء على الروح المعنوية في البلدان التي دانت لسلطانهم . وزيادة على ذلك فقد قامت الصحف السرية بدور خطير في جمع وتوحيد الصفوف وشد أزr المقاومة ضد السادة الألمان ، وهذا بفضل ما كانت تنشره من أنباء وموضوعات متعلقة بنشاط الديمقراطيات العظيمة ونضالها المميت من أجل خلاص الحضارة من شرور النازيين وطغيانهم من جهة ، ثم بفضل ما كانت تقوم به من وسائل الدعاوة المضادة التي مر ذكرها . ويكفي برهانا على خطر المهمة التي القيت على عاتق هذه الصحف السرية ، أنها كانت تعتمد في الأنباء التي تنشرها على اذاعات المحطة البريطانية (B.B.C.) ، ومعنى هذا أن الصحف السرية تروج الأنباء التي يفرض النازيون عقوبات صارمة بلغت حد الإعدام في أحيان كثيرة على كل مستمع لهذه الإذاعة ، مما يدل أيضا على أن جميع الجهود التي بذلها النازيون لمقاومة هذه الإذاعة الحرة قد ذهبت سدى ومن غير طائل هذا إلى أن نجاح الدعاوة المضادة في استخدام الصحف السرية دل على أن أنصار الدعاية عديدون بل ومنتشرون في أرجاء أوروبا المحتلة ، لأن اصدار هذه الصحف السرية لم يكن بالأمر السهل الهين . فهناك قبل كل شيء مشكلة الحصول على الورق ، لأن سلطات الاحتلال الألماني تهيمن على توزيعه ، فلا يستطيع انسان أوهيئة الحصول على الورق إلا إذا سمح الحاكم الألماني ، وعرفت سلطات الاحتلال الوجوه التي يراد استخدامه فيها وهذا إلى أن الكميات التي تسمح بها السلطات محدودة وتكاد تكفي حاجة البلاد العادية . فكيف يحصل إذن أنصار الدعاوة المضادة على الورق الذي يلزم لصحفهم ؟ لابد من وجود مؤيدين لهذه الدعاية الخفية

قبل كل شيء من بين الألمان الذين استطاعوا التمتع بثقة الألمان لأن هؤلاء وحدهم هم الذين كانوا يحصلون على هذه الكميات المحدودة من الورق . وكانت هناك مجازفة أخرى إذ كيف يحمل مصدرو الصحف السرية كميات الورق التي يحصلون عليها تحت أنوف هيئات الشرطة والجستابو اليقظين ؟ وإذا استطاع أصحاب الصحف الإفلات من ذلك كله ، فأين يجدون المطبعة التي تطبع صحيفتهم ؟ بيد أنه كما كان هؤلاء يجدون أفرادا وشركات وطنية تعطيهم حاجاتهم من الورق خفية ، فانهم كانوا كذلك يجدون أصحاب مطابع لا يضمنون على أصحاب الصحف السرية بما يريدون من أدوات الطباعة كالخبر والحروف والآلات وغير ذلك . وكان مصدرو الصحف دائما يعتمدون الى استخدام حروف الطباعة من (البنط) الذي لا تختص باستعماله شركة أو هيئة دون أخرى ، حتى يصعب على رجال الجستابو الوقوف على المصدر الذي أمد الصحف السرية بأدوات الطباعة . ورغبة في أن يتعذر العثور على المكان الخفي الذي أقيمت فيه المطبعة السرية كثيرا ما كان أصحاب هذه الصحف يختارون مكانا منعزلا خوفا من أن يسمع القاطنون في الأماكن المجاورة صوت الآلات ، ويعرف خبر وجود المطبعة . وقد حرص مصدرو الصحف السرية على ألا يعتمدوا على شركة واحدة لتموينهم بالورق أو مدهم بالآلات الطباعة وأدواتها ، أو يظفوا في مكان معين يطبعون فيه صحيفتهم مدة طويلة . والسبب في ذلك الإمعان في الخيطة حتى لا يتسرب شيء عن نشاطهم ، أو يتعرض معاو نوهم في هذا كله لإثارة سخط سلطات الاحتلال عليهم فيسكون نصيهم الموت أو التشريد لا محالة . فإذا ما تم طبع الصحيفة ، صادف أصحابها صعوبة التوزيع ، فكان عليهم أولا أن يشغلوا ما طبعوه من نسخ عدة قد يثير نقلها الريبة والشكوك ، وأن يجدوا موزعين ، يوصلون هذه النسخ إلى أيدي الأهلين في كل مدينة وقريّة .

ومع هذا ، وبالرغم مما كان ينتظر كل مشترك في أية عملية من هذه العمليات جميعها من عقوبة قاسية ، الأمر الذي كان يعرفه الأهلون في أوروبا المحتلة حق المعرفة — وبالرغم مما كان ينزله النازيون بمصدري هذه الصحف ومحرريها وموزعيها من عقاب صارم يبلغ حد الإعدام في حالات كثيرة ، فإن أصحاب الصحف السرية مضوا في إنجاز أعمالهم وطبع صحفهم وتوزيعها . وكان من الطبيعي أن يتمكن النازيون بين حين وآخر من القبض على بعض الأفراد المسؤولين عن إصدار هذه الصحف وإعدامهم . ومع هذا فإن ذلك لم يرد شيئا في منع صحف أخرى ، غير تلك التي مات أصحابها أو أرغموا على الفرار من قبضة الجستابو وترك أوطانهم ، من الظهور في أماكن أخرى . وكثيرا ما كان يحدث أن تصدر الصحيفة نفسها التي ظنت سلطات الاحتلال الألماني أنه قد قضى عليها ، محتفظة بنفس الشكل الذي اعتادت

الظهور به ، يتولى تحريرها آخرون لا يقلون وطنية ورغبة في مقاومة الطغيان النازي عن أسلافهم .

* * *

والوقوف على طرف من قصة هذه الصحف السرية وانتشارها يظهرنا على مبلغ نشاطها وأهمية الخدمة التي كانت تؤديها كأداة من أدوات الدعاية الخفية ذات الأثر الفعال في مكافحة دعاة النظام الجديد في أوروبا النازية ولما كان عدد من أصحاب هذه الصحف ومحرريها قد استطاع الفرار إلى إنجلترا أو إلى غيرها من الدول الحرة المحاربة أو المحايدة ، وكانت أسرات الكثيرين منهم ما تزال تعيش في البلدان المحتلة تحت رقابة الجستابو وفي خطر التعرض للموت أو التشريد والتقي إلى معسكرات الاعتقال ، أو قضاء بقية العمر في غياهب السجون ، إذا عرف النازيون شيئاً عن نشاط أعضاء الأسرة الهاربين ، فقد أصبح من المتعذر وتذاك نشر أسمائهم أو تدوين قصة نشاطهم الخفي كاملة . ولذلك حرصت الحكومات الحرة المحاربة على أن تظل شخصيات هؤلاء الشجعان المغامرين بحياتهم مجهولة ، واكتفت بتمجيد ذكرى الأبطال الذي لم يستطيعوا الخلاص والنجاة وكشفت سلطان الاحتلال الألماني أمرهم ، فلقوا حتفهم على أيدي الجستابو اللعينة أو قدموا للمحاكمة أمام المحاكم الألمانية العسكرية ، ونفذت فيهم أحكام الاعدام الرهيبة ؛ وأصبح من حق التاريخ وحده أن يرفع ذكرهم عالياً ، كمشال للتضحية الحرة النزيمية من أجل مصلحة الوطن ، وفي سبيل خلاصه من ربة الاستعمار الأجنبي .

وفي فرنسا بدأ ظهور الصحف السرية من وقت مبكر ، عقب الاحتلال الألماني مباشرة . فقد سبب انقياد فرنسا كوارث عظيمة . وكان (بول سيمون) من بين الذين فقدوا ثرواتهم وهو من الوطنيين الممثلين حماسة وغيرة ؛ متوقد الذهن عظيم النشاط ، قرر منذ اللحظة الأولى أن يشن بمفرده حرباً شعواء على السادة الألمان ، هذا إلى أنه وجد في هذه الحرب المزمعة وسيلة للترويج عن نفسه إلى جانب إشباع رغبته في الانتقام من غير الاصطدام بالنازيين المدججين بالسلاح والذين كان لا يجرؤ وهو الأعزل على الاصطدام بهم . لذلك عمد (بول سيمون) في أيام الاحتلال الأولى ، إلى العمل على تعكير صفو الألمان ، فصار لا يدع فرصة تمر دون أن يلصق على نوافذ سيارات ضباطهم وكبار رجالهم قصاصات الورق المعد لتغطية ألواح الزجاج حتى لا تتحطم وتتناثر قطعها وقت الاغارات ، بعد أن يكتب عليها عبارات مثيرة . مثل : « من هو أجمل رجل آرى في أوروبا ؟ الدكتور جوبلز على وجه التأكيد ! ، و « من هو أعظم البلوتاريكين في أوروبا ؟ — أى أعظم رجال الحكومة البلوتارية أو التي

تألف من الأغنياء — الماريشال جورنيج دون شك ! ، هذا عدا عبارات أخرى تهتف بحياة دييجول ، أو كتابة شعار الجمهورية الفرنسية المعروف « الحرية والمساواة والائخاء » ، واعتمد (بول سيمون) من مبدأ الأمر على معاونة ثلاثة من الوطنيين ، واستطاع مع زملائه العثور على حروف للطباعة صغيرة مصنوعة من الكاوتشوك — مما يلعب به الأطفال عادة — ، ثم اشترى الجماعة كل ما استطاعوا شراؤه من ورق الزجاج المصمغ واستخدموا ذلك كله في لصق عبارات مماثلة لتلك التي تقدم ذكرها ، من عبارات الدعاوة المضادة ، على جدران باريس . وذات مساء ، فكرت الجماعة في إنشاء صحيفة سرية . وبعد مضي أربع وعشرين ساعة كان (بول سيمون) يبذل كل جهد لاقتناع أحد أصحاب المخازن المعدة لبيع الورق وأدوات الكتابة حتى يبيعه مطبعة من الكاوتشوك ذات حروف أكبر حجما من الحروف التي كانوا يستخدمونها وتمسكهم من طبع أربعة سطور في وقت واحد . وفي مكان سرى أمين ، وبعد عن أعين رجال الجستابو ، وبعد عمل شاق مضى استمر شهرا بأكمله وكلف أحدهم فقد إحدى عينيه من كثرة الاجهاد ، تمكنت الجماعة من إخراج أول أعداد هذه الصحيفة السرية وكان اسمها (فالمي) Valmy وهو اسم المعركة التي أحرز فيها الفرنسيون أول انتصاراتهم على البروسيين في عام ١٧٩٢ في أثناء حروب الثورة الفرنسية المعروفة . وأما الاسم الآخر فكان : « عدو واحد ، هو الغاصب ! » Un seul ennemi-L'envahisseur وكانت جملة ما طبع من هذا العدد الأول خمسين نسخة فحسب . ولكن سرعان ما أحدث ظهور هذه الصحيفة أثرا عظيما وضجة هائلة . والسبب في ذلك أن ظهور (فالمي) كان تحديا صريحا لسلطات الاحتلال الألماني ، وبرهاننا ساطعا على أنه ليس من العسير أن يجد الوطنيون سبيلا للافصاح عما يشعرون به نحو السادة الألمان من كراهية واستخفاف ، هذا على الرغم من عيون الجستابو المنتبهة في كل مكان . وعلى الرغم من سيف العقوبة الصارمة المسلط على أعناق كل من تحدته النفس بمقاومة النظام الجديد .

بيد أن (بول سيمون) لم يلبث أن واجه بضع عقبات ، أهمها ناشئ من عدم وجود ما يكفي من حبر الطباعة لإصدار العدد الثاني من صحيفته . ولما كان يعرف حق المعرفة أنه كلما قل عدد المشرفين على إصدار هذه الصحيفة ، كان ذلك أعون على كتمان سرها ؛ فضلا عن أنه لم يكن يريد أن يلحق بأصدقائه أي أذى بسبب ما قد يقدمونه لصحيفته من معاونة ، فقد قرر أن « يسرق » ما يريد من حبر من مقر القيادة الألمانية العامة نفسه في شارع ريشولي . وكان من المتعذر على أي فرنسي الاقتراب من هذا المكان ، لأن الألمان منعوا سير الفرنسيين في ميدان الكونكورد وفي الشارع الموصل إلى تمثال جان دارك . فكيف إذن يحقق (بول سيمون)

رغبته ؟ ان مافعله (پول سيمون) ذات مساء حتى يدخل إلى مقر القيادة الألمانية العامة ،
ويأخذ ما يشاء من كميات الخبر اللازمة لمطبعتيه ، ما يزال من الأسرار . ولا شك في أن هذا
العمل كان يتطلب من (پول سيمون) شجاعة خارقة ! ومهما يكن من شيء فقد استطاع هذا
الفرنسي أن يصدر العدد الثاني من صحيفته (عالمي) مطبوعا بمداد ألماني !

واتبع (سيمون) نظاماً دقيقاً في توزيع صحيفته . فقسم الموزعون إلى جماعات تعمل
منفصلة ، ولا تعرف إحداها شيئاً مما تفعله الجماعة الأخرى ، زيادة في الحيلة وحرصاً على
حياة المشرفين على اصدار الصحيفة وعلى حياة موزعيها أنفسهم . وتفطن هؤلاء في ابتكار
الطرق التي مكنتهم من توزيع الصحيفة في أماكن لا تخطر على بال إنسان ، كما حدث في مقر
القيادة الألمانية العامة في شارع ريشولى ، (في باريس) عندما عثر الجند الألمان وهم يلبسون
خوزاتهم على نسخ مطوية بعناية من صحيفة (عالمي) على أن (پول سيمون) لم يلبث أن وجد
في الشابات الباريزيات موزعات من الطراز الأول ، يحملن نسخ صحيفته إلى كل مكان يذهبن
إليه حتى صار الجند والضباط الألمان أنفسهم يجدون هذه الصحيفة « المكروهة » محبأة في
جيوبهم . مما سبب لهم الحيرة والارتباك ، لأن الجستابو ما كان يسدعهم يذهبون بسلام
إذا عرف أن (عالمي) قد وجدت طريقاً إلى الاستقرار في جيوبهم . وكان من بين هؤلاء
الفتيات الجريئات عدد من اللواتي فقدن أزواجهن أو شهدن أخا يختفي وراء جدران مركز
قيادة الجستابو العامة في شارع فوش ، أو رأين السادة الألمان يسوقون الشبان لإرغامهم على
العمل الإجباري في ألمانيا .

وسرعان ما ذاعت شهرة (عالمي) في أرجاء فرنسا ، وصار توزيعها غير مقصور على باريس
بل صارت توزع في الأقاليم أيضاً . وجد الجستابو من أجل ذلك كله في البحث والتنقيب عن
أصحابها ومحرريها وموزعيها عندما بلغ ما يطبعه (پول سيمون) من جريدته حوالى العشرة
آلاف نسخة في كل شهر . يبدو أنه لم يكن من العسير على رجال الجستابو بما أوتوا من قوة
وسلطان وبفضل ما بذلوه من جهود ، أن يعثروا بعد مشقة عظيمة على المسكان الذي تطبع
فيه هذه الجريدة . وعندئذ تعرض أصحابها لخطر داهم ، ولكن شاء حسن الحظ أن يبلغهم
الخبر في الوقت المناسب ، فغادر (سيمون) ورفاقه الوكر قبيل هجوم الجستابو ورجع هؤلاء
بخفي حنين . ثم عادت الصحيفة إلى الظهور كعادتها ، وبلغ عدد قرائها في أكتوبر من عام
١٩٤١ المائة ألف .

وبما تجدد ملاحظته أن (عالمي) لم تحاول معالجة شتى الأمور التي تتناولها بالأسلوب الجدى
الذي يتطلب من القارئ أعمال الفكر وكد الذهن ، كما أنها امتنعت عن إثارة الموضوعات

الجدلية التي قد تعطى للألمان فرصة الرد ومحاولة الاقتناع . فقد فطن محرروها إلى أن أمضى سلاح يستخدمونه ضد السادة النازيين إنما هو سلاح التهمك والسخرية والنقد اللاذع الذي يذهب بهيبة سلطات الاحتلال الألمانية ، ويحطم ما يكون قد رسخ في أذهان البارييسيين الذين أذهلهم انهيار بلادهم بهذه السرعة الخاطفة ، من أن النصر لا يمكن أن يفلت من قبضة الآلهة النازيين ، وأن أحداً لن يجرؤ على تقديم أو مقاومتهم . وفي الواقع ظلت (فالمل) تقض مضاجع الألمان مدة طويلة ، وصار لا يهدأ لهم بال حتى يقبضوا على أصحابها وموزعيها ، ومن ثم أحكم رجال الجستابو رقابتهم ، وضاعفوا نشاطهم حتى استطاعوا في نهاية الأمر أن يعثروا على مكانها الجديد ؛ ولكن صاحبها (پول سيمون) تمكن في اللحظة الأخيرة من الإفلات من قبضتهم ، ونجا بنفسه عبر الحدود ، قبل أن يطبق عليه الجستابو شبكتهم الحديدية ، ثم اتخذ مقره في لندن يعمل مع جماعة الفرنسيين الأحرار في إنجلترا .

غير أن فرار (پول سيمون) لم يكن معناه نجاح النازيين في إخماد حركة الصحف السرية في فرنسا . ومع أن هؤلاء بدأوا يتشددون في مراقبة جميع العناصر المعادية في هذه البلاد منذ شهر ديسمبر ١٩٤١ ، فإن الصحف السرية والمنشورات والرسائل الصغيرة وما إليها سرعان ما انتشرت انتشاراً كبيراً حتى بلغ عدد النشرات الاخبارية السرية في تلك الآونة حوالي العشرين . ولم تكن (فالمل) الصحيفة الوحيدة التي صدرت منذ أيام الاحتلال الأولى . لأن صدورها ونجاة صاحبها سرعان ما أفضيا إلى ظهور صحيفتين أخريين : هما (پنتاجرول) Pantagruel — وهو اسم البطل الذي أوجده خيال (رابليه) أحد أعلام الأدب الفرنسي القدماء — ؛ و (ريزيستانس) Resistance — أى المقاومة . وقد تبع ظهور هاتين الصحيفتين ، إصدار صحف سرية أخرى منها : (فرنسا الحرة) — La France Libre ، (صوت باريس) La Voix de Paris ؛ و (شعب فرنسا) Peuple de France ؛ و (النضال) Combat ، وغير ذلك .

ومما هو جدير بالذكر أن الأطباء في فرنسا (قبل عام ١٩٤٣) أصدروا صحيفة علمية طبية ، ظلت تعنى بجمع الحقائق التي تساعد على معرفة مبلغ الأثر السيء الذي أحدثه الاحتلال الألماني وتطبيق النظام الجديد النازي في صحة الأهلين . وقد وصلت هذه الصحيفة السرية إلى نتائج معينة في هذا الموضوع : أهمها أن عدة أمراض ناجمة عن سوء التغذية وقتلتها مثل (الأنيميا وضعف الأعصاب وهكذا) صارت تفتك بالأهلين حتى بات متوسط الوزن الذي يفقده الشخص العادي ثلاثة كيلوجرامات في الشهر الواحد .

ولم يكن الوطنيون وحدهم هم الذين أصدروا هذه الصحف السرية ، بل اشترك معهم في

ذلك أيضا الشيوعيون . وكان لهؤلاء قبل الحرب الأخيرة صحيفة تدعى (الإنسانية) L'Humanité . أغلقها النازيون في أيام الاحتلال الأولى ؛ ولكنه لم تمض فترة صغيرة حتى عادت الجريدة إلى الظهور وصارت في عداد الصحف السرية ذات الخطر ، وتولى تحريرها وإصدارها أحد الراديكاليين المعروفين في باريس وهو (جبرائيل پرى) Gabriel Peri . وكان (پرى) هذا عندما بدأ يصدر صحيفته السرية رجلا مريضاً بالسل ، ولا يرجو شفاء من علته الصدرية . ولذلك انكب على عمله الجديد بكل همة مضحياً في سبيل مقاومة الاحتلال الألماني بكل ما يملك من مال وصحة . وظلت التبرعات تنال على صحيفته من كل جانب ، لاسيما وأنها صارت لا تقنع في عهدا الجديد بمجرد تأييد قضية الشيوعية ، بل أخذت على عاتقها الدفاع عن مصلحة الوطن قبل أى اعتبار آخر ، وهذا بترويج الدعاية المضادة ضد السادة النازيين والعمل على تقويض أركان النظام الجديد في فرنسا . ولكن أيام (پرى) كانت معدودة . فقد قبض عليه الجستابو ، وأودع السجن مدة ساءت في أنفائها صحته كثيراً ، وكاد المرض يفتك به لولا أن قرر الألمان إعدامه رمياً بالرصاص . وقابل (پرى) الموت برباطة جأش وعدم مبالاة وأخذ يردد أغنية من الأغنيات المفضلة لديه ، وعبثاً حاول جلادوه إرغامه على ابطال التغنى بها ، بل ارتفع صوته قليلاً قبل إطلاق الرصاص عليه . وأثار عمل (پرى) هذا إعجاباً واحداً له ، وعرفه الفرنسيون من ذلك الحين باسم « الرجل الذى مات وهو يغنى » . وفى اليوم التالى زار ألوف من الباريسيين وغيرهم المكان الذى أعدم فيه ، والذى كان لا يزال ملطخاً بدمائه ، ووضعوا عليه أكاليل الزهر .

بيد أن متاعب النازيين لم تنقض وفاة (پرى) . فقد ظلت تحمل راية المقاومة في فرنسا صحف جريئة . منها جريدة (التحرير أو الخلاص) Liberation ، وجريدة (پنتا جرو ل) Pantagruel أما جريدة (التحرير) السرية فقد عُنيت بنشر أنباء محطة الإذاعة البريطانية (B. B. C.) وأسماء الذين أعدمهم الألمان ولقوا حتفهم على أيدي رجال الجستابو ؛ هذا إلى أنها صارت تعنى أيضاً بتحذير الأهلىن حتى لا يقعوا في فخاخ رجال الشرطة وشبا كههم . وكانت تنشر كذلك أسماء الفرنسيين الذين قبلوا التعاون مع السادة النازيين في بلادهم . وعظم ذبوع هذه الجريدة حتى صار الضباط الفرنسيون الأسرى في المعتقلات الألمانية لا يجدون صعوبة في الحصول على أعداد منها . وكان من بين المشتركين في تحريرها وإصدارها أحد أعضاء البرلمان السابقين عن مدينة ليون . وهو المسيو (أندريه فيليب) André Philip أستاذ الاقتصاد السياسى في جامعة ليون ، وقد عمل في أثناء الحرب كضابط اتصال مع قوات الحملة الإنجليزية في فرنسا ثم أعيد إلى عمله في الجامعة بعد انهيار فرنسا ، ثم استطاع بعد ذلك الفرار إلى إنجلترا .

وقبل أن يغادر (أندريه فيليب) فرنسا كانت جريدة (التحرير) توزع خمسين ألف نسخة . وكان أهم ما عيّنت به هذه الجريدة تنظيم المظاهرات ، وبث روح المقاومة السلبية في ليون وفي بقية فرنسا لتعطيل سياسة النازيين الأولى والتي أرادوا بها كسب مودة الفرنسيين وصدّاقهم في المنطقة المحتلة . وزيادة على ذلك ، اضطلعت هذه الجريدة بمهمة توحيد صفوف الفرنسيين حتى لا تظل المقاومة مقصورة على طبقة العمال وحدها ، لأنه كان ينبغي أن ينضم أهل الطبقة المتوسطة أيضاً إلى صفوفها . وكان هؤلاء ما زالون يعتقدون على الماريشال بيتان Pétain الآمال في انتقاذ فرنسا . فلما استقدم (بيتان) إلى (فيشي) Vichy المسيو بيير لافال Laval ، وأعاد استخدامه : انتهزت الجديدة هذه الفرصة لاثارة حملة شعواء ضد حكومة فيشي ونظامها ولم يكن ذلك في الحقيقة أمراً عسيراً ، لأن انضمام (لافال) إلى (بيتان) لم يلبث أن نفر القلوب في فرنسا المحتلة وقتذاك من الماريشال الطاعن في السن ، وانفض من حوله الأنصار الذين عقدوا على زعامته الآمال العريضة ، واستطاعت جريدة (التحرير) أن تكتب عقب هذا الحادث مامعناه : « إن الاختلاف الحقيقي بين فرنسا المحتلة . وغير المحتلة ، هو أن ألمانيا في فرنسا المحتلة هي العدو الأول ؛ (وفيشي) هي العدو الثاني . أما في فرنسا غير المحتلة فان (فيشي) هي العدو الأول ، وألمانيا هي العدو الثاني ! » .

وتعتبر (پنتاجرول) Pantagruel من أقدم الصحف السرية في فرنسا ، إن لم تكن أقدمها جميعاً . وقبل أن يستطيع (بول سيمون) الفرار من باريس ، كان الألمان قد قبضوا على محرر (پنتاجرول) وأعدموه . وقد أسدت (پنتاجرول) خدمات جليلة في الفترة التي قدر لها الظهور في أثنائها . جاء في عددها الأول ما معناه : « إن هذه الصحيفة مخصصة لنشر الأنباء ولا يمكن أن يذهب نضالها ضد سلطات الاحتلال سدى . وغرضها نشر الأخبار التي يذيعها الراديو الانجليزى ، حتى يقف عليها كل من يتعذر عليهم الإصغاء إلى نشرة الأخبار البريطانية والذين يتألمون بسبب عجزهم هذا . إننا نرجو رجاء حاراً أن يكون النصر من نصيب الانجليز . لأن هذا من شأنه أن يخلص فرنسا ويرد إليها عدداً من أقاليمها المفقودة ومستعمراتها ، ثم يحقق لها النجاة من العبودية الاقتصادية والتضخم النقدي . وما ينبغي أن ننسى أن إنجلترا قد أعلنت عن أغراضها الحربية التي تتضمن إعادة كيان الأراضي الفرنسية برمتها سليمة . وهذا هو السبب الذي يجعلنا نرغب في انتصارها . ولو أن هذا لا يعنى بالضرورة إذلال الشعب الألماني ... » . ولعل أهم ما يسترعى النظر في هذه الجريدة أنها أخذت على عاتقها مقاومة الدعاية النازية عند اشتداد اغارات الطائرات البريطانية على الموانئ الفرنسية ، فكان مما قالته : « وإذا سلمنا بأن الانجليز إنما يحاربون من أجلنا كما يحاربون

من أجل مصلحتهم ، وهذا هو الوضع الصحيح وما يحدث فعلا ، فانه يجب علينا ألا نلومهم ، لأنهم إنما يفعلون ما يفعله جنودنا أنفسهم عندما ينسف هؤلاء الجسور أو يهدمون القلاع والحصون ... ، ومع هذا فقد حرصت الجريدة على أن توضح لقارئها أنها ليست بالصحيفة الانجليزية . بل على العكس من ذلك ، فانه من الواجب على كل قارئ أن يساعد على وصول هذه الصحيفة إلى المواطنين الأحرار في بريطانيا العظمى ، إذا استطاع إلى ذلك سبيلا . إذ ينبغي أن يعرف أصدقاؤنا وحلفاؤنا في إنجلترا ، أن الأذى الذي يحاول أعداؤنا أن يلحقوه بهم بطريق النشر والكتابة في صحفهم لم يفد شيئا في تحطيم عاطفة الصداقة التي تشعر بها نحوهم الجبهة العظمى من الشعب الفرنسي . ، وفي عدد من أعداد هذه الصحيفة ، جاء التعليق التالي : « ان هجوم الربيع (١٩٤١) الذي قام به هتلر ، أفضى إلى إرسال الجيش الألماني إلى بلغراد واسكن بلغراد هذه إنما هي عاصمة أوروبية وليست بكل تأكيد عاصمة بريطانيا العظمى ! وهكذا يتعطل سير النظام الجديد مرة أخرى . والواقع أنه من المستحسن كثيرا أن يذهب الألمان إلى أثينا وإلى بلغراد ، ولا يتزلزلوا في لندن ! » . وكان هذا تهكما واضحا .

والحقيقة أن (بنتاجرول) كغيرها من الصحف السرية كانت تعتمد على التهمك والسخر بالسادات النازيين فيما تكتب أكثر من اعتمادها على أي شيء آخر : الأمر الذي أثار سخط سلطات الاحتلال الألماني ، وأوقد حفيظة النازيين ضد هذه الجريدة . وقبل إعدام صاحبها في نوفمبر ١٩٤١ بلغ عدد النسخ التي توزعها (بنتاجرول) عشرة آلاف نسخة !

وإلى جانب هذه الصحف السرية كان يوزع أيضا أنصار الدعاية المضادة عدداً من الكتب الصغيرة التي يسهل حملها في الجيب أو في حقيبة اليد الصغيرة . ومن أشهرها ، كتيب « تنشر انتشاراً كبيراً في فرنسا المحتلة عنوانه « نصائح للأهليين في الأرض المحتلة » ، *Conseils à L'Occupé* . وهو كتيب يقع في ست عشرة صفحة ، وبلغ عدد ما وزع منه نيفا وسبعة آلاف نسخة . وهو يتضمن إرشادات فيما ينبغي أن يفعله كل رجل وامرأة في المسلك الواجب إتباعه حيال الألمان في بلادهم . وكلها إرشادات في الحقيقة لا غنى عنها من أجل إحكام أساليب المقاومة المسلحة : وأهمها الامتناع عن مخالطة الفاتحين ، والتظاهر بجمل لغتهم والامتناع عن ارتياد المقاهي التي يؤمونها ، ومقاطعة أصحاب المحلات العامة الذين يعلنون عن إمكان التخاطب بالألمانية في محالهم ، وزيادة على ذلك فإن هذا الكتيب صار يحذر الأهليين من الانخداع بما تذيبه الدعاية النازية والاستماع لأكاذيب الدكتور جوبلز وأعوانه .

وفي يولييه ١٩٤٢ كان قد بلغ عدد الصحف السرية في فرنسا الثلاثين ، وهذا عدا المنشورات والكتب الصغيرة وما إليها ، فقد أربت على الستين . وفي تلك الآونة كانت جميع

الدلائل تدل على أن هذا العدد أخذ في الزيادة المستمرة ! ولعل أبرز نتائج هذه الدعاية الخفية زوال الفروق السياسية التي لعبت فيما مضى دورا خطيراً في تفكك فرنسا وانهارها فصار الأهلون جميعاً يربطهم الآن رباط واحد ، هو ضرورة مجابهة الخطر المحدق بهم من جراء وقوع الوطن تحت أقدام النازيين ، وواجب التطلع إلى مستقبل جديد يحفظ على فرنسا وحدتها ويعيد إليها امبراطوريتها ومجدها ، ويكتب لها الخلاص والتحرر من ربة الاستعباد الألماني لا في هذا الجيل وحده ، بل وخلال الأجيال المقبلة كذلك

ولم تكن فرنسا وحدها موطن هذه الصحف السرية ، فقد كان من نتيجة الاحتلال الألماني وما تبعه من التضيق على حريات الشعوب وخنقها ، وإذلال الأهلين وسلب اقتصادهم القوي ثم تسخيرهم في العمل لدعم أركان النظام النازي الجديد ، أن صار أهل البلدان المهورة يحدون في الصحف السرية وسيلة من الوسائل التي تمكنهم من الإفصاح عن شعورهم وإحياء الآمال في صدور مواطنهم ، وجمع الرأي والكلمة على ضرورة مقاومة الطغيان النازي . وكان البلجيكيون من بين هذه الشعوب المغلوبة على أمرها والتي ظلت متشبثة بحقها في حياة حرة طليقة .

وتبدأ قصة الصحف السرية في بلجيكا بحادث جدد في أذهان البلجيكيين ذكريات الصراع الدامي القديم عندما وطئ الغزاة الألمان أرض الوطن بأقدامهم في عهد الاحتلال الأول في أثناء الحرب العالمية الأولى بين عامي ١٩١٥ و ١٩١٨ . هذا الحادث هو مفاجأة أهل بروكسل ، في يوم ١٥ أغسطس ١٩٤٠ بظهور أول أعداد صحيفة (بلجيكا الحرة) La Libre Belgique ولم يكن هذا العنوان جديداً . لأنه في عام ١٩٤٠ كان لا يزال كثيرون من البلجيكيين يذكرون أنه في يوم أول فبراير ١٩١٥ طلعت إلى عالم الوجود ، وتحت أنوف رجال الاحتلال القيصري السابق ، جريدة المقاومة وقتذاك « بلجيكا الحرة » !

وكان ظهور هذه الصحيفة السرية (في عام ١٩٤٠) نتيجة لأمر أصدره الألمان في مايو من العام نفسه ، منعت بمقتضاه أية صحيفه بلجيكية من الظهور قبل أن ينال أصحابها تصريحاً بذلك من سلطات الاحتلال الألماني العسكرية ، وكذلك منع أي طابع من استخدام مطبعته في أي غرض من الأغراض قبل أن ينال تصريحاً بذلك من هذه السلطات ذاتها . وقد تبع هذا الأمر ، استقالة كثيرين من أصحاب الصحف ومحرريها ومراسليها . ولكن النازيين ما لبثوا أن تولوا بأنفسهم جلب المحررين والطابعين لإصدار الصحف اليومية الكبيرة وغيرها كما دأبتهم وكان شيئاً لم يحدث بل أن السلطات الألمانية لم تتورع عن صب جام غضبها على أصحاب

الصحف الذين رفضوا بأى حال من الأحوال ، أن يكونوا ضالعين معهم فيما أرادوه . مثال ذلك ما حدث لصاحب جريدة انتورب المشهورة Gazet von Antwerp ، ، يدعى (دى هاسك) De Hasque إذ ألقى النازيون القبض عليه وأودعوه إحدى معسكرات الاعتقال ، حيث توفي بعد زمن قصير . ومثال آخر ، ما حدث لمدير وكالة بلجا Belga Agency المعروفة ويدعى (بطرس) Beetres . وفى عام ١٩٤٣ كان كثيرون من أصحاب الصحف البلجيكية ومحرريها ما يزالون فى غياهب السجون منهم (ديمارتو) Demarteau رئيس اتحاد الصحافة البلجيكية و (أوش) Ochs صاحب الرسوم الهزلية المشهورة فى جريدة (بوركويا) Pourquoi Pas ، وغيرها وهذا عدا مئات الصحفيين الذين آثروا العيش فى فرنسا غير المحتملة فى تلك السنوات الأولى ، ثم فى غيرها من البلدان الحرة .

يبد أنه كان من الطبيعى وقد تخلى هؤلاء الصحفيون عن أعمالهم ، أن يتولى جماعة من الوطنيين الشجعان هذه المهمة مما أدى إلى ظهور صحيفة : (بلجيكا الحرة) . التى أعلنت أن عنوانها التلغرافى هو : الحاكم الألمانى العام فى بروكسل ، وأن ناشرها هو (بيتريان) Peter Pan — وهو تمثال أقيم فى ميدان بروكسل بعد الحرب العالمية الأولى — ، وأنه لما كانت جميع الأعمال معطلة من جراء الاحتلال الألمانى ، فإنه لا مسوغ بتاتا لنشر أية إعلانات فى هذه الجريدة ١ . وفى يولييه ١٩٤٢ كان قد بلغ عدد ما يوزع منها أربعين ألفا . وفشلت جميع جهود الجستابو فى العثور على أصحابها ومحرريها .

وإلى جانب (بلجيكا الحرة) ظهرت ثلاثون صحيفة سرية أخرى توزع فى أرجاء بلجيكا . منها (الراية الحمراء) De Roode Vaaen ، و (القناص) De vrije Schutter ، (ووطننا) Dus Vederland ، وكلها صحف فلينكية ، هذا عن الصحف الوالانية (الفرنسية) مثل (تحت الحذاء) Sous La Botte ، (البربنسون) Barbançonne ، (الثيران) Feux de Barrage وغيرها ، ثم الصحف الاشتراكية : (الأمل) L'Espoir ، (العصر الحديث) Le Nouveau Temps و (الراية البيضاء) Le Drapeau Rouge ، (الوضوح) Clarté ، (الشباب الجديد) Le Jeunesse Nouvelle . وكذلك صار للنساء صحيفة سرية هى (صوت المرأة) La Voix des Femmes هذا عن صحف أخرى مثل (الفرقة السوداء)

La Legion Noire والصحف الهزلية مثل Le Coup de queue du Doudon Montois وتدل المقالات التى كانت تنشرها هذه الصحف السرية على أن محرريها من نخبة القوم المثقفين وأفاضلهم وأن الغرض الذى كانت تتوخاه هذه الصحف هو كشف القناع عن أعمال السلب والنهب التى يرتكبها السادة الألمان تحت ستار دعم أركان النظام الجديد فى

أوروباً كما كانت ترى إلى دحض مقتريات الدعاية النازية ، ثم تعزيز روح المقاومة وحض الأهليين على مناصبة النازيين العداء بكل ما يملكون من قوة ، و اظهار شخصيات الخونة والضالعين مع العدو والمتعاونين معه ، هذا إلى الإفاضة في الثناء على رجال سلاح الطيران البريطاني ، ثم نقل الأخبار المذاعة من محطة لندن المعروفة ، وعلى وجه الخصوص أنباء العمليات العسكرية وأخبار القوات البلجيكية الحرة المحاربة إلى جانب البريطانيين وحلفائهم في ميادين القتال. وبما يجدر ذكره أن جميع هذه الصحف كانت تؤيد تأييداً كاملاً موقف الملك ايوبولد البلجيكي الذي كان يعتبر نفسه سجيناً في أيدي السلطات العسكرية الألمانية ويرفض الإذعان للنازيين أو أن تكون له صلة مباشرة بهم . وزيادة على ذلك برعت هذه الصحف البلجيكية السرية في أسلوب التهمك اللاذع للتيل من هيبة الجندي الألماني ، وهذا بفضل ما كانت تذيعه من أقاصيص و بوادر للسخر بهم . وإلى هذه الصحف يرجع الفضل أيضاً في تدبير حركات المقاومة لتعطيل أداة الحرب الألمانية . من ذلك أن الألمان الذين كان يزعمهم نقص كميات الورق الموجودة أرادوا أن يتمتع البلجيكيون عن إتلاف الورق القديم المهمل ، بدعوى أن صناعة الورق الجديد من هذه الكمية المهمة من شأنها أن تفضي إلى استخدام حوالي ٦٢ ألف بلجيكي ، فانبرت الصحف السرية عقب ذلك تطلب إلى الأهليين إتلاف الورق المهمل القديم ، لأن الألمان ، كما قالت الصحف ، إنما يحتاجون إلى هذا الورق لخدمة أغراض سيئة ليست في مصلحة الوطنيين في شيء . ثم حدث مثل هذا عندما شرع النازيون يجمعون النيكل ، فنصحت الصحف السرية الأهليين « أن يخفوا قطع النقد المصنوعة من النيكل لديهم ، لأنهم سوف تنفعهم ولا شك في يوم عاصيب ! ، فكانت النتيجة أن النازيين لم يستطيعوا سوى جمع ما يقرب من ٦ ٪ فقط من النيكل الموجود بالبلاد وكانت تقدر قيمته بنحو مليونين من الفرنكات . أضف إلى ذلك اتساع أعمال التخريب والتدمير في بلجيكا بفضل تشجيع الصحف السرية ، مثل إشعال الحرائق في المصانع وانتزاع قضبان السكك الحديدية وتعطيل محطات الإنارة وتوليد الكهرباء ، وانفجار القذائف دائماً بين الألمان

ولذا أوقع النازيون عقوبات قاسية على كل من يضبط مثلبسا مجرمة قراءة الصحف السرية أو توزيعها أو يشترك في تحريرها أو إدارة أعمالها . وكانت هذه العقوبات تتراوح بين السجن بضعة شهور ، والسجن المؤبد ، والحبس الانفرادي ، والاعدام . مثال ذلك ما حدث في (لياج) Liège إذ أصدرت المحكمة العسكرية الألمانية في شهر يولييه ١٩٤١ أحكاماً صارمة على عدد من الناس اهتموا بالاشتراك في إدارة وتحرير وتوزيع صحف غير مصرح بصدورها أو ما حدث في فلندرا الشرقية إذ حكم على اثنين بالاعدام لأنهما كانا يوزعان بعض هذه

الصحف وبعض النشرات التي تضمنت أنباء مذاعة من لندن . كما سجن كثر من الفتيات المتهمات بجريمة توزيع صحف غير قانونية ! ومع هذا فإن الصحف السرية كانت منتشرة في بلجيكا . وكان يصدر من (بلجيكا الحرة) La Libre Belgique وحدها ثلاث طبعات إحداها في بروكسل ، والثانية في ليمبج والثالثة في أنتورب .

* * *

وفي هولندا ظهرت الصحف السرية عقب الاحتلال الألماني مباشرة . بيد أن الحظ لم يكن من نصيب الهولنديين من أنصار الدعاية المضادة . إذ استطاع النازيون في مبدأ الأمر أن يقفوا على حقيقة أمر الكثيرين ممن اشتركوا في تحرير هذه الصحف أو توزيعها ؛ فألقوا القبض على عدد كبير من الرجال والنساء كان نصيب كثيرين منهم الإعدام أو الحياة البائسة في معسكرات الاعتقال ، ومع ذلك فقد عجز الألمان عن إخماد هذه الدعاية الخفية . وفي طليعة الصحف السرية في هولندا جريدة (القول الحق) Het Parool . وبلغ مقدار ما يوزع منها حوالي العشرين ألف نسخة يقرؤها ما يقرب من المائة ألف قارئ . وكان شعار هذه الجريدة قول النشيد الوطني الهولندي « سوف أبقى أميناً لوطني حتى أموت ! » وكانت هذه الجريدة تقاوم النظام الجديد ، فتبين للأهليين ما ينطوى عليه تطبيق هذا النظام من أعمال السلب والنهب الاقتصادي ، وتقف بالمرصاد لكل فرد من أعوان (مسيرت) Mussert كويسلنج هولنده المعروف ، تكشف عن أعمالهم ، وتحذر الأهليين من تصديق إدعاءاتهم وتزج الستار عن كل خيانة جديدة يرتكبونها . وكان موزعو هذه الجريدة يتفننون في ابتكار الطرق التي تضمن لجريدتهم الوصول إلى أيدي الأهليين في كل مكان تقريباً . كما كان أصحابها ينهزون الفرص دائماً لزيادة ما يوزع منها . وعند الاحتفال بعيد ميلاد الملكة ولهيننا (في ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٢) طبع أصحابها رسائل صغيرة ذات لون برتقالي ، ووزعوا منها آلاف النسخ في أمستردام وحدها ، وكانت تحمل عبارة « أورانج — وهو اسم البيت المالكي الهولندي — سوف ينتصر ! »

وهناك غير هذه الجريدة عدة صحف سرية أخرى ، منها « الأرض النثرلندية الحرة ،

Vrij Nederland ، وشحاذ والبحر ! De Geuzen ، ومن الصحراء « Uit de Woestijn و « شعبنا ، Ons Volk وغير ذلك . والسبب في تعدد هذه الصحف السرية وتنوعها ، أن كل جماعة من الأهليين ، كالكاثوليك ، والعمال ، وهلم جرا كانت تمتلك صحيفتها الخاصة بها .

* * *

ومع أن لكسمبورج تبدو صغيرة في مساحتها بالقياس إلى مجموعة الدول المحيطة بها والتي استولى النازيون عليها في حربهم الخاطفة ، إلا أن أهلها لم يكونوا أقل حماسة في مقاومة

الاحتلال الألماني من غيرهم من الشعوب المقهورة . وكانت تعترض النازيين في هذا الأقليم الصغير صعوبات كبيرة جعلت من المتعذر عليهم أن يخدموا صحافتها السرية . فقد استطاعت المقاومة الخفية في هذه الدولة الصغيرة إنشاء (إتحاد وطني) غرضه الأول جمع كلمة الوطنيين ضد الاحتلال الألماني . وكان ينضم إلى هذا الاتحاد حوالي ٩٨٪ من أهل لكسمبورج . ثم ساعد صفر مساحة الأقليم على إحكام الصلة بين أعضاء (الاتحاد) وتنظيم جهود أعضائه على نحو جعل منه في نطاق الدولة القديمة دولة أخرى لها قوانينها وصحفها السرية الخاصة بها .

وكان عدد الصحف السرية التي يملكها هذا الاتحاد ثلاثة ، وأهمها صحيفة De Freie letzeburger جريدة المعارضة الوطنية وكانت تعلن عن أخبارها أنها مستقاة من لندن وموسكو ونيويورك ، التي تتصل بها جميعاً عن طريق الراديو . وقد حاول الألمان منع وصول الأخبار إليها بقطع التيار الكهربائي في أوقات الإذاعة البريطانية من لندن . ولكن هذه المحاولة أخفقت لأن الجريدة سرعان ما أحضرت أجهزة للراديو من ذوات البطاريات ، كما أنه كان من الميسور على محرريها الانتقال إلى الأرض الفرنسية المجاورة والاستماع منها إلى الإذاعة الأجنبية . أما أقطاب هذا (الاتحاد الوطني) فقد مات ثلاثة منهم ، أعدم الجستابو اثنين وانتحر الثالث بعد أن قتل برصاص مسدسه ثلاثة من الجستابو الذين هاجموا للقبض عليه ، ثم استطاع رابع هو (جون فرسل) John Vercel الفرار إلى لندن .

* * *

وفي (تشيكوسلوفاكيا) عرفت الصحف السرية ، قبل أن يحتاج الألمان هذه البلاد بشهرين على الأقل . أي منذ أن تلبد الأفق السياسي في أوروبا بالغيوم ، وقلق التشيك على مصير وطنهم ، فتألفت من بينهم الجمعيات الوطنية التي أزعجها مسلك الدكتاتوريين النازي والفاشي ، وصار أعضاؤها يفكرون في طرق الخلاص من الأخطار التي توقعوا إحداقها بهم ومن هؤلاء أنصار الديمقراطية الذين ظلت ثقتهم كاملة بزعم هذه الدولة الحديثة ، الدكتور بنيش (Benés) وكان من بين هؤلاء الديمقراطيين رجل قدر له أن يلعب دوراً خطيراً في تاريخ الدعاية الخفية في تشيكوسلوفاكيا هو د يوسف سكالدا ، Joseph Skalda . وكان وكان د سكالدا ، من الوطنيين المتحمسين الذين جذبوا إليهم القلوب والتف حولهم الأنصار حر الرأي صادق العزيمة ، ظل في أثناء الأزمة التشيكوسلوفاكية المعروفة (سبتمبر ١٩٣٨ - مارس ١٩٣٩) يتردد على المنتديات والمقاهي وكانت في براج وفي أكثر بلدان البلقان بمثابة (الصالونات) القديمة التي كان يقصدها أصحاب الفكر والرأي ، يتباحثون ويتناقشون في شتى الموضوعات الأدبية والاجتماعية والسياسية .

وحدث ذات مساء أن اجتمع بيوسف سكالدا ، في مقهى من هذه المقاهي ، رجل من الوطنيين ، لم تكن له به أية معرفة سابقة . ودار الحديث بينهما في هذا الاجتماع بشأن إصدار صحيفة سرية ، واختار الاثنان لهذه الجريدة الجديد اسم (V-Boj) ومعناها (هيا إلى السلاح !) . ومنذ وافق « سكالدا » على ذلك ، انكب على عمله الجديد بهمة لا تعرف الكلل حتى استطاع أن يخرج العدد الأول من صحيفته السرية قبل نشوب الحرب ، واحتلال الألمان البلاد لمدة شهرين . وكان هذا العدد يتألف من عشرين صفحة ، نشرت فيها البحوث التي تروج لآراء أصحابها الديمقراطيّة ، أكثر من عنايتها بنشر الأنباء ، ثم داعت ذبوعا كبيرا حتى صار لها وكلاء يتولون توزيعها في كل مدينة وقرية تقريبا . ومع هذا لم تتعرض الحكومة القائمة الوطنية وقتذاك لهذه الجريدة بشيء ، وصار الناس يتداولونها علنا . ولذلك لم يكبد الألمان محتلون تشيكوسلوفاكيا ويضعون بوهيميا ومورافيا تحت حماية الرينغ الثالث حتى نقلت (V-Boj) نشاطها من ميدان الحياة العامة إلى ميدان العمل في طي الحفاء . وساعدت دقة تنظيمها السابق على بقائها واستمرار ذبوعها .

ومع أنه كان من المنتظر أن يقضى بحجى الألمان ، ورجال الجستابو ، إلى مقاومة الصحف السرية والعمل على اخمادها . فإن السادة الجدد لم يعنوا في بادئ الأمر بمكافحة أصحابها ، وظل الحال على ذلك مدة سبعة شهور بتمامها بعد الغزو ، واستطاع « سكالدا » ورفاقه — وكان عددهم جميعا عشرة — أن يصدروا عدد (V-Boj) الأول في عهد الاحتلال — أو الحماية الألمانية . وفي هذه المرة كان عدد صفحات الجريدة أربعة مزدانة برسوم الأسلحة الهوسية القديمة وصورة أسد بوهيميا الأبيض . وقد تضمن هذا العدد الأول مقالا افتتاحيا يحض التشيك على التمسك بأهداب الأمل والرجاء ، وعدم اليأس ، ورفض السيطرة الألمانية ، إذ أنه مهما أصدر النازيون من أوامر وتعليمات ، فإنهم لن يستطيعوا التحكم في أفكار الناس ، هذا إلى أنه كانت توجد قوات نشيطة في البلدان الأخرى ، وعلى وجه الخصوص في بريطانيا من المنتظر أن تتمكن هذه الأفكار من الظهور حرة طليقة .

ومع هذا ، فإنه لم يلبث أن حدث في الشهر الحادى عشر ، مادل على أن السلطات الألمانية قد أخذت تهتم بأمر هذه الجريدة ، وشرع الجستابو يبحث عن أصحابها ومحريها . وإزاء هذه اليقظة الجديدة اضطر (سكالدا) ورفاقه إلى تغيير مقرهم من وقت لآخر ، وتسليح كل فرد منهم للدفاع عن نفسه عند الحاجة . والواقع أن الخطر عليهم كان عظيما في تلك الآونة ، لأن الجريدة كانت قد نمت نموأ كبيرا ، وزاد مقدار ما يوزع منها ، واشترك كثيرون في توزيعها ومن شأن ذلك كله أن يسهل على الجستابو معرفة مقر الصحيفة أو العثور على أحد هؤلاء

الموزعين ، ثم إرغامه بعد تعذيبه على إفشاء سر الجماعة . على أنه بالرغم من هذه الأخطار ظلت (V-Boj) تظهر بانتظام في الفترة التالية ، ثم صارت تنال عليها البحوث والمقالات من كل جانب ، لا يرسلها محرروها بالبريد ، بل يرسلونها بطرق أخرى متنوعة زيادة في الحيلة والتسكّم . وفي هذه المقالات والبحوث وجد (سكالدا) ومعاونوه مادة طيبة للنشر ، ولو أنهم حرصوا على نشر الأنباء المذاعة من محطة الإذاعة البريطانية (B.B.C.) . هذا إلى أن الجريدة صارت تنشر بعض الصور الهزلية وعددا من الصور الشمسية ، حتى غدت V-Boj صحيفة بالمعنى الصحيح ، ولو أنها لم تصل إلى درجة الكمال والإتقان السابقة قبل العهد الألماني .

وكان أول ما قامت به هذه الصحيفة من أعمال المقاومة السلمية أن حذرت الوطنيين الذين أرادوا في يوم ٢٨ أكتوبر من عام ١٩٣٩ الاحتفال بالذكرى اليوم الذي ظفرت فيه دولة تشيكوسلوفاكيا الحديثة باستقلالها منذ عشرين عاما ، من نوايا النازيين الذين قرروا إراقة دماء الوطنيين المحتفلين بهذا العيد . فنصحت الجريدة ، بدلا من إحياء هذه الذكرى في مواكب ومظاهرات ، بأن يلزم التشيك منازلهم حتى يتركوا شوارع براج خالية يتجول فيها السادة الألمان وحدهم ثم اقترحت إلى جانب هذا ، أن يحتفل الوطنيون بعيدهم القومي ، بحمل شارة صغيرة ذات ثلاثة ألوان — شارة الدولة الحديثة : الأزرق والأبيض والأحمر — ونجحت دعوة V-Boj نجاحا عظيما . ولكن لسوء الحظ لم يلبث هذا النجاح أن كلف الوطنيين ثمنا غاليا . فقد حدث عند ما بزغت شمس يوم ٢٨ أكتوبر (١٩٣٩) ، وظهرت براج يخيم عليها السكون من كل جانب كأنه لم يكن بها قاطن أن قرر كارل هرمان فرانك وزير الحماية الألماني أن يخرج مع أعوانه وفي عدد من قواته النازية ليتجول في أحياء المدينة عله يعثر ببعض عاثرى الحظ الذين اقتضت أعمالهم أن يغادروا منازلهم في هذا اليوم المشؤم ، أو عله يستطيع أن يحمل الخراب والدمار إلى بيوت الأهلين المسالمين . ولذلك ركب (فرانك) مع جماعته السيارات ، وقصدوا جميعا إلى أحد الأحياء الأثرية القديمة في براج (طريق الفلكيين) فخرج لاستقبالهم يهودى هرم ظن أنهم من السائحين الزائرين الذين يقصدون مشاهدة معالم هذا الحى الأثرى ، فكان نصيبه الموت . ثم قصد (فرانك) وأعوانه بعد ذلك أحد الميادين الكبيرة في قلب المدينة ، وهناك عثروا ببعض المارة فألقوا عليهم القذائف اليدوية . وما أن سمع النازيون صوت هذه المفرقات حتى تدفقوا من أماكنهم وئسكناتهم ، وامتلأت بهم الشوارع ، واستطاعوا أن يخرجوا اليهود من بيوتهم أو من مخابثهم ، وقتلوا منهم سبعة عشر شخصا ، ثم قاد الجستابو ٣٦ شخصا آخر أذاقوهم العذاب . وبذلك استطاع النازيون أن يسيّلوا الدماء في يوم تشيكوسلوفاكيا الوطنى ! وكان لهذه المأساة

آثار خطيرة . إذ أن الأهلين وقد ذاقوا الأمرين من عنث السلطات الألمانية ؛ وإصرارها على سفك دماهم ، لم يلبثوا أن قرروا بدورهم اتباع أساليب المقاومة الإيجابية المعروفة . ومن ذلك الحين لم تذق (براج) طعم الهدوء يوما واحدا . وقضى من ثم على كل أمل في إمكان التعاون بين التشيك وسلطات الحماية الألمانية .

بيد أن هذا لم يكن كل ما نجم من شرور . فقد أفضى إصرار الأهلين في الأيام التالية على العمل باقتراح (V-Boj) وحمل الشارة التي تقدم ذكرها ، إلى إثارة سخط النازيين عليهم حتى إن هؤلاء كثيرا ما كانوا يوقفون حاملها في الطريق ، من أجل أن ينتزعوا هذه الشارة عنوة . ولما أعييتهم الحيل ، صاروا ينهالون على أصحابها باللكم والضرب ، ثم لجأوا في آخر الأمر إلى إطلاق الرصاص على كل شخص جرؤ على حمل هذه الشارة في عروته !

ولما كانت جريدة (V-Boj) هي المسؤولة عن ظهور هذا النوع من المقاومة السلبية ، فقد حقق الألمان عليها ، ونشط الجستابو نشاطاً عظيماً للقبض على أصحابها ومحرميها وموزعيها ، وعرضت السلطات مكافأة مالية كبيرة لمن يرشد عن أشخاصهم ، أو يدل على مكان طبع الصحيفة . وأسفرت جهود الجستابو الجديدة عن معرفة مكان مؤقت كان قد اختاره (سكالدا) ورفاقه لطبع صحيفتهم بعد حوادث ٢٨ أكتوبر المشؤومة في أحد فنادق براج الكبيرة . فاحاط الجستابو بهذا المكان ، ثم هاجموه . وباغتوا فيه رجلين . استطاع أحدهما أن يشعل النار في عدد الجريدة الذي أعد للظهور ، وأطلق الجستابو عليه الرصاص من الخلف ، وقفر الثاني من النافذة فدق عنقه عند سقوطه ، وكان كل ما ظفر به الجستابو عبارة عن ٢٠ نسخة خُسب من آخر أعداد الجريدة !

ولم يعطل هذا الحادث نشاط (سكالدا) . بل إن الصحيفة لم تلبث أن أخرجت كتيباً جديدا بعد الحوادث الآتفة تخاطفته الأيدي ، ولم يفتن الجستابو في باديء الأمر إلى حقيقة هذا الكتيب ، لأنه كان يشبه كتيبا من سلسلة معروفة كانت تصدر في تشيكوسلوفاكيا في تلك الآونة ، ولا تعالج الموضوعات السياسية . هذا إلى أن الذي يتصفح هذا الكتيب ما كان يجد سوى أحاديث عن الأدب ، حتى إذا بلغ الصفحة الرابعة ، عثر على أقوال معادية للسلطات الألمانية وصور هزلية من النوع الذي تجيده الدعاية الخفية . وإلى جانب ذلك بعض النصائح والإرشادات الضرورية لاحكام أساليب المقاومة السلبية .

وفي براج ، ظل (سكالدا) يصدر صحيفته السرية (V-Boj) بالرغم من الأخطار التي اكتنفته ، معتمدا هو وأعوانه على النساء بصفة خاصة في توزيع الصحيفة ، حتى اضطر الجستابو إل استخدام عدد من الألمانيات لمراقبة المحال العامة التي ترتادها السيدات بنوع

خاص . ومع هذا فقد أخفقت محاولات الجستابو . وفي هذه الأثناء كانت (V-Boj) قد صارت صحيفة المقاومة السلبية الأولى ، وقد نشرت في أحد أعدادها الأخيرة بعض النصائح لقارئها ، كقولها : « إذا قادتك سوء الطالع إلى الوقوع في أيديهم — أي الألمان — فلا تنس دائماً هذه العبارة : لا أعرف ! لا أذكر ! ، وإذا ضربوك وعذبوك فاطلب من الله أن يمنحك القوة والجلد ، ثم تذكر مرة أخرى : لا أعرف ! لا أذكر ، وإذا جابهوك بأحد رفاقك المتعاونين معك ، أو أحد أصدقائك ومعارفك ، ممن يقولون أمامهم دون تردد ، أنه من العبث نكران أى شيء ، ثم يطلب إليك أن تعترف ، فتذكر العبارة نفسها : لا أعرف ! لا أذكر ، لأن ما نقوه به عدا ما تقدم يحمل بين أطوائه الضرر والسوء . كن شجاعاً وخوراً وجلداً صبوراً . كن صاحب مكر ودهاء . ثم تعلم كيف تقدر العواقب وتزن الأمور ، وفكر طويلاً قبل أن تنضم إلى صفوفنا وتعمل معنا ، ولا تكن عجولاً .. »

وزاد غيظ الجستابو وحنقهم ، عندما ظهرت صحيفة جديدة في هذه الآونة تسمى التعاون Collaboration ، وكانت في مظهرها ، وما اشتملت عليه من عبارات عند بدء القول في بحث أو موضوع ، ثم عند اختتام هذا البحث أو الموضوع ، ما يدل على أنها كانت تدعو حقيقة إلى التعاون مع الألمان : حتى إذا أنعم القارئ في وسط المقال وفي نهاية الصفحة وجد عبارات من نار تدعو الوطنيين إلى مقاومة الطغيان النازي ، وتنتشر في الواقع (انجيل الوطنية) الذي حرصت (V-Boj) نفسها على إذاعته . وكانت هذه الصحيفة تتألف من ثمان صفحات ، وتشبه كتب الجيب في حجمها ، وبلغ ما صدر منها ثلاثة أعداد فحسب ، قبل أن يجد الجستابو وراء أصحابها ، وقنع هؤلاء بأن يلزموا السكون مؤقتاً حتى تهدأ العاصفة

بيد أن ذبوع V-Boj من جهة ، وظهور (التعاون) وهي الجريدة التي روجت تعاليم ومبادئ الصحيفة الأولى من جهة أخرى ، سرعان ما جعل الجستابو يضاعف جهده حتى يقبض على مصدرى V-Boj ومحريها ثم شاء الحظ أن يخدمهم في هذه المرة ، ووقع (يوسف سكالدا) في قبضتهم أخيراً ، فألقوا به في غياهب السجون مدة طويلة ، وبعد مضي ثمانية عشر شهراً ، صدر بيان جاء فيه : « إن محكمة الشعب في برلين قد أصدرت حكمها بإعدام يوسف سكالدا ، وهو كاتب تشيكي ، ثم حكمت بالسجن مدداً طويلة على خمسة عشر تشيكياً آخرين لأنهم ساهموا في إصدار ونشر صحيفتين من الصحف التشيكية الحرة ! » ، وبهذا أسدل الستار على نشاط (يوسف سكالدا) ، ولو أن هذا كان لا يعنى أن الجستابو قد قضى على جريدة V-Boj نهائياً .

ولا تتم قصة الصحف السرية في تشيكوسلوفاكيا من غير الإشارة إلى كتيب لنى إقبالاً

عظيما في تلك البلاد ، هو كتاب « الجندي الطيب شقاياك في عهد الاحتلال » . وشقاياك (Schweik) هذا من الشخصيات المحبوبة في الأدب التشيكوسلوفاكي الحديث ، أخرجها إلى عالم الوجود (ياروسلاف هازيك) Jaroslav Hasek (١٨٨٤ - ١٩٣٣) . وتقع حوادث القصة الأصلية ونوادير (شقاياك) في عهد الامبراطورية النمساوية القديمة وفي أثناء الحرب العالمية الأولى . أما في كتاب الدعاوة المضادة الجديد ، فتقع حوادث هذا البطل (شقاياك) في عهد الحماية الألمانية في بوهيميا ومورافيا . والكتاب مملوء بالنوادير والقصص التي يقصد بها تشجيع المقاومة ضد الحماية الألمانية .

وكذلك كان من الكتب الصغيرة التي صادفت نجاحاً كبيراً ، كتب لا يحمل عنواناً ، لم يلبث أن عرفه الوطنيون باسم كتاب « أقاصيص الصيد » . ثم هناك عدة صحف سرية كانت توزع في تشيكوسلوفاكيا المحتلة : منها : (تحرير الوطن) Narodni Osvobozeni و (الصدق) Pravad ، (جمهورية تشيكوسلوفاكيا Cesko sloveuskia Republike

* * *

وفي بولندة حيث أخفق النازيون تماماً في استمالة الألمان إلى التعاون معهم ، وصاروا لذلك لا يتورعون عن ارتكاب أية جريمة من أجل إبادة البولنديين وإفنائهم ، كانت تنتشر الصحف السرية انتشاراً عظيماً . ولم يقل عدد مظهر منها منذ بداية الاحتلال الألماني عن ١٥٠ صحيفة . وأكثر هذه الصحف كانت تتألف من أربع صفحات مخصصة لإذاعة الأنباء . هذا عدا صحف شهرية كانت تعنى بنشر البحوث العلمية والفنية ، وتكتب في شئون الاقتصاد والزراعة والتربية . ولكنهم لم تلبث أن تنوعت وتعددت ، حتى شملت مقالاتها وبحوثها جميع نواحي الحياة البولندية . وفي سبتمبر ١٩٤٣ كان عدد الصحف السرية التي تظهر بانتظام لا يقل عن ٧٢ صحيفة ، وكثير من هذه الصحف لم ينقطع ظهوره منذ بداية الاحتلال الألماني . فإذا أدركنا مقدار الصعوبة التي كان يصادفها أصحابها ومحرروها في العثور على الورق — كان صدور مثل هذا العدد الكبير من الصحف السرية عملاً يدعو إلى الإعجاب . ومن أشهر هذه الصحف : صوت بولندة ، Glos Ploski ، الرقيب Warto ، الثورة

Insurekja ، نضال العمال Robotnik in Walce ، الشعلة Pochodina ، الشباب Młodzież بولندة الحرة Wolna Polska ، القضية Sprawa ، وغيرها . واتخذت أكثرية هذه الصحف شعاراً لها بعض العبارات الوطنية ، كقولها : « إن النصر هو عدم التسليم بعد الهزيمة ! » ، أو « أن الهزيمة تكون دائماً بمثابة الدرس اللازم لإحراز النصر في النهاية ! » ، أو « أن الفرد الذي يرفض التضحية بنفسه من أجل الخلاص ، لا يكون أهلاً للتمتع بمزايا الحرية ! » ، هذا

عدداً بعض الارشادات ، كأن يعطى القارىء العدد الذى بيده إلى قارىء بولندى آخر يثق به . ثم كثيراً ما كانت هذه الصحف تنشر قوائم بأسماء المتبرعين الذين يوجدون بالمال وغيره حتى يمكنهم من الظهور . وبما يسترعى النظر أن بعض هؤلاء الوطنيين كانوا يتبرعون بالأغذية كالزبد والبيض والسجائر لمحزرى الصحف السرية ومصدرها والسبب فى هذا أنه كان من المتعذر على أصحاب هذه الصحف الذين يطاردهم الجستابو ويرغمون على الانتقال كثيراً من مكان إلى آخر ، أن يجدوا كفايتهم من الأغذية لاسيما وأنهم ما كانوا يستطيعون استخدام بطاقات التموين .

ولعل أهم ما كانت تقوم به هذه الصحف ، هو حديثها عن الطرق والأساليب التى يتبعها النازيون فى تطبيق النظام الجديد فى بولندا ، ووصف الآثار التى أحدثها هذا النظام الجديد فى حياة البلاد كأغلاق المصانع وتعطل ألوف العمال البولنديين ، وصعوبات النقل المتزايدة بالسكك الحديدية ، وعجز السلطات الألمانية عن تغيير القضبان الحديدية القديمة البالية والقوضى المنتشرة فى مصالح النقل عموماً ، وما يتبع ذلك ، كتعذر نقل الحيوانات والمواشى التى ظفر بها الألمان فى (الأوكرين) فقد كانوا يبغون إرسالها إلى ألمانيا أو إلى ميادين القتال لغذاء الجنود ، غير أن عدداً كبيراً من هذه المواشى كان ينفق فى أفنية المحطات وعلى قارعة الطريق . وغنى عن البيان أن مرجع هذا الخلل وهذه القوضى ، إقدام البولنديين على أعمال المقاومة الإيجابية العنيفة .

وكذلك كانت الصحف السرية تشجع الوطنيين على إتقان أساليب المقاومة السلبية كالإمتناع عن إعطاء (الفرو) الذى طلبه الألمان حتى يتدثر به جنودهم فى الميادين الروسية ، أو تسليم أحذية الانزلاق على الجليد التى طلبوها أيضاً لاستخدامها فى روسيا وفى النرويج . أضف إلى ذلك أن الصحف السرية صارت تعنى بنشر الموضوعات التى تبحث فى آمال البلاد وأمانها والأغراض التى تعززم تحقيقها فى المستقبل ! من ذلك ما نشرته جريدة (بولندا الحرة) فى عدد ٢٨ يناير ١٩٤٢ حيث قالت : « إننا نناضل من أجل دولة بولندية يكون هدفها الأعلى خدمة جميع مواطنيها على السواء ، وهذه الدولة سوف يجرى تنظيمها وفق إرادة العدد الأكبر من أهلها ، ولقائده كل فرد من أفرادها ، ولذلك ينبغى أن تزول جميع الفروق الاجتماعية غير العادلة . » والحقيقة أنه على الرغم من وجود عدة أحزاب سياسية فقد انفقت كلها جميعاً على ضرورة توزيع الثروة على أثر انتهاء الحرب توزيعاً عادلاً والعمل على تحقيق مبدأ تكافؤ الفرص لأبناء الدولة الجديدة .

أما السادة الألمان فقد كافروا هذه الصحف السرية بكل قسوة وبطش وليس أدل على

ذلك مما حدث في وارسو في أغسطس ١٩٤٠ عندما قبض الجستابو على فتاتين تبلغان من العمر ١٦، ١٤ سنة، وعثر معهما على عدد من الصحف السرية، فأعدم الألمان الفتاتين ثم سلوا الجشتين لأسرتيهما حتى لا يتحمل الألمان نفقات الدفن!، أو ما حدث في ٤ يولييه ١٩٤١ عندما فاجأ الجستابو منزلا صغيرا في (تزنياكوف) Czerniakov، كان يقيم به جماعة من المسؤولين عن إصدار جريدة (صوت بولندا) Głos Polski. فلم يكتف الجستابو بإطلاق المدافع السريعة على تعساء الحظ في هذا المنزل، بل قبضوا على الأهلين في المنازل المجاورة، وأعدموا الجميع بالرصاص. وبلغ عدد ضحايا هذه المجزرة ٨٣ قتيلا من الإناث والذكور واشتدت حملة الجستابو على محرري وموزعي الصحف السرية في عام ١٩٤١ حتى بلغ متوسط الذين أعدموا (بالجولوتين) في مدينة (بونزان) Ponzàn ٢٥ شخصا في الأسبوع الواحد. وفي الواقع نصب النازيون (الجولوتين) في كل مدينة وكل قرية تقريبا. وفي (سيليزيا) صاروا يرغمون أطفال المدارس على حضور عمليات الإعدام في كل مرة. وفي ٨ يونيو ١٩٤٢ شق الألمان علنا في المدينة نفسها خمسة عشر شخصا أتهمهم بتوزيع الصحف السرية. وظلت جثث المتوفين معلقة مدة ثمان وأربعين ساعة. وكان من بين هؤلاء ثلاث عشرة امرأة؛ هذا عدا عقوبات الإعدام والسجن لمدد طويلة، كان يوقعها النازيون على كل منهم بالاستماع إلى محطة الإذاعة البريطانية (B.B.C) أو ترويج الأنباء المضادة من لندن.

* * *

وفي يوغوسلافيا انبرت صحيفتها السرية المشهورة (الحرية أو الموت!) Svoboda Ali Smart تنشر قصة معركة يوغوسلافيا الثانية، هذا بعد أن أعلن الألمان أن البلاد قد دانت بأسرها وأن الحرب قد وضعت أوزارها في يوغوسلافيا فوقع على غاتق هذه الصحيفة السرية إذن — وكانت تصدر في (لوبليانا) Ljubljana — أن تفصح كذب ادعاءات الألمان وتعلن إلى الملأ تأليف جيش يوغوسلافيا الوطني الذي ظل يرفع راية الجهاد تحت قيادة الجنرال ميخائيلوفتش. فقد استطاع السربيون والكرواتيون والسلوفينيون أن يدفنوا خلافتهم القديمة، حتى يؤافوا من بينهم جيشا كبيرا يتولى الدفاع عن أرض الوطن، ووقع اختيارهم على الجنرال ميخائيلوفتش للقيادة العامة، لأنه كان يتمتع بتاريخ حافل، إذ اشترك قبل ذلك في الحرب ضد الأتراك في عام ١٩١٢، وضد البلغار في عام ١٩١٣، وضد الألمان والنمساويين في عام ١٩١٤، ثم كان في استطاعته عندما اجتاحت الألمان بلاده في الحرب الماضية أن يفر بسلام إلى القطر المصري على متن إحدى الطائرات ولكنه رفض وآثر

المكث بين مواطنيه ، واتخذ مقره في الجبال الوعرة وهناك انضم إليه ألوف الرجال والنساء لإعداد جيش يوغوسلافيا الوطنى . ولعل أهم مميزات ميخائيلوفتش أنه كان أعظم الرجال خبرة بحرب العصابات فى القارة بأسرها . وقد استطاع بعد صعوبات جمة أن يجمع جيشا بلغ عدده فى يونيه ١٩٤١ مائة ألف جندى

وفى ذات يوم من أيام هذا الشهر نفسه ، فوجيء الجنود الألمان وكذلك الكروات الذين عملوا معهم ، بهجوم ميخائيلوفتش ورجاله عليهم . وكان هجوما عنيفا ، اكتسح أمامه كل شىء ، فاحتل رجاله مدينة بعد أخرى ، وقرية بعد قرية . وكان (التشنيك) عصب هذا الجيش الجديد . ولقى المحاربون فى كل مكان حلوا فيه ترحيبا عظيما . وهكذا استطاع ميخائيلوفتش بعد وقت قصير أن يسيطر على مساحة بلغت عشرين ألف ميل مربع (حوالى خمسى يوغوسلافيا) طهرت جميعها من الايطاليين والألمان . ثم أنشأ هذا القائد حكومة جديدة هى حكومة (سربيا غير المحتلة) ، وانكب بعد ذلك على اصدار الصحف ، ومنها صحيفة (الحرية أو الموت) ، وبلغ عدد صفحاتها أربعا ، ثم صار لا يقتصر توزيعها على الأرض التى دخلت فى حوزة (التشنيك) بل انتشرت فى الأراضى التى احتلها الألمان والايطاليون أنفسهم .

يبد أن جريدة (الحرية أو الموت) لم تكن وحدها الصحيفة التى صارت توزع فى الأراضى المحتلة ، فقد نجم عن عمل الألمان على اخمد جميع الصحف اليوغوسلافية اليومية العادية ، أن ظهر عدد من الصحف السرية المتنوعة . فصدر السرييون والكراوتيون والسلافينيون جرائدهم الخاصة بهم ، وكان للأخيرين على وجه الخصوص عدة صحف ، منها : عدا (الحرية أو الموت) ، (سلوفينيا الحرة) Svobodna Slovenija ، (سلوفينيا وأوربا) Slovenija in Europa ، (جر الحرية) Zarja Svobode ، (الرابطه السلوفينية) Slovenska Zarvey وغيرها وكان للشيو عيين (البارتيزان) بعض الصحف ، كما كانت هناك صحيفة هنلية تسمى (طابور خامس) Teti Kolunnista .

وقد تحدثت صحيفة (الرابطه السلوفينية) عن الإهداف التى كان يعمل السلافينيون الوطنيون على تحقيقها فقالت أنه من الضرورى أن يطرد جميع الجنود الأجانب الذين يحتلون البلاد وأن تنشأ دولة سلوفينية موحدة فى نطاق دولة يوغوسلافية متحدة كبيرة ، على أن تجمع بين الاتحاد اليوغوسلافى المستظر والبلدان الديموقراطية فى العالم أواصر المحالفة المتيئة .

أما جميع هذه الصحف السرية ، فقد عنيت بنشر أخبار الانتصارات التي أحرزها جيش الجنرال (ميخائيلوفتش) ، كما صارت تحدث عن ضرورة تنظيم أعمال المقاومة الإيجابية في نطاق واسع ، وتنشر أخبار النسف والتدمير التي كان يقوم بها الوطنيون من حين إلى آخر ، مثل تدمير الجسور ، وانتزاع قضبان السكك الحديدية ، وقطع أسلاك التليفون ، وتعطيل الطرق وهكذا ، حتى حلت الفوضى من كل مكان ، وتعطل نقل المسافرين والبضائع ، وأهم من هذا كله عتاد الحرب الألماني . وجيش العدو . فقد نشرت جريدة (سلوفينيا الحرة) بعض تفصيلات التخريب الذي لحق بالسكك الحديدية في يناير ١٩٤٢ : من ذلك أنه لما كان الألمان يسيطرون على وادي مورافا (Morava) الذي تجرى به سكة حديد (نيش) Nish التي يستخدمونها في نقل الإمدادات الكبيرة ، فقد خرب (التشتميك) هذه السكة ، ثم استطاعوا بعد ذلك أن ينشروا الفوضى في نظام النقل بين (نيش) و (أوريسا) عن طريق (صوفيا) . وكان من أخطر ما فعلوه نسف ثلاثة جسور كبيرة بين (زايتشار) Zajetchar و (نيش) وانتقم الألمان بأن أخذوا ثلاثين ألفاً من الأهليين كرهائن ! ولم تلبث السلطات الألمانية ذاتها أن اعترفت بخطر هذا التدمير عندما نشرت إحدى صحفهم في هذه البلاد (Donau Zeitung) تحذيراً للأهليين جاء فيه ما معناه : « لقد وقعت حوادث تخريب واغتيال ، كما أشعلت عمداً حرائق كبيرة ، ولكنه إذا ظلت الحرائق تشتعل في حقول القمح ، فإن السريين وحدهم هم الذين سوف يحرمون الحنن ، وإذا خربت الطرق والمواصلات والتليفونات ، وسائر وسائل الخدمة العامة ، فإن الضرر البالغ سوف يلحق بالاقتصاد السربي وحده » !

وزيادة على ذلك استطاع جيش (ميخائيلوفتش) أن يحكم الصلة بينه وبين الحكومة اليوغوسلافية الملكية في لندن ، فذكرت جريدة (سلوفينيا وأوربا) ، أن ميخائيلوفتش تمكن من إرسال الدكتور (سكوليتش) Sekulitch إلى لندن حتى يشرح ما كان يفعله الجيش الوطني في يوغوسلافيا ويبين مبلغ ما يحتاجه هذا الجيش من السلاح والذخيرة والعتاد الحربي عموماً ثم لم يلبث المحاربون الوطنيون أن أوجدوا نظاماً للمخابرات المستمرة مع الحكومة اليوغوسلافية في لندن ، ثم ظهرت آثار هذا التدبير المحكم عند ما نشرت جريدة (سلوفينيا الحرة) مقالا جاء فيه . « لقد كشف الألمان في الأسبوع الماضي — ويا لهول ما كشفوا — أن ميخائيلوفتش يملك دبابات بين عتاده الحربي ، كما يملك أيضاً مدافع مضادة للدبابات وعدداً عظيماً من المدفعية ... وعند ما هاجمنا الألمان في أول الأمر كانت هناك عدة مطارات سرية ما تزال في دور التكوين والنمو ، أما الآن فإن الجنرال ميخائيلوفتش يستخدم بعض هذه المطارات ، هذا إلى جانب ما يوجد لديه من غواصات تجدد في العمل ، كما يعرف الإيطاليون

ذلك حق المعرفة بسبب ما يعانيه منها ! ، والحقيقة أن الألمان سرعان ما وجدوا أنفسهم مرغمين على خوض غمار حروب شديدة ، استخدموا في معاركها الطائرات المنقضة والدبابات والمدفعية الثقيلة ، كما صاروا يحشدون القوات الكبيرة ومن بينهم رجال المظلات الهابطة ، وذلك كله حتى يستعيدوا بلاداً أعلنت القيادة العليا الألمانية منذ مدة أنها قد دخلت في حوزة الغزاة الفاتحين نهائياً .

ومن بين هذه المعارك الدموية الكبيرة ، كانت معركة (شاباتز) Chabatz وهو اسم المدينة التي حاصرها التشيك من كل جانب بعد أن أبادوا حاميتها الألمانية وكان من آثار هذه المعركة اشتداد حركة المقاومة الإيجابية ضد الألمان والظليان في كل مكان تقريباً ، حتى صار هؤلاء لا يشعرون بأمن ولا طمأنينة في (بلغراد) ذاتها . وحدث في بلغراد ما كان يسوغ عدم الاطمئنان قط . فقد دمرت بها محطة توليد الكهرباء ذات مساء كما مات الجنرال (شرودر) Schroeder فجأة وفي ظروف مريبة ، ولحق به كثيرون أيضاً من الحراس الألمان بالمدينة . ولم يكن من المتوقع أن تخف وطأة هذه المقاومة الشديدة ما دامت الصحف السرية تنشر أخبارها وتشجع أبطالها على المضى في مكافحة الغزاة الفاتحين بجذوهم .

وسرعان ما جاء دليل حاسم على فشل الألمان في قمع الوطنيين من جهة ، وعلى انتصار جيش يوغوسلافيا الوطني من جهة أخرى عندما نشرت جريدة (الحرية أو الموت) ذات يوم خبراً مفاده أن الألمان يريدون المفاوضة مع الجنرال ميخائيلوفتش والاتفاق معه على الشروط التي يرضيها . وبالفعل حدث في الأيام التالية أن توسط في هذه المفاوضة (كويسلنج) سربياً الجنرال (نيدتش) Neditch ، وعقد الفريقان هدنة ودية ، لم يطرأ في خلالها أي تحسن في حالة بلغراد المحاصرة . ثم لم تلبث أن أخفقت مفاوضات الصلح ، وعرض الألمان عقب ذلك مكافأة ٢٠٠,٠٠٠ دينار ثمناً لرأس الجنرال (ميخائيلوفتش) .

وفي عام ١٩٤٣ ، كانت صحف يوغوسلافيا السرية في نمو مطرد ، حتى بلغ عدد قراء الصحف السرية وحدها حوالى المائة ألف ، وهذا بينما كانت الصحف الكرواتية السرية تقوم بنشر الدعاية الخفية أو الدعاية المضادة ضد دولتي المحور .

* * *

وفي (النرويج) التي أخضعها النازيون لسلطانهم (ابريل - يونيو ١٩٤٠) ، كان سواد النرويجيين - على الرغم من انتصارات الألمان الخاطفة ، وظهور (كويسلنج) وأنصاره ممن قبلوا التعاون مع الغزاة الفاتحين - لا يزالون كبيرى الثقة بانتصار بريطانيا وهزيمة ألمانيا في النهاية . ولذلك فإن الصحف النرويجية التي رفضت الانحياز إلى الكويسلنجن ، سرعان

ماصارت تحاول مراوغه (الرقيب) الألماني ، وتمتحن الفرص حتى تنشر على جمهور قرائها التعليمات السرية التي أصدرها الألمان حتى يمنعوا هذه الصحف من إظهار أى عطف نحو قضية إنجلترا أو قضية الديمقراطية عموماً ، ومن تقديم النقد اللاذع إلى حكومة (كويسلنج) وأعوانه ، ومن الإشادة بذكر (ها كون) ملك البلاد ، ومن إذاعة القصص أو النوادر التي تقلل من هيبة السادة النازيين وتجعلهم موضع زراية أهل الترويح وسخريتهم . وكانت الرقابة التي فرضها النازيون على الصحف شديدة في العاصمة (أوسلو) على وجه الخصوص ، وكذلك في (برجن) ، وانتشر الجستابو في كل مكان لمراقبة أصحاب الصحف ومحرريها . أما في سائر المدن الداخلية فقد تعذر على الألمان أن يوجدوا رقابة صارمة . وكان من أعمال هذه الرقابة اختيار الأنباء التي أجازت سلطات الاحتلال الألمانية إذاعتها ، وكذلك بعض المقالات الافتتاحية التي أرغمت الصحف ارغاماً على نشرها ، وكانت تتضمن تعليقات تنطوي على المبالغة في جسامه الأضرار الناجمة عن إغارات الطائرات البريطانية على الموانئ والمدن النرويجية الساحلية ، ثم محاولة إقناع الشعب النرويجي بأنه ما كان ينبغي أن تحل به هذه الكوارث ، لو أن الملك (ها كون) قبل البقاء في مملكته ولم يتخذ مقر حكومته في لندن . ويتحالف مع البريطانيين الذين يغيرون على بلاده بطائراتهم وتفتك قذائفهم بأبناء وطنه .

ولما كان سواد الشعب في شهور الاحتلال الأولى يجهل أن أصحاب الصحف الوطنية (النرويجية) ومحرريها إنما يرغمون على كتابة هذه المقالات ، ومسدسات الجستابو مسلطة على رؤوسهم ، كما كانوا يجهلون المحاولات التي تبذلها الصحف حتى تتخلص من (الرقابة) الصارمة ، فقد ظن هؤلاء أن هذه الصحف إنما تنشر الدعاوة للنازيين ، وتكيل السباب للبيت المالك محتارة ، ولذلك تدفقت رسائل القراء من كل جانب ، يلغى أصحابها اشتراكاتهم ، ويقطعون صلتهم بالصحف التي اعتادوا أن يقرأوها منذ مدة طويلة .

وفي يونيو ١٩٤٠ أصدر النازيون عدة تعليمات حتموا على الصحف اتباعها ، فيما ينبغي نشره ، من ذلك أن البلاغات الحربية الصادرة من البلدان المحاربة ضد ألمانيا لا يجوز نشرها إلا إذا أجازت ذلك وكالة الأنباء النرويجية ، الخاضعة لرقابة النازيين ولا ينبغي أن تنشر الصحف أية أنباء مذاعة بالراديو من البلدان التي في حالة حرب مع ألمانيا . وكذلك لا يجوز أن تنشر الصحف شيئاً من الخطابات التي يلقيها أعضاء البيت المالك ، أو الحكومة أو القيادة العامة ، كما لا ينبغي نشر صور أحد من جميع هؤلاء . وعند الحديث في شئون السياسة الخارجية ، ينبغي دائماً أن تحترم الصحف ونجدة النظر الألمانية ، ولا ينبغي مهاجمة

دولة من الدول التي عقدت اتفاقات أو معاهدات مع الرينخ الثالث. وكذلك فإنه عند الكلام عن الحالة المالية في البلاد ، يجب أن تمتنع الصحف عن نشر كل ما قد يؤدي إلى إثارة الخواطر ، بل عليها بدلا من ذلك أن تعرض الموضوعات التي من هذا القبيل بشكل يضمن ادخال الطمأنينة إلى نفوس القارئين . وزيادة على ذلك ، فإن من واجب الصحف أن تمتنع امتناعا تاما عن الخوض في كل ما قد يغير النفوس بين النرويجيين والألمان . أما إذا رفض محررو الصحف اتباع هذه التعليمات ، فإنهم يصبحون معرضين لتوقيع العقوبات الشديدة عليهم عدا غلق صحفهم .

ولم يكن من المنتظر أن تدعن الصحف النرويجية لهذه الأوامر والتعليمات ، بل حاول المحررون على الرغم من صرامة الرقابة النازية ، أن يتجنبوا الفرص حتى يتحرروا من أغلال هذه القيود الشديدة ، ونجحت في أحيان كثيرة هذه المحاولات ، وساعد على ذلك أن الرقباء الألمان كانوا قليلي الدراية بأساليب الكتابة النرويجية وبحقيقة الأدب النرويجي . ولكن الكويسلنجنين سرعان ما صاروا يوضحون لسادتهم النازيين ما استغلوا عليهم فهمه . فأغلقت صحف كثيرة ، وقبض النازيون على عدد كبير من المحررين ، وفي بعض الحالات استبدل النازيون (بقلم التحرير) جماعة من الموالين لهم الذين وثقوا بهم ، كما فعلوا في صحيفة (أوسلو) الراديكالية المعروفة (داجبلاد) Dagbladet وفي غيرها .

يبد أنه كان من نتائج هذه الرقابة الصارمة ، ظهور الصحف السرية في بلاد النرويج . وفي خلال شهور الاحتلال التسعة الأولى اعتمد الأهلون في معرفة أبناء العالم الصحيحة على الإذاعات الخارجية . ولم تفقد مصادرة الألمان لأجهزة الراديو شيئا في منع الأهلين من الاستماع إلى إذاعة المحطة البريطانية B.B.C. . إذ سرعان ما استخدم النرويجيون أجهزة جديدة ، وفي أول الأمر تناقل الأهلون أخبار هذه الإذاعات شفاهيا ، واستمر الحال على ذلك حتى قرر أحد الوطنيين ويدعى (أولاف) Olav إنشاء صحيفة سرية ، سماها « نريد وطننا ! » Vi Vil Oss et land . ثم استطاع (أولاف) أن يجد من بين الصحفيين الوطنيين خمسة قبلوا العمل معه ، وانطلقوا جميعاً يعدون العدة لإصدار جريدتهم الجديدة .

غير أنه كانت هناك صعوبات عدة في بادئ الأمر كادت تقضى على هذا المشروع بالفشل أهمها : صعوبة الحصول على الورق ، وحروف الطباعة والمطبعة . فبذل الرفاق كل جهد حتى استطاعوا الحصول على كميات مناسبة من الورق وعلى الآلات اللازمة ، ثم على مكان يطبعون فيه جريدتهم ، وانضم إليهم رجلان آخران فصاروا سبعة ، وتمكنوا من إصدار صحيفتهم . وأحدث ظهور عددها الأول أثرا عميقا في النرويج ، كما أزعج الألمانين لإزعاجا

شديداً . لأن هؤلاء كانوا قد ظنوا النرويجيين بعد مضي هذه الفترة الطويلة عقب الاحتلال ، قد بدأوا يقنعون بالعيش في ظل النظام الجديد ، وتوقع النازيون لذلك أن يكثر مؤيدو هذا النظام يوماً بعد يوم . وعلى هذا ، كان صدور « نريد وطننا ! » قاضياً على أحلامهم وأمانهم . فجرد الألمان قوة الجستابو الخطيرة لمعرفة محريها والقبض عليهم ، ولكن هذه المحاولات الأولى باءت بالفشل ، وعظم حنق الألمان ، كما زادت حيرتهم .

وبما أوقد حفيظة الألمان ، أن هذه الجريدة السرية ، أخذت على عاتقها بيان أضرار السادة النازيين وفضح أكاذيبهم ، وأكاذيب الدعاية النازية ، وزيادة على ذلك اتقنت الجريدة أساليب السخرى وبروجي الدعاوة من أجل جذب القلوب نحو السادة الألمان ، وحث الأهليين على التعاون معهم ، كما أنها صارت تحذر النرويجيين من الانخداع بطرائق النازيين الذين حرصوا في هذه الآونة على استمالة أهل البلاد وكسب صداقتهم . أضف إلى هذا أنها أخذت تكشف عن حقيقة الاتفاقات التي عقدها الكويسلنجيون مع الضباط الألمان من أجل ترويج الثقافة الألمانية في البلاد في نظير الحصول على أجر مالي كبير ، أو الاستفادة من هذا التعاون مع الغزاة الفاتحين في نواح أخرى . ثم لم تقتصر الجريدة على توجيه النقد للدع لسلطات الاحتلال عموماً ، بل صار (أولاف) على وجه الخصوص ينشر الدعوة في صحيفته السرية إلى مستقبل زاهر عند هزيمة الألمان المحتومة ، على أساس إرجاع الملك هاكون إلى عرش بلاده ثم تأليف كتلة اتحادية كبيرة تضم النرويج إلى مجموعة الدول الديمقراطية في العالم ، على أن تتخلى كل دولة من أعضاء هذا الاتحاد عن بعض حقوق السيادة ، بحيث لا يترتب على ذلك أن يفقد عضو الاتحاد المزمع تأليفه ذلك الطابع الشخصي الذي يحفظ للدولة كيائها القومي في النهاية . ولكن الدعوة إلى إنشاء مجموعة اتحادية من الدول ، كانت رأياً جريئاً ومنذ نشر (أولاف)

هذا الرأي ، قرر الألمان أنه قد بات من الضروري القضاء على هذه الجريدة ، والقبض على (أولاف) وإسكات صوته . فجدد من ثم النازيون محاولاتهم ، وشمروا الجستابو عن ساعد الجد ولما كان توزيع الجريدة قد زاد زيادة عظيمة ، فقد أصبح من الميسور نوعاً ما على الجستابو أن يقفوا على هوية الأشخاص المشتركين في تحرير الجريدة وطبعها وتوزيعها . وذات يوم هاجم الجستابو المكان الخفي الذي اتخذته (أولاف) وجماعته مقرراً لجريدتهم . ولكن هؤلاء كانوا قد عرفوا نية الجستابو فاستطاعوا الفرار قبل الهجوم عليهم بيومين اثنين ! وفي الأيام التالية إزداد الخطر على (أولاف) حتى اضطر إلى ترك عمله وتدير الهرب من النرويج وبعد محاولات متعددة والتعرض لمخاطر كثيرة ، استطاع الفرار إلى إنجلترا .

ومع هذا فإن جريدة (نريد وطننا !) لم تكن الجريدة السرية الوحيدة في النرويج بل

سرعان ما ظهرت صحف أخرى ، على غرار صحيفة (أولاف) . فكانت هناك صحيفة (Eidsvold) وهذه زينت صفحتها الأولى برسم المكان الذى صدر فيه دستور الزويج القديم فى عام ١٨١٤ ، ثم كانت هناك صحيفة (البريد الملكى) KongsPosten ، (علامة الزمان) Tideus Tegn ، (حركة اتحاد العمال الحر) Fri Fagbevegelse وأخيراً صحيفة (الراديو) Radioavisin ، وهذه كانت مخصصة لنشر أنباء الإذاعات البريطانية والأجنبية .

* * *

هذه قصة الصحف السرية فى أوروبا المحتلة ، التى كانت من أكبر دعاءات الدعاية الخفية فى القلعة الهتلرية . وهى إن دلت على شىء ، فإنما تدل على أن الأهلين فى البلدان المقهورة ، وقد تذوقوا طعم الأساليب النازية عند تطبيق النظام الجديد ، وشهدوا عن كسب ضخامة الأكاذيب التى روجتها الدعاية النازية ، وهالهم إذلال أوطانهم تحت نعال الفاتحين الطغاة ، صار لا يهدأ لهم بال حتى يروا أوطانهم محررة من نير النازيين وسلطانهم . وقد يظن إنسان أن الشعوب المحتلة وحدها هى التى كانت تتن من حكم هتلر وطغمته ، وأنها وحدها هى التى لجأت إلى أساليب المقاومة لمحاربة الطغيان النازى ، وأن النظام الجديد قد أخفق فى أوروبا المحتلة فحسب وأن المانيا قلعة هتلر ، كانت موطدة الدعائم متينة الأساس . ولكن الواقع كان على خلاف ذلك . وكما فشل هتلر ونظامه الجديد فى أوروبا المحتلة ، فقد فشل كذلك فى داخل المانيا ذاتها ، ولم يكن ثمة مناص من أن تتصدع أركان القلعة الهتلرية المتداعية قصر الزمن أو طال .

الفصل السادس

حكومة هتلر

تقدم القول عند بحث رغبة النازيين في بسط سيطرتهم العالمية ، بأنه كان من الضروري لتحقيق هذه السيطرة العالمية ، أن يجعلوا من ألمانيا ذاتها كتلة متماسكة ، يستحيل أن يتطرق الضعف إليها ؛ حتى يتخذها النازيون مركزاً « للدوائر » التي يطعمون في « جرمتها » في القارة الأوروبية . ومعنى هذا أن يجمع الحزب النازي في داخل ألمانيا كل أسباب السلطة ، ويتغلغل أعضاء الحزب في نواحي الحياة الألمانية جميعها ، حتى يتمكنوا من إدغام الدولة على الاندماج في الحزب في النهاية ؛ فيصبح الحزب هو الدولة . ولم يكن غريباً أن يطمع النازيون في ذلك لأنه من عادة الدول التي يقبض على زمام الأمور فيها حزب واحد ، وهي الدول التي تسيطر عليها الدكتاتورية سيطرة تامة ، أن يجد هذا الحزب في القضاء على جميع التقاليد والنظم القديمة ويعمل في الوقت ذاته على إنشاء أنظمة جديدة ، قد يحدث لإنشاؤها عقب ثورة جاحقة تكتسح معالم الحياة القديمة اكتساحاً ، على غرار ما حدث في روسيا ؛ أو تظهر إلى عالم الوجود شيئاً فشيئاً دون التجاء إلى الثورة كما فعل النازيون في ألمانيا ، فان هؤلاء وهم الذين اشتدت حملتهم على الشيوعيين منذ قيام حركتهم ، ما كانوا يريدون أن يعرف عنهم سواد الشعب أنهم من أنصار الانقلاب والثورة . ولذلك اتبعوا في مبدأ الأمر أساليب مغايرة لأساليب جيرانهم الشرقيين ، وبدؤوا يقوضون أركان المقاومة في داخل الريخ بالتغلب على الأحزاب المنافسة لهم ،

وكان من عوامل نجاح النازيين أنهم استغلوا الفوضى التي تغلغت في جميع نواحي الحياة الألمانية عقب هزيمتهم في الحرب العالمية الأولى ، وتدمر طبقات الشعب المختلفة من هذه الفوضى ، فطفقوا يبذلون كل جهد حتى يستميلوا إليهم هؤلاء المتذمرين الراغبين في إزالة الآثار التي اعتقدوا أنها من نتائج هزيمة الدولة القيصرية . ولذلك كان أول ماعنى بها (حزب العمال الألمان الوطني الاشتراكي) وضع برنامج شامل صدر في ميونخ في ٢٤ فبراير ١٩٢٠ وكان يتألف من خمسة وعشرين مادة ، وأهم ما يلاحظ عليه ، أنه كان كما جاء في مقدمته برنامجاً أملتة ظروف الحال (zeitprogramm) وقد يعنى هذا الوصف إنه كان برنامجاً مؤقتاً ، أو نهائياً ، والغرض من اختيار هذا الوصف بالذات عدم التقيد في الحقيقة بمحتويات البرنامج

تقيداً حريفاً إذا أثبتت الظروف في المستقبل أن من المصلحة عدم التسك بحرفيته . ومع أن النازيين في الاجتماع الكبير الذي عقده أعضاء الحزب في ٢٢ مايو ١٩٣٦ ، اتخذوا بعد بحث وتمحيص ، قراراً بأن هذا البرنامج لا يمكن تغييره بأى حال من الأحوال ، فقد درجوا على تفسير مواده وفق رغباتهم ، ثم سلكوا في تطبيق هذه المواد من الوجهة العملية ، المسلك الذي أملت عليه مصالحهم ، أى ما يمكنهم من القبض على أزمة السلطة في ألمانيا بأسرها ، وإزالة جميع العناصر المعارضة لهم . وزيادة على هذا ، تضمن البرنامج مجموعة من الآراء والمبادئ المتضاربة ، التي نجمت في الواقع عن السخط المنتشر بين جميع الطبقات المختلفة من جراء ما خلفته الحرب العالمية الأولى من آثار سيئة ، وبسبب ما حدث من مشكلات إقتصادية واجتماعية خطيرة ، في الفترة التي تلت لإنهاء الحرب مباشرة . أضف إلى ذلك أن البرنامج كان يتضمن مبادئ إقتصادية حرص النازيون عند اثباتها على أن تكون من النوع الذي يقضى تحقيقه كفايات غير تلك التي يتمتع بها أعضاء الحزب — من زعماء وموظفين — من يشرفون على تطبيق هذه المبادئ من أجل تحويل ألمانيا إلى دولة وطنية اشتراكية خالصة ثم عمل النازيون على أن يشتمل برنامجهم على مطالب إقتصادية تجلب رضا أصحاب رؤوس الأموال ، مثل كبار الصناع والمنتجين وكبار الزراع ومن إليهم كما تجلب رضا الطبقة العاملة وقد ترتب على المحاولة التي قام بها النازيون للتوفيق بين هذه المصالح المتعارضة ، وخصوصاً عندما هيمنوا على شؤون الدولة وطفقوا ينفذون برنامجهم الإقتصادي ، أن صار يختلف الناس في تفسير الوطنية الاشتراكية ، فهناك من وصفها بأنها من ضروب الاحتمال المالى لمساعدة الزعماء النازيين على جمع الثروة الطائلة وهناك من وصفها بأنها بلشفية صحيحة وان اتخذت لها لونا مغايراً للون البلشفية الأحمر ، أو أنها من النظم التي وضعت خصيصاً لحماية الرأسمالية ، وهكذا . ولو أن التفسير الحقيقي للوطنية الاشتراكية ، على ضوء ما أسفر عنه تطبيق مبادئها في السنوات التي سبقت نشوب الحرب العالمية الثانية وفي السنوات القليلة التالية ، هو أنها الخطة والنظام الذي يؤدي إلى تحقيق أطباع جماعة من الناس يسيطرون فعلاً على مصير ألمانيا ، أما هذه الأطباع ذاتها فانها تلخص في رغبة النازيين في الاستئثار بكل سيطرة سياسية مطلقة فحسب .

على أن برنامج النازيين (في عام ١٩٢٠) كان يتضمن فكرة إفتاء الفرد في الدولة ، على غرار ما يحدث في كل نظام اشتراكي ، ولذلك فإنه لما كانت الدولة ذات شخصية يجب أن تتلاشى بسببها ومن أجل دعم كيانها حرية الفرد وجميع حقوقه ، فقد أصبح من حق الدولة وحدها الهيمنة على حياة الفرد وتدير شؤونه على النحو الذي تراه مؤيداً لمصلحتها العليا وحدها

وترتب على إفناء الفرد في الدولة أن صارت هذه تجمع في خصائصها وميزاتها السيطرة على شئون التربية والتعليم والصحة العامة والجيش والصحافة ، وتقرير مصير مواطنيها ، وهكذا . ولذلك فإنه لم يرغب عن النازيين النص على هذه الحقوق جميعها في برنامج حزبهم . وكان من المنتظر ، بوصف أنهم الأداة التي تتولى عن الدولة إدارة هذه الشئون عند استلام أزمة الحكم في ألمانيا ، أن يجمع النازيون في أيديهم السلطة المطلقة ، ثم كان من المنتظر أيضا ، بفضل ما نص عليه برنامج حزبهم ، من أن من شروط المواطن أن يكون آريا ، وأن يكون جرمانيا ينحدر من سلالة عاشت في ألمانيا أو في البلدان الجرمانية الصحيحة منذ أمد طويل ، أن تتعقب دواة الريخ الثالث غير الآريين كاليهود وغيرهم من اللاجئين من البلدان المجاورة والذين دخلوا ألمانيا ابتداء من ٢ أغسطس ١٩١٤ ، بالتشريد والإفناء في غير رحمة أو شفقة .

ولما كان الحزب الوطني الاشتراكي في بدء تكوينه يريد كعادته جمع أصحاب المذاهب والمشارب المنوعة حوله ، فقد ذكر في المادة الرابعة والعشرين من برنامجهم ، أن الدولة مكلفة بالدفاع عن «المسيحية الواقعية» ، ولإدخالها الطمأنينة على النفوس ، جاء في هذه المادة نفسها ما معناه أن الحزب يطلب التسامح مع الآراء الحديثة المختلفة في الدولة ، ما دامت لا تعرض كيان الدولة للخطر ، وما دامت لا تتنافى مع عادات الجنس الجرمانى وتقاليده وقد استثنيت اليهودية من هذا التسامح . ومع هذا فإن النص على ضرورة قيام الدولة بمهمة الدفاع عن «المسيحية الواقعية» كان معناه ، كإشهاد الكاثوليك والبروتستانت على السواء بعد ذلك ، أن النازيين عند وصولهم إلى الحكم سوف يتدخلون في شئون العبادة ، من أجل إخضاع الكنيسة لسيطرتهم ، وأن ، المسيحية الواقعية ، سوف تتخذ لذلك معنى غير المعنى الذى عرفه بها سواد الشعب فيما مضى . فقد ظن الأهلون أن انحياز الوطنيين الاشتراكيين إلى معاضدة المسيحية الواقعية ، يعنى أن الريخ الثالث سوف يضمن للدين المسيحى الحرية الكاملة وزيادة الانتشار هذا إلى جانب السهر على صيانتها والذود عنها ، ولم يشأ النازيون أن يزعموا هذا الاعتقاد فى بادئ الأمر . ولكنهم عند ما ثبتت أقدامهم فى الريخ الجديد طفقوا يفسرون «المسيحية الواقعية» بما يتفق مع أهوائهم ويتمشى مع مصالحهم ، ويلخص هذا التفسير فى أن المسيحية الواقعية تعنى مجرد «الفعال الإنسانية» .

* * *

وإنه لمن الحقائق المعروفة أن النازيين ما استطاعوا الوصول إلى الحكم إلا بفضل الانقسامات الكثيرة فى الطبقات الرأسمالية والعالية ، فقد وجد من بين الرأسماليين عدد من زعماء الصناعة المحافظين الذين كانت بغيتهم حل المشكلة الاقتصادية فى ألمانيا دون الانتجا.

إلى مغامرات أجنبية ؛ وكان هناك فريق آخر من زعماء الصناعة الذين يئسوا من إمكان اجتياز أزمة الاقتصاد الألماني بالطرق والأساليب العادية ، فصاروا يدعون إلى الحرب كعلاج حاسم لهذه الأزمة المستحكمة . وما يذكر أن الفريقين سرعان ما صارا يجدان في دعاوى الوطنيين الاشتراكيين ووعود زعمائهم ، وعلى الخصوص الهر هتلر نفسه ، ما حملهما على تأييد النازية وهى ما تزال في دور النشوء ، ومدها بالأموال اللازمة لتنظيم الحزب ، وخوض غمار الانتخابات . وكذلك وجد من بين كبار أصحاب الأرض والملاك ، فريق أعتقد أن الوطنية الاشتراكية عنوان الفوضى الاقتصادية ومن المنتظر أن يؤدي انتصارها إلى الخراب والدمار ، وفريق آخر يخشى البلشفية شأنه في ذلك شأن الطبقات الرأسمالية الأخرى ، والطبقات المتوسطة (أو البرجوازي) — وقد أقبل هذا الفريق على الهر هتلر يؤازره على أمل أن يصون نجاحه مصالح كبار الزراع وأصحاب الأراضي . لأن النازيين كانوا في نظرهم ممن لا يجسرون على القيام بتجارب جريئة ، بل يتصفون قبل كل شيء بالولاء الكامل للطبقة التي ينتمون إليها ، وهى الطبقة المتوسطة التي تعتمد قوتها من الأرض ، وتدين لها بوجودها وقد اقتضى هذا التفكير أن يطمئن كبار الرأسماليين المحافظين من جهة ، ثم أصحاب الأراضي الواسعة من جهة أخرى ، إلى أن مصلحة النازيين ألا يدفعوا بالأمة الألمانية إلى حروب جديدة . ومع هذا ، فإن هذه الطبقة المتوسطة نفسها ، وهى الطبقة التي يستمد منها النازيون أنصارهم ومؤيديهم ، كانت أيضاً الطبقة التي ينتمى إليها المحاربون القدماء في ألمانيا ، وأصحاب الخوذ الفولاذية ، برئاسة (سلدت) Seldte وهم من العسكريين الرجعيين ، وكانوا تحت زعامة (ألفرد هوغنبرج) Hugenberg وكان من كبار أصحاب رؤوس الأموال ويملك نحو الأربعين صحيفة وعددا من الشركات منها شركة (أوفا) UFA السينمائية ذات الشهرة الذائعة . وهؤلاء جميعا كانوا يريدون الحرب حتى يثأروا لألمانيا وهزيمتها في الحرب العالمية الأولى .

أما الطبقة العمالية ، فكانت لا تنقل في انقسامها عن الرأسمالية . فمنها أحزاب الشيوعيين والاشتراكيين الديمقراطيون ، والأحرار ، ومن الغريب أن بعض أحزاب اليسار ، كالاشتراكيين الديمقراطيين ظلوا فترة يعتقدون أن ظفر الحزب النازي لا يكون إلا على حساب العناصر الرجعية ، الرأسمالية ، وأن هذا الظفر غالى الثمن لا بد أن يفضى الى تفكك طبقة الناحيين وضعفها ، أى الطبقة المتوسطة وجماعة الرأسماليين ، وأن العماليين هم الذين يفيدون من انحلال هذه الجماعة فى النهاية ، ولذلك لم يحجموا عن مؤازرة النازيين ، وكانوا بموقفهم هذا من العوامل التي يسرت على هؤلاء الظفر بالسلطة المطلقة فى ألمانيا .

وفضلا عن ذلك فإن الشيوعيين فى ألمانيا ، كبقية زملائهم فى أرجاء العالم فى ذلك الحين ،

كانوا يتلقون أوامرهم من مركز الشيوعية الدولية في موسكو ، ولذلك ظلوا « مستقلين » ، في نشاطهم عن سائر أحزاب اليسار . وكان الشيوعيون والاشتراكيون الديمقراطيون يجمعون حولهم وفيما بينهم اثني عشر مليوناً من الأصوات للشيوعيين وخدم منها خمسة ملايين . وفي عهد جمهورية (ويمار) كان زعيم الاشتراكيين الديمقراطيون رجلاً من العمال ، هو (إرنست ثلمان) Thälmann صار فيما بعد من مؤسسي الحزب الاشتراكي المستقل ، ثم اشترك بعد هذا في تأسيس الحزب الشيوعي . ومنذ عام ١٩٢٤ ظل يمثل الشيوعيين في الريخستاج حتى مجيء هتلر . وفي عام ١٩٣٢ رشح (ثلمان) نفسه في انتخابات رئاسة الجمهورية فنال من الأصوات خمسة ملايين . ومع هذا فإنه لم يكن متمتعاً بالصفات التي تيسر له جمع كلمة الاشتراكيين الصميمين فكانت النتيجة أن صار الشيوعيون أنفسهم يعتبرون وجود الاشتراكية الديمقراطية من الموانع التي تحول دون انتشار الروح الاشتراكية الخالصة بين الطبقات العاملة ، ولذلك أصبحوا يحشون من الاشتراكيين الديمقراطيين ، أكثر مما يحافون النازية .

وإلى جانب هذا الانقسام الواضح في الطبقات الرأسمالية والعمالية على حد سواء ، ساعد سوء الحالة الاقتصادية في ألمانيا ، على وصول النازيين إلى الحكم . فمن الظواهر التي لا يمكن نكرانها أن إخفاق الوطنية الاشتراكية أو نجاحها بعد الحرب العالمية الأولى كان يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحالة الاقتصادية في ألمانيا في عهد جمهورية (ويمار) التي أنشئت على أنقاض القيصرية ، فإنه حتى آخر عام ١٩٢٤ كان (حزب العمال الألمان الوطني الاشتراكي) محروماً من الاجتماع أو النشاط قانوناً ، ولو أن هذا لم يكن معناه أن الحزب قد اختفى من الوجود ، لأن (لودندورف) لم يلبث أن بسط عليه جناحه ، فصار يعرف باسم « حزب الحرية الشعبي » واستطاع أن يفال في انتخابات مايو ١٩٢٤ — أي في وقت الفوضى الاقتصادية — حوالى ١,٩٢٠,٠٠٠ صوتاً ، وأرسل إلى الريخستاج اثنين وثلاثين نائباً . ومع هذا فإنه عقب البدء في تنفيذ (مشروع داوز) Dawes لتنظيم مسألة دفع التعويضات الألمانية ، وانتعاش حال ألمانيا المعنوية والاقتصادية نوعاً ما ، فقدت جماعة هتلر حوالى عشرين مقعداً . ثم حدث عند وفاة (فردريك إيبرت) Ebert . رئيس جمهورية ويمار الأول (١٩٢٥) وإجراء انتخابات الرئاسة ، أن انهزم (لودندورف) مرشح الوطنيين الاشتراكيين أو الهتلريين ، فلم يزل سوى ٢١٠,٩٦٨ صوتاً . ولما لم تكن هذه الانتخابات حاسمة ، أعيد الانتخاب مرة ثانية . ولكن هتلر في هذه المرة فضل إعطاء أصوات حزبه إلى الماريشال الكهل (فون هيندنبرج) ، ففاز بمنصب رئاسة الجمهورية . أما الحزب النازي

فقد تدهور شأنه كثيراً عقب ذلك ؛ وفي مايو ١٩٢٨ أسفرت الانتخابات العامة لمجلس الريخستاج عن إرسال اثني عشر نائباً نازياً ليس غير . وقد أدرك أدولف هتلر خطر الأزمة التي هددت باجتياح حزبه ، ولذلك طفق يستميل إليه الوطنيين والرأسماليين وكبار زعماء الصناعة ، ومن اليهم . وكان التناقض البين في برنامج الحزب — على نحو ماتقدم ذكره — من أقوى العوامل التي ساعدت الزعيم النازي على استيلائهم . ومع هذا فإن السنوات المنقضية بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٩ — وهى الفترة التي استطاعت ألمانيا في أثناءها أن تفيد من التسويات التي وضعت لمسألة التعويضات ، ومنها مشروع يونج (Young) الذى وضع فى عام ١٩٢٩ وقبلته ألمانيا فى العام التالى — كانت فترة التنظيم الاقتصادى الذى أوجد حالة من الرخاء ، ولو أنه كان رخاء زائفاً ، فقلت البطالة ، ونقص عدد المتعطلين حتى صار لايزد على المليونين إلا قليلاً ، وشرع الريخ يشيد المصانع ويستقدم إليها الآلات والأدوات الجديدة ، ويبنى السكك الحديدية الفاخرة ، والمباني الصحية لسكنى العمال ، والمتنزهات ، ودور السينما والمسارح وهكذا ، ووسط هذا الانتعاش ، كان من المتعذر على الهر هتلر وحزبه النازي إدراك أى نجاح ، على الرغم من الأموال التي أخذت تتدفق على حزبه من أصحاب رؤوس الأموال وزعماء الصناعة أمثال (فريتز ثيسن) Fritz Thyssen وغيره .

بيد أن النجاح كان من نصيب النازيين فى النهاية لعدة أسباب ، منها عدا ماتقدم ، أن الأزمة الاقتصادية الكبرى كانت على وشك اجتياح العالم . ويحدد عام ١٩٢٩ بداية هذه الأزمة الدولية ، وكان من أخطر أسبابها ، التوسع فى الإنتاج الصناعى . وفى ألمانيا ذاتها حدث هذا التوسع بسرعة عظيمة ، وبدرجة تسكى لسد مطالب جزء كبير من أسواق العالم قاطبة . ولكنه كما قال أحد زعماء الصناعة الألمان (كروپ فون بوهلن) Krupp von Bohlen ، إن الصناعة شئ ، والقدرة على بيع المصنوعات شئ آخر ! . ولم تستطع الأسواق الألمانية الداخلية بطبيعة الحال استهلاك كل هذه المنتجات ، وكان من الضرورى إيجاد أسواق خارجية ولكنه ، كما قال (كروپ) أيضاً ، كانت أسواق العالم مغلقة دوننا ، مع حاجتنا إلى هذه الأسواق . فقد أقامت بريطانيا العظمى حواجز جمركية ، كما كانت تعترض التجارة الألمانية فى فرنسا وإيطاليا والسويد والبلقان ، وفى كل مكان عراقيل من المنتظر أن يصبح التغلب عليها متعذراً من جراء ازدياد هذه العراقيل زيادة مطردة ، ولذلك فلم يكديحل عام ١٩٣٠ ، حتى كان العمال الألمان يواجهون أزمة شديدة ، فقد تعطل منهم فى الأسبوعين الأولين من شهر يناير حوالى الأربعمئة ألف عامل ، وهذا بينما زاد عدد المتعطلين فى منتصف العام نفسه من حوالى المليونين إلى ستة ملايين . أما الصادرات الألمانية التي بلغت فى عام ١٩٢٩ حوالى

الثلاثة عشر ألف مليون ريشمارك ، فقد نقصت في عام ١٩٣٣ إلى خمسة آلاف مليون ريشمارك فحسب . وإلى جانب هذا الجيش الجرار من المتعطلين ، وجد عدد عظيم من الرجال والنساء الذين نقصت أوقات عملهم في اليوم إلى ساعات محدودة ، وبالتالي نقصت قيمة الأجور التي يقبضونها ، ويعيشون عليها . وهكذا أضحت ألمانيا في عام ١٩٣٠ « بلد الشحاذين ! » ، أي أنها رجعت إلى الحال التي كانت عليها في سنوات التضخم النقدي عقب الهدنة التي عقدت في نهاية الحرب العالمية الأولى . فاذا قدرنا أن كل رجل متعطل يعول في المتوسط أسرة مؤلفة من شخصين اثنين فحسب على أقل تقدير ، لوجدنا أن عدد من صاروا يعيشون في بؤس وتعاسة ويعتمدون في قوتهم اليومي على إعانات الدولة وحسنات المتصدقين قد بلغ ثمانية عشر مليوناً ، هذا عدا حوالى عشرين مليوناً آخرين يعيشون على أجورهم المخفضة .

وكان من نتائج سوء الحالة الاقتصادية ، أن طرد الاشتراكيون الديمقراطيون من الحكم ، وألف الوزارة رجال (الوسط) وعلى رأسهم (هنريك بروننج) Brüning وأما النتيجة الهامة فكانت القضاء على أي أمل في بعث الطبقة المتوسطة الألمانية من جديد ، وهي دائماً عماد الجمهورية الديمقراطية أو الملكية البرلمانية . فقد قضى التضخم النقدي على هذه الطبقة ، ثم لم يمكن إحيائها في فترة الرخاء الصناعي المفتعل بين عامي ١٩٢٥ ، ١٩٢٩ . وكان الاشتراكيون الديمقراطيون وحدهم الذين أفادوا من هذا الرخاء ، وعندما وقعت الأزمة كان (هرمان مولر) Müller الوزير الاشتراكي على رأس الحكومة (منذ يولييه ١٩٢٨) فلم تلبث أن سقطت حكومته بسبب الأزمة في مارس ١٩٣٠ ، وبسقوط هذه الحكومة اختفى كل أمل في إحياء الجمهورية الألمانية .

وأعطى هذا الاضطراب الاقتصادي والسياسي الفرص للوطنيين الاشتراكيين ، حتى يعودوا إلى مسرح السياسة بعد أن ظلوا محتجبين طوال السنوات الأربع الماضية . وهكذا فاز النازيون في انتخابات ١٤ سبتمبر ١٩٣٠ بعدد من المقاعد في مجلس الريخستاج بلغ ١٠٧ (بعد أن كان لهم ١٢ مقعداً ليس غير) . وكان لهذا الانتصار مغزى كبير ، فإن النازيين عندما بلغ عدد المتعطلين حوالى المليون ، كان كل ما أحرزوه من أصوات يقل عن المليون ، حتى إذا ارتفع عدد المتعطلين إلى ستة ملايين ، ظفروا بستة ملايين صوت . ثم استغل النازيون هذا الانتصار إلى درجة بعيدة ، فلشطت دعاوتهم تستميل إليهم الانصار والمؤيدين ، وتخفف الأسى عن المتعطلين المشكوبين ، ذلك بأنها صارت تلصق مسؤولية التلكبات الاقتصادية التي حلت بالشعب الألماني ، بالسياسة الذين وضعوا شروط الصلح في فرساي ، وفرضوا على ألمانيا التعويضات ، وهذا كله ، كما أدعوا ، بتحريض من فرنسا عدو الألمان

التاريخي ، وهكذا ظفر النازيون بأصوات الناخبين الذين انصرفوا أيضاً عن تأييد الشيوعيين خوفاً من أن يدفع هؤلاء بالأمة إل خوض غمار حرب جديدة . فلم ينل الشيوعيون في هذه الانتخابات سوى ٧٧ مقعداً . وفي الريخستاج ، منذ أن خرج الاشتراكيون الديمقراطيون وأنصارهم ، أصبح الحكم البرلماني مستحيلاً بسبب العداء المستحكم بين الوطنيين الاشتراكيين ، وبين الشيوعيين الذين سيطروا فيما بينهم على الحياة السياسية . وكان هذا النضال مؤذناً بنهاية جمهورية ويمار ، ومهداً في الحقيقة لاستئثار النازيين بالسلطان الكامل في الدولة .

وفي الشهور التالية ازدادت الأحوال الاقتصادية سوءاً ، وأفاد النازيون من ذلك كل فائدة . لأن الأهلين الذين تذوقوا طعم الفاقة ، وأحسوا بالضعف ومرارة العيش ، سرعان ما صاروا يتوقون إلى حدوث تغيير أو تبديل جوهرى من شأنه إفساح المجال لجماعة جدد من السياسيين الذين قد يستطيعون انتشالهم من وهدة اليأس والعوز . ولما كانوا قليلي الثقة بالشيوعيين ، فقد عقدوا آمالهم على الوطنيين الاشتراكيين ، واستطاع هتلر هتار بفضل مؤازرتهم أن ينال في الانتخابات التي أجريت لرياسة الجمهورية في التصويت الأول (في مارس ١٩٣٢) ١١٩,٣٤٤,١١٩ صوتاً أو ما يزيد على ٣٠٪ ، ونال في التصويت الثاني (في ١٠ أبريل ١٩٣٢) ١٣,٤١٧,٤٦٠ صوتاً أو حوالى ٣٧٪ ، بينما فاز (هندنبرج) بنحو سبعة عشر مليوناً ونصف من الأصوات . وفي الانتخابات التالية لمجلس الريخستاج (في ٣١ يولييه ١٩٣٢) أحرز النازيون ١٣,٧٣٣,٠٠٠ صوتاً أو ما يزيد على حوالى ٣٧٪ وظفروا بمائتين وثلاثين مقعداً .

* * *

ومع هذا ، فإنه من الحقائق المعروفة أن هتلر ما كان يستطيع الوصول إلى منصب المستشارية ، أى رئاسة الحكومة في الريخ الألماني ، لو أن (البطانة) المقربة من رئيس الجمهورية (هندنبرج) ظلت متحدة ، ولم يعمد بعض أعضائها إلى المناورات السياسية للتخلص من منافسيهم ، والاستئثار بالسيطرة على رجل تقدمت به السن كثيراً ، حتى يخلص لهم الحكم في ألمانيا . فمن الثابت أن هندنبرج عقب انتخابات ٣١ يولييه ١٩٣٢ رفض أن يولى هتلر منصب المستشارية عندما زين فرانز فون بابن Franz Von Papen أحد أفراد البطانة لهتلر ، أن يطلب إلى الماريشال السكهل إعطائه مركزاً مشابهاً للبركر الذى ظفر به موسوليني عقب زحفه المشهور على رومة ، فغضب هندنبرج وقال كلمته المأثورة : « أتوقع مثل هذا الرجل أن يصبح مستشاراً لدولة الريخ ! إن كل ما يستطيع أن يظفر به هو منصب ساعى

بريد ! . . ومن الثابت كذلك أن النازيين في انتخابات ٦ نوفمبر ١٩٣٢ ، لم يلبثوا أن فقدوا عدداً كبيراً من الأصوات ، فلم يزد ما أحرزوه على ١١,٧٠٠,٠٠٠ صوتاً تقريباً . ولكن المناورات السياسية وحدها هي التي مهدت الطريق لوصول هتلر إلى منصب المستشارية في النهاية .

فقد التفت حول الماريشال الكهل — (كان يناهز الخامسة والثمانين) ، بطانة ، كان من أهم أعضائها ابنه (أوسكار) Oskar ، وهو ضابط عامل في الجيش ، و (أوتوميسنر) Otto Messiner مستشار الرئيس وأحد وزراء الحكومة ، وفرانز فون باين ، أحد مستشاري الريخ في هذا العهد ، والجنرال (كيرت فون شليختر) Kurt von Schleicher من وزراء الحرية ومن زملاء هندنبرج القدماء ، وصاحب أكبر نفوذ في ألمانيا الجمهورية . وغير هؤلاء . وكان غرض هذه (البطانة) الأساسي بعد أن تيسبوا خطر المركز الذي صار يتمتع به النازيون وعلى رأسهم هتلر ، أن ينفض ملايين النازيين الذين أعطوا أصواتهم للنازيين من حول هتلر ، وأن ينصرف إهتمامهم إلى تحقيق أغراض أخرى ، كما أنهم صاروا يعنون بضرورة تأييد الرأسماليين وتعزيز مراكزهم حيال أية محاولة اشتراكية ضدهم في المستقبل ، كما أرادوا أن يعيدوا تشييد صرح الدولة الألمانية على أساس المسيحية القديم ، وهو الأساس الذي كان قد أخذ يتداعى منذ مدة طويلة حتى أشرف على الانهيار ، وكانوا يرغبون كذلك في إعادة البحث في الدستور الألماني ، وتنظيم كيان الدولة على نحو يضمن استمرار الحكم في أيدي أحزاب (الوطنيين) من أصحاب الإرادة القوية والفكر الناضج ، وكانوا يعنون أنفسهم بهذا الوصف ، لأنهم اعتقدوا أن خلاص ألمانيا — كما أرادوها — لا يمكن أن يحدث إلا إذا حرم الأهلون كافة الحقوق عدا حق واحد يخول لهم انتخاب دكتاتور يهيمن على شئون البلاد ، وهو حق لا يستطيع النازيون ممارسته إلا في فترات متقطعة .

وكان موقف هذه (البطانة) من الوطنية الاشتراكية موقفاً غريباً حقاً . فلم يكن يضيرهم وجود النازيين لأنهم كانوا يدخلون الرعب إلى قلوب الاشتراكيين ، ولكنهم كانوا بوصفهم من قواد الجيش يكرهون الفوضى والأحزاب السياسية قاطبة ، وبوصفهم من أصحاب الأراضي الزراعية الواسعة يسوءهم رؤية ضياعهم العظيمة ، (المفلسة) غنيمة يقتسمها الفلاحون فيما بينهم ، كما أنهم كانوا لا يرضون كرجال أعمال عن (الأوتاركية) أو (الاكتفاء الذاتي) . وما كانوا يوافقون قط على أن تمتد يد الاشتراكية إلى ممتلكاتهم و ثروتهم ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا يكرهون هتلر على اعتبار أنه من قادة الجماهير ، وقد ظل مغموراحى أتاح له الظروف الطارئة أن يظهر على مسرح السياسة . ولذلك وجدوا أن خير وسيلة لتحقيق

أغراضهم أن يحصروا حركة الطبقة المتوسطة التي يتزعمها هتلر — وهي حركة ثورية — ، وأن يحدوا من انتشارها ، حتى يستطيع الرأسماليون استئناف أعمالهم .

وغنى عن البيان أن (بطانة) بلغت آراء أعضائها ازاء الوطنية الاشتراكية من التضارب هذا المبلغ ، واعتمدت في وجودها على صداقة رئيس الجمهورية لها وعطفه عليها ، ما كان في استطاعتها أن تحقق أغراضها إلا بالالتجاء إلى المناورات السياسية واستصدار المراسيم والقرارات الحكومية ، وتعطيل مواد الدستور ، حتى يتسنى لها الفوز بالحكم دون إشراك مجلس الريخستاج ، «أو الأمة» وبخاصة عندما ظفر الوطنيون الاشتراكيون (النازيون) بمقاعد كثيرة في هذا المجلس . وهذا ما حدث فعلا . فقد ظل مستشار الريخ في تلك الآونة الدكتور بروننج يحكم بمقتضى قرارات استثنائية ، وحاول كبح جماح هتلر وأنصاره بتنفيذ مطالب حزبهم المعتدلة . ولكنه ما كاد يشرع في تجزئة (الجفالك) الواسعة في بروسيا الشرقية إلى ملكيات صغيرة حتى ثار عليه أصحاب هذه الأراضي المعروفين باسم (يونكر) Junkers ، واتخذ منافسوه من بين رجال (البطانة) من هذه المحاولة ذريعة لا يغار صدر المارشال هندنبرج عليه ، فطرد (بروننج) من المستشارية في مايو ١٩٣٢ . أما هؤلاء المنافسون فكانوا (هو جنبرج) ، زعيم الوطنيين وأصحاب الخوذ الفولاذية ، ووثون باين ، والدكتور شاخت Schacht (وكان محافظا لبنك الريخ بين عامي ١٩٢٣ ، ١٩٢٩ ، ثم غادر صفوف الديمقراطيين وانحاز إلى اليمين ، ثم اتصل بالنازيين منذ عام ١٩٣١) كما انضم إلى هؤلاء المتآمرين في بطانة الرئيس ، الوطنيون الاشتراكيون ، وكانوا جميعا قد استطاعوا منذ مدة أن يؤلفوا من بينهم جبهة قوية عرفت باسم «محالفة هارتزبرج» ، وكان من أول أعمال هذا التحالف تأييد ترشيح أدولف هتلر لرياسة الجمهورية ضد المارشال هندنبرج نفسه في انتخابات ١٠ ابريل ١٩٣٢ . ولم يكفل النجاح للمارشال وقتذاك سوى انحياز الاشتراكيين الديمقراطيين إلى جانبه .

أما هندنبرج ، فإنه لم يلبث أن عهد بالمستشارية بعد طرد (بروننج) إلى (وثون باين) على الرغم من أن باين ما كان يستطيع الحصول على عدد من الأصوات في داخل مجلس الريخستاج يزيد على أصوات حزب (هو جنبرج) ولذلك صار يعتمد الاعتماد كله على صداقة رئيس الجمهورية فحسب . ولما كان غرض (فون باين) اقضاء الاشتراكيين الديمقراطيين عن حكومة بروسيا اقضاء تاما فقد قرر الاستناد إلى تأييد الجيش الألماني النظامي الذي تألف بعد الحرب العالمية الأولى وهو (الريشهر) Reichswehr وعلى ذلك عين رئيس هذا الجيش الجنرال (كيرت فون شليختر) وزيرا للحربية ، واستطاع فون باين تنفيذ مآربه .

ومنذ انشئت جمهورية ويمار الاتحادية ، واتسعت اختصاصات حكومة بروسيا حتى شملت ما تزيد مساحته على ثلاثة أرباع دولة الريخ ، كان الاشتراكيون الديمقراطيون والكاثوليك والديموقراطيون هم الذين يؤلفون الأكثرية المطلقة في المجلس البروسيانى (لاندتاغ) Landtag : كما كانت الحكومة البروسيانية للسبب نفسه تتألف من ممثلى هذه الأحزاب الثلاثة ، وكان يرأسها رجل من الحزب الاشتراكى الديمقراطى هو (أوتوبرون) Otto Braun وقد ازدادت صعوبات (أوتوبرون) عندما أسفرت انتخابات هذا الديباط البروسيانى فى ٢٤ ابريل ١٩٣٢ عن عدم فوز حزب من هذه الأحزاب الثلاثة فوزا يمكن أحدها من تأليف الوزارة أو يحمل من الميسور إنشاء حكومة ائتلافية قوية فضل (أوتوبرون) والاشتراكيون فى الحكم « مؤقتا » ، ونجم عن ذلك تعذر التعاون بين هذه الحكومة البروسيانية التى تغلب عليها الصبغة (الماركسية) أو الاشتراكية وحكومة الريخ المركزية التى يرأسها (فون باين) ، التى أطلق عليها اسم (حكومة البارونات) . فأصدر (باين) بموافقة هندنبرج مرسوما فى ٢٠ يولية ١٩٣٢ يقضى بتعيينه أى (فون باين) قوميسيراً للريخ فى بروسيا ، وعين نائب له وكان هذا المرسوم يقضى إلى جانب هذا ، بمنع حكومة بروسيا من مباشرة أعمالها . وبهذا حقق (فون باين) غرضه الأول وكان هذا العمل تحديا للاشتراكية التى اعتبرت بروسيا حصنها المنيع منذ مدة طويلة ، وكاد طرد الاشتراكيين يقضى إلى ملاحم عنيفة ، ولكن (شليخر) أسرع فى اظهار استعداداه الكامل لموازرة (فون باين) ، بينما تفرقت كلمة الاشتراكيين الديمقراطيين والشيوعيين ، مما أدى إلى تضعضع الطبقة العاملة . لذلك لم يلبث سواد الشعب فى الانتخابات التالية لمجلس الريخستاغ (٣١ يولية ١٩٣٢) أن أظهر سخطه على هذا الانقسام ، فكان النصر فى تلك الانتخابات لحليف النازيين والشيوعيين ، ففاز النازيون بما يزيد على ٣٧ ٪ من عدد الأصوات ، وظفروا بمائتين وثلاثين مقعدا ، بينما نال الشيوعيون ٨٩ مقعدا ، واختفت أحزاب الطبقة المتوسطة تماما ، ورجع الاشتراكيون الديمقراطيون إلى حالهم السابقة القديمة فى عام ١٩٢٤ .

وشمل جنود الهجوم النازى بخمر الظفر ، فاجتاحت الريخ موجة من الارهاب النازى عنيفة ، وطفق النازيون من ذلك الحين ينتقمون من معارضتهم وأعدائهم السياسيين انتقاما بلغ الغاية فى قسوته ووحشيته حتى اضطر (فون باين) إلى اعلان الأحكام العرفية ، كما هدد (شليخر) باستخدام الجيش النظامى ضد (جنود الهجوم) النازيين ، وأصدر (فون باين) تصريحاً أنحى فيه باللائمة على هتلر ، وأعلن استعداده لتأييد حكم القانون والقضاء على الفوضى التى أثارها النازيون بمسلكهم ، وإزاء هذا التهديد لجأ هتلر إلى المفاوضة ، مهدداً تارة ومسترضياً تارة

أخرى فجمع جند الهجوم بالقرب من برلين . ووعد بتأييد وزارة فون باين إذا وافقت أخيرا على اطلاق يد هؤلاء مدة ثلاثة أيام فحسب ولكن باين رفض هذا العرض بطبيعة الحال ، وزاد حنق هندنبرج عندما طلب هتلر منصب المستشارية لنفسه . فابق الرئيس فون باين في الحكم ، وانقلب هتلر وأعوانه منذ ذلك الحين يدبرون المكائد ضد هندنبرج ووزيره ، وعمت الفوضى من جراء ذلك كله مجلس الريخستاج حتى اضطر (فون باين) إلى حله ، ثم أجريت انتخابات جديدة في ٦ نوفمبر ١٩٣٢ ، نال فيها هتلر ١١٨٧٠٥٠٨٦٢٥ صوتا ، هذا بينما زاد عدد أنصار الشيوعيين وأنصار (هوجنبرج) ، وكان من الواضح أن الشيوعيين هم الذين أفادوا من هذه المناورات السياسية .

ولما كان الخوف من نجاح الشيوعيين ما يزال من العوامل الحاسمة في جمع كلمة أحزاب اليمين عامة ، فقد أدى هذا الخوف إلى عودة الائتلاف بين أنصار (باين) و (هوجنبرج) و (شاخت) والهر هتلر ، فتعززت من ثم جبهة هارتزبرج السابقة . وفي ٢ ديسمبر من العام نفسه أخرج (فون باين) من مستشارية الريخ ، وعهد هندنبرج بهذا المنصب إلى رئيس (الريشهر) الجنرال (فون شليخر) . وكان من الواضح أن سبب سقوط (باين) هو أنه صار من المتعذر عليه أن يظل في الحكم بعد أن أثار الأمة بأجمعها ضده . وافقنت (البطانة) القديمة الماريشال هندنبرج بضرورة إعطاء منصب المستشارية إلى رجل قوى . ولما كان (شليخر) في هذه الآونة زعيم الجيش ، فقد اعتبر أقوى رجل في المانيا ، وساعده على تحقيق مطامعه أنه كان من أصدقاء (أوسكار فون هندنبرج) والمقربين إليه ، كما أنه كان صديقا لأفراد (البطانة) التي كانت تتمتع بنفوذ كبير لدى الماريشال .

ومنذ أن وصل (شليخر) إلى الحكم طفق يعمل للقضاء على هتلر وجماعته . ولما كان يعد برنامجا شاملا للأصلاح وكان يميل في إصلاحه الاجتماعي إلى ادخال تغييرات جريئة من أجل (خلاص المانيا) على حد قوله فقد أصبح من السهل عليه لتنفيذ هذه الاصلاحات من جهة ، ولإضعاف هتلر من جهة أخرى أن يوطد الصلة بينه وبين جناح اليسار من حزب هتلر نفسه ، وهو الجناح الذي كان يتزعمه (جريجور ستراسر) Strasser ، فعرض عليه منصب نائب المستشارية كما أنه دعا زعيم (اتحادات التجارة الحرة) ويدعى (ثيودور ليپارت Leipart) للاشتراك معه في تأليف الحكومة التي أراد أن تقوم على أساس اشتراكي واسع ولكن هذه الميول الاشتراكية لم تلبث أن أثارت عليه حفيظة أصحاب الأراضي الواسعة ، Junkers كما أغضبت رجال (البطانة) وشرعوا يدبرون المكائد لاسقاطه واستطاع (فون باين) في هذه الظروف أن يجذب الهر هتلر إلى معاونتهم عندما وعد بأن

يسدد ديون الحزب النازي التي بلغت في هذه الآونة ١٢,٠٠٠,٠٠٠ ريشمارك تقريباً وحدث في بداية شهر يناير من العام التالي (١٩٣٣) أن عقد اجتماع في (كولون) في بيت (شرودر) Schroeder أحد رجال المال المعروفين ، وفي هذا الاجتماع تقابل هتلر مع فون باين ومع (شرودر) بفضل وساطة أحد الوكلاء التجاريين وهو (فون ريبنتروب Ribbentrop وسويت مالية الحزب النازي وأسفرت هذه التسوية عن اتفاق كل من هتلر ، وشاخب وباين ، وهو جنبرج ورجال بطانة الرئيس هيندبرج على ضرورة عزل (شليخر) من منصب المستشارية : ولما عجز (شليخر) عن المقاومة ، فكر جدياً في تأليف حكومة تستند إلى مؤازرة (الاتحادات) Unions ، وفاوض بالفعل في ذلك كلا من (جنزيجور ستراسر) و (تيودور لبيارت) . ثم فاوض زعيم الاشتراكيين الديموقراطيين في الريخستاج فيما إذا كان رجال حزبه على استعداد لتأييده ، ولكنه أخفق في محاولته ، وازداد موقفه حرجاً عندما اقترب موعد افتتاح الريخستاج (في ٣١ يناير ١٩٣٣ ، وكان من رأيه حل هذا المجلس قبل اجتماعه ، ولكن كان لابد من حصوله على موافقة هيندبرج ولكنه لم يوفق واستأنف شليخر المفاوضات من جديد ، وعلى غير طائل ومن جانب آخر دخل الزعماء المعارضون في مفاوضات مع هتلر ولكن هتلر أصر على أن تكون المستشارية في هذه المرة من نصيبه ، وظل الحال على كذلك ، حتى استطاع (فون باين) في إحدى مناوراته السياسية الباردة ، أن يجمع كلبة المعارضين على ضرورة إعطاء منصب المستشارية للهتلر .

وكان مما اعتمد عليه (باين) في حبه خيوط المؤامرة ، الإشاعات التي انطلقت في ذلك الحين تروج خبراً مفاده أن شليخر صار يعد العدة لإحداث (انقلاب) بمؤازرة (الريشفسر) وبفضل هذا الخوف المصطنع أمكن التأثير في هيندبرج حتى قبل أخيراً أن يعهد بمنصب المستشارية إلى ألهر هتلر . فاصبح هتلر مستشار الريخ الجديد . وفي مساء ٣٠ يناير ١٩٣٣ دبز الهتلريون مظاهرة عظيمة اشترك فيها خمسة عشر ألفاً من النازيين حملوا المشاعل في حضرة أدولف هتلر ، وكان إلى جانبه الماريشال هيندبرج ، فقضت المظاهرة على «آمال» المعارضة ، حتى أنها لم تجد مناصاً عقب ذلك ، من التسليم بدون إبداء أية مقاومة وعلى إثر تعيين أدولف هتلر مستشاراً للريخ الألماني ، طفق يتخذ التدابير لمنع (بطانة) الرئيس من تمثيل الدور الذي افضى إلى إقصاء كل من بروننج ، وباين ، وشليخر من الحكم ، فعين (هرمان جورنج) وزيراً للريخ ، وقوميسيراً للطيران ، ووزيراً للداخلية في حكومة بروسيا وقد خطب (جورنج) رجال الشرطة ، فقال : «إن الشرطة لم توجد من أجل العناية بامر ثمانين أو مائة ألف مجرم في السجون ، فجدد بنا أن نضع حداً لهذه الانسانية المزيفة ، لأن

من واجب الشرطة أن تقوم بأعمال قد تبدو قاسية للغاية ، ولكنها في الواقع ضرورية ولا غنى عنها البتة . وأما هذه الأعمال التي يشير إليها فهي القضاء على أعداء النازيين ومعارضهم . ولما كان رجال الشرطة النظاميون مائة ألف ، وهو عدد لا يكفي لتحقيق هذه الأغراض ؛ فقد شكل (جورنج) قوة إضافية من النازيين تبلغ ثمانين ألفاً . وبذلك بدأ عهد الإرهاب النازي في ألمانيا ، وسرعان ما تبين لمديرى المكائد السابقين من (بطانة) الرئيس أن هتلر والنازيين إنما يريدون أن يقيضوا على أزمة الحكم بيد من حديد ، وأن من العبث أن يتوقعوا الاستمتاع بالمزايا التي ألّفوها في العهود الماضية . ثم عظمت خاوفهم عندما وجدوا المستشار النازي مصمماً على إجراء انتخابات جديدة حتى يفوز بأغلبية مطلقة تمكنه من إنشاء حكومة مؤيدة له ، واستطاع بالفعل أن ينال من هندنبرج أمراً بحل الريخستاج وإجراء هذه الانتخابات الجديدة في يوم ٥ مارس ١٩٣٣ .

على أن موقف النازيين في أول الأمر لم يزعج كلا من باين وهوجنبرج وأوسكار ثون هندنبرج إلى حد كبير ، ولم يقض مضاجعهم تهديد هتلر وأنصاره بأنهم مصممون على البقاء في الحكم مهما كانت نتيجة الانتخابات المقبلة ، ذلك بأن النازيين كانوا قد اتفقوا معهم وقت المفاوضات التي سبقت تعيين هتلر في منصب المستشارية ، على أن يظل الائتلاف قائماً لمدة أربعة أعوام على الأقل ، ولو اقتضى الأمر مخالفة رغبات الأمة ، ولكنهم أدركوا في النهاية أن النازيين سوف يتحينون الفرص لطردهم من الحكومة ، وانعدمت من ثم ثققتهم في الهر هتلر ، وطفقوا يدبرون المكائد ضده ، وانضم إليهم (شليخر) في ذلك . بيد أن هذه المكائد لم تكن خافية على الهر هتلر . والواقع أن الهتلريين أنفسهم لم يكونوا يتوقعون إحراز نصر حاسم في الانتخابات المقبلة . ولذلك شرعوا من جانبهم يدبرون (إنقلاباً سياسياً) يضمن لهم الغلبة والفوز في يوم ٥ مارس . ومن هذه الجهود الخفية جميعها ، نشأت جميع الحوادث التي كفلت الفوز للنازيين في النهاية .

* * *

فقد حدث في الأسبوع الثاني من شهر فبراير عام ١٩٣٣ ، أن راجت إشاعة خفاها أن النازيين يريدون إخراج أعضاء (الائتلاف) المتعاونين معهم من الحكومة يوم الانتخابات نفسه ؛ ويطلبون إجراء (استفتاء عام) من أجل انتخاب الهر هتلر لمنصب رئاسة الدولة . ووجد (باين) في هذه الإشاعة مسوغاً لحبك خيوط مؤامراته من أجل الخلاص من هتلر ؛ وقابل في ذلك (هوجنبرج) وحضر المقابلة أيضاً زعماء (أصحاب الخوذات الفولاذية) ، ثم تباحث (باين) مع الجنرال (شليخر) ومع الرئيس هندنبرج ومع ابنه (أوسكار) .

وأُسفرت هذه المؤامرة عن وضع خطة نالت موافقة الجميع ، وترمى هذه الخطة إلى حشد جنود (الخوذات الفولاذية) في برلين في يوم الانتخابات نفسه ، على أن يحتلوا قلب المدينة ويسهروا على حراسة (الوهلمستراس) ، بينما تحتشد عدة فرق من الجيش النظامي (الريشقر) في (دوبريتز) Döberitz التي تبعد نحو العشرين ميلا عن برلين ؛ على أن يغادر هندنبرج العاصمة في هذا اليوم إلى (دوبريتز) بحجة الإشراف على استعراض يقوم به جيش (الريشقر) هناك . حتى إذا وقعت في يوم ٥ مارس أية محاولة من جانب الهتلريين لإحداث (انقلاب سياسي) استطاع عشرة آلاف جندي من أصحاب الخوذات الفولاذية مقاومة جنود الهجوم النازيين (S.A.) والدفاع عن قلب المدينة حتى تأتى إليهم نجدة (الريشقر) من (دوبريتز) .

يبدو أن هتلر لم يلبث أن عرف أمر هذا التدبير ، فأرسل بدوره (هرمان جورنج) يحمل تهديدا إلى (سلدت) Seldte زعيم جنود أصحاب الخوذات الفولاذية ، بأنه إذا أبدى هؤلاء أى حراك ، فإن هتلر لن يرى مندوحة عن تعبئة قوات جنود الهجوم النازيين تعبئة كاملة . وقد أحدث هذا التهديد أثره في نفوس المتآمرين الذين أزعجهم انكشاف أمرهم ، وصاروا يخشون عواقب حدوث الاصطدام بين قوات الحكومة ، فنكصوا على أعقابهم ، وفشلت مؤامرتهم ، واستطاع النازيون أن يتفرغوا لمكافأة أعدائهم الآخرين ، وهم الجمهوريون والشيوعيون ، فأشرف (هرمان جورنج) نفسه على تعقبهم . وفي إحدى الهجمات الفجائية التي قام بها الشرطة على مراكزهم الرئيسية ، استطاع جورنج أن يعثر في مقر الحزب الشيوعي (بيت كارل ليكنيخت) Liebknecht على خطط مفصلة قال جورنج إن الشيوعيين وضعوها لتنظيم إشعال الثورة في ألمانيا وأخفوها في أقبية سرية عتيقة . وكان هذا الكشف انتصارا عظيما للنازيين الذين صمموا على استغلال هذا الحادث بشكل يقضى على أعدائهم الشيوعيين قضاء مبرما في الانتخابات المقبلة ، ويدخل الذعر والرعب في نفوس الأهلين ؛ وكان أخشى ما يخشاه سواد الشعب في تلك الآونة أن يشعل المتطرفون من أحزاب اليسار نار الثورة في ألمانيا . هذا إلى أنه يقضى على كل أمل لدى (بطانة) الرئيس في إمكان الفوز على الهرتهلر وأعدائه بتدبير أية مؤامرة جديدة .

وعقب ذلك حدث في مساء ٢٧ فبراير ١٩٣٣ في الساعة الثامنة والدقيقة الخامسة والأربعين أن شهد أهل برلين فجأة ألسنة النيران تصل إلى عتبان السماء . واللهب يضيء المدينة ، ثم تطاير الخبز بسرعة البرق ، بأن الريخستاج يحترق ! وكان حريق الريخستاج من العوامل الحاسمة التي ساعدت النازيين على أن يقبضوا بأيديهم على أزمة الحكم في ألمانيا ، ويفرضوا

على دولة الريخ تلك السيطرة التامة التي طمعوا فيها منذ مدة طويلة ، حتى يسيطروا سيطرتهم على القارة الأوروبية ، ثم على العالم أجمع في النهاية .

والواقع أن الزعماء النازيين كانوا في تلك الليلة أول من خف إلى مكان الحريق . ونقل الناس عن الهرتزل قوله في وصف هذا الحادث ، « أنه نعمة من السماء » Ein Zeichen vom Himmel . وأعلنت الحكومة في التو والساعة أن الحريق من صنع الشيوعيين وحدهم وفي الليلة نفسها صادر النازيون الصحف الشيوعية وجميع منشورات الشيوعيين وإعلاناتهم الانتخابية ، ومنعوا الاجتماعات السياسية سواء أكانت في الهواء الطلق أم في منازل أفراد الحزب ، وفي اليوم التالي وقع هندنبيرج قرارا ألغى الدستور بمقتضاه ، وفي أول مارس صدر قرار آخر يفرض « الرقابة » على البريد والتليفون والبرق في أنحاء الريخ ، فتحقق بكل هذا ظفر النازيين واطمأنوا إلى الدخول في « المعركة » الانتخابية من غير منافس ! والحقيقة أن هذه التدابير الصارمة لم تقض على الشيوعيين وحدهم ، بل إنها أو جدت الارتباك والفوضى في صفوف الأحزاب الأخرى ، ثم رفعت في ساعات معدودة مستشار الريخ إلى مركز الديكتاتور المطلق . ولم تكن التدابير التي اتخذها النازيون من أجل محاربة أعدائهم ومنافسيهم بنت ساعتها ، بل دل صدورهما وتنفيذها بالسرعة المتقدمة على أنها كانت معدة منذ مدة سابقة ، وما يزال التاريخ يلصق تهمة إشعال النار في مبنى الريخستاج بالنازيين وحدهم إذ أنه حتى الآن ما يزال من المستحيل على أي إنسان أن يقف على كنهه العلاقة التي ربطت بين النازيين وفان دير لوب هذا الشخص الأبله الذي ثبتت إدانته وحده ثم أعدم . ومن المحتمل أن تظل حقيقة هذه العلاقة مجحولة إلى الأبد

والمعروف أن (مارينوس فان دير لوب) Marinus Van Der Lubbe وهو من الرعايا الهولنديين ، لم يسكن في يوم من الأيام منتصيا إلى الحزب الشيوعي ، بل كان هذا الرجل متعطلا ، لا مأوى له ومن الخبوالن المنغمسين في حماة الرذيلة ومن ذوى الشذوذ الجنسي . وقد قبض عليه رجال الشرطة في ليل الحادث عند أحد أبواب الريخستاج ، وليس عليه من الملابس غير سراويله ، لأنه كما يظهر كان قد استخدم قميصه وبقية ملابسه المهمللة في إشعال الحريق . ومع أن (جورنيج) ادعى في ذلك الحين أن (لوب) كان يحمل بطاقة الحزب الشيوعي هذا إلى جانب بضعة أوراق أخرى تلصق التهمة بالشيوعيين والاشتراكيين الديموقراطيين . فإن هذا الادعاء كان كاذبا ، كما أن (فان دير لوب) من ناحية أخرى لم يكن من الوكلاء النازيين أصلا .

على أنه مما تجدر ملاحظته أن (فان دير لوب) ما كان يستطيع وحده وبمفرده إشعال

الحريق الذى التهم جزءاً كبيراً من مبنى الريخستاج فى تلك الليلة . فقد أثبت البحث أن مقداراً كبيراً من المواد القابلة للاشتعال ، ومنها البترول ، قد استخدم فعلاً فى الحرائق التى نشبت فى عدة أماكن مختلفة من هذا المبنى وفى وقت واحد . ولم يكن لدى (لوب) من الملابس ما يكفى لإشعال حريق عظيم يلتهم بهو الريخستاج الكبير بأجمعه قبل وصول رجال المطافىء ، وزيادة على ذلك فقد أثبت التحقيق أن وسط هذا المبنى كان شعلة من النيران عقب دخول (فان دير لوب) إليه بدقيقتين وخمس ثوان لحسب ؛ ولذلك فلا بد من أن يكون هناك غيره اشتركوا معه ، وعلى غير علم منه على ما يبدو ، فى إشعال هذا الحريق الكبير . ولكن أحداً لم يقف على أثر هؤلاء المساهمين . إذ استطاعوا الخروج من المبنى دون أن يراهم أحد . ولما كان هناك قبو سفلى يوضع به جهاز التدفئة ، ويمتد منه عرير يربط بين أقبية الريخستاج ، والمبنى الذى يقيم به رئيسه ، فإن القرائن تدل على أن محدثى الحريق استخدموا هذا الممر الخفى أولاً فى نقل المواد الملتبسة — والبترول — إلى الريخستاج ، ثم استخدموه فى الفرار والنجاة بأنفسهم بعد إشعال الحريق ، وكان رئيس الريخستاج الهر هرمان جورنج !

ومع هذا فقد اعتقل النازيون ثلاثة من زعماء الشيوعيين — البلغاريين كانوا يعيشون فى برلين فى تلك الآونة ، وهم (ديميتروف) Dimitroff و (تانيف) Taneff و (بوبوف) Popoff بتهمة إشعال الحريق ؛ كما ألقوا القبض على النائب الشيوعى الألمانى (تورجلر) Torgler ، ثم قدموا الجميع إلى المحاكمة أمام المحكمة العليا الألمانية فى لينيز . وفى هذه المحاكمة اعترف (فان دير لوب) بجرمه ثم أعدم . وأما (ديميتروف) فقد دافع دفاعاً مجيداً وحمل حملة شعواء على الهر جورنج نفسه وعلى النظام النازى بأجمعه ، وانتهى الأمر بالحكم ببراءته وبراءة زملائه الآخرين . وقد سافر (ديميتروف) إلى موسكو ، أما (تورجلر) الألمانى فقد أرسل إلى أحد معسكرات الاعتقال النازية .

ولكن تبرئة الشيوعيين جاءت متأخرة . إذ أن النازيين كانوا قد حققوا أغراضهم ، فنشروا الارهاب والرعب فى أنحاء البلاد وقام الشرطة بتلك الأعمال التى قال عنها جورنج : أنها قد تبدو قاسية للغاية ولكنها فى الواقع ضرورية ولا غنى عنها البتة . . وعبثاً حاول أعضاء الحكومة — من : بطانة ، الرئيس هيندنبرج — الاحتجاج على هذه الحملة الارهابية ، فقد أجاب جورنج على ذلك بقوله : إنه يشعر بقوة مركزه إلى حد يسوغ له الاضطلاع بكل مسئولية ! ، وعمل النازيون على قمع كل معارضة ، دون أن يترددوا فى ارتكاب أية جريمة حتى صار الأهليون يعثرون فى القنوات ومجارى المياه على جثث أفراد عديدين من : العمال ، الذين عرفوا بقوة المراس والشكيمة وشدة معارضتهم للحزب النازى . وفى يوم الانتخاب قام

بالمحافظة على النظام ثمانون ألفاً من أصحاب القمصان السمير النازيين !

ولكن على الرغم من هذا الارهاب العظيم ، لم يظفر النازيون في يوم ٥ مارس ١٩٣٣ بالأغلبية المطلقة ، فحصلوا على ٤٣,٩ ٪ من الأصوات فحسب ، فإذا كانت هذه هى النتيجة التى بلغها النازيون وهم فى أوج سطوتهم ، ولا أثر للمعارضة أو المنافسة يعكر عليهم صفوهم ، فماذا كان يحدث لو أن الريخستاج لم يحرق ؟ ، ولو أن الأحزاب الشيوعية والاشتراكية الديمقراطية على وجه الخصوص ظلت حرة طليقة ، تمارس حقوقها الانتخابية فى أمان إلى جانب النازيين والضالعين معهم من أحزاب الوطنيين ؟ . لاشك فى أن انتخابات ٥ مارس ١٩٣٣ كانت هزيمة للنازيين لا تقل عن هزيمتهم القديمة فى انتخابات ٦ نوفمبر من العام السابق ومع هذا ، فقد جد النازيون حتى يوطدوا أقدامهم بكل وسيلة ، فاعلن أدولف هتلر فى خطاب ألقاه فى مبنى (تيمبلهوف) فى أول أبريل ، أن الثورة الوطنية قد بدأت ، وفى اليوم نفسه نظمت مقاطعة اليهود ، وفى ٢ مايو وبناء على أوامر الحكومة صادر جنود هتلر جميع ممتلكات الأحزاب والمؤسسات العالية فى أنحاء الريخ ، ولم يقاومهم أحد . وقبض النازيون على زعماء الاتحادات التجارية الحرة أمثال (ليبارت) Leipart و (جراسمان) Grassman وغيرهما من صغار الزعماء وألقوا بهم فى غياهب السجون ، وفى ١٨ مايو صادر الهتلريون جميع مبانى وأماكن الجمعيات التعاونية ، فخر الاشتراكية الألمانية كما صادرها جميع مبانى الاشتراكيين الديمقراطيين وممتلكاتهم وأموالهم ومطابعهم ؛ وهكذا قضى الهرتلر على كل منافسيه وأعدائهم (الشيوعيون ، النقابات العالية ، الاشتراكيون الديمقراطيون) . وبلغ الارهاب النازى ذروته ، إذ كان عدد الذين أرسلوا إلى السجون أو معسكرات الاعتقال نحو ٢,٠٠٠,٠٠٠ ألمانيا ، وانفصح المجال أمام (جند الههجوم) الهتلرى ووقع تحت رحمتهم اليهود والاشتراكيون الديمقراطيون والاحرار ، ولم ينج من أيديهم الشيخ الكبير أو الصبي الصغير فى غير تمييز بين الذكر والانثى .

ولم يكف يتهنى أمر أحزاب اليسار حتى وجه الهرتلر عنايته للقضاء على أحزاب اليمين وكان من السهل عليه بلوغ مقاصده . لأن طرد النواب الشيوعيين من الريخستاج أكسب الوطنية الاشتراكية — أو النازية — والبرلمان قوة كبيرة ، وبفضل هذه القوة الجديدة ، استطاع الهرتلر أن يقنع حزب الوسط الكاثوليكي فى ريخستاج بأن من مصلحة هذا الحزب ومن مصلحة الكنيسة أيضاً أن يظفر الهتلريون بالأغلبية المطلقة فى الريخستاج ، وأن حزب الوسط الكاثوليكي والكنيسة سوف يكون من نصيبهما حتماً الاتعاش والنجاح فى دولة الريخ الثالث ، فقبل الحزب الانحياز إلى النازيين عند التصويت من أجل الموافقة على القانون الذى

أعطى الهرتلر سلطات واسعة استثنائية تمكنه من إصلاح (الدستور) ومن التشريع عن طريق إصدار المراسيم في مدة الأعوام الأربعة التالية ، وعندئذ لم يتردد الهرتلر لحظة واحدة في تطهير الحكومة من (بطانة) الرئيس هيندبيرج ، والذين تألفت من بينهم وبفضل مساعدتهم (جهة هارتزبرج) القديمة ، فطر د في ٢٧ يولية ١٩٣٣ الفريد هوجنبرج من الحكومة ، وولى مكانه رجلا من جماعة الرأسماليين والصناعيين الذين كانوا يريدون الحرب ويجدون فيها علاجا حاسماً لازمة البلاد الاقتصادية المستحكمة وهو (الدكتور شميدت) Schmidt . ثم عظم تهديد المهترلين لأحزاب المحافظين من الكاثوليك والالمان الوطنيين ، وحل الاضطهاد بزعمائهم ، وقادتهم ، كما لو كانوا من الاشتراكيين الديموقراطيين سواء بسواء . وفي آخر الأمر اضطر المحافظون إلى تصفية ، أحزابهم وجماعاتهم . وفي ١٤ يولية ١٩٣٣ أعلن الهرتلر أن الوطنية الاشتراكية هي الحزب القانوني الوحيد في ألمانيا بأسرها . وبهذا تكون قد بدأت حياة الرينخ الثالث الجديدة ويكون قد تمهد الطريق لخوض غمار الحرب العالمية الثانية !

تلك كانت الظروف التي لا بدت وصول المهترلين إلى الحكم في ألمانيا . وجمعت أسباب السلطة المطلقة في أيديهم ، ومع هذا فانه ما كان من المستطاع أن يصل النازيون إلى ما وصلوا إليه ، وأن يتمكنوا من بسط سلطانهم بشكل يقضى على كل معارضة ، لو أنهم لم يعنوا من بادىء الأمر بتنظيم حزبهم وتنسيق جهودهم في نظام من شأنه أن ينشر خلايا الحزب ومؤسساته وهيئاته في كل ركن من أركان الدولة ويفرض الطاعة العمياء على كل عضو من أعضاء الحزب لزعيمه (الفوهرر) أدولف هتلر . ولذلك فان تنظيم الحزب النازي نفسه كان من أهم العوامل التي كفلت للمهترلين الفوز ، ووضعت مصير البلاد في أيديهم .

فقد جعلت دقة تنظيم الحزب الوطني الاشتراكي من الممكن أن تتغلغل أنظمة الوطنية الاشتراكية في كيان ألمانيا الاقتصادية والاجتماعي والسياسي ، حتى هيمن النازيون في النهاية على حياة الأهلين هيمنة تامة تحت ستار إنشاء (الدولة الجديدة ذات الخدمة الموحدة) ومعنى هذا أن ينظم نشاط أفراد الدولة في فروع المصالح — أو الخدمات — المختلفة في نطاق واحد تحت إشراف الدولة وتوجيه منها . ولحمة هذا النظام وسداه الطاعة العمياء لزعيم الدولة . ويشبه الحزب الوطني الاشتراكي في نظامه (نظام المجموعة الشمسية) ، بمعنى أن الفوهرر أو الزعيم وهو أدولف هتلر يتوسط مجموعة الزعماء الآخرين الذين يشرفون على كل فرع من فروع الحزب وهي كثيرة . ولما كان غرض النازيين إحراز السيطرة السياسية وإحكام الرقابة

الدقيقة على حياة الأفراد الذين تتألف منهم دولة الريخ ، نظمت إدارة الحزب على نحو يضمن هذه السيطرة وتلك الرقابة ، ولذلك صارت هناك تنظيمات إقليمية ووظائف واستشارية ، استطاع النازيون بفضلها جميعاً منذ عام ١٩٣٢ أن يتوغلوا في كل ناحية من نواحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، ويتدخلوا في معيشة كل فرد من أفراد المجتمع الألماني وينقسم تنظيم الحزب الوطني الاشتراكي قسمين رئيسيين : يعرف أولهما باسم « هيئات الخدمة » (Dienstordnungen) — ومن هذه الهيئات نظام الشببية الهتلرية ، وخدمة العمل والخدمة العسكرية ، والخدمة المدنية ، والمهن الحرة ، أو وظائف الأعمال الكبرى . وبفضل الالتحاق بأحدى هذه الهيئات يتسنى إعداد الفرد وتهيئته لأن يشغل إحدى الوظائف أو يمارس عملاً من الأعمال من أجل خدمة الدولة ، على شريطة أن يحدث هذا الإعداد تحت إشراف النازيين ووفق أساليبهم ، حتى إذا كملت ، تربيته ، صار انتخابه كموطن صالح لخدمة الريخ من بين أعضاء هذه الهيئات المختلفة التي يتكون من مجموعها في الحقيقة هيكل الدولة الاقتصادي والاجتماعي في ألمانيا النازية .

أما القسم الثاني ، فيتألف من اندماج هذه الهيئات نظرياً وعملياً فيما يعرف باسم المصالح أو الدوائر (Staende) . ومن مجموعها يتألف ما يعرف عادة بالنظام الوطني الاقتصادي . ومن هذه المصالح أو الدوائر مصلحة أو دائرة الزراعة ، ودائرة الصناعة والتجارة ، ودائرة الحرف (والمهن اليدوية) ، وجبهة العمل ، ودائرة الثقافة . وهذه الدائرة الأخيرة تخرج في الحقيقة عن محيط الحياة الاقتصادية . وقد أنشئت جميع هذه الدوائر بمقتضى قرارات ومراسيم صدرت في عامي ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ، ثم أتيحت لها الفرصة حتى تثبت أركانها في خلال الأعوام السابقة على إعلان الحرب العالمية الثانية ، وهكذا عندما نشبت الحرب ورغب النازيون في تعبئة مرافق الدولة في خدمة الحرب ، أصبح من السهل عليهم أن يدبجوا هذه الدوائر جميعها في (المجلس العام لاقتصاد الحرب) الذي أنشأوه في يناير ١٩٤٠ ووضعوه تحت رئاسة (جورج) .

ولهذا القسم الثاني في التنظيم النازي أهمية كبيرة لأن (الدوائر) Staende كما أعلن النازيون أنفسهم إنما تمثل الكيفية التي تجري بها إدارة المصالح المختلفة في الاقتصاد القومي على أساس المبادئ والتعاليم النازية الرئيسية الصحيحة . ومن المعروف أن الوطنية الاشتراكية تعتبر أن (المجتمع الانتاجي) إنما يقوم على دعائم ثلاث أولاًها : (العمل) ، وللعلم قيمة اجتماعية عظمى في هذا النظام الوطني الاشتراكي ، وتيمين (جبهة العمل) على كل ما يتصل به من شؤون وثانيها (الأرض) أو التربة التي ينشأ عليها الزراع ، وترتبط بها حياتهم ومصالحهم ،

وتشرف (دائرة الزراعة) على هذا كله ؛ وثالثها (الانتاج) أى إنتاج السلع التى لابد من استخدام رؤوس الأموال فى صنعها ، وتشرف عليه (دائرة الصناعة والتجارة) . والواقع أن الروابط التى تربط بين هذه الدعامات الثلاث ، وما ينجم عن تأثير كل منها فى الأخرى ، تحت إشراف الدولة ، هو ما يطلق عليه النازيون إسم (الاشتراكية الوطنية) ، على شريطة أن يتحرر (رأس المال) من خاصية العمل دائماً على الزيادة والنمو بطريق الربح والامتلاك والاستثمار وقد أفاد النازيون من هذا التنظيم الحزبى الدقيق إذ أنه جعل فى مقدورهم ، بعد أن دانت لهم السلطة ، أن ينظموا الاقتصاد القومى فى ألمانيا على نحو حقق مآربهم من السيطرة التى ظفروا بها ، فاجتاز الاقتصاد النازى فى نموه ثلاث مراحل : الأولى مرحلة الكفاح ضد التعطل من العمل ، وقد عرف الهر هتلر نفسه هذه المرحلة إذ قال فى ٣ فبراير ١٩٣٣ مامعناه : سوف تقوم الحكومة الوطنية بوضع حل للمشكلة الكبرى ، مشكلة إعادة تنظيم الاقتصاد الشعبى وفق برنامجين يستغرق العمل بكل منهما أربعة أعوام ، هما تحرير الفلاح الألمانى حتى يتمكن من الاحتفاظ بالأسس التى تكفل إمدادنا بمورد لا ينقطع من الطعام والأغذية ، تلك الأسس التى تستند إليها حياتنا ، وتحرير العامل الألمانى بأعداد هجوم عظيم واسع النطاق على مسألة التعطل من العمل . ولذلك فإنه فى خلال الأعوام الأربعة المتبيلة ينبغى أن يتحقق انتزاع الفلاح الألمانى من حيرته وكرهه ، كما ينبغى فى بحر هذه المدة نفسها أن يتم القضاء على التعطل عن العمل قضاء مبرما ،

أما المرحلة الثانية فقد خصصت للعودة إلى التسليح من جديد ، وتحقيق مبدأ (الاكتفاء الذاتى) فى الريخ الألمانى . وقد أعلن الهر هتلر أيضاً عن بدء هذه المرحلة حين قال فى ٩ سبتمبر ١٩٣٦ مامعناه : « اليوم أعلن البرنامج الجديد للسنوات الأربع وهو على الوجه التالى : ينبغى فى خلال أربعة أعوام من تاريخ هذا اليوم أن تصبح ألمانيا مستقلة عن الأجانب فى كل ما يلزمها من مواد لابد أن تمد بها العبقرية الجرمانية صناعتنا الكيميائية والصناعة المخصصة لإنتاج الآلات وكذلك صناعة التعدين . وسوف يكون من شأن إقامة هذه الصناعات الجرمانية العظيمة ، استخدام سواد الشعب بعد أن يتم تسليحه من جديد ، بطرائق تكفل خدمة الاقتصاد القومى على خير وجه ، .

أما آخر المراحل فكانت تعبئة الاقتصاد القومى من أجل المضى فى الحرب وكسبها . وقد بدأ تحول الاقتصاد النازى إلى اقتصاد حربى قبل نشوب الحرب بمدة ، عندما قسم النازيون البلاد إلى ثمان عشرة منطقة دفاعية (Wehr kreise) بدعوى ضرورة الإشراف على جميع الشؤون الاقتصادية ، والتأكد من أن القرارات التى تتخذ فى هذه الشؤون موحدة لا تضارب

بينها ، وقد تبع هذا التقسيم تعطيل أداة الحكم الذاتي في جميع هذه المناطق ، ومن الممكن القول بأن (الاقتصاد الحربى) ظهر إلى الوجود فى شكله النهائى فى يناير ١٩٤٠ عندما أنشئ (المجلس العام لاقتصاد الحرب) الذى مر ذكره .

* * *

ومما يدل على دقة التنظيم الحربى ، تلك الشديدة التى اصطنعها الهتلريون فى القضاء على العناصر التى بدأت تظهر شيئاً من المخالفة أو المعارضة فى داخل الصفوف النازية ذاتها ، إذ كان ظهور الاختلاف فى رأى والانقسام بين النازيين عقب امتتباب الأمر لهم فى الحكومة أمراً لا مندوحة عنه لا سيما وأن أدولف هتلر الذى دعا إلى الثورة وبذل الوعود المسخية من أجل إرضاء الشعب الألمانى ، لم ينفذ شيئاً مما دعا إليه ووعد به خلال الشهور التى تلت بلوغه منصب المستشارية ، الأمر الذى أثار التذمر ضده وضد حكومته فى طول البلاد وعرضها . فالطبقة العاملة كانت ما تزال ترزح تحت ضغط شديد ، ثم صارت فى العهد الجديد ، فى حال أشبه بحال الرقيق ، يعيش أفرادها فى ظل إرهاب دائم ولا يستطيعون التفكير فى أية مقاومة . ومثل الطبقة العاملة فى ذلك سواد الشعب الألمانى . ولكن عنصراً له خطره كان يهدد بأضعاف الحركة النازية لو ترك وشأنه وسمح له بالنمو حتى يستفحل أمره ، هذا العنصر هو جماعة الراديكاليين النازيين الذين لم يستطيعوا الموافقة على سياسة الهلر الرجعية . وكانوا يعدون الزعيم بمثابة الأداة التى يحركها (كروپ) وأمثاله من كبار رجال الصناعة وأصحاب رؤوس الأموال المؤيدين للنازية ، كما يحركها الجيش النظامى (الريفشقر) وكانوا يعتقدون أن من حقهم أن يستمع الزعيم لأرائهم لا لآراء القواد الرجعيين ، كما ركز فى أذهانهم ، بعد التمعن فى معنى المبادئ التى تضمنها البرنامج النازى القديم (١٩٢٠) ، أن شيئاً من هذه المبادئ لم يتحقق ، وأن الوطنية الاشتراكية لم يكن نصيبها سوى الغدر والخيانة ! وكان من بين الوطنيين الاشتراكيين الذين اتجهوا صوب الاشتراكية الصحيحة ، مجتذنين التعاون مع الاشتراكيين الخالص رجال مثل (ليبارت) وصحبه كما كان من بينهم (جريجور ستراسر) Gregor Strasser وكان هذا السكمانى البافارى ممن قام على أكتافهم جمع شتات الحزب النازى وتنظيمه عقب حركة الانقلاب المشهورة التى فشلت والتى حوكم بسببها الهلر وأودع فى قلعة (لندسبرج) . أى فى الفترة الراقعة بين عام ١٩٢٣ ، عام ١٩٢٦ . وقد طلب إليه الراديكاليون النازيون أن يترغم حركتهم . وكان الزعماء النازيون أنفسهم فى تلك الآونة فى نضال مستمر فيما بينهم من أجل الحصول على السلطة فى داخل الحزب والدولة ، (فجورنج) ينازع (هيملر) السيطرة على قوة الجيستابو و (جوبلز) يخشى (جورنج) ، و (هيملر) لا يثق بالكاتبين (روم)

صاحب السمعة السيئة ، و (روم) نفسه يساوره الشك من ناحية (جورنج) ، و (جورنج) يحتقر (جوبلز) وهكذا . ولعل أخطر مشا كل تلك الآونة أن الجيش النظامي (الريشقر) كان لا يرضى عن وجود (جند الهجوم) النازيين (Sturm Abteilung (S. A) ، وقد اتخذت تشكيلا لهم صبغة رسمية منذ أصبح الفوهرر مستشار الريخ الألماني ، هذا بينما كان جنود الهجوم أنفسهم لا يثقون (بجند الحرس) (Schutz Staffel (SS) الذين اختارهم الهرتلر خصيصا من طبقات أرقى حتى يكونوا حرسا له (منذ ١٩٢٨) .

أما أدولف هتلر ، فقد أزعجته هذه الفوضى المنتشرة في صفوف حزبه ومؤيديه ، وزادت حيرته عندما تدفقت عليه الآراء والنصائح من كل جانب فيما ينبغي عليه فعله حتى يقضى على الانقسام الداخلي ؛ وكان (الريشقر) في مقدمة المطالبين بضرورة القضاء على هذه الفوضى وفي ١٧ يونيه ١٩٣٤ خطب (فون باين) في (ماربورج) متحدثا باسم كبار الصناع والرأسماليين وأصحاب الأراضي الواسعة (اليونسكر) فحمل بشدة على أولئك النظريين المتعصبين الذين أحدثوا الفوضى وأرادوا أن تبقى المانيا متردية في أحضان الاضطراب والثورة ، وحدث قبل ذلك يومين . في ١٤ ، ١٥ يونيه أن نصيح السينيور موسولينى الهرتلر عند اجتماعهما في البندقية ، بأن يقبض على أزمة الأمور بيد من حديد ، ويسلك في سياسته الداخلية والحزبية طريقا لا يعرف الهوادة أو الشفقة . لذلك لم يأت يوم ٢٠ يونيه سنة ١٩٣٤ حتى كان اليونسكر ، وكبار الصناع والممولين ، والريشقر ، والنازيون الرجعيون قد انتهوا فيما بينهم من تأليف جبهة متحدة على استعداد تام ومهاجمة العناصر المعارضة في داخل الحزب النازي نفسه وما هي إلا عشرة أيام حتى قامت حركة التطهير الأولى بين النازيين في حادث (حمام الدم) المشهور في ٣٠ يونيه ١٩٣٤ .



ذلك بأن النازيين كانوا معتمدين في دعم سلطانهم في العام الأول من حكمهم على جند الهجوم S.A. أصحاب الأردية السمراء ، وكان عددهم يبلغ المليونين أو الثلاثة ملايين . وقد قام جنود الهجوم بما كلفوا به على خير وجه حتى غصت السجون ومعسكرات الاعتقال بأعداء النازيين والمشتبه في ولائهم ومن إليهم واستمر هذا الارهاب عاما كاملا . ولكن سرعان ما تبين بعد هذا النجاح أنه لم يصبح لدى جنود الهجوم واجبات معينة يكلفون بأدائها هذا إلى أن الهرتلر كان يجد قوة كبيرة أخرى يستند إليها في جماعة جند الحرس (SS) وفي قوة الجستابو ذات الخطر كما أصبح في استطاعة (الفوهرر) أن يعتمد الاعتماد كله على تأييد (الريشقر) بنوع خاص لأن وزير الحربية الجنرال فون بلومبرج Blomberg كان

من كبار المعجبين به . فانتفى لذلك كل سبب يدعو إلى بقاء جنود الهجوم وأصبح من الضروري تسريح هذه القوة ، ولكن هذا لم يرق في عين رئيس جنود الهجوم ، الكابتن (إرنست روم) Roehm لذلك تقدم إلى مجلس الوزراء باقتراح يقضى بادماج جنود الهجوم في الجيش النظامى (الريششهر) لتأليف جيش وطنى ألمانى كبير برئاسته ، فعارض هذا رأى كل من (فون بلومبرج) وزير الحربية ، (فون فريتش) Fritsch القائد العام ، بدعوى أن هذا الادماج من شأنه القضاء قضاء مبرما على الجيش النظامى . فاتخذ (روم) من هذه الدعوى وسيلة لهاجمة القواد الذين أيدهم جميع الوزراء الرجعيين أمثال جورنج وهيملر (رئيس جند الحرس S.S) وكبار الصناع والممولين واليونكر ثم طلب هؤلاء جميعا إلى هتلر أن يسرح جند الهجوم .

ولما كان النظام النازى بعد أن مضى عليه عام بطوله لم يفلح في تخفيف وطأة الأزمة الاقتصادية ، بل كان من نتائج السياسة التى انتهجها الرجح في هذا العهد إقامة الحواجز الجركية والتقليل من استيراد المواد الغذائية بكل وسيلة حتى يتسنى للدولة جلب المواد الضرورية لصنع الاسلحة وما إليها ، فقد ساء عيش الشعب الألمانى ، كما حدث لأول مرة منذ سنوات عدة عجز في ميزان ألمانيا التجارى ، وتوترت من جراء ذلك كله الأعصاب ، وكثر التذمر والاحتجاج في كل مناسبة ومن كل جانب ، وساء هتلر أن يشهد في الوقت نفسه انقساماً في صفوف حزبه وكانت ريج هذا الانقسام تهب من ناحيتين ناحية (روم) وأنصاره من جند الهجوم وكانوا في الحقيقة شرادم مجتدة من عامة الشعب والسوقة ، وعنصر اضطراب وفوضى ، لا يعرفون قانونا ، ولا يردعهم رداع ، وناحية الراديكاليين من أنصار (جريجور ستراسر) وقد سبق الحديث عنهم . إزاء ذلك قرر (الفوهرر) أن يطهر الحزب من كل هؤلاء بضربة قاصمة مروعة تنشر الذعر والهلع في قلوب النازيين جميعا ، وتجعلهم يتذوقون طعم الارهاب الذى طالما أذاقوه غيرهم .

لذلك أجاب هتلر طلب (الريششهر) ، ووقع اختياره على اليوم الأول من شهر يولييه تاريخا للبدء في فض تشكيلات جند الهجوم — في مدى شهرين فحسب ! على ألا يصرح لهؤلاء الجند في أثناء هذه المدة بارتداء قمصانهم السمراء وقد أثار هذا القرار موجة من الاستياء عظيمة في صفوف هذه القوة التى كانت تعتبر (الفوهرر) مدينا لها بكل نجاح أحرزه منذ بدىء في تكوين الحزب . ومع هذا فلم يكن هناك ما يدل على أن (روم) نفسه أو غيره من قواد الهجوم الآخرين يعتزمون معارضة هذا القرار أو مقاومة الهرهتلر . ولكن موجة التذمر كانت من الشدة بحيث أقضت مضاجع زعماء (الريششهر) فشرع الجيش النظامى يستعد

لمواجهة نضال مرير توقع حدوثه قريباً مع جنود الهجوم . ويبدو أنه كان لابد من حدوث انقسام داخلي كبير أو حرب أهلية مروعة تفضي إلى تدهور الحزب النازي وفنائه في النهاية إذا ترك (جنود الهجوم) وشأنهم . لذلك رأى هتلر أن الساعة قد أزفت للقيام بعمل حاسم . عندئذ أصدر الفوهرر أوامره المشددة إلى كل من جورج و هيملر ، بشأن ما يجب عليهما القيام به في برلين ، وفي مساء ٢٩ يونيه استقل طائرة مع (جوبلز) إلى ألمانيا الجنوبية ، فبلغ ميونخ في الساعة الرابعة من صباح اليوم التالي (٣٠ يونيه) . وكان هتلر في المساء السابق قد طلب إلى (واجنر) Wagner حاكم ميونخ تليفونياً أن تتخذ التدابير الكفيلة بالقضاء على زعماء جند الهجوم ، وصعد الحاكم بأمره ، ولقي كثيرون من هؤلاء حتفهم . واستطاع هتلر عقب وصوله إلى ميونخ أن يقف من (واجنر) على نتيجة هذا التطهير الأول . ثم استقل سيارة مع فريق من حرسه الخاص إلى ضاحية (فايس) Weisse على مسافة عشرين ميلاً من ميونخ ، حيث كان يقيم (إرنست روم) وغيره من زعماء (الهجوم) يقضون عطلتهم ويستعدون في الوقت ذاته لحضور اجتماع كان من المزمع عقده في اليوم التالي بحضور (الفوهرر) نفسه . وفي الساعة السادسة صباحاً بلغ هتلر وجماعته المكان الذي كان فيه (روم) فأيقظوه من نومه وقبضوا عليه بحضور هتلر ، ثم اقتحموا في جناح آخر غرفة أخرى كان يقيم بها (آدموند هاينس) Heines مع رفيق له ، هو سائق سيارته ، وقد وجدا معاً في فراش واحد ، فأطلق المقتحمون عليهما الرصاص . وفي ميونخ نفسها استولى (ردولف هيس) Hess على « البيت الأسمر » مقر النازيين في هذه المدينة ، ووضع به حراساً من جند الحرس S.S. ، كما ألقي القبض في ذلك اليوم على عدد آخر من زعماء جند الهجوم في ميونخ وفي (فايس) . أما (روم) فقد أُلقي في السجن وأعطى مسدساً يفتح به ، واسكنه رفض مصماً على أن يكون موته على يد هتلر نفسه ، وعندئذ أطلق عليه جند الحرس الرصاص وقتلوه في عصر اليوم التالي (أول يولييه ١٩٣٤) .

وأما بقية فصول هذه المأساة ، فقد تولى كل من جورج و هيملر تمثيلها في برلين العاصمة . إذ انتهز الرجلان هذه الفرصة لاغتيال أعدائهما القدماء وكل من رغبا في التخلص منه لسبب شخصي ، وعلى هذا قتل جند الحرس عدداً كبيراً من زعماء الكاثوليك والقواد والوزراء السابقين ورجال الأكليروس وغيرهم . كما قبض الجستابو في يوم ٣٠ يونيه على (كارل إرنست) من زعماء جند الهجوم ومن أقرب المقربين إلى (روم) ، وكان (كارل إرنست) في برلين في طريقه إلى (الآزورا) لتضية شهر العسل مع عروسه ، فخلوه بالطائرة إلى برلين وأعدموه رمياً بالرصاص . وبما هو جدير بالذكر أن هؤلاء جميعاً لقوا حتفهم وهم

ينادون ، يحيا هتلر ! ، مما يدل على أنهم ما كانوا قط يتوقعون الغدر من جانبه . وما يدحض مفتريات الفوهرر حين ادعى فيما بعد أن جميع هؤلاء كانوا يدبرون ثورة داخلية حددوا لاشعالها اليوم نفسه الذى أوقع فيه الفوهرر هذه المجزرة الدموية بهم . وكان من بين ضحايا هذا التطهير الدموى ، رئيس حكومة بشاريا القديم (جوستاف فون كار) Kahr الذى كان من بين المتسببين فى إخفاق حركة الانقلاب ، التى قام بها الهتلريون فى ميونخ فى ٩ نوفمبر ١٩٢٣ . فرغم سنه المتقدمة (٦٣ عاما) أرسله النازيون إلى معسكر الاعتقال فى (داشو) Dachau حيث لقي حتفه بعد تعذيب أليم ، وكذلك لقي (جريجور ستراسر) مصرعه فى منزله . كما قتل الأب ستامפל Stampfle وهو القسيس الذى ساعد الهر هتلر فى تدوين كتابه (كفاحى) ، والجنرال فون شليخر ، قتله الجستابو الذين هاجموا فى منزله كما قتلوا زوجه التى أرادت حمايته . وكان عدد الذين أعدموا فى (حمام الدم) المشنوم يزيد على الألف وهكذا قضى الهر هتلر على جنود الهجوم وحل تنظيماتهم .

وكان من عوامل نجاح الهر هتلر فى التغلب على جنود الهجوم ونشر الرعب والإرهاب فى ألمانيا وبخاصة فى أثناء أزمة حمام الدم السابقة أنه استطاع منذ وصوله إلى منصب المستشارية إعداد ، بوليس الدولة السرى الألمانى ، المعروف باسم الجستابو Gestapo - مختصر Geheime Staatspolizei - على أن تكون مهمته القضاء على جميع المعارضين لشخص الفوهرر وانشظام الديكتاتورية النازية .

وكان تأسيس الجستابو على يد هرمان جورج فى ابريل ١٩٣٣ ، على أن يكون نشاط رجاله مقصورا على بروسيا وحدها ، وكان جورج فى ذلك الحين يتولى رئاسة الوزارة بها إلى جانب وظائفه الأخرى المتنوعة ، هذا بينما كلفت قوات البوليس السياسى فى « ولايات » الاتحاد الألمانى الأخرى بتأدية أعمال وواجبات البوليس الوطنى الاشتراكى السرى . بيد أن المدة التى ظل الجستابو فى أثناءها مخصصا للعمل فى بروسيا كانت قصيرة . وقد أصدر النازيون عدة قوانين لتنظيم شئون التوظيف فى الاتحاد الألمانى أقصى بمقتضاها غير الآريين والمعروفون بعدائهم أو معارضتهم للنازية وجميع المشتبه فى أمرهم من الوظائف التى يشغلونها ، كما أوجدت هذه القوانين نوعا من التنسيق الدقيق بين المؤسسات العامة والخاصة مطابقة لما تدعو إليه تعاليم الوطنية الاشتراكية والفلسفة النازية . ثم عين بمقتضى أحد هذه القوانين ويسمى قانون الوصاية Statthaltergesetz حكام أو (أوصياء) Reichsstatt halter يتراوح عددهم بين اثنى عشر وأربعة عشر حاكما مسئولين أمام الزعيم أدولف هتلر نفسه ،

وقد ضمن وجودهم في الحكومات الاقليمية ، أى حكومات ولايات الاتحاد ، استخدام الشرطة لمصلحة النازيين . ومما ينبغى ذكره أن هؤلاء الحكام ، أو الأوصياء ، كانوا غير القادة أو الزعماء الذين كان الحزب النازى نفسه يختارهم للإشراف على نشاط الحزب وإدارته في (المناطق الحزبية) التى أوجدها الهتلريون فى ألمانيا ويسمى هؤلاء بـ زعماء الأقاليم ، (Gauleiter)

ومع وجود هذه التنظيمات أدرك النازيون أهمية تعزيز السلطة المركزية الداخلية ، فانتزها فرصة مرور عام على وصول أدولف هتلر إلى منصب المستشارية وأنشأوا نظاما جديدا فى ٣٠ يناير سنة ١٩٣٤ ، وضع (البوليس) بمقتضاه تحت إشراف الريخ ، وجعل الاشراف على إدارته من نصيب ولايات الاتحاد الألماني ، وهى التى أصبحت منذ صدور (قانون الوصاية) السابق عبارة عن مقاطعات إدارية ليس غير . ثم ظل (بوليس) الريخ الألماني الجديد مفتقرا إلى زعيم مستقل بالهيمنة على شئونه ، غير وزير الريخ للشئون الداخلية الذى يعد بحكم منصبه مسئولا عن هذه القوة ، حتى عين (هنريك هيملر) فى أبريل ١٩٣٤ رئيساً لأهم فروع هذا البوليس ، وهو الجستابو . وكان هيملر ممن اشتركوا فى تنظيم (جنود الحرس) S.S. ، ثم عين زعيما لهم فى عام ١٩٢٩ ، كما أنه كان من كبار النازيين الذين قاموا بتنظيم المخابرات السرية فى داخل ألمانيا وفى البلدان الأجنبية ، ثم لم يلبث أن عهد إليه بسبب هذه الخبرة الواسعة برئاسة البوليس السياسى فى نوفمبر ١٩٣٣ أولا فى همبرج ثم فى مكلنبرج ولوبك ، وثورينجيا ، وهيس ، وبادن ، وسكسونيا ، ثم عينه (جورج) رئيسا للبوليس السرى فى حكومة بروسيا ، وهكذا بعد مضى أقل من ثلاثة شهور على وضع « البوليس » تحت إشراف الريخ ، عين هنريك هيملر رئيساً « للبوليس السرى » ، فى دولة الريخ قاطبة . وفى أثناء حوادث (حمام الدم) المعروفة ، كان هيملر رئيس قوة الجستابو الرهيبة .

وظل الجستابو يعمل دون أن يحدد القانون وظائف رجاله ؛ بل كان كل ما حدث فى هذه الناحية ، أن صدرت قرارات أو مراسيم بالموافقة على إجراءات ما يعرف باسم (الحبس الوقائى) فى ٢٨ فبراير ١٩٣٣ و ٨ مارس ١٩٣٤ ، كما قررت محكمة الادارة البروسيانة فى ٢ مايو ١٩٣٥ أن « البوليس السرى » لا يخضع للرقابة القضائية ، ثم لم يلبث أن تأيد هذا الحكم بصدور قانون بروسياى جديد فى ١٠ فبراير ١٩٣٦ ، جاء فيه « أن أوامر وأعمال البوليس السرى لا تدخل تحت إشراف المحاكم الادارية ، أو فى دائرة بحثها » . وهكذا ظلت جميع الشئون المتعلقة بنشاط الجستابو لا يوضح معالمها أو يبين حدودها قانون فى دولة الريخ الثالث . بل إن كل ما صدر فى هذا الموضوع كان لا يخرج عن تحديد مركز هيملر إزاء

وزير داخلية الريخ من حيث مسؤولية رئيس الجستابو أمامه ، وتعيينه نائباً له في حالة غياب الوزير . وزيادة على ذلك ، أعطى هيملر مقدماً في مجلس الوزارة كلها اجتماع الوزراء لبحث المسائل المتعلقة بأعمال « البوليس » .

ولعل أهم ما يلاحظ في ذلك كله ، أن الجستابو كان مستقلاً كل الاستقلال عن الرقابة القضائية . وقد تقدم كيف قضت المحكمة الإدارية البروسانية في ٢ مايو ١٩٣٥ بعدم خضوع البوليس السرى لهذه الرقابة . وجاء في هذا الحكم أيضاً أن أى أمر يصدره الجستابو بسجن الأفراد في (الحبس الوقائى) لا يمكن بأى حال من الأحوال أن يكون موضع معارضة في المحاكم القانونية . ثم تأيد هذا الحكم في الفترة التالية ، عندما صدرت أحكام أخرى بهذا المعنى أيضاً في عام ١٩٣٦ . وفي نفس العام صدر قانون مشهور وضع أعمال الجستابو ومدى نشاطه ، جاء في هذا القانون ما معناه : « أن من واجب بوليس الدولة السرى أن يكشف أمر جميع القوى المتضامنة التي يعتبر وجودها خطراً على الدولة وأن يقاومها . ومن واجبه كذلك أن يجمع ويصدر النتائج التي يسفر عنها هذا البحث ، على أن يخبر الحكومة بهذه النتائج ، وأن يضع تحت تصرفها كل ما يجمعه من أدلة وبراهين . ثم يفصل رئيس بوليس الدولة السرى بالاتفاق مع وزير الداخلية في المسائل التي ينبغي أن تكون العناية بها من نصيب بوليس الدولة السرى ، وعلى أن يجرى الفصل في كل مسألة على حدة » .

ووسائل الجستابو في أعماله ثلاث : الإنذار أو التحذير ، والحبس الوقائى ، والإرسال إلى معسكرات الاعتقال . وقد جرت العادة عند الرغبة في التحذير ، أن يستدعى الشخص المراد إنذاره إلى أقرب مركز للبوليس السرى ، ويتلو الجستابو عليه بعض الحقائق المتعلقة بحياته الخاصة ، وما يكون قد تفوه به من أقوال لا يرضى الجستابو عنها ، ثم يحذره من العودة إلى ذلك وإلا أرسل إلى معسكر للاعتقال . أما مسألة (الحبس الوقائى) — فهي بحاجة إلى شيء من البيان والتفسير . والأصل في الحبس الوقائى أنه كان مخصصاً لوقاية الأفراد الذين لم يرتكبوا جرمًا معيناً ، وإنما توصلوا بسبب مسلكهم إلى إثارة كراهية الجماهير ضدهم إلى حد يخشى معه أن يلحق بهم مكروه على أيدي الجماهير لو أنهم تركوا وشأنهم ، فلا يجد الشرطة مناصاً في هذه الحالة من حجزهم في مركز « البوليس » لوقايتهم من سخط الجماهير عليهم . غير أنه عندما وصل الوطنيون الاشتراكيون إلى الحكم قبض رجال الشرطة على عدد عظيم من الأفراد وأودعهم الحبس الوقائى من غير ضرورة تدعو إلى ذلك ، ومن غير أن تتحقق الشروط المتقدمة في أحوال المقبوض عليهم . وعلى هذا خرج الحبس الوقائى عن كونه إجراء تقتضيه حماية الأفراد من بطش الجماهير ، إلى

إجراء صار الغرض منه مجرد « حماية » الدولة من نشاط أفراد اعتبرهم النازيون أعداء لهم . أما معسكرات الاعتقال فكانت أشد الوسائل خطراً . وكثيراً ما لجأ إليها الجستابو للقضاء على أعداء النظام النازي في ألمانيا . ومع أنه كان من المتعذر وقتئذ معرفة عدد هذه المعسكرات بالدقة ، فقد اكتسبت بعضها شهرة سيئة كبيرة حتى أصبحت أما كمها معروفة . ومن بينها معسكر الاعتقال في (أراينبرج) Oranienburg ثم في (بوشنفلد) Buchenwald و (داشو) Dachau و (ساشسهاوسن) Sachsenhausen وغيرها . وكان من بين هذه المعسكرات ما هو مخصص لاعتقال النساء .

ومع أن نظام الجستابو كان من الأسرار التي حرص النازيون على عدم إفشائها بحيث لم يكن يعرف دخائله سوى عدد قليل من كبار الزعماء النازيين أنفسهم ، فقد استطاع أنصار المقاومة الخفية في أوروبا النازية الوقوف على حقيقة هذا النظام الذي كان من نتائجه انتشار وكلاء الجستابو للتجسس على حياة الأفراد الخاصة والعامة في كل ركن وزاوية .

وكانت قوة الجستابو موزعة على دوائر (Kreise) ثلاث : الدائرة الأولى Kreis I كان مقرها شارع البرنس إلبرت في برلين ؛ وكانت فروعها منتشرة في أرجاء ألمانيا ، وهي الهيئة التنفيذية لقوة البوليس السرى المخصصة للتجسس على الشؤون الداخلية ، وكان رجالها ينشئون في كل قرية ، ويشرفون على أعمال البوليس العادى — أى رجال الأمن المحلى . كما كان من اختصاص هذه الدائرة المهمة على معسكرات الاعتقال .

أما الدائرة الثانية Kreis II فكان مقرها في ميدان اسكندر ، وكانت تختص بالإشراف على أعمال ونشاط الدائرة الأولى ، وتولى « مراقبة » البريد والتليفون والبرق وينتشر رجالها على حدود الريخ ، وفي مكاتب السياحة والسفر ، وفي المطارات المدنية ، والفنادق الكبيرة . وزيادة على ذلك كانت هذه الدائرة تتولى الإشراف على جميع الوكلاء وأعضاء الهيئات النازية في الخارج ، كما تقوم بتوجيه نشاطهم ، فكان يذهب في كل ثلاثة شهور مفتشون يمثلون هذه الدائرة لزيارة المراكز الفرعية الموزعة في أنحاء العالم ، وكان (الجستابو الأجنبى) منفصلاً كل الانفصال عن البعث والهيئات الدبلوماسية العادية . ولو أن كل سفارة أو مفوضية أو قنصلية في البلدان الأجنبية لم تكن تخلو من وجود رجل من الجستابو يعمل ضمن موظفيها . وفي الدائرة الثالثة Kreis III كانت تتركز سلطة الإشراف التام على نشاط الجستابو في الدائرتين السابقتين ، وكانت هذه السلطة في أيدي جماعة من ذوى الشخصيات المجهولة . ومن المعتقد أنهم كانوا يتلقون تعليماتهم من مكتب هنريك هيملر نفسه ، وهو مقر جنود الحرس S.S. المخصصين لحراسة مستشار الريخ — ورئيس الدولة — بعد أن توفي هيندنبرج في ٢

أغسطس ١٩٣٤ — وكانت مهمة أعضاء الدائرة الثالثة إلى جانب الإشراف على أعمال الدائرتين الأولى والثانية ملاحظة سلوك موظفي الحكومة قاطبة بما في ذلك المبعوثين السياسيين والعسكريين في الخارج ، ومراقبة نشاط الهيئات الدبلوماسية والقنصلية في البلدان الأجنبية . وإلى جانب هذه الدوائر ، كانت هناك دائرة رابعة Kreis IV تعمل على توجيه نشاط وكلاء الطابور الخامس في أنحاء العالم ، على أن تتعاون في ذلك مع قسم الجاسوسية العسكرية برئاسة الكولونيل نيكولاى (Nicolai) وكان من ذوي السمعة السيئة .

البُصْل السَّابِع

ألمانيا النازية

سيطر النازيون بفضل تنظيياتهم الحزبية على الحياة الألمانية سيطرة كاملة ، وكان غرضهم من هذه السيطرة أن يؤلفوا من الرينخ تلك الكتلة الصلدة المتماسكة التي اعتبروا وجودها ضروريا من أجل إحراز السيطرة على القارة الأوروبية ثم على بقية العالم في النهاية ولا ريب في أن النازيين نجحوا في فرض سلطانهم على ألمانيا . ولو أنه من المشكوك فيه — أنهم نجحوا في تأليف تلك الكتلة الصلدة المتماسكة التي كانوا يحلمون بها . وقد أفضى العمل على فرض سلطانهم على الرينخ إلى التدخل في حياة الأفراد ، رجاء أن يتمكنوا من توجيه الحياة العامة في ألمانيا حتى تسير في طريق واحد وعلى أسلوب واحد ثم يقضون في أثناء ذلك على كل معارضة أو تذرر ويسعون لخلق الفرد الألماني الذي يبعثون خلقه من جديد وفق الطراز النازي الصميم ، أي الفرد الذي لا يستطيع أن يتذوق طعم السعادة الحقيقية الخاصة إلا بالاندماج أو الفناء في شخص الدولة التي يهيمن الزعيم على شئونها ومصيرها .

ولما كان إحكام هذه السيطرة الداخلية من أول الأسس التي أراد النازيون أن يشيدوا عليها صرح السلطة في داخل ألمانيا وخارجها ، فقد وضعوا نصب أعينهم منذ أن خلص الحكم لهم التدخل في حياة الفرد والأسرة . ومهر هذا التدخل في مراحل معينة ، فنشط النازيون في أول الأمر ببعث فرض رقابتهم الدقيقة على حياة أعضاء الحزب النازي الخاصة حتى ينشئوا أعضاء الحزب تنشئة نازية خالصة صحيحة ، ويقصوا من صفوف الحزب كل المشتبه في ولائهم لتعاليم النازية ولشخص الزعيم . لذلك لم يكد النازيون يطمثون إلى خلوص الحزب من كل شائبته حتى طفقوا يتدخلون في حياة بقية المواطنين ومنذ بداية شهر مايو عام ١٩٣٦ اتسعت سلطة الزعماء السياسيين حتى شملت كل مواطني دولة الرينخ . وكانت فترة هذه المرحلة طويلة — وهي مرحلة بدأت في الحقيقة منذ وصول النازيين إلى الحكم في عام ١٩٣٣ ، وامتدت إلى وقت نشوب الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٣٩ . وفي أثناءها بذل النازيون كل جهودهم حتى يعمموا المبادئ والتعاليم النازية ويطبقونها في مناحي الحياة جميعها من خاصة وعامة ، ثم صاروا يعملون على تنظيم المجتمع الألماني وفق « توجيه موحد » ، كاف الغرض المقصود منه أن يصبح الرينخ الثالث مستعداً لخوض غمار الحرب في النهاية من أجل بسط السيطرة الجرمانية على أوروبا ثم على العالم أجمع .

بيد أن اشتعال الحرب لم يلبث أن أفضى إلى زيادة توغل النازيين وتدخلهم في حياة الأفراد الخاصة ، حتى يشتد إحكام ، التوجيه الموحد ، ويقوى الانتاج الحزبي إلى الدرجة المطلوبة من جهة ، وحتى يمتنع على الأهليين أى سبيل للتذمر أو المعارضة الداخلية من جهة أخرى ، ولذلك فقد سامت حياة الفرد العادى في أثناء هذه المرحلة إلى حد كبير وسرعان ما اشتد طغيان النازيين ، وبخاصة منذ بدأت حربهم مع روسيا (في يونيه ١٩٤١) ، حتى تحطمت حياة الفرد الخاصة تحطيا ، وعبأت الدولة الكحول والنساء في خدمة الحرب وتذوق الألمان طعم الهزيمة في الميادين الروسية ، ثم أصابهم الدمار في بلادهم عندما أخذت أسراب الطائرات البريطانية والأمريكية تلقى على مدنها الصناعية الكبيرة أطنان القذائف المحرقة والمدمرة دون رفق أو شفقة . وفي هذا الدور الأخير كان قد بلغ السيل الزبى وعجز الأفراد عن أن يحتملوا أكثر مما أرغموا على تحمله من تضحية بالغة طوال السنين الماضية ، واضطر النازيون اضطراراً إزاء ذلك كله إلى الاعتراف بوجود ما أطلقوا عليه هم أنفسهم اسم « الجبهة الداخلية » أى الجبهة التى كان عمادها سواد الشعب الألماني المتذمر من ثقل التضحيات التى تحملها على غير طائل .

ومنشأ سيطرة النازيين على حياة الأفراد الخاصة والعامة في ألمانيا أن زعماءهم وقادتهم كانوا يعتبرون أن من واجهم الإشراف على نشاط الأفراد وتوجيه هذا النشاط الوجهة التى يريدونها ، لأن الأفراد إذا تركوا وشأنهم كانوا فى نظرهم كالأطفال الذين لا يعرفون غير اللهو والعبث ، ولا يمكن أن يقدرُوا ما فيه مصلحتهم أو يصرفوا نشاطهم فى وجوه غير التى تطلبها أو ترتضيها الدولة ، هذا بينما كان إفناء الفرد فى الدولة من المبادئ الأساسية فى نظام الوطنية الاشتراكية وقد قال الدكتور (لى) Ley زعيم جبهة العمل ، ما معناه . « إن الأفراد الذين يتألف منهم كل شعب أطفال ، ولذلك ينبغى أن يعاملوا كما يعامل الأطفال سواء بسواء » إلى أن قال . « وعلى السياسى أن يشرف بنفسه على كل شئ » ، وقد استطاع النازيون أن يستأثروا بهذا الإشراف والتوجيه كل الاستئثار ؛ فاعترف الدكتور (لى) . « بأنهم — أى أتباع هتلر — قد أوجدوا زعامة تعهدوها حتى أضحي من الممكن أن تقوم هذه الزعامة بفحص حالة كل مواطن مهما صغر شأنه ، وإرشاده إلى الطريق الذى ينبغى عليه أن يسلكه فى حياته وفق أسباب معقولة » ولم يكن (لى) مغاليا فيما ذهب إليه أو اعترف به . لأن هذا الفحص وذلك الإرشاد ، أو بالأحرى إرغام المواطن على أن يسلك مسلكا معينا فى حياته الخاصة والعامة ، هو ما كان يقوم به النازيون بالفعل فى دوائهم الوطنية الاشتراكية ويسوغ (لى) نفسه هذه السيطرة المرهقة بقوله ، واصفا الثورة النازية بأنها . « ثورة شاملة وينبغى

أن تكون شاملة ، ولا يمكن أن تجيز استثناء ولو رغب أصحابها ومنشئوها في ذلك ، ولذلك لم يكن هناك مكان لما يصح أن يوصف بالفرد العادى فى ألمانيا الوطنية الاشتراكية . بل إن الفرد فى دولة أدولف هتلر ، ما كان فى وسعه أن يستمتع بحياته الخاصة إلا وقت النوم فحسب إذ مضى العهد الذى يمكن أن يقال فيه أن هناك شئونا خاصة فى ألمانيا .

وهذه المبادئ هى التى طبقها النازيون فى دولتهم بكل دقة . ولم يلجأ النازيون إلى الموارد لإخفاء ما كانوا يريدون ؛ بل أعلن الدكتور (لى) تأييداً لإشراف الدولة — أى الحزب النازى نفسه — على حياة الأفراد : « أن من الواجب على كل فرد أن ينضم إلى صفوفنا ويسير معنا ، ومن واجبه أن يقبل العمل بالروح المتغلبة علينا ويرضى به ، وإلا تعذر عليه تماماً أن يجد هواه يستنشقه ؛ لأننا سوف نخرمه أية فرصة تمكنه من كسب عيشه ، بل ندعه يموت ويفنى . وإذا قال قائل أنه يريد أن يترك وشأنه ليعيش فى سلام أجنبناه بالنفى دائماً . وقلنا له كلا يا صديق ، فإني لن أفكر فى فعل شئ من هذا مطلقاً . والواقع أن الدكتور (لى) كان يعنى ما يقول ؛ إذ من المعروف أنه كان لديه حوالى المليون من الرجال المنتشرين فى كل نواحي البلاد مهمتهم الأولى الحرص على تطبيق ما قاله زعيم جبهة العمل فى الريح الثالث .

ولما كانت هذه مبادئ النازية وتعاليمها ، ولم يكن مسموحاً للأفراد أن يتخلفوا فى الطريق حتى يحياوا الحياة التى يريدونها ، عنى النازيون من مبدأ الأمر بضرورة القضاء على كل معارضة من شأنها عرقلة سير هذا النظام الوطنى الاشتراكى ، وضربوا بيد من حديد على كل مخالفة داخلية منذ خلع لهم الحكم فى ألمانيا . فقد تسام وزير دعاوتهم المعروف الهر جوبلز فى خطاب ألقاه فى نوفمبر ١٩٣٤ : « عن أولئك الذين ينتقدون النظام القائم » . فقال « هل هم من أعضاء الحزب النازى ؟ كلا ! هل هم إذن بقية الشعب الألمانى ؟ إذا كان الأمر كذلك فخليق بهم أن يعدوا أنفسهم سعداء لأنهم لا يزالون على قيد الحياة ! الواقع أنه من المتعذر كل التعذر أن يطمع إنسان يعيش بفضل ما نظره من رحمة عليه ، فى أن نسمح له بتوجيه النقد إلينا » . ورغبة فى أن يقضى النازيون على كل أثر للمعارضة أو التذمر اعتبرت (محكمة الريح العليا) أى نقد يوجه للنظام القائم من الأمور التى تدخل تحت طائلة القانون ، وتقضى عند الإدانة توقيع العقوبة الصارمة ، سواء أكان هذا النقد أو التجريح أو التعريض فى دائرة الأسرة وبين جدران البيت بين الزوج وزوجه أو الوالد وولده ، أم كان علانية فى محل عام . بل إن هذه المحكمة العليا لم تلبث أن ذهبت فى سبتمبر ١٩٣٧ إلى أنه من واجب الأفراد أن يتحللوا من أية يمين أقسموها على كتمان حديث دار سرّاً وتناول المتحدث فى أثناءه النظام القائم أو نشاط المهيمنين على شئون الشعب بالنقد أو التجريح : كما ذهبت إلى أنه من حقها

توقيع العقوبة في الحالات التي يثبت فيها أن المتحدث لم يكن يريد التشهير بالنظام القائم أو بأشخاص المسؤولين عن هذا النظام أو بأعمالهم ونشاطهم . ومن الطريف أن المحكمة العليا قضت بعدم إنزال العقوبة بالأشخاص الذين يثبت أنهم كانوا يتحدثون إلى أنفسهم ولا يقصدون إذاعة شيء مما يقولون ، ولا يرومون أن يسمع أحدا ما يتحدثون به إلى أنفسهم ، وكذلك أولئك الذين يدونون انتقاداتهم في مذكرات أو يوميات خاصة ، ولا يحتفظون بها من أجل نشرها ، ثم وقعت هذه المذكرات أو اليوميات بطريق المصادفة أو الإهمال في أيدي غيرهم . ومع هذا كان (الجستابو) يأخذ برأى مخالف لما ذهب إليه المحاكم في هذه البشونات وما يماثلها . وقد تقدم كيف سيطر الجستابو سيطرة تامة على الحياة في ألمانيا حتى صار لا يمكن أن يفلت من قبضته إنسان .

وكان من أثر ذلك أنه لم يعد في ألمانيا وجود حياة خاصة ، في البيت أو الأسرة ، كما انعدمت الحياة الحرة الطليقة التي تكفل حرية الرأي والفكر والعمل . ومن أقوال بعض الذين درسوا هذا الموضوع في ألمانيا النازية قبل الحرب ، أن تدخل النازيين في حياة الفرد إنما يبدأ في الحقيقة قبل أن يولد ويخرج إلى عالم الوجود ، ثم يظل هذا التدخل باقياً حتى بعد وفاة الفرد وانتقاله إلى العالم الآخر ؛ لأن النازيين هم الذين يقررون هل ينبغي لك أن تولد أو لاتولد ، فهم الذين يقررون أى الأشخاص يصح له أن يتزوج أو لايتزوج ؛ وهم الذين يشترطون على من يرغب في الزواج ، ويصرح له بذلك ، أن يختار الزوج التي يرون أنها تصلح له ؛ وهم الذين يقررون إذا كان ينبغي للزوج أن يكون له نسل أو لا يكون ؛ كما أنهم يقررون مصير من يرونهم غير صالحين للزواج ، فيقتلونهم أو يخصوصهم أو يعقمونهم . وليس أدل على مبلغ صحة هذا القول من النظر في حياة أسرة عادية في ألمانيا النازية .

* * *

وفي التنظيم النازي تحتل الأسرة مكاناً ممتازاً ، لا لأن النازيين يعنون بدعم أركانها على اعتبار أنها الأساس الذي يقوم عليه بنيان المجتمع ، وإنما يعنى النازيون بأمر الأسرة من وجهة نظر محدودة ، إذ يعتبرونها مجرد « أداة » تمسكهم إذا أحكموا الإشراف عليها ، وسيطروا على حياة أعضائها ، من بنيان النظام الوطني الاشتراكي الذي ينشدونه ، وهو نظام كما تقدم القول ، يرمى إلى إفناء الأسرة في شخص الدولة ، وإفناء الفرد في شخص الزعيم تحقيقاً في نهاية الأمر لمبدأ الزعامة المسؤولة . ومن هذه الناحية وحدها نشأ اهتمام النازيين بأمر الأسرة . فإذا عرف أن من برنامج النازيين لتحقيق سيطرتهم الأوروبية والعالمية ، أنه ينبغي من مبدأ الأمر تأليف كتلة صلبة متماسكة في قلب الرخ الألماني ، أصبح من الميسور إدراك

ما للأسرة من أهمية في نظامهم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى . إذ كيف يتسنى لهم إنشاء ذلك المجتمع النازى المتناسك في قلب ألمانيا إذا ظل أعضاء كل أسرة أحراراً طليقيين ، يعيشون ويفكرون ، ويعملون كما يشاءون ؟ لذلك لم يكذب يتسلم النازيون أزمة الحكم في ألمانيا حتى شرعوا ينظمون حياة الأسرة تنظيمًا دقيقًا ، ارتبط منذ البداية بالخطط والقواعد التي وضعوها لدعم النظام الجديد ، الذى أكثروا من الدعاية له عندما أحرزوا انتصاراتهم الخاطفة في القارة الأوروبية ، بينما لم يكن هذا النظام جديدًا في الحقيقة ، بل عرفه الأهلون أنفسهم وتذوقوا طعمه في ألمانيا ذاتها ، قبل أن يطبقه النازيون في بقية أرجاء أوروبا المفتوحة بمن طويل .

وكان معنى الإشراف على تنظيم حياة الأسرة ، تدخل الدولة — أو بالأحرى الحزب النازى نفسه — في شؤون الزواج ، وتربية الأطفال والناشئة ، والصحة العامة ، كما اقتضى هذا التدخل بحث مركز المرأة ، وتحديد العلاقة بين المرأة والرجل ، وتنظيم حياة الأسرة من الناحية الاقتصادية أيضا لتعيين مقدار حاجاتها من مأكل وملبس ومأوى وما إلى ذلك من مطالب . على أن هذا التنظيم لم يكن سهلا هينا ؛ لأنه كان يرتبط في الحقيقة بجميع المسائل والمعضلات الاجتماعية الاقتصادية التي واجهت النازيين من أول الأمر : وأهمها مسائل الآرية واليهودية ، وتحديد النسل أو الإكثار منه ، واحتقار المرأة أو الإعلاء من شأنها ، واجازة العلاقات الجنسية الشاذة أو تشجيع الزواج ، إلى غير ذلك .

ولعل أدق المشكلات التي كانت تواجه الفرد الألماني العادى في دولة النازيين ، هي مشكلة زواجه ولما كان من المتعذر الإفاضة في بحث فكرة الزواج ومنشئها البيولوجى أو الاجتماعى ، وتطورها في مختلف العصور ، فقد يكفي أن يذكر القارىء أن الزواج في المجتمع الألماني ، قبل وصول النازيين إلى الحكم ، كان يتم بناء على الرغبة المتبادلة بين الرجل والمرأة على أساس اتفاق الميول أو العاطفة أو المصلحة . ولكنه لما كان الزواج هو الأساس الذى يمهّد لقيام الأسرة والرباط الوثيق الذى يحفظها ، لم يرض النازيون بأن يظل الزواج من المسائل الشخصية المتروكة لتدبير الراغبين فيه ، بل جعلوا للزواج مقاييس جديدة ، جنسية ، واجتماعية وعقلية ، وجنائية وخلقية ، بدعوى أن ملاحظة هذه المقاييس من الأمور التي تعنى الدولة ذاتها قبل أن تعنى الأفراد ، لأن مهمة الدولة في النظام النازى الجديد ، إنما هي السهر على أعداد مجتمع وطنى اشتراكى صميم ؛ وينبغى لذلك أن تتوافر في الأفراد الذين يتألف منهم هذا المجتمع صفات جنائية وجنسية وعقلية وخلقية خاصة . لذلك سرعان ما أصدر النازيون في هذا الشأن قانونا أسموه « قانون المحافظة على صحة الشعب الألماني الوراثة » . واشتهر هذا القانون باسم « قانون الصحة والزواج » .

وبمقتضى هذا القانون أنشئت رقابة صارمة على الزواج ؛ فتمنع من الاستمتاع به كل مصاب بعاهة جثمانية أو عقلية أو انحلال خلق ؛ ثم تحتم في الوقت نفسه على كل راغب في الزواج أن يحصل مقدما على « شهادة صلاحية للزواج » . وهذه الشهادات كانت تصدرها السلطات المسؤولة عن الصحة العامة — أو مكاتب الصحة العمومية — ولم تكن تعطى لمن يطلبها إلا إذا فحص فحسا دقيقا وأجاب على عدة أسئلة تتعلق بحالته الشخصية ، وبحال أمرته . ومن المسائل التي كان يفحصها « الممتحنون » ، وينبغي تدوينها في « شهادة صلاحية الزواج » — أو رخصة الزواج مقدار نحو الشخص الجثافي ، وتوزيع الدهن في جسمه ، ونمو عضلاته ، ثم حياته الجنسية وحال أعضائه التناسلية وعدد مرات إخفاقه في أثناء دراسته ونواحى نموه العقلي وسن الطفولة التي أمكنه فيها أن يتكلم وأن يمشى وكذلك أمراض الطفولة ، ومقدار انكبابه على الكحول والتدخين ومدى قدرته على الانسال ، إلى غير ذلك من الأمور . وكانت جميع هذه التفاصيل تدون على أحد وجهى الرخصة المعطاة ؛ بينما يلصق على الوجه الآخر صورة شمسية نصفية لصاحب الرخصة .

أما الأشخاص الذين كانوا يحرمون بتاتا من الزواج — رجالا كانوا أم نساء — فهم الذين كانوا يدخلون بمقتضى قانون الصحة والزواج ، في زمرة جماعة من الجماعات الأربع الآتية . — (أولا) الأشخاص المصابون بأمراض معدية ؛ ويخشى أن يقضى زواجهم إلى نقل هذه الأمراض إلى زوجاتهم — أو أزواجهم — أو إلى أطفالهم ؛ (ثانيا) كل الموضوعين تحت الوصاية أو ما يماثلها ؛ (ثالثا) الأشخاص الذين — على الرغم من عدم وجودهم تحت نوع من أنواع الوصاية — يثبت أنهم مصابون باختلال أو ارتباك عقلي ، ويبدو من وجهة نظر المجتمع عموما في هذه الحالة ، أنه من غير المرغوب فيه زواجهم ، (رابعا) الأشخاص المصابون بأمراض وراثية . وزيادة على ذلك فإن المحاكم النازية عند تفسير هذا القانون ما لبثت أن أضافت جماعة خامسة حرم عليها الزواج ، ووصف أفرادها بأنهم من الذين يعتبر زواجهم مخالفا لروح القانون وأهدافه . مثال ذلك الرجل الذى صار عقيما . فانه لا يبغي له أن يتزوج من امرأة متمتعة بصحة طيبة وبقدرة كاملة على الانسال ، لأن الزواج في هذه الحالة لا يؤدي الغرض منه ، وهو إنتاج الأطفال الذين تحتاجهم الدولة .

وأما الأمراض المعدية فهى الزهري والحمى الصفراء والدفتريا والتيفوس ، والبرص والجدرى ، والطاعون ، والسل . وأما الموضوعون تحت الوصاية فهم أولئك الذين تقرر المحاكم عدم قدرتهم على إدارة شئونهم لاصابتهم بالخبل أو إمعانهم في السكر ، أو اسرافهم في الاقتراض والاستدانة ، وأما أفراد الجماعة الثالثة فهم المتهمون بالواط ، والاختلاط الجنسى

الشاذ مع النساء ، وهؤلاء يجب عليهم أن ينتظروا حتى يكتب لهم الشفاء التام من هذه الأدوية وكذلك الميالون إلى الإجرام أو الذين صدرت ضدهم أحكام بسبب القتل أو السرقة أو خطف الأطفال والأفراد .

ولعل أقسى ما في هذا القانون حرمان الطائفة الثانية من الزواج ، إذ كيف يتسنى تحديد مدى الاختلال أو الارتباك العقلي الذي يمنع صاحبه من الزواج إطلاقاً ، أضف إلى هذا أنه حتى في الحالات الأخرى ، ما تزال مسألة انتقال الأمراض أو العاهات بالوراثة من المعضلات التي يعالجها العلم ولم يصل فيها إلى رأى حاسم ، كما أنه لم يقدّم دليل قاطع على أن جميع الموضوعين تحت الوصاية أو ما يماثلها لا يصلحون للزواج . ومع هذا فقد تشدد النازيون في تنفيذ هذا القانون إلى حد أنهم صاروا يعتبرون كل زواج وقع مخالفاً لمقتضيات (قانون الصحة والزواج) كأنه لم يكن . وكل شخص يقدم على مخالفة هذا القانون يعاقب بالسجن مدة لا تقل عن ثلاثة شهور .

ولم يقنع الزعماء النازيون بإصدار هذا القانون ، كما أنهم لم يشاءوا أن يتركوا المحاكم تجري تطبيقه حسبما يبدو لها ، فطفقوا من ناحية أخرى يقسمون النساء الألمانيات الصالحات للزواج بمجموعات حسب صلاحيتهن البيولوجية ، فقال (ولتر داريه) **Walther Darré** وزير الزراعة في دولة الريخ ، وزعيم المزارعين أو الفلاحين ، مامعناه . « إن الألمانيات ينقسمن من هذه الناحية أربعة أقسام : فهناك نساء الدرجة الأولى ويسمح لهن بالزواج من الأشخاص الذين وصفهم (داريه) بأنهم يؤلفون طبقة الإشراف (النازية) الجديدة — وأما نساء الدرجة الثانية ، فهن اللواتي يسمح لهن بالزواج من هؤلاء الإشراف أو النبلاء ، إذا نجحن في خدمة المجتمع في فترة يوضعن في أثنائها تحت الاختبار — ولو أنه لم يبين نوع هذه الخدمة . وأما نساء الدرجة الثالثة ، فهن اللواتي يستطعن الزواج من رجال الفئة السفلى ، على أن تقوم الدولة في هذه الحالة بعقم هؤلاء الرجال حتى لا ينسلوا أطفالاً مشابهيهم لهم من الفئة السفلى . — وأما نساء الدرجة الرابعة ، فهن اللواتي لا يسمح لهن بالزواج أو الانسال إطلاقاً .

وكان جميع هذه القيود والاشتراطات لم تكن كافية ، فتحدثت إحدى المجلات النازية عن مقياس جديد للزواج ، هو مقدار ميل الفرد لغشيان المسارح والاهتمام أو الشغف بالألعاب الرياضية . هذا إلى جانب مقدار خلوص جنسه من الشوائب ، فقالت . « من الواجب على كل رجل آرى أن يتزوج من امرأة آرية شقراء ، ذات عينين واسعتين زرقاوين ووجه طويل بيضى الشكل ، جلدها أبيض مشرب بالحمرة ، لها أنف دقيق ، وفم صغير ،

كما يجب أن تكون هذه المرأة عذراء مهما كانت الظروف أى أن الرجل الأشقر صاحب العينين الزرقاوين لا ينبغي أن يتزوج من امرأة سمراء أو من امرأة من نوع نساء البحر الأبيض ذات سيقان قصيرة وشعر أسود وأنف معوج وشفاه غليظة وفم واسع ، تميل إلى البدانة . وكذلك فإن البطل الآرى الأشقر من واجبه ألا يتزوج من امرأة شبه زنجية ذات الرأس المعروف والجسم النحيف الهزيل ، وزيادة على هذا ، فإن البطل الآرى من واجبه أن يتزوج من امرأة آرية مساوية له ، على أن تكون هذه المرأة من غير المشغوفات بالذهاب إلى المسارح أو الحفلات أو المولعات بالألعاب الرياضية ، أو من اللواتي يملن إلى تمضية الوقت خارج بيوتهن .

وظاهر من جميع ما تقدم ان الغرض من هذه القيود الثقيلة هو أن يظل الجنس الألماني خالصا من كل شائبة فلا يتزوج الآرى إلا من آرية وبالعكس ، ثم إنشاء مجتمع نازى سليم العقل والجسم معا ، ولتحقيق هذا الغرض قسم النازيون أفراد المجتمع الألماني طبقات ثلاث أولاها طبقة ، النبلاء ، الجدد النازيين ، وهم أعضاء الحزب ، أو الأفراد الذين ينبغي ان يقوم على اكتشافهم تشييد الدولة الوطنية الاشتراكية الجديدة مثل جنود الحرس (S.S) . وهؤلاء كانوا — كما سنرى — مقيدين إلى جانب ما تقدم فى اختيار زوجاتهم بقيود صارمة أما الثانية طبقة العامة من الآريين ، بقية أفراد الدولة الذين يجب ان يخضعوا لمقتضيات قانون الصحة والزواج وما يتصل به من تفسيرات قاسية ، أما الثالثة طبقة الآريين — التى لا يصلح أفرادها أصلا للزواج ، او التى ينبغي ان يمنع اعضاؤها من ان ينسلوا إطلاقا إذا أيسح لهم أن يتزوجوا ، وهم يؤلفون الطبقة السفلى . وبما ينبغي ذكره ان النظام النازى الجديد لا يشترع لغير الآريين كالزنوج أو اليهود على وجه الخصوص فى داخل المانيا ذاتها لأنه لا يعترف بأنهم بشر لهم نفس الحقوق وعليهم نفس الواجبات التى لبقية أفراد المجتمع الألماني ، ولذلك عنى النازيون منذ البداية بمسائل ثلاث هى مسألة نقاء الجنس من الشوائب ، ويتصل بذلك اضطهاد اليهود والعمل على ابادتهم بشتى الوسائل ومسألة الصلاحية الجثمانية والعقلية ، ويؤدى بحثها إلى ذكر الوسائل التى كان يتبعها النازيون من أجل اقضاء غير الصالحين من أعضاء المجتمع الألماني ، وأخيرا مسألة دعم طبقة النبلاء النازيين الجديدة .

ولما كان الغرض الذى كان يرمى النازيون إلى تحقيقه من هذا كله ، إيجاد السكتلة الصلدة المتناسكة فى داخل الرنج ، تلك السكتلة التى لم يكن عن وجودها غنى فى نظرهم لبسط سيطرتهم العالمية فى النهاية ، فقد تفرع عن هذه المسائل الثلاث ، واتصل بها فى الوقت نفسه اتصالا وثيقا ، مسألتان أخريان ، هما ضرورة تحديد مركز المرأة فى المجتمع النازى وضرورة

الأكثار في النسل بشتى الوسائل حتى تجد الدولة الوطنية الاشتراكية « قوة بشرية » تستطيع بعد تنشئتها التنشئة النازية الصحيحة ، أن تستخدمها كأداة فعالة في بسط سلطانها على القارة الأوروبية وعلى بقية العالم في النهاية .

وكان من رأى مفكرى النازيين « أن نوع الجنس الذى ينتمى إليه الإنسان يؤثر في أعرق نزواته النفسية مهما كانت هذه النزوات لاشعورية ، كما أن من شأن هذا الأثر أن يتغلغل إلى أدق أجزاء المخ . وعلى ذلك يطبع الجنس خصائص الإنسان النفسية أو الروحية بطابع معين لا يمحى أثره كما يترك طابعه أيضا على مظهر الإنسان الخارجى ، فالجنس هو الذى يعين نوع الأفكار والإدراكات العقلية التى تكون من نصيب الإنسان ؛ وهو أيضا يعين مدى قوته ومدى غرائزه وميوله ، ويقرر نوع خلقه وطبيعة نفسه » .

وعلى هذه النظرية بنى النازيون أكثر مافى برنامجهم من قواعد ومطالب ، وعلى ضوءها ساروا في تطبيق مبدأ اختيار الصالحين للزواج وللانسال في دولة الريح الثالث . وقد قال فيلسوفهم (الفرد روزنبرج) أنه شديد الاعتقاد بأن الأجناس المختلفة شديدة التباين من حيث أثرها في تكوين الخلق ، ورسم السلوك ؛ كما أن هذا الأثر لا مندوحة عن ظهوره في نوع الموسيقى والرقص . إذ أن من المسلم به أن نوعا معينا من الموسيقى أو الرقص لا يمكن نقله من شعب اختص به إلى شعب من جنس آخر وكذلك الحال في أمر اللغة . . . وقد أقتفى أثر (روزنبرج) في هذا أيضا عالم آخر ، هو الدكتور (جردشهاك) Gerd Cehak فأعلن أن لكل جنس طريقته الخاصة في الكلام من حيث الاسراع أو الابطاء في إخراج اللفظ ، ثم في السير وفي الحركة ومن رأيه أن الجنس النوردى هو أبطأ الأجناس قاطبة في ذلك . وقد ترتب على الأخذ بنظرية التأثير الجنسى هذه القول بأن كل جنس من الأجناس المعروفة يميل إلى تفضيل ألوان معينة ، أى أن لكل جنس مزاجه اللونى الخاص فيميل النورديون كما يؤكد (الدكتور هانس جوتشر) Hans F.R Guenther إلى اللونين الأزرق والأخضر الخفيف أو الباهت ، بينما يفضل الجنس المعروف باسم (Westic) اللونين الأحمر والأصفر ، والجنس الدينارى الأخضر الغامق والأرجوانى والأوسيتيكى (Ostic) البنى والبنفسجى . وكذلك تختلف مقاييس الجمال باختلاف الأجناس ، فيذكر (روزنبرج) أن النورديين يميلون إلى طويل القامة النحيف ذى العينين الزرقاوين ، ومن رأيه أن الشعوب التى يفضل رجالها السمرات ، قد بدأ ينتشر بينها اختلاط الأجناس ، كما أنها في الحقيقة قد شرعت تسير بخطى حثيثة نحو الانحلال والفناء ، لأن السمرات لا يمكن أن

يكن نورديات بل هن سلالة جنس آخر . وهكذا حتى بلغ « الهذيان الجنسي ، درجة بعيدة فاستطاع (جوثر) وأمثاله أن يميزوا بين المرأة النوردية وغيرها — على حد قولهم — من جلستها ، فإذا ضمت السيدة ساقها وقت جلوسها كانت نوردية ، أما إذا فعلت عكس ذلك كانت (أوستيكية) ومن رأيهم أن الرجل الذي يفضل إرخاء لحيته كشيفة تملأ وجهه فهو نوردي . ويمتاز الآري على غيره بفتوته الجثمانية . وتفوقه على غيره بسبب ذلك في ميادين الرياضة ، وقد عظم اعتقاد النازيين بهذا النوع من التفوق إلى حد أن اهر هتلر رفض مصافحة الأبطال الرياضيين من غير الآريين — الذين تفوقوا في الألعاب الأولمبية التي جرت في ألمانيا في عام ١٩٣٦ ، وكذلك فإن الاقبال على النظافة من أهم صفات الآريين ، ولذلك يؤكد الدكتور (جوثر) أن الصابون وفرشاة الشعر اختراعا نورديان ولكن متى وأين نشأ هذا الجنس الآري المبجل المفضل ؟

يقول العلماء النازيون أن الجنس الآري أو النوردي وجد منذ أقدم الأزمنة في إقليم يبدأ من (لوبك) ويمتد صوب الشمال إلى (استكهولم) ثم صوب الجنوب إلى (برنزيك) ويتألف هذا الجنس من رجال أفذاذ أصحاب قامات فرعاء وسيقان طويلة ، نحاف الأجسام ، عريضى الكتفين ، ضيقى الحوضين ، شعرهم أشقر ، ولون بشرتهم أبيض ، وعيونهم زرقاء أو زرقاء رمادية في العادة وهو أفضل الاجتناس قاطبة ، وحامل لواء المدنية والحضارة في العالم ولهذا السبب نفسه ينبغي أن يبذل النازيون كل جهد من أجل أن يظل مخلدا باقيا وفي كتاب (كفاحي) شهد اهر هتلر بفضل الآري على العالم فكاتب ما معناه : « أن مانراه حولنا اليوم من ثقافة إنسانية وبروز في الفن والعلم والصناعة ، يكاد يكون برمته من نتاج الآري وحده . وإن هذه الحقيقة ذاتها هي التي تفسر قولنا بأن الآري وحده ، كان على وجه التأكيد موجد الحياة الإنسانية العليا . ولذلك فإن مانسميه الإنسان — أو المخلوق البشرى — إنما هو في الحقيقة هذا الآري ليس غير وعلى هذا فإذا قدر للآري الزوال من الوجود ، فإن الظلام الحالك سرعان ما يطبق على الأرض ، ومن المحتمل لذلك أن تختفي الحضارة الإنسانية في غضون ألوف قليلة من السنوات ، ويعود العالم إلى حالته الصحراوية السابقة . ثم لم يشأ اهر هتلر أن يقصر مسئولية الآريين على نشر الحضارة في أوروبا وأمريكا ، بل شاء خياله أن يجعل من الآريين والأوربيين والأمريكيين رسل الحضارة والمدنية في القارة الآسيوية أيضا ذلك بأنه عزا إليهم الفضل في إدخال المدنية إلى اليابان . وكان من رأيه أن الآريين هم الذين أوجدوا الثقافة اليابانية ، وأنه إذا قدر للآريين الانسحاب من اليابان ثم قطع صلتهن بها ، فإن اليابان لاتلبث أن تغط في نومها القديم الذي أيقظها الآريون منه .

وأمام هذا التجديد العظيم للآرية وللآريين ، يحق للقارىء أن يتساءل ، وماذا يا ترى تكون نسبة الآريين الخالص في المجتمع الألماني ؟

لقد أجاب على هذا السؤال الدكتور جوتنر فقال أن نسبتهم تتراوح بين ٦٪ و ٨٪ من مجموع الشعب الجرمانى ، وأنه من المحتمل أن تكون هذه في الواقع أعلى نسبة موجودة بين أى شعب على ظهر الأرض ، أضف إلى ذلك أن هذه النسبة تشمل جميع النورديين الموجودين في العالم . وظاهر أنها نسبة ضئيلة . ولذلك فقد أصبح من واجب النازيين أن يفكروا في أنجع الوسائل التي تحفظ هذا الجنس الرفيع الشأن من الانقراض لاسيما وقد اعتقد النازيون أنفسهم أن عدة مصائب قد نزلت بهذا الجنس النوردي منذ أزمنة قديمة لدرجة تهدد بحدوث أسوأ النتائج للشعب الجرمانى ، بل وللحضارة قاطبة إذا ظل الأمر غير متدارك بصورة فعالة . وكان النازيون يعزون أسباب هذه الشرور التي أفنت هذا المقدار العظيم من الجنس النوردي إلى الحروب التي خاض غمارها النورديون الشجعان على مر العصور فأفنت الأعداد العظيمة منهم . هذا إلى أن الريح الألمانية كثيراً ما كان يخسر أبناءه النورديين الذين آثروا الظروف متنوعة الخروج من أرض الوطن والهجرة إلى جهات أخرى ، كما أن النورديين الذين ظلوا في الريح كانوا معرضين للوفاة في سن باكورة بنسبة تفوق كثيراً نسبة الوفيات التي تحدث في هذه السن بين بقية الأهالي من الأجناس الأخرى ؛ على أن النورديين كانوا دائماً أقل قدرة على التناسل من غيرهم . بيد أن أشد الأخطار التي يتعرض لها الآريون ، منشؤها في زعم النازيين ، ما يحدث من اختلاط النورديين بغيرهم من الأجناس الوضيعة .

ولذلك فانه بينما ينحدر حوالى ٦٪ أو ٨٪ من الجرمانيين من الجنس الآرى أو النوردي الصميم ، فان نصف الشعب الجرمانى بأجمعه ما يزال يجرى في عروقه الدم النوردي ممزوجاً بدم الأجناس الأخرى . ولما كان من فضائل المرأة النوردية الاحتشام الشديد ، وكان اكتمال الانوثة أو الرجولة بين أفراد الشعب النوردي يتأخر وكان الرجل النوردي لا يتزوج من المرأة النوردية إلا في سن متقدمة نسبياً ، ولا ينسل المتزوجون سوى القليل من الأطفال ، فقد خشى علماء النازيين أمثال الدكتور جوتنر من احتمال اختفاء الجنس النوردي الخالص في نهاية الأمر . أضف إلى هذا خطر زواج النورديين من النساء السمراوات المتمتعات بالصفات الجنسية المعرية الشائعة بين نساء الأجناس الأخرى غير النوردية . وكذلك فان من العوامل المساعدة على اختفاء الجنس النوردي ما هو مشاهد في أفراد هذا الجنس من الميل إلى الانتحار .

وفي كتاب (كفاحى) لخص المهرتلى النتائج التي تحدث من اختلاط الأجناس المختلفة

في قوله إن ذلك يؤدي (أولاً) إلى هبوط مستوى الجنس الأعلى مكانة و (ثانياً) إلى انحطاط جثاني وروحي يفرض ولا شك إلى انتشار الضعف والمرض ، ولو أن هذا يحدث بطيئاً في بداية الأمر . ولذلك رأى الهر هتلر من الضروري أن يسود قانون أعلى ومقدس ينبغي بمقتضاه أن يحرص كل إنسان على أن يظل « الدم » نقياً خالصاً . ويسوغ الهر هتلر وجود هذا القانون وواجب العمل به بزعمه أن امتزاج الدم وهبوط المستوى الجنسي تبعاً لذلك قد أفضيا وحدهما إلى فناء الثقافات القديمة ، كما حدث للثقافة الآرية على وجه الخصوص ، فقد ظل الفاتحون ساء القوم ، وخالقي أو مبتكري ألوان الثقافات المتنوعة ما داموا متمسكين بمراكمهم كحكام ، وما داموا محتفظين بنقاوة الدم الذي يجري في عروقهم . غير أنه في كل مرة امتزج دم الآري بغيره من دم الأجناس الوضيعة ، أظهر التاريخ أن النتيجة الحتمية لهذا الامتزاج كانت اختفاء حامل لواء الحضارة ، أي الرجل الآري وحده

وأما الذين أفادوا من هذا الامتزاج فكانوا دائماً شعوب الأجناس الوضيعة ، لأن الدم الآري من شأنه أن يحفظ لهم بقاءهم إذ بغيره يسيرون إلى الفناء بخطوات سريعة والشر في ذلك كله أن هذه الشعوب الوضيعة إنما تستمد القوة والحياة من طريق تدنيس الآريين وإحالتهم إلى شعب « لقيط » ، أي إلى شعب غير نقى الدم .

ثم يمتضى الهر هتلر فيقول إن هذا الفساد كان قد بدأ يحطم ميزات الجنس النوردي في ألمانيا قبل وصول النازيين إلى الحكم إلى حد هدد بجعل القاطنين بالمدن الألمانية الكبيرة خصوصاً يشبهون من حيث مستواهم الجنسي الشعوب القاطنة بأرض إيطاليا الجنوبية . ومع هذا فإن خطر انحطاط الجنس النوردي لم يكن في رأيه مقصوراً على الجرمانين وحدهم ، بل إنه كان يهدد العالم أجمع بعواقب وخيمة ، لأن إهمال الألمان في صون نقاء الدم الذي يجري في عروقهم جعلهم يخفقون في إحراز السيطرة العالمية إذ « إن السموم التي أثرت في شعبنا (من جراء امتزاج الدم الآري بدم شعوب الأجناس الأخرى) وخصوصاً من أيام حرب الثلاثين سنة المعروفة ، لم تسبب انحلال دماننا فحسب بل وأرواحنا أيضاً ، حتى نجم عن ذلك أن أصيب الشعب الجرمانى بالانحلال في كل ظرف عصيب قابله ، إذ ينقص الشعب الألماني وجود غريزة الجماعة القوية التي أساسها وحدة الدم وتجانسه ، والتي من شأنها على وجه الخصوص في اللحظات التي يجيء فيها الخطر مهدداً أن تصون الأمة وتحفظها من الدمار . . . فلو أن الشعب الألماني كان يتمتع بهذه الوحدة المستمدة من وجود غريزة الجماعة القوية في أثناء نموه التاريخي وهي الوحدة التي انتفعت بها شعوب أخرى — لأصبح الرينخ الألماني سيد الكرة الأرضية بأجمعها . . . »

وقد زعم المحتلرون ان أفضل الطرق الحاسمة لضمان نقاء الدم الآرى ، فى دولة الريخ الثالث ، فناء اليهود أو طردهم من ألمانيا . ولذلك ارتبطت (هيسترى الدم) عند النازيين (هيسترى) أخرى كانت وماتزال فى الحقيقة أشد خطرا على البشرية من دعاوى الجنس الخالص ، والدم النقى ، هى (هيسترى اليهودية) ، وكما أن (هيسترى الدم) لا تستند إلى أى أساس علمى صحيح كما أثبت علماء الأجناس ، فإن (هيسترى اليهودية) فى ألمانيا تستند إلى طائفة من المعلومات المشوهة والحقائق المزيفة التى حرص النازيون منذ طمعوا فى فرض سلطانهم على ألمانيا ، على أن يغذوا بها الجماهير المتقلبة فى أحضان الفوضى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التى أعقبت انهيار دولة الريخ القيصريّة بعد هزيمة الحرب العالمية الأولى .

فقد قدر النازيون أنفسهم ، قبل اندلاع نيران الحرب العالمية الثانية بعام واحد ، ان عدد سكان ألمانيا — عدا النمسا — الذين يجرى فى عروقهم دم يهودى بنسبة ٢٥ ٪ أو أكثر يتراوح بين ٨٠٠.٠٠٠ ، ومليون ، من بينهم ٥٠٠.٠٠٠ إلى ٦٢٥.٠٠٠ يهودى و ٢٠٠.٠٠٠ إلى ٢٥٠.٠٠٠ أنصاف يهود ، و ١٠٠ إلى ١٢٥.٠٠٠ أرباع يهود ، وعلى هذا اعترف النازيون أنفسهم بأن اليهود الخالص كانوا لا يجاوزون $\frac{7}{11}$ أو $\frac{9}{11}$ من ١ ٪ من عدد سكان ألمانيا ، بينما يبلغ أنصاف اليهود $\frac{2}{3}$ أو $\frac{3}{4}$ من ١ ٪ ، أما أرباع اليهود فيؤلفون جزءا صغيرا يزيد قليلا على $\frac{1}{11}$ من ١ ٪ وزيادة على هذا فمن الثابت أن عدد اليهود فى ألمانيا كان آخذا فى النقصان بدرجة ملحوظة قبل حدوث الثورة النازية ذاتها ، فقد دلت الإحصائيات على أن نسبة المواليد (بما فى ذلك اليهود) فى عام ١٨٨٠ بلغت ٤١.٠٥ فى الألف . من ذلك ٣٢.٢٦ فى الألف بين اليهود الألمان . ولكن هذه النسبة انخفضت فى عام ١٩١٠ إلى ٣٣.٠٥ فى الألف ، من ذلك ١٦.٥٥ فى الألف بين اليهود . وفى الفترة بين عامى ١٩١١ ، ١٩٢٥ بلغت زيادة الوفيات على المواليد بين اليهود البروسيايين ٣٧.٠٩٣ ومن المحتمل أن هذه النسبة كانت محفوظة أيضا فى بقية أنحاء الريخ . وعلى هذا فانه استنادا إلى ما كان يذيعه النازيون أنفسهم ، يتضح أن عدد اليهود فى ألمانيا كان قليلا جدا ، بل وآخذا فى النقصان المستمر حتى قبل أن يصل النازيون إلى الحكم .

ومع ذلك ، زعم النازيون أن اليهود هم أخطر أعداء ألمانيا ، ومن حق القارىء أن يسأل كيف تصبح أقلية تافهة لا تزيد على ١ ٪ أو ١.٤ ٪ مصدر الخطر الكبير على أغلبية عظيمة تبلغ ٩٨ ٪ ، ولكن من العبث أن ينتظر انسان جوابا من النازيين على هذا السؤال فإذا فعلوا كانت أجابتهم تشتمل على الدعاوى الآتية : (أولا) ان اليهود إذا لم يسكبج جماحهم

ظلوا مستأثرين بالمراكز الهامة في البلاد وصار لهم نفوذ كبير لا يتناسب قطع عددهم الضئيل (ثانياً) أن اليهود جنس جم النشاط يتمتع بحماية عظيمة حتى أن الفرد الواحد منهم لترجح كفته ٩٩ ألمانيا من غير اليهود ، (ثالثاً) مما يزيد هذا الأمر خطراً أن الضرر الذي يهدد الريخ ليس مصدره اليهود في داخل ألمانيا نفسها ، بل مصدره الحقيقي كل أولئك اليهود المنتشرين في أرجاء العالم والذين يتآمرون ضد دولة الريخ الثالث .

ولذلك بدأ اضطهاد اليهود في ألمانيا منذ بدأت الحركة الوطنية الاشتراكية في عام ١٩٢٠ ومن المعروف أن الوطنية الاشتراكية عند نشأتها كانت تتألف من الزراعيين برئاسة الكونت إرنست تزوريشنتلو Ernst zu Reventlow ، ومن الحزب الألماني الاشتراكي برئاسة كونز Kunze ، ثم من الشرازم التي التفت حول لودندورف وهتلر وحاولت الثورة في عام ١٩٢٣ وقد جعل كل هؤلاء اضطهاد اليهود وإقصاءهم عن ألمانيا أو أفناءهم من الأهداف التي تمسكوا بضرورة تحقيقها واشتملت عليها برامجهم . وإلى لودندورف يرجع الفضل في كشف تلك المخالفة ذات الخطر التي ادعى أن اليهود قد أوثقوا عراها مع جماعة الجزويت الدوليين والبنائين الأحرار ، من أجل القضاء على الدولة الوطنية وتقويض أركانها وكان مما ساعد (لودندورف) على الوصول إلى هذا الكشف تلك الأقصوصة الزائفة التي روجها أعداء اليهودية في العالم عندما نشروا في ألمانيا عام ١٩١٩ وثيقة عرفت باسم «بروتوكولات عقلاء أو حكماء صهيون» The Protocols of the Elders of Zion ، قالوا عنها إنها عبارة عن صورة طبق الأصل من تفاصيل ما جاء في المؤتمر الصهيوني المنعقد في مدينة (بال) من أعمال سويسرة في عام ١٨٩٧ ، وتحدثت هذه الوثيقة عن مؤامرة يهودية واسعة النطاق الغرض منها فرض سيطرة اليهود على العالم أجمع بيد أن كبار المسؤولين من اليهود سرعان ما أجمعوا على إنكار هذه الوثيقة وأعلنوا زيفها ، ثم استطاعت جريدة (التيمس) في عام ١٩٢١ بعد بحث مستقل وخص دقيق إثبات تزويرها . فقد أظهرت هذه الجريدة أن أحد أفراد البوليس السري القيصرى الروسى القديم — أو الأوخرانا Okhrana كما كانت تدعى هذه القوة — هو الذى وضع هذه البروتوكولات ، حتى يوجد مسوغاً للحكومة القيصرية يمكنها من المضى في اضطهاد اليهود في روسيا . وزيادة على ذلك فإن هذا الموظف الروسى لم يبتكر هذه البروتوكولات ، ابتكاراً بل كان كل ما فعله أنه استمد ووصف الاجتماع الموهوم وما حدث فيه من رسالة صغيرة وضعها أحد المتهمين الفرنسيين الديموقراطيين في عام ١٨٦٥ في عهد الامبراطور نابليون الثالث ، يصف فيها اجتماعاً عقد في (جهنم) كان الغرض منه ، على نحو ما تخيله هذا الفرنسي التفكير في الوسائل التي تمكن الامبراطور نابليون الثالث من توسيع فتوحه حتى تشمل العالم

« جمع . وأما مقال (التيمس) فقد نشرته الصحف في البلدان الأخرى ، ومنها ألمانيا .

ومع هذا ، وعلى الرغم من ظهور زيف هذه البروتوكولات ، وإقامة البرهان على أنها كانت مزورة ، فقد ظل النازيون يعمنون في إدعاءاتهم واستطاع الهر هتلر أن يذكر في كتابه (كفاحي) « ومع أن جريدة فرانكفورت Frankfurter Zeitung تعلن إلى العالم بذلة وخضوع أن « بروتوكولات حكماء أو عقلاء صهيون » زائفة مزورة . فإن هذا الإنكار في حد ذاته ما هو في الحقيقة إلا برهان ساطع على أن هذه البروتوكولات حقيقة وغير مزورة ، وقد استطاع الهر هتلر أن يصل إلى نتائج لها خطرها في هذا الموضوع منها أن اليهودية الدولية تبغى الاستئثار بالشؤون المالية في العالم والسيطرة عليها ، وتريد أن تتخذ من روسيا قاعدة تعمل منها لأجل تقويض أركان الدول الوطنية ، ثم تسعى لجعل فلسطين مقرا لجميع المؤامرات التي تحاك خيوطها لتحريك الشعوب للثورة ضد الحكومات الوطنية في العالم . على أنه لما كان اليهودي — كما يقول الهر هتلر — عاجزاً عن ممارسة شئون الحكم وإخضاع الجنس الأبيض لسلطانه المباشر ، ولما كان يعترف في قرارة نفسه بهذا العجز ، فقد أخذ يعمل على تلوين الجنس الأبيض حتى يسهل عليه إخضاع هذه الشعوب ، ولذلك فإن الشاب اليهودي ذا الشعر الأسود يكمن ساعات طويلة يشع في وجهه حبور شيطاني ، مترقبا الفرصة التي تمكنه من السطو على عرض فتاة غريرة تعوزها الخبرة وتنقصها القدرة على المقاومة ودفع الإغراء بل إن هذه الرغبة في تلوين البيض هي التي جعلت اليهود يحضرون الجنود السود إلى أقليم الراين بموافقة فرنسا التي تعتبر بلا جدال أكبر أعدائنا ، والتي يؤدي ذلك الاختلاط المتزايد بين شعبها وبين الزنوج إلى خطر يهدد في المستقبل الجنس الأبيض في أوروبا ، وقد خلص الهر هتلر من ذلك كله إلى نتيجة واحدة ، هي ضرورة القضاء على اليهود قضاء مبرما . وفي ذلك يقول . « واعتقد إنني إنما أعمل اليوم بما يتفق تمام الاتفاق مع أغراض الخالق العظيم . فاني عند مهاجمتي اليهود إنما أخوض في الحقيقة نضالا من أجل إتمام عمل الآله نفسه ،

وإذا كان هذا رأي الزعامة المسؤولة ، فإن من السهل إدراك مدى تلك الدعاوة التي روج لها النازيون في داخل ألمانيا وخارجها من أجل اضطهاد اليهود وإفنائهم فقد نسج صغار الزعماء والكتاب النازيين على منوال زعيمهم الكبير ، إذ جاء في نداء وطني اشتراكي أعيد طبعه وتوزيعه مراراً ، فامعناه « ان اليهودي هو السبب في أننا نرسف في أغلال الرق والعبودية وهو الذي أفاد من ذلك كل الفائدة ، فقد حطم جنسنا ولوث أخلاقنا ، وتسبب في نضوب معين حياتنا ، وهدم قوتنا ، وقال (ريختلو) Reventlow « إن اليهودي هو الدود الذي ينخر في هيكل الانسان فعليتنا أن نهلكه ! » وقال غير هؤلاء ، ان من مقتضيات طقوس اليهود

الدينية قتل المسيحيين واستباحة دماهم ، كما أنهم يأخذون الربا الفاحش لأسباب دينية ،
ويزيلون بكاره الشابات المسيحيات عامدين ويعملون على إفساد السلطات الألمانية بما يقدمون
من رشوة رغير ذلك ، ويشربون دماء سواهم من الأجناس .

وإلى جانب هذه الدعاية ، أصدرت دولة الريح الثالث طائفة من القوانين الصارمة لإقصاء
اليهود عن الوظائف الحكومية والخدمة العامة . ولم يكن إصدار هذه القوانين أمراً غريباً
أو غير متوقع الحدوث . فإن إقصاء اليهود عن الوظائف وإخراجهم من ألمانيا كان في الحقيقة
من أهم الوعود التي تضمنها البرنامج الذي أذاعه النازيون على الأهلين ، ولم يعارضه هؤلاء
فقد وعد (جريجور ستراسر) Gregor Strasser في آخر أكتوبر ١٩٣١ ، أي قبل انفصاله
عن النازيين وخروجه عليهم — بأن يقضى النازيون على اليهودية في ألمانيا قضاء مبرماً . كما
وعد أحد النواب النازيين (في مجلس الديات البروسي) في ٢ يونيو ١٩٣٢ ، بأنه عقب أن
يفرغ النازيون من تنظيف البيت — أي ترتيب شؤونهم الداخلية — تصبح مسألة طرد اليهود
في ألمانيا في بساطتها وسهولتها كلعبة الأطفال ١ . وفي هذا الوقت أيضاً ، أفضى (هرمان جورنج)
بحديث إلى جريدة إيطالية جاء فيه « بينما ينال اليهود الذين ألحقوا الأذى بألمانيا جزاءهم
العادل على ما فعلوا ، فإن جميع اليهود الذين دخلوا ألمانيا بعد شهر أغسطس من عام ١٩١٤
سوف يطردون من البلاد ، وسوف يطرد كذلك بقية اليهود دون نظر إلى منشئهم ، من جميع
الوظائف المسؤولة في الصحافة والمسرح والسينما والمدارس والجامعات وعلى الجملة من كل عمل
أو وظيفة قد يستطيع شغلها استخدام نفوذه لإضعاف الأمة وإفسادها ومكافحة الروح
الوطنية والقومية ونشر الميول والآراء الدولية ، في غير مصلحة الشعب الألماني » .

والواقع أنه بعد أن آلت السلطة في ألمانيا للنازيين شرعوا ينفذون وعودهم السابقة دون
إبطاء في أول أبريل ١٩٣٣ ، أي بعد أقل من شهر واحد من وصول هتلر إلى منصب
المستشارية ، وفي اليوم نفسه الذي أعلن فيه (الفوهرر) بداية الثورة الوطنية الاشتراكية
في الخطاب الذي ألقاه في ميوني (تمبلهوف) ، حدث أن نظمت مقاطعة اليهود ، وبدأ
اضطهادهم . حتى أصبح يوماً تاريخياً لا يمكن أن ينساه اليهود قاطبة . وفي ٧ أبريل ١٩٣٣
صدر قانون يقضى بطرد غير الآريين من الخدمة العامة ، أو إقالتهم من وظائفهم إذا استحقوا
معاشاً . وجاء في تفسير (غير الآريين) أن المقصودين بذلك هم جميع الأفراد الذين يثبت
أن أحد آبائهم أو جدودهم من اليهود أو سبق لهم اعتناق اليهودية ، على أن يستثنى من ذلك
جميع الذين شغلوا وظائف حكومية مدنية قبل أول أغسطس ١٩١٤ . ومن قاتلوا في الحرب
العظمى الماضية دفاعاً عن ألمانيا أو في جانب إحدى حليفتها ، وكذلك الذين فقدوا آباءهم

أو أبناءهم في أثناء الحرب ؛ وأما الخدمة العامة التي ذكرها هذا القانون وتشمل جميع وظائف الحكومة الفدرالية ، أو المحلية ، والنقابات ، والشركات . والهيئات المختلفة عدا الدينية منها والقضاء والحماية والتعليم في الجامعات وغيرها ، عدا المدارس اليهودية التي يدرس بها يهود فقط ، وجنود الخدمة الوطنية (أو الميلشيا) عدا الضباط والجنود العاملين ، ثم أصحاب الوظائف الشرفية ، وقد صدر قانون في ١٨ مايو ١٩٣٣ يمنع غير الآريين من شغل الوظائف (الشرفية) وخصوصا ما كان متعلقا منها بوظائف التأمين الاجتماعي وإسداء المعونة والنجدة لضحايا الحرب . وفي ٧ أبريل ١٩٣٣ صدر قانون خول السلطات القضائية طرد غير الآريين من مهنة المحاماة ، وفي ٢٥ أبريل ١٩٣٣ صدر قانون د لمنع ازدحام المدارس الثانوية والعليا من شأنه منع غير الآريين بطريق غير مباشرة ، من الالتحاق في المستقبل بعمل من الأعمال التي تقتضى مزاولتها ثقافة عالية ، وفي ٣٠ يونيو ١٩٣٣ صدر قانون آخر يمنع غير الآريين من شغل الوظائف المدنية ، ويقضى بطرد أى موظف متزوج بامرأة غير آرية أو يتزوج في المستقبل بغير آرية . وفي ١٣ يولييه ١٩٣٣ تقرر لإخراج جميع مديري السينا والمخرجين والمؤلفين ومهندسى التصوير ومن اليهم من الخدمة إذا تعذر عليهم اثبات آريتهم .

وفي عام ١٩٣٥ صدر « قانون وقرار الجنسية وتعيين صفة المواطن » ، وقد جاء في هذا القانون ما معناه « أن المواطن في دولة الريخ هو الذى يجرى في عروقه الدم الجرمانى أو الدم القريب منه ، والذى يبين بفضل مسلكه أنه يرغب في خدمة الشعب الألمانى ودولة الريخ بأمانة ، ويكون صالحا لهذه الخدمة ولما كان الريخ يحتاج يعتقد تمام الاعتقاد بأن نقاء الجنس الجرمانى ضرورة لا غنى عنها لبقاء الأمة الألمانية ، ولما كان يحده العزم الذى لا يمكن أن يتزعزع للمحافظة على كيانهما إلى الأبد ، لذلك قرر الريخستاج بالإجماع قبول (قانون نورمبرج لصون الجنس والشرف الجرمانى) الصادر في سبتمبر ١٩٣٥ . وعلى ذلك يتمتع الزواج بين اليهود والراعايا الذين هم من دم جرمانى أو من الدم القريب منه . وكل زواج يعقد بالرغم من وجود هذا القانون يكون لاغيا حتى لو كان هذا الزواج معقودا في الخارج ك محاولة لتجنب آثار هذا القانون ولا ينبغى أن يستخدم اليهود في بيوتهم رعايا الريخ الذين هم من دم جرمانى أو من دم قريب منه والذين تقل أعمارهم عن خمسة وأربعين عاما . ويمنع اليهود من أن ينشروا علم الريخ أو العلم الوطنى أو يظهروا الأعلام القومية . والذين لهم حق التصويت في المسائل السياسية ، وشغل الوظائف العامة هم مواطنو الريخ المتمتعون بكامل حقوقهم السياسية ولا يمكن أن يكون اليهودى مواطنا في دولة الريخ ، وليس له حق التصويت ولا الحق في أن يشغل إحدى الوظائف العامة » .

وقد أطلق على جميع القوانين والقرارات والأوامر التي أصدرتها السلطات النازية ضد اليهود اسم (قوانين نورمبرج) . وفي الفترة التالية ، وعلى الخصوص عند اشتداد الحملة الإرهابية على اليهود ، أعادت الصحف نشر بعض هذه القوانين ، كما نشرت ملخصا شاملا لأهم محتوياتها ، ومن ذلك يتبين أن (قوانين نورمبرج) كانت تقضى : (أولا) بطرد جميع الموظفين غير الآريين من الخدمة العامة ، ويدخل في ذلك الموظفون العاديون وأخوانهم من المستخدمين في البلديات ، والمدرسون ، وأساتذة الجامعات ، والقضاة ، والمدعون العموميون ، وكذلك صدر قانون يمنع المحامين غير الآريين من مزاوله مهنتهم . وكانت تقضى : (ثانيا) بحرمان الأطباء غير الآريين ثم أطباء الأسنان والجراحين من مزاوله عملهم . وفي قانون جديد حرم غير الآريين من التوظيف في المستقبل ، كما أن (جهة العمل) وهي التي حلت محل النقابات العمالية واتحادات أصحاب العمل ، طبقت هي الأخرى هذه القوانين كما كانت تقضى : (ثالثا) بحرمان اليهود من التعليم في المدارس والجامعات و (رابعا) بحرمان غير الآريين — اليهود — من العمل في صناعة الأفلام و (خامسا) بعدم السماح لليهود بالانضمام إلى جماعات الوقاية ضد الغارات الجوية و (سادسا) بمنع أى شخص لا يستطيع إثبات انحدره أو انحدر زوجته من أصل آرى منذ عام ١٨٠٠ ميلادية ، من وراثة الأرض التي يزرعها و (سابعا) بتحريم العمل في الصحافة على غير الآريين ، إلا إذا كانت الصحف التي يعملون بها يهودية صميمية و (ثامنا) بمنع جميع أعضاء الحزب النازى من الاختلاط أو الاتصال باليهود ؛ وهذا بناء على قرار أصدره (ردولف هس) نائب هتلر في ذلك الحين و (تاسعا) بقيام وزارة المعارف النازية بنشر قائمة من السكتب التي فرضت استخدامها في المدارس ، وذلك حتى تعرف الناشئة المسألة اليهودية على حقيقتها ؛ ومن هذه السكتب : بروتوكولات حكماء صهيون ، المزورة و (عاشرا) بإصدار قرار من وزير الداخلية يسمح للآريين فقط بدخول امتحانات كلية الطب ؛ كما أصدر الوزير قرارا ثابتا بعدم إعطاء الصيادلة غير الآريين الترخيص اللازم لمزاوله أعمالهم و (أحد عشر) بإصدار قرار يمنع كل من لا يستطيع إثبات انحدره وانحدر زوجته من أصل آرى منذ عام ١٨٠٠ ميلادية من الاشتغال في أعمال الطبع والنشر .

هذه خلاصة (قوانين نورمبرج) ؛ وقد تطرف النازيون في تطبيق تلك القوانين فأصدر الحكام ورؤساء البلديات في المدن المختلفة طائفة من القرارات والأوامر والتعليمات ضد اليهود ، وكل ما هو يهودى ، لدرجة كانت تدعو إلى السخرية في بعض الأحيان . من ذلك ، الأمر الذى أصدره رئيس بلدة (كوينجسدورف) Koenigsdorf في بافاريا في أول أكتوبر

١٩٣٥ ، خاصا بالأبقار والماشية المشتراة بطريق مباشر أو غير مباشر من اليهود ، فنص هذا الأمر على ضرورة عزل هذه الأبقار والماشية حتى لا تعيش في صعيد واحد مع الثيران التي يملكها غير اليهود ؛ وزيادة على ذلك نص الأمر على أن الأبقار والماشية التي ثبت أنها كانت تعيش في مكان واحد مع أبقار وماشية يملكها يهودي ، ينبغي وضعها تحت المراقبة لمدة عام بأكمله . وفي أثناء هذه المدة يتحتم عزلها أيضا عن الثيران التي يملكها آريون .

* * *

وفي مثل هذه الظروف ، كان من الطبيعي أن تنتشر في ألمانيا موجة من الاضطهاد العنيف ضد اليهود ، واتخذ هذا الاضطهاد أشكالا متنوعة على أيدي المتعصبين ، وزعانف القوم وأراذلهم ، فأخذوا يندسون مقابر اليهود ومعابدهم ، حتى بلغ عدد الحوادث التي من هذا القبيل إلى صيف عام ١٩٣٢ مائة وتسعة (١٠٩) ؛ وأعلن المتعصبون ومن إليهم عزيمتهم على إحراق معابد اليهود وبيعهم في القريب العاجل . هذا ، إلى الضرر الجسم الذي ألحق بحوانيت اليهود ومخازنهم التجارية . ومن الحوادث المشهورة ما فعله متطرفو النازيين في عيد فصح اليهود عام ١٩٣٢ . فقد هاجموا في هذا اليوم في (كورفرتندام) أحد شوارع برلين كل شخص اشتبهوا في أنه ينحدر من جنس سامي . وكان المغيرون وهم حوالي العشرين من الشبان صغار السن الذين لا خبرة لهم في مسائل الجنس . واستطاعت هيئة يهودية بعد ذلك أن تنشر قائمة طويلة بحوادث الاعتداء المتكرر على أشخاص اليهود المنفردين . وزيادة على ذلك فقد وجد الصبيان والفتيات الصغيرات تسلية كبيرة في تلطيح بيوت اليهود وحوانيتهم بالأقذار ورسم الصليب المعقوف — رمز النازية — في كل مكان . ولم يقتصر الأمر على إهانة كبار السن وإيذائهم ، بل إن الأطفال اليهود في المدارس لم يسلموا من الاعتداء عليهم ، ومن أن يؤذيهم زملاؤهم المسيحيون . وفي كثير من المدن الصغيرة أرغم التجار اليهود إرغاما على ترك متاجرهم ومحالهم ومغادرة القرية أو المدينة التي عاش فيها أجدادهم منذ أجيال طويلة وذلك لشدة الاضطهاد وإحكام المقاطعة . وفي جامعة برلين ، قرر الطلبة النازيون طرد جميع اليهود . ومع أنه كان من المنتظر أن يجد اليهودي في المحاكم والقضاء وسيلة للوقاية أو الحماية من اعتداء المعتدين ، فإن هذه المحاكم لم تجد سببا يسوغ توقيعها العقوبة على ملحق الأذى باليهود ، لأنها كما قررت كانت لا ترى أن استخدام كلمة يهودي في معرض التحقير من شأنه إثارة غضب أحد . وكذلك فإن هذه المحاكم لم تجد مسوغا لتوقيع عقوبة قاسية على كثيرين ممن اشتركوا في حوادث تدنيس مقابر اليهود وبيعهم . وإزاء هذا كله ، لم يجد عدد من اليهود في صيف ١٩٣٢ مناصا من الكتابة إلى مستشار دولة الريخ ، يسألونه عما إذا كانت الحكومة

لاتجد ضرورة لإعطاء المواطنين اليهود الحماية التي من حقهم كمواطنين أن ينتظروها من حكومتهم .

بيد أنه كان في الحقيقة من المتعذر إعطاء اليهود أى ضمان أو وعد بالحماية ضد الاعتداءات المتكررة عليهم ، إذ كان زعماء الدولة النازية أنفسهم في طليعة منظمى حركة المقاطعة والاضطهاد وكانوا لا ينفكون يشيرون الخواطر ضد اليهود في كل آن ولحظة منذ ظهرت الوطنية الاشتراكية بشكلها المتطرف الرهيب إلى عالم الوجود . فهناك كتاب (كفاحي) مشحون بالمفتريات الكثيرة على اليهود ، ولا يقل عنه في ذلك كتاب (الفرد روزنبرج) عن أسطورة القرن العشرين . ومن المعروف أن هذين الكتابين من الكتب التي فرض النازيون قراءتها على الشبية الجديدة . وهناك خطابات اهر هتلر نفسه ، وهو الذى قال منذ عام ١٩٢٢ أن اليهود قد أظهروا نبوغا حقيقيا في معرفة كيف يفيدون من ظروف السياسة المتقلبة ، حتى صار لهم أنصار ضمن أحزاب اليمين وأحزاب اليسار يعملون جميعا من أجل نشر الفساد في الدولة بشتى الطرق المردولة . وهناك كتابات كبار النازيين الآخرين أمثال الأستاذ هرمان جوش Hermann Gauch ، والدكتور كريك Kriek ، و (والتر داريه) Walther Darre ، و (والتر شارر) Walter Scharrer وغيرهم . وكلها ملأى بالمطاعن على اليهودية واليهود .

ولما كان من المتعذر سرد جميع حوادث اضطهاد اليهود في ألمانيا منذ برز الحزب النازي إلى عالم الوجود ووصل رئيسه إلى مستشارية الريخ ، إلى وقت اندلاع الحرب العالمية الثانية ، فانه يكفي أن نسجل الآن حوادث موجات الاضطهاد التي اجتاحت اليهود في كل من ألمانيا والنمسا في شهرى اكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٣٨ ، لا لتبيان ما وصل اليه الطغيان النازي من شدة مريعة غسب بل ولأن هذه الاضطهادات المروعة سرعان ما أوجدت مشكلة اللاجئين . تلك المشكلة التي ذهب عدد غفير من اليهود ضحية لها من أوروبا عموما وفي أوروبا الوسطى على وجه الخصوص .

فبعد أن سقطت النمسا في قبضة ألمانيا في مارس ١٩٣٨ أعلن (هرمان جورج) في فيينا الحرب على اليهود بقوله : « إننا لانحب اليهود ، وهم لا يحبوننا ؟ ولذلك فسوف ندخل عليهم السرور بإرغامهم على مغادرة البلاد ! » . وكان هذا الإعلان بمثابة إنذار لبدء موجة الاضطهاد العظيمة التي سرعان ما أثارت الرعب والفرع في فيينا في أبريل من العام نفسه ، إذ سلب النازيون سيف الإرهاب على أعناق اليهود في هذه المدينة التاريخية القديمة ، وكان عدد اليهود بها لا يزيد على ١٧٠,٠٠٠ ، وضائق السبل في وجه الكشيرين منهم حتى بلغ متوسط من فضلوا الانتحار منهم في كل يوم من أيام هذا الشهر مائة وثلاثين ، وظلت موجة الانتحار

على شدتها بين اليهود في الشهور التالية ، حتى بلغ عدد المنتحرين في يوم من أيام شهر يولييه عام ١٩٣٨ ثمانمائة (٨٠٠) ؛ بل لقد قدر عدد المنتحرين عموما في خلال الشهور الأربعة الأولى من الاحتلال الألماني بنحو سبعة آلاف يهودي . أما الذين لم يلجأوا إلى الانتحار كوسيلة موأنية تخلصهم مما هم فيه من كرب وبلاء ، فقد استطاع النازيون أن يتسكروا طرقا متنوعة لإفنائهم وإبادتهم ، من ذلك تلك الحادثة المشهورة التي رواها (لويس جولدنج) Louis Golding في كتابه عن « المشكلة اليهودية » في عام ١٩٣٨ ، وقد رواها غيره كذلك . وهي تلخص في أن واحدا وخمسين شخصا وضعوا على ظهر سفينة في نهر الدانوب بالقرب من الحدود التشيكوسلوفاكية دون أن يقدم اليهم طعام أو نقود وقد استطاع التشيك أن ينفذوهم ؛ وهياؤا لهم مأوى مؤقتا وأمدوهم بالطعام . ولكنهم ما كانوا يجروون على الترحيب بهم واستضافتهم مدة طويلة أو على الدوام . ولذلك عملوا على ترحيلهم إلى هنغاريا . فأعادتهم إلى النمسا . (ليلاقوا العذاب ثانية) . وقد حدث مثل ذلك أيضا لجماعة أخرى ، أخرجتهم النمسا من ديارهم ووضعتهم على ظهر سفينة ظلت تسير بهم في نهر الدانوب عدة أسابيع على غير هدى حتى وقفت خارج إحدى الموانئ النهرية الهنغارية وانتهى الأمر بالسماح لهؤلاء المنكوبين بالدخول إلى فلسطين . وكان هؤلاء القلائل ولا شك من المحظوظين ، لأن ألوفا من إخوانهم لم يظفروا بهذه النعمة العظيمة .

أما في ألمانيا ، فقد بدأت موجة الاضطهاد الكبرى في شهرى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٣٨ أيضا ، وذلك عندما قرر النازيون طرد اليهود نهائيا خارج حدود دولتهم . فكان مما حدث نتيجة لهذا القرار أن شرع النازيون يقبضون على اليهود المنحدرين من أصل بولندي المنتشرين في أنحاء الريخ الثالث ، وكان أكثرهم لا يزال بملابس النوم الخفيفة عند القبض عليهم وأرغموهم على عبور الحدود البولندية الألمانية ، سيرا على الأقدام ، ومن ورائهم الجنود النازيون بمدافعهم الرشاشة . وقد بلغ عدد هؤلاء المنكوبين ١٥,٠٠٠ من بينهم ألفان من الأطفال وفي يوم ٢٩ أكتوبر ١٩٣٨ كان عدد الذين تركوا وشأنهم من غير مأوى أو ملابس أو مأكلا ، يضررون في الأرض الفضاء الواقعة بين حدود ألمانيا وبولندا عند بلدة زبونستزين Zbonszyn نحو سبعة آلاف نسمة .

وقد نشرت جريدة (نيوز كرونيكل) الانجليزية في عددها الصادر في ١٤ نوفمبر ١٩٣٨ قصة هؤلاء التعساء كما رواها واحد منهم فقالت : « في الساعة الخامسة من صبيحة يوم الجمعة ٢٨ أكتوبر ١٩٣٨ ، أوقظنا من نومنا وألقى القبض علينا ولما كانت السجون تعج بمن فيها من اليهود البولنديين فقد أرغمنا مع مئات غيرنا على الوقوف والانتظار

في ساحة السجن ينهر علينا المطر مدرارا . وفي هذا المكان خاطبنا أحد زعماء جنود الحرس (S.S.) وأخبرنا بأنه قد تقرر طردنا وإخراجنا من البلاد ، وبأنه سوف يجري ترحيلنا من ألمانيا في الساعة السابعة مساء . ولم يسمح لنا بالعودة إلى بيوتنا . وعلى هذا أرغمنا على مغادرة ألمانيا بما كان على أجسامنا من ملابس ليس غير أما بقيه ملابسنا وكذلك أثاث بيوتنا ، وأموالنا ، فقد اضطررنا إلى تركها جميعا في ألمانيا ، وصادرها رجال الجستابو . ثم نقلنا بعد ذلك الى عربات السكة الحديدية المخصصة لنقل البهاثم ، وتذوقنا في هذه الرحلة صنوفا من العذاب وتحملنا آلام الوقوف والجوع والبرد . ثم قطعنا المسافة بين الحدود الألمانية عند (نيوبوشن) Neu Beuchen والحدود البولندية سيرا على الأقدام ، وهي مسافة تبلغ عشرة كيلو مترات . وكان لجنود النازيون عندما غادرنا القطار قبل هذا السير المضني ، يدفعوننا ويسوقوننا أمامهم كالأنعام ، ويهاولون علينا بالضرب المبرح ، ويحيطون بنا من اليمين واليسار حاملين بنادقهم ذات الحراب ، وفي الخلف ، مصويين مدافعهم الرشاشة نحونا وفي نهاية الأمر وصلنا الى الحدود البولندية ونحن في حالة إعياء شديد ، حتى سقط على الأرض الشيوخ من الرجال ، والعجائز من النساء ، وغيرهن من برح بهن التعب وكذلك الأطفال ، وكان جميع هؤلاء يتركون من غير إسعاف أو مساعدة . ولكن الحراس البولنديين لم يسمحوا لنا بالمضي في سبيلنا واجتياز حدود بلادهم وأرغم هذا الحشد وكنا ثمانية آلاف ، من همبورج ، وبرلين وكولون ، وإيسن ، على المسك في غابة هناك . وفي أثناء ذلك كله ما كان يعنى بأمرنا الإنسان ، فأخذ منا الجوع كل مأخذ ، وعضنا البرد القارس بأنيابنا ، وسقط منا كثيرون ضحية للجوع والبرد وظلمنا على هذه الحال حتى استطعنا أن نجد مكانا في قرية على الحدود مكشنا بها ثمانية أيام يحرسنا الجنود البولنديون وكانت إقامتنا خلال هذه المدة في حظائر الخيول ، وفي اثنين من هذه الحظائر التي ما كانت احدهما تتسع لأكثر من مائة حصان ، اضطر حوالى الثمانية آلاف شخص إلى الإقامة ، ينامون على القش ويهلبسهم البرد وأخيرا شكلت لجنة لمساعدتنا وتزويدنا بالطعام . فكنا نتناول وجبتين احدهما في الصباح والآخرى في المساء ولم يكن ما نأكله في كل وجبة يزيد على كسرة صغيرة من الخبز وقليل من الحساء وهي كمية لم تكن تسد الرمق مما أدى إلى انتشار المرض وكان المرضى يعزلون في خيام وينامون على القش . وكان عدد هذه الخيام سبعة ، ويجرى العمل لبناء عشر غيرها بسبب ازدحامها وليس هناك أى مستشفى . ويزداد عدد المرضى الذين يشكون من الآم المعدة بسبب رداءة الطعام وقلة التغذية أما الذين أصيدوا بحمى التيفود فقد بلغوا المائة . والماء الموجود في معسكرنا لا يصلح للشرب لأنه ملوث . ومع هذا يدفع اليأس الجميع إلى الشرب منه إذ لا يوجد سواه !

هذه القصة كتبت بعد مضي أسبوع واحد على وجود هؤلاء المنكوبين في المنطقة الحرام الواقعة بين الحدود البولندية والألمانية . وقد اضطر حوالى خمسة آلاف من هؤلاء التعساء إلى البقاء في (زبونستزين) Zbonszyn أكثر من شهرين . يتلقون مساعدة الهيئات اليهودية البولندية التي جمعت التبرعات لإعانتهم ونجدهم في جميع أنحاء العالم .

* * *

أما السبب الذى دعا إلى بقاء هؤلاء المنكوبين وأمثالهم من غير مأوى أو ملابس أو مأكل في المناطق الحرام الواقعة بين حدود دولة الريخ وحدود الدول المجاورة ، فهو أن هؤلاء « اللاجئيين » اليهود كانوا في الحقيقة لا يحملون « جوازات » ، أو أية أوراق رسمية من حكومة الريخ الثالث تدل على جنسياتهم . ذلك بأن النازيين رفضوا بتاتا إعطاء هؤلاء اليهود المطرودين المنبوذين أية جوازات أو أوراق رسمية ، كما فعلوا مع خصومهم السياسيين الآخرين الذين اضطروا إلى الفرار من الطغيان النازى ، أو أرغمهم النازيون أنفسهم على مغادرة البلاد الأمر الذى أوجد ما صار يعرف باسم « مشكلة اللاجئيين » .

وذلك أنه كان من المتعذر على الحكومات ، تبعا لأحكام القانون ، أن تقبل في بلادها الأشخاص الذين ليس لديهم جوازات تثبت جنسياتهم (فعرفوا لذلك باسم الأشخاص الذين لا دولة أو لا وطن لهم) وكذلك الأشخاص الذين ليس لديهم تأشيرات من قنصليات الدول التى ييغون اجتياز حدودها أو الإقامة بأرضها .

وقد أوضح أحد الثقات طرفا من أسباب مشكلة « اللاجئيين » هذه ، بقوله « أن لعب كرة التنس الذى يتقاذف أفرادا من البشر قد أصبح أمراً مألوفا معروفا في أوروبا الوسطى منذ وضعت الحرب العظمى الماضية أوزارها بيد أن عدد ضحايا هذه اللعبة في الماضى كان قليلا كما أن هؤلاء الضحايا كانوا في الحقيقة من الأفراد الذين أمسوا لا دولة لهم إذ فقدوا جنسياتهم من جراء التغيير الذى طرأ على الخريطة السياسية بعد انحلال امبراطورية الهابسبرج القديمة أما الآن فقد صار تقاذف أفراد البشر من المسليات الجديدة التى أوجدتها إمعان ألمانيا في طرد اليهود وغير الآريين والخصوم السياسيين دون رحمة أو شفقة . وصار حراس الحدود في كل دولة إذا ما أرخى الليل سدوله يتنافسون في الخلاص من أكبر عدد ممكن من هؤلاء (اللاجئيين) الموجودين في المناطق الحرام المتاخمة لحدود بلادهم ، وذلك بأرغامهم على اجتياز الحدود والدخول إلى أرض الدول المجاورة بطريقة لا يقرها عرف أو قانون وبذلك يساعد رجال الشرطة في كل دولة مثل هؤلاء الرجال والنساء والأطفال على خرق قوانين الدولة الأخرى بل أنهم ليدفعونهم إلى ذلك دفعا فكان جنود الحرس (S.S) ورجال الجستابو ينقلون

كل مساء حوالى الأربعين لاجئاً من النمسا الألمانية إلى القرى الواقعة على حدود مورافيا ، ثم يأمرهم بعد إعطائهم بعض نقود تشيكية بالعدو السريع عبر الحدود . فيتلقاهم من الجانب الآخر الحراس التشيك ويرغمونهم على عبور الحدود مرة ثانية إلى بلادهم والعودة من حيث أتوا . أما الذين يستطيعون الإفلات من قبضة هؤلاء الحراس ، فكانوا يعيشون عيش المجرمين في المدن التى يلجأون إليها . لأنهم ما كانوا يجرؤون على قيد أسماهم في سجلات «البوليس» أو كسب قوتهم . بل كانوا في خوف دائم من أن يكشف أمرهم ويرغموا في النهاية على الخضوع لهذه التجربة القاسية مرة أخرى . وكان من أثر هذا الرعب الذين فيه يصبحون وفيه يمسون أن صاروا فريسة سهلة في أيدي أصحاب المحال التى ينزلون بها أو أصحاب الأعمال الذين يستخدمونهم ، فيظل هؤلاء يهددونهم بفضح أمرهم «للبوليس» حتى يسخروهم في أعمالهم بأجور زهيدة لا يجد اللاجئون مناصاً من قبولها خشية أن يؤدي إفشاء سرهم إلى أن تطبق عليهم القوانين التى وضعتها حكومات هذه البلاد ضد الأجانب .

« وقد حدث مثل ذلك أيضاً عند الحدود السويسرية ؛ بل إن حوادث اللاجئين عند هذه الحدود ما لبثت أن زادت زيادة كبيرة إذ أن سويسرة أجازت مؤقتاً دخول اللاجئين إلى بلادها بيد أن السلطات الحكومية فى (برن) ما لبثت هى الأخرى أن غيرت من موقفها آراءهم ، فصارت ترفض كما فعلت حكومة (براج) - التشيك وسلوفاكية - قبول اللاجئين إليها . وهكذا أخذ جنودها ورجال الشرطة فيها ومن إليهم يبدون نشاطاً عظيماً فى حراسة معابر الجبال وشواطئ بحيرة (كونستانس) حتى أوصد هذا الباب فى وجوه اللاجئين وزادت تبعاً لذلك شقاوتهم وتعاستهم . »

تلك كانت (هيسترى اليهودية) فى ألمانيا النازية . وظاهر أن هذه الهيسترى بلغت ذروتها فى كل من ألمانيا وكذلك النمسا (بعد احتلالها) فى شهرى أكتوبر ونوفمبر من عام ١٩٣٨ . وفى الواقع إن هذه الموجهة القاسية كانت تقترن بحملة واسعة ضد اليهود فى ألمانيا ، فطفقت الصحف النازية تذكر الأهاليين من جديد بقوانين نورمبرج ، ونشرت (Schwarze Korps) فى عددها الصادر فى ٢٣ نوفمبر ١٩٣٨ - وهى صحيفة الجستابو والحرس الهتلرى المختار - (S.S) ، طائفة من القوانين والقرارات التى يقصد بها حرمان اليهود من كسب العيش فى ألمانيا ، ثم قالت : « سوف يستنفذ اليهود مالههم من رؤوس أموال ، ويغدون فى عداد المجرمين ، وعند بلوغ هذه المرحلة ، فسوف نواجه ضرورة ملحة شديدة ، هى ضرورة إبادة عالم اليهود الإجرامى بالوسائل نفسها التى تتبعها مع المجرمين ، أى بالسيف والنار . وأما النتيجة المنتظرة فهى نهاية اليهودية وتخطيطها تحطيمها لقيامتها لها من بعده . »

ولما كانت (هستريا اليهودية) جزءاً متمماً (لهستريا الجنس) ولا يمكن أن تنفصل عنها ، فقد صار من الضروري إظهار مدى ما بلغت هذه الهستريا الأخيرة في مسألة صون الجنس الآرى وتثبيتها للسيطرة العالمية المنتظرة لا من جهة ضمان نقاء الدم الآرى وعدم تلوثه بدم الأجناس الأخرى غير الآرية مثل اليهود ، وإنما من جهة لا تقل في نظر النازيين خطراً عن سابقتهما وهى ضرورة تأسيس المجتمع النازى من أفراد أشداء صحى الأجسام ، سليمى العقول ، يصلحون بفضل نقاء دمهم ، وصحة أبدانهم وسلامة عقولهم (؟) للاستئثار بالحكم والسلطان لافى المانيا وحدها بل وفى العالم أجمع .

* * *

لم يتورع النازيون عن ارتكاب أشنع الجرائم للتخلص من جميع الأفراد الذين قضوا بعدم صلاحيتهم لأن يكونوا أعضاء فى المجتمع النازى الذى ينبغى أن يتألف فى نظرهم من الأفراد والاسياد فحسب . ولجأوا فى تحقيق أغراضهم إلى وسائل ثلاث : هى القتل ، والخصى والتعقيم . إذ أنه لم يكن هناك مناص من اختيار الصالحين بدنياً وعقلياً وخلقياً حتى ينسلوا أطفالاً صالحين من تلك النواحي ، تقوم على أكتافهم عندما يشبون عن الطوق صرح الدولة الوطنية الاشتراكية الضميمة .

وقد دلت الإحصائيات على أن عدد المصابين بعلل جثمانية وعقلية وبأمراض تمنعهم من النضال فى الحياة من أجل كسب العيش يبلغ المليونين . من هذا العدد الضخم ، كان دافعو الضرائب فى دولة الرايخ يعولون ١,١٥١,٠٠٠ : وقد رما كانوا يتكفون بمبلغ ١,١٥١,٠٠٠,٠٠٠ ريخمارك سنوياً . وقد عدد المصابين منهم بأمراض عقلية بنحو ٨٨٠,٠٠٠ أى ٧٦ ٪ من مجموعهم . ويبلغ ما كان ينفقه عليهم دافعو الضرائب سنوياً ٦٣١,٠٠٠,٠٠٠ ريخمارك أو ٥٤ ٪ من العبء المالى كله . وقد استدل النازيون من ذلك على أن بقاء هذه الحال على ما هى عليه لابد مفض إلى تدهور المجتمع فى النهاية . ولذلك استقر رأيهم على أن من واجب الدولة العمل على التخلص من هؤلاء المرضى غير الصالحين دون إبطاء .

ومع أن النازيين لم يعترفوا صراحة بأنهم يلجأون إلى القتل حتى يتخلصوا من يرون أنهم غير صالحين للعيش فى المجتمع الألماني ، فقد أضفى هذا الأمر من الحقائق المعروفة ؛ ودل البحث على أن عدد القتلى من هؤلاء المنكوبين بلغ فى عامى ١٩٣٩ ، ١٩٤٠ مائة ألف شخص اختارهم الزعماء والإخصائيون النازيون ، وتولى رجال الجستابو عملية الإجهاز عليهم من غير استشارة أسرهم فى ذلك ، فلم يعرف أهلهم من أمرهم شيئاً بل كان يصلهم نبأ وفاة مرضاهم

نفاة على غير انتظار . وقد تقدم كيف أن (جرافينيك) ، (هارثيم) و (بيرنا) كانت
مراكز هذه المجازر البشرية .

وفي أول يناير ١٩٣٤ صدر قانون يقضى بأن يخصى غير الصالحين ، ثم نفذ (مكتب
سياسة الجنس أو العنصرية) هذا القانون ، فبلغ عدد من تم خصيمهم في عامي ١٩٣٤ ، ١٩٣٥
٩٩٦ شخصا : وقدر (المكتب) المذكور عدد الذين أخصوا عموما منذ صدور هذا القانون
إلى قيام الحرب في سبتمبر ١٩٣٩ بين ١٥٠٠ ، ٢٠٠٠ أى بما يزيد على ٣٠٠ شخص في
كل سنة .

وبعد خمسة شهور من وصول الهر هتلر إلى الحكم ، صدر قانون استطاع النازيون بفضل
أن يعقموا (٣٧٥,٠٠٠) شخصا تقريبا في ست سنوات ، أى إلى عام ١٩٣٩ . وأما هذا
القانون . ويطلق عليه اسم « قانون منع المصابين بالأمراض الوراثية من التناسل » فقد نص
على ضرورة إجراء جراحة لكل فرد مصاب بمرض وراثي . حتى يصبح عاجزا عن أن يكون
له أطفال ، على شريطة أن يثبت بطريق الخبرة والتجارب العلمية الطبية أنه من المحتمل جدا
أن يرث الأطفال الذين يولدون لهذا الشخص قدرا كبيرا من النقص الجثائي والعقلي .
وبلغت هذه الأمراض الوراثية تسعة . منها ضعف العقل ، والصرع ، والصمم والأعشى
الوراثيان ، والعاهاات الجثائية والجنون والإدمان على المسكرات وغيرها . وكان هذا القانون
يطبق على الألمان وعلى الأجانب سواء بسواء ، فلم يستطع الآخرون الإفلات من جراحة
العقم إلا إذا غادروا الرينخ . وأما الألمان المصابون بأحد هذه الأمراض ، وكانت سنهم تزيد
على عشر سنوات فكانت تجري لهم هذه الجراحة ، ولم يستثن من ذلك سوى الأشخاص
الذين لم تكن لديهم قدرة على التناسل بسبب شيخوختهم أو لأسباب أخرى ، وكذلك
الأشخاص الذين كان يخشى على حياتهم من إجراء هذه الجراحة لهم ؛ هذا فضلا عن الأشخاص
الموضوعين تحت الرقابة التامة في إحدى المؤسسات أو المصحات التي توافق عليها الدولة ،
أو الذين كانوا يفضلون بمحض اختيارهم دخول إحدى هذه المؤسسات حتى لا تعقمهم الدولة .
وقد أجاز النازيون التعقيم بصفة اختيارية ما دامت الجراحة لا تعرض حياة الراغبين في
إجرائها للخطر ، وفي غير الظروف التي يثبت فيها أن الأفراد الذين يرغبون فيها ، غير مصابين
بعاهاات أو أمراض يخشى انتقالها بالوراثة إلى ذريتهم . والسبب في هذا القيد أن القانون
النازي كان يعتبر الإكثار من النسل واجبا تفرضه الدولة على المواطنين الأصحاء ، أصحاب
العقول والأجسام السليمة ، كما كان يعتبر منع المرضى والمصابين بالعلل الوراثية من أن يتناسلوا
من أهم وأقدس واجبات الدولة .

ولا شك في أن (قانون منع المصابين بالأمراض الوراثية من التناسل) كان من أخطر القوانين التي سننها النازيون وأقساها . فمن الناحية العلمية ، لم يقطع علماء البيولوجيا برأى في أنواع الأمراض التي يمكن انتقالها بالوراثة ؛ كما أنه من المتعذر تقدير مدى ضعف التفكير وإعمال الروية لدى أى إنسان ، أو إقامة الدليل على أن رجلا من الرجال ضعيف العقل قاصر الذهن ، قليل الإدراك . وكل هذه من الحالات التي كان النازيون يطلبون أن يعقم من أجلها أصحابها ولم يجدوا واضعو هذا القانون وسيلة للتمييز بين ذوى العقول السليمة وذوى العقول المضطربة سوى الإلتجاء إلى ما يسمونه (اختبارات الذكاء) . وهى عبارة عن مجموعة من الأسئلة كانت تضعها الحكومة النازية وتطلب إلى الأفراد الذين تريد إخضعتهم للإجابة عليها ؛ فإذا استطاعوا ذلك كانوا من أصحاب العقول الراجعة السليمة . أما إذا عجزوا ، كان التعقيم الإلجبارى من نصيبهم . غير أنه كان يحدث في حالات عدة أن (المرضى) كانوا يستطيعون الحصول على الإجابات المطلوبة في نظير رشوة يدفعونها عن طيب خاطر في سبيل التحرر من قسوة هذا القانون . ولما وجد النازيون أن كثيرين من خصومهم الذين أرادوا حرمانهم القدرة على التناسل نكابة بهم قد استطاعوا الإفلات من (اختبارات الذكاء) ابتكروا « مقاييس » أخرى تمسكهم من تنفيذ مآربهم . فقال الهرتلر إنه يكفي لإثبات حالات ضعف العقل وقصور الذهن أن يوسم الفرد بالتفكير السطحي أو بعدم القدرة على تقليب وجوه الرأى في أمر من الأمور ، أو بالانحلال الخلقى ، وهكذا عقم النازيون أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ شخص بسبب « ضعف عقولهم » ، كما أدعوا . كما سيطروا بفضل هذا القانون وبفضل التفسيرات والاختبارات التي أعدوها على حياة ثمانين مليوناً من الانفس في دولة الريح الثالث .

ولم يقنع النازيون بإجراء عمليات التعقيم والخصى للأشخاص الذين ينطبق عليهم القانون بل اتخذوا من وجود هذا القانون ذريعة لإلقاء الرعب والفرع في قلوب أولئك المواطنين الذين اعتبرهم السادة النازيون أعداء للنظام القائم . فكان التعقيم والخصى إلى جانب القتل والعزل في مصحات الاعتقال من وسائل بسط نفوذهم وسلطانهم على ألمانيا .

ومع هذا كان النازيون يبررون ما يفعلون بأنهم إنما يريدون أن ينشئوا مجتمعاً من السادة الصالحين للممارسة شؤون الحكم في العالم . فهم من أجل إنشاء هذه الطبقة (النبيلة) لا يترددون في اتباع كل ما يروونه ضرورياً للحفاظ على نقاء الدم وخلوص الجنس الآرى من الشوائب . وللتأكد من أن الصالحين جثمانياً وعقلياً وخلقياً هم وحدهم أصحاب الحق في

أن يتناسلوا . وكان ذلك أهم ما دعا النازيين إلى إصدار ماسبق الحديث عنه من القوانين المتعلقة بالزواج .

وبما يدل على أن النازيين كانوا يريدون من سن هذه القوانين الصارمة أن يوجدوا مجتمعاً من الرجال الأفذاذ المتعصبين للبعادى النازية ولتعاليم الزعيم ، والذين لا يعرفون غير الدولة الوطنية الاشتراكية الصميمة وطناً لا يحجمون عن أن يفقدوه بالمهج والأرواح ، أن الزعماء النازيين حرصوا دائماً على أن يختاروا جماعة الحرس المختارة (S.S) الذين اصطفاهم الهرتل وانتقى منهم حراسه الخصوصيين الذين يسهرون على حياته من بين الذين نشأوا نشأة نازية صحيحة وثبت نقاء جنتهم الآرى وصلاحياتهم العقلية والخلقية حسب مقاييس الحزب ، ولزيادة التأكد من أن طبقة النبلاء الجديدة من جنود الحرس ، سوف تظل دائماً مبنياً عن أن يلوثها بطريق المصادفة أو الخطأ امتزاج دم الأجناس الأخرى بدم أعضائها الآرى النقي ، أو انتقال أحد الأمراض المعدية إلى أفرادها وذرياتهم ، لم يقنع النازيون بالقوانين القائمة المعمول بها في هذا الشأن ، بل أصدروا أوامر وتعليمات خاصة طلبوا إلى جنود الحرس (S.S) الخضوع لها والعمل بها ، فصدر (هنريك هيملر) في آخر ديسمبر ١٩٣١ أمراً جاء فيه : (أولاً) رجل الحرس (S.S) يجرى اختياره بدقة من بين الألمان الذين ينحدرون من أصل آرى صحيح ، (ثانياً) وعملاً بما تتطلبه أغراض الوطنية الاشتراكية ، وبناء على ما هو معروف من أن مستقبل الشعب الألماني (الجرماني) يتوقف على بقاء الدم الذى يجرى فى عروق هذا الشعب نقياً ، تقرر أن تعد تصريحات خاصة لزواج جنود الحرس ابتداء من أول يناير ١٩٣٣ ، (ثالثاً) الغرض من هذا لإنشاء أسر جرمانية محترمة من الجنس الآرى ، وبقاء هذه الأسرات ، (رابعاً) تعطى أو تمنع تصريحات الزواج هذه بناء على اعتبارات متعلقة ببقاء الجنس وسلامة الصحة الموروثة لحسب (خامساً) كل فرد من أفراد الحرس (S.S) يريد الزواج عليه أن يحصل على ترخيص من زعيم هذه الجماعة هنريك هيملر ، (سادساً) جميع من يتزوجون على الرغم من رفض الترخيص لهم بذلك يطردون من جنود الحرس . وفى المواد (السابعة والثامنة والتاسعة) طلب هيملر من الراغبين فى الزواج أن يقدموا جميع الوثائق التى تثبت خلوص آريتهم وآرية الزوجات اللواتى يقع عليهن اختيارهم حتى تستطيع الهيئة المسكفة بفحص هذه المسألة أن تهىء « شجرة الأسرة » كاملة لفرق الحرس وأن تحتفظ بها ضمن أوراقها ووثائقها . وفى المادة العاشرة والأخيرة ، اختتم هيملر هذا الأمر بقوله : « إن جنود الحرس (S.S) يعرفون دون ريب أننا خطونا بنفضل صدور هذا الأمر خطوة لها أهميتها . وكل سخرية أو تحقير أو سوء فهم لا يؤثر فينا ، فإنما المستقبل لنا وحدنا » .

ولما كان جنود الحرس من الذين سبق لهم اجتياز اختبارات الحزب النازي المنوعة قبل انضمامهم إلى هذه الجماعة المصطفاة ، فإن جميع المتاعب الناشئة عن تطبيق هذا الأمر كانت في الحقيقة من نصيب المرأة التي تحدتها النفس بالزواج من أحد هؤلاء النبلاء الجدد ، فكان عليها قبل كل شيء أن تكتب إلى عدد من الأبروشيات حتى تستخرج من سجلاتها شهادات الميلاد ووثائق الزواج الخاصة بأجدادها إلى الجد الثالث على الأقل ولم يكن استخراج هذه الشهادات والوثائق من الأمور السهلة الهينة ، بل كان يتطلب جهدا عظيما من السيدة إذ كثيرا ما كانت تضطر إلى السفر والانتقال من مكان إلى آخر باحثة منقبة ، تقابل طائفة من الموظفين وتحدث إلى رجال الدين المكلفين بحفظ هذه « السجلات » ، « الثمينة » في الأبروشيات المختلفة ومن بدرى لعلها لا تنظر بعد هذا الجهد المضني بباطل ، لضياح هذه الشهادات والوثائق القديمة نتيجة أهمال المكلفين بحفظها في بعض الأحيان ، وبعد وصول النازيين إلى الحكم وصدور قوانين الزواج الصارمة ، تعددت حوادث السطو على الأبروشيات لسرقة سجلات المواليد والوفيات وعقود الزواج ، رغبة في (تزوير) شهادات ووثائق يمكن بيعها في (السوق السوداء) التي أوجدتها قوانين الزواج النازية لمن يرغبون إثبات أن الدم الآري النقي يجري في عروقهم وعروق أجدادهم من أزمنة قديمة ، حتى تتاح لهم فرصة الزواج أو الالتحاق بإحدى الوظائف الحكومية الهامة أو الإخراط في سلك الحزب النازي العتيق ، أو الانضمام إلى طوائف الحرس الأسود (S.S) والتمتع بالمزايا التي أضحت من نصيب هؤلاء « النبلاء » الجدد في ألمانيا النازية .

فإذا استطاعت السيدة بعد هذه المتاعب الأولى الحصول على الشهادات والوثائق التي تريدها من الأبروشيات المختلفة ، وقبلت السلطات النازية هذه الأوراق وقطعت بأنها صحيحة ، وجب عليها بعد ذلك أن تعرض نفسها لفحص طبي دقيق تقوم به وزارة الصحة حتى تحصل على « شهادة الصحة » التي لا غنى عنها بتاتا من أجل إجازة الزواج والموافقة عليه . وقد يظن القارئ أن هذا الفحص الطبي بالمعنى المعروف ، ولكن الذي يحدث خلاف ذلك . إذ يكفي أن تقتنع السلطات النازية بأن السيدة من مؤيدات « الزعيم » ، والنظام القائم ، فتعطيها الشهادة الطبية المطلوبة مادامت ذات شعر أشقر ، وجمجمة طويلة وعينين زرقاوين ولها غير ذلك من الخصائص الجثمانية التي تميز في نظر النازيين الجنس الآري من الأجناس الأخرى . وما ينبغي ذكره أن هذا الفحص الطبي قد أغفل إغفالا تاما في أثناء الحرب . فصار طالبو الزواج يحصلون على الشهادات الصحية بعد فحص سجلات الصحة العمومية . بينما يعني الجنود وغيرهم ممن يؤدون خدمات وطنية مماثلة لما يؤديه الجنود من الفحص الطبي إعفاء تاما .

فإذا استطاعت السيدة إرضاء السلطات النازية والحصول على « شجرة الأسرة » المطلوبة

أو « جواز الآرية » . ثم على الشهادة الصحية . أمكنها أن تقدم طلبا للدولة حتى تحصل على « قرض الزواج » ، ذلك بأن الدولة النازية أخذت على عاتقها منذ دانت السلطة للهتلرلين في دولة الريح الثالث . إعطاء الزوجين معا قرضا يصل أحيانا إلى الألف من الريخماركات أو الخمسين جنيهها انجليزيا . وعند بدء العمل بهذا النظام منذ أول يونيه ١٩٢٣ كثر الإقبال على الزواج حتى اعتبر النازيون هذا التنظيم نجاحا عظيما لهم . وعلى هذا لم يكن الغرض الأول من (قروض الزواج) سوى معالجة أزمة البطالة المنتشرة في تلك الآونة بطريق غير مباشر . إذ كان من شروط الحصول على (قروض الزواج) أن تكف السيدة المزمعة على الزواج عن مزاوله عمل من أعمال كسب العيش في الدولة . فتفسح بخروجها من ميدان العمل مكانا لأحد الرجال العاطلين . أما ما أحدثه هذا التنظيم من آثار فيحسن إرجاء الكلام فيه حتى يبحث مركز المرأة في ألمانيا في ظل النظام النازي الجديد .

فإذا استطاعت السيدة التسلح « بجواز الآرية » . و « الشهادة الصحية » ، و « وثيقة (قروض الزواج) » . فإن عليها إذا أصرت بعد ذلك كله على الزواج من خطيبها جندي الحرس الأسود (S.S) أن تلتحق بمدرسة أعدت خصيصا « للعرائس » ، Bräuteschule ، وهي مدارس انتشرت في ألمانيا وأرغم النازيون « العرائس » على الالتحاق بها حتى يتلقين التعليم الذي كان يعده النازيون ضروريا لكل امرأة تريد الزواج من أحد جنود الحرس والانضمام بفضل هذا الزواج إلى زمرة « النبلاء » الذين تتألف منهم أرقى الطبقات وأعلاها في المجتمع النازي .

ولكن لماذا كان على المرأة وحدها أن تتحمل كل هذه المتاعب ؟ بعض السبب في هذا أن جنود الحرس الأسود (S.S) رجال سبق اختيارهم واطمأن الزعماء إلى أنهم يتمتعون بجميع ميزات « البطل الآري » . ولكن السبب الأكبر هو طبيعة المركز الذي كانت تحتله المرأة في المجتمع النازي الجديد . ويوضح نظره النازيين إلى المرأة ومقدار ما يحملونه لها من احترام أو تحقير ، أقوال زعمائهم وكتائبهم ، وكذلك تصرفاتهم وتشريعاتهم منذ وصولهم إلى الحكم . فقد حرص النازيون من مبدأ الأمر على إبراز حقيقة لها أهميتها : هي أن الدولة التي يعتزمون إنشائها (دولة رجال) لا يمكن أن تجد المرأة في وظائفها المدنية والسياسية مكانا تستطيع أن تعمل فيه إلى جانب الرجل ، أو أن تنافسه في كسب العيش ؛ كما أنها محرومة الحرمان كله في (دولة الرجل) هذه من أية حقوق سياسية ، وبخاصة حق التصويت في الانتخابات .

لذلك كتب أحد النازيين عقب وصول حزبه إلى الحكم يقول : سوف تعيش المرأة الألمانية منذ الآن في دولة يشيدها ويقودها الرجل ، أى في دولة غير برلمانية ، دولة محافظة لن يكون للمرأة فيها خلال المدة الطويلة التالية أى نفوذ مباشر ، كما كان الحال فيما مضى . وفي كتاب (أسطورة القرن العشرين) ، كتب فيلسوف النازية (الفرد روزنبرج) : « لقد كان دائماً من رأى أحجاب التفكير العميق أن الرجل متفوق على المرأة في ميادين البحث العلمى والاختراع والكشف ، وفي جميع الأعمال التى تدعو إلى الابتكار ، أما المرأة فوظيفتها مقصورة على صون الدم وتخليد الجنس (أى التناسل) . » إلى أن قال : « وفي أوقات المحن العصيبة ، يظهر إلى عالم الوجود كل من الرجل الخنثى والمرأة المحررة ، وكلاهما دليل الانحلال السياسى والثقافى . وعلى الرغم من جميع الحريات الممنوحة للمرأة ، فإن قول الفيلسوف اليونانى أرسطو لا يزال صحيحاً وهو : إن عجز المرأة هو الذى يجعل منها المرأة التى نعرفها ؟ ، وعلى ذلك ، كان منح المرأة نفوذاً دائماً في أعمال الدولة من علامات انحلال العصر التى لا يمكن أن يحطها أحد ، وآية ذلك — في نظر روزنبرج — « هذا الهبوط الشنيع الذى نلاحظه في مستوى الثقافة الأمريكية نتيجة لتمتع المرأة بمركز له خطره في المجتمع الأمريكى » . بل إن (روزنبرج) لا يتردد في الاعتقاد بأنه لو كان أمر الدفاع وتصريف شؤون السياسة متروكاً بأيدي النساء ، لكان مصير أمريكا الضياع والفناء منذ مدة طويلة . وفي عام ١٩٣٤ تحدث الهر هتلر إلى (مؤتمر النساء) عند انعقاد الحزب النازى فقال : « لقد حرصنا نحن الوطنيين الاشتراكيين منذ عهد طويل على أن نمنع النساء من التدخل في شؤون الحياة السياسية التى لا تعنيهن إذ أن هذا التدخل عار وأى عار . »

ومع هذا ، فقد حرص النازيون على ألا يظهر أو يظهر المحقرين لشأن المرأة ؛ ومن الحقائق المعروفة أن النساء في ألمانيا كن من أكبر المشجعين للحزب الوطنى الاشتراكى عند نشأته ، ومن أكبر المؤيدين للزعيم هتلر وأنصاره في جميع الانتخابات التى أوصلته في النهاية إلى منصب المستشارية ، اعترف الهر هتلر نفسه بهذه الحقيقة ، فقال إنه لا يسمعه سوى الاعتراف بما كان لجلد النساء وشدة احتمالهن للصاعب ، وإخلاصهن للحركة النازية من أثر كبير في نجاحها ؛ فلو لا هذا الجلد وذباك الإخلاص من جانب المرأة الألمانية لما استطاع أن يقود الحزب إلى النصر في النهاية . ولذلك لم يشأ الزعماء النازيون في البداية إغضاب المرأة ، فشرع (الهر جوبلز) وزير دعاوتهم يفسر أقوال (روزنبرج) وغيره ، بقوله إن إخراج المرأة من الحياة العامة ليس المقصود منه التخلص منها أو الاستغناء عن خدماتها ، وإنما إرجاعها إلى الحياة الأصلية الشريفة حياة الأسرة والمنزل .

غير أن أقوال (جو بلز) وأمثاله ما كانت لتغير شيئاً من نصيب المرأة التي انحط مركزها في المجتمع الهتلري حتى صارت هدفاً لكل الإهانات التي شاء متطرفو النازيين أن يوجهوها إليها . وكانت السيدات « الآريات » التي نشأ بينهن وبين اليهود غير الآريين مودة وصداقة أكثر عرضة للتحقير والإهانة من غيرهن ؛ وتحملن عذاباً أليماً على أيدي الشبان الهتلريين في كل ظرف ومناسبة . من ذلك ما حدث في (نورمبرج) في يوم من أيام شهر أغسطس عام ١٩٣٣ عندما قبض شاب من جنود الهجوم (S.A) على فتاة آرية تبلغ التاسعة عشر ربيعاً كانت تسير في صحبة شاب يهودي ، فانزعها قسراً إلى مكان قريب حيث قص شعرها وحلق رأسها وعلق حول عنقها إعلاناً كتب عليه : « لقد أسلمت نفسي إلى رجل يهودي ! » ولم يكن هذا كل ما حدث للبائسة ، إذ اجتمع من حولها زعانف النازيين وأرغموها على السير في الشوارع والتنقل من مقهى إلى آخر ، وفي كل من هذه المقاهي أرغموها على أن تقف فوق منصة عالية وانهاوا عليها بأفحش ألفاظ الشتم والسباب . أما الفتاة المسكيننة فسرعان ما فقدت عقلها عقب هذا الحادث المؤلم ، وأودعت مستشفى للأمراض العقلية ولا يدري أحد ما حدث لها بعد ذلك وإذا كان هذا نصيب المرأة الآرية ، فإن نصيب المرأة اليهودية على أيدي الهتلريين كان أشد وأنكى . فاليهوديات كن « المنبوذات » في المجتمع النازي الجديد . ومن المعروف أن النازيين بعد سقوط النساء أرغموا السيدات اليهوديات في مدينة فيينا على تنظيف (مراحيض) الرجال ونقل القاذورات بأيديهن !

وكذلك يتبين مبلغ إمتهان المرأة من الأساليب التي كان يتبعها الهتلريون في معاملة النساء عامة في المجتمع الألماني . فبينما كانوا يطلبون إلى زوجاتهم البقاء في بيوتهن لإدارة شؤون الأسرة ويحضونهن على عدم التزين واستخدام المساحيق وما إليها بحجة أن المرأة النوردية ليست في حاجة إلى مثل هذه الوسائل المنافية للحشمة والتي تلجأ إليها غير الآريات والزنجيات ومن في عدادهن لاصطياد الرجال واغرائهم ، كانوا من ناحية أخرى ، باعتبارهم أصحاب السيادة والنفوذ في دولة الرجل الجديدة يسيرون مع غير زوجاتهم سيرة معوجة . فيقبلون على معاشره الشقراوات الجميلات خارج نطاق الزوجية ، ويطلبون إلى خلياتهم الاهتمام بكل ما يزيدهن جمالاً ويكثرن من إهدائهن الورود والزهور ، ويقرعون معهن كؤوس الشراب مترعة حتى قال أحد النقاد الاجتماعيين ما معناه : إن كل شيء في ألمانيا لا يمكن الحصول عليه بدون بطاقة التموين ، عدا الشقراوات ، والزهور والرياحين ، والشمبانيا ، ومعاطف الفرواثنين والجنبرى !

ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد ظهرت عوامل أخرى نشأ بعضها ولا شك من إمتهان المرأة وتحقيرها وتحريم الزينة عليها وإرغامها على الترهل والبذانة — لأن البذانة كما كان يزعم

النازيون من أنجح الوسائل لسرعة الحمل وولادة الأطفال الأصحاء — ونشأ بعضها الآخر من طبيعة تنظيم الحزب النازي نفسه ، وكذلك تنظيم الدولة التي شاء الزعماء أن تكون دولة من الرجال ، وللرجال وحدهم وقد نجم عن تضافر هذه العوامل انتشار مرض الاختلاط الجنسي الشاذ بين هؤلاء الرجال أنفسهم .

وهذا المرض الاجتماعي الويل ، يرجع في الحقيقة إلى أصول تاريخية وثقافية قديمة ، يمكن إدراكها إذا عرف شيء عن تاريخ الأمة الألمانية خلال حرب التحرير من السيطرة النابليونية وكذلك عندما ظهرت رغبتهم في التحرر من سلطان الإمبراطورية النمساوية القديمة في القرن التاسع عشر فقد لجأت في سبيل تحقيق أغراضها ومآربها إلى تأليف الجمعيات السياسية من أبناء الجامعات الألمانية وغيرها أمثال (البورشنشافت) (Burschenschaft) وجماعات الطلبة (ستودنتشافت) (Studentenschaft) ، وكذلك جماعات «شباب ألمانيا الحرة» (فرايدوتش يوجند) (Ereideutsche Jugend) . التي تألفت في عام ١٩١٣ من الشبان الذين أرادوا الاحتفال بذكرى مرور مائة عام على معركة (ليبيج) حيث انهزم نابليون بونابرت في أكتوبر ١٨١٣ . وكانت كل من هذه الجماعات تقوم على أساس إفتاء الفرد في شخص الحزب أو الجمعية وإفتاء الحزب أو الجمعية في شخص الزعيم ، وكان يربط بين الأعضاء من ناحية وبينهم وبين الزعيم من ناحية أخرى رباط الدم على غرار ما كان يحدث بين القبائل والعشائر الجرمانية القديمة . كما أن مؤسسى هذه الجماعات اعتقدوا بضرورة عزل أعضائها الشبان — ومنعهم من مخالطة النساء ، بدعوى أن هذه المخالطة تصرف الأعضاء عن تكريس أنفسهم لخدمة القضية التي نصبوا أنفسهم لخدمتها . ولذلك أنشأوا لأعضاء هذه الجمعيات مننديات خاصة ، ورسوموا لهم نوع الحياة التي يجب أن يعيشوها في معسكراتهم ؛ وكان من السهل أن ينشأ مرض الاختلاط الجنسي الشاذ بين هذه الجماعات البعيدة عن النساء ، شأن كل جماعة تعيش في عزلة جنسية .

وقد تقدم الكلام عن تأسيس الحزب النازي وشرح نظرية (الزعامة) المسؤولة وبيان ما كانت تتطلبه تلك الزعامة من ضرورة إفتاء الفرد في شخص الزعيم ؛ كما تقدم الكلام عن رغبة الزعماء النازيين في أن يؤلفوا من شبان حزبهم طبقة جديدة من النبلاء في ألمانيا ، فعزلوهم عن غيرهم ، كما قيدوا زواج أعضاء الحزب وجماعة الحرس الأسود على وجه الخصوص بتلك القود الصارمة التي سبق ذكرها . ويتضح من هذا كله أن النازيين أنشأوا حزبهم على القواعد والمبادئ ذاتها التي عملت بها الأحزاب والجماعات القديمة ، مثل (البورشنشافت) وغيرها . وقد انتشرت العلاقات الجنسية الشاذة بين أعضاء الحزب النازي انتشارا مريعا من مبدأ الأمر

حتى صار زعماء الحزب لا يجدون غضاضة في أن يعرف الناس عنهم هذه الصفات المردولة ، بل لأنهم كانوا يفخرون بها ، وما يزال حادث (إرنست روم) وإخوانه من ضحايا « حمام الدم » المشهور في ميونخ في يونيه ١٩٣٤ ماثلا للذهاب .

وزيادة على ذلك ، فإن هذه الرذيلة الجنسية الشاذة لم يكن لها سند تاريخي فحسب ، بل كانت ترجع كذلك إلى أصل ثقافي . فقد استطاع أحد كبار الكتاب والمؤرخين (أوتوزاريك) Oto Zarek أن ينشر في عام ١٩٤٣ بحثا قيما عن تاريخ الثقافة الجرمانية من أدب وشعر وموسيقى وتصوير وفلسفة واجتماع وكان من النتائج التي انتهى إليها من جميع هذه البحوث ، أن (الروح) الجرمانية روح مزدوجة تحلق بالألمان في سماء الإنسانية والمجد من ناحية ، وتهبط بهم إلى حضيض الحيوانية واستمراء البطش والقسوة من ناحية أخرى في الوقت نفسه . وكان من بين ما تناوله هذا الكاتب المؤرخ مسألة وجود هذا المرض الجنسي الشاذ وانتشاره بين الجماعات والأحزاب الألمانية السياسية وغيرها من القديم ؛ وبين الحزب النازي نفسه . وقد أسفرت بحوثه في هذا الموضوع عن نشر حقيقة ظلت الدعاية الألمانية على أيدي الهر جوبلز وأمثاله تحاول أن تظلمس معالمها وهي أن الهر هتلر نفسه زعيم الحزب النازي ، وزعيم دولة الريخ الثالث ، كان من أشد الناس انغماسا في هذه الرذيلة فقد ذكر (زاريك) في كتابه (الثقافة الجرمانية) German Kultur صفحة ١٨٤ ما ترجمته :-

« كان (روم) الرجل الذي نجح نجاحا عظيما في تنظيم خلايا الحزب النازي الجديد بجمع أعضاء الحزب من بين أفراد (حركة الشباب الألماني) الذين كانوا أكثر قبولا من غيرهم للإضمام إلى حزبه . وقد تبين أن ما قاله (بلوهر) Blüher ، قول صادق ، وهو أن الحركة النازية ما كان يمكن أن تنجح لو أن هتلر لم يضع نفسه على رأسها ، « فإن كل شيء يتوقف على الشخصية » ، وهذا أمر مسلم به . ولكن شخصية هتلر لم تكن تتلام تماما مع ما كان يطلبه (بلوهر) فقيما بين عامي ١٩٢٠ ، ١٩٢٢ قبل حركة الانقلاب والثورة الفاشلة (Putsch) ، كان نشاط هتلر الجنسي الشاذ معروفا في ميونخ . ثم سعى هتلر حتى يخفي أمر انغماسه في هذه الرذيلة ، ويحيط هذا النشاط بسياج من السكتان عندما أدرك أنه سوف يحتمل مكانا ملحوظا في أعين الجماهير . بل إن يقظته سرعان ما جعلته يحمل على هذه الرذيلة الشاذة في خطبه العامة ، ولو أنه كان يعرف حق المعرفة أن أخص أتباعه المقرين إليه كانوا من المنغمسين في حماة هذه الرذيلة .

وهتلر نفسه هو الذي جعل من (إرنست) صاحب الشهرة السيئة من هذه الناحية في مجتمعات برلين ، رئيسا لجنود الحرس الاسود (S.S) في سيليزيا ، وقد ظل (إرنست) يحتمل

هذا المكان الرفيع حتى قضى عليه فيمن قتلوا من زملاء (روم) في حادث ميونخ . وهتلر نفسه هو الذى اختار (بالدور فون شيراش) Raldur von Schirach لزعامة شباب الريخ Reisch Jugend führer ، فلم تنقضى فترة قصيرة حتى أطلق عليه أحد المتشددين فى برلين اسم (مفسد شباب الريخ) Reisch Jugen verführer (ومعنى verführer بالعربية المضلل أو الرجل الذى يحمل سواه على سلوك سبيل الغواية) . وهتلر نفسه هو الذى نصب الدكتور (فونك) Dr Funk وزيرا للمالية الريخ ، والدكتور فونك من الذين كانوا يترددون كل مساء على مواخير الاختلاط الجنسى الشاذ وهتلر نفسه هو الذى منح مركزا عاليا فى وزارة المالية لصديقه (ارنست والتر) (Walter) من محترفى الملاكمة ومدربه القديم فى السباحة .

ولكن أهم من ذلك تلك القصة التى يرويها ويؤكد صدقها أحد أقرباء وزير نازى مشهور ، وهى تلقى ضوءا على حياة هتلر الشاذة . فقد اعترف هذا الشاهد بأن (بالدور فون شيراش) كان الشخص المسكف باختيار ضحايا الزعيم ، أما هؤلاء الضحايا فكانوا بعد اقتراس الزعيم العظيم لهم وقسوته الشاذة معهم ، يقتلون فى التو والساعة تخلصا منهم حتى لا يذيع شيء من أمر هذه المآسى . وعندئذ يرسل زعيم شباب الريخ خطاب تعزية لوالدى الضحية البائس يخبرهما فيه بأن فتاهما أصيب بحادث أودى بحياته فى أثناء خروجه فى رحلة للسير على الأقدام مع زملائه .

ويختتم (أوتو زاريك) هذا الحديث بقوله : « وإن هذه القصة لتتفق الاتفاق كله مع نظام التربية الألمانى ، وطقوس رباط الدم الأخرى الخفية ، وهى فى الحقيقة النتيجة المنطقية لعملية بدأت فى الواقع قبل تأسيس دولة الريخ الثالث على أيدي هتلر بحوالى المائة عام ! » . ولعل أكبر دليل على انتشار هذه الرذيلة ما أذاعته جريدة الحرس الأسود (S.S) والبوليس الرسمية — المسماة Das Schwarzekorps — فى مارس ١٩٣٧ من أن عدد المصابين بهذا الداء الوييل والمتحقين بمختلف الأندية المخصصة لإتيان هذه الفاحشة فى انحاء الريخ ، بلغوا المليونين عند وصول النازيين إلى الحكم . وهذا بطبيعة الحال عدا أولئك الذين كانوا لا ينتمون إلى هيئة من الهيئات التى أحصيت .

وفى استطاعة القارىء أن يتصور ما تكون عليه حال المرأة فى مجتمع تنتشر بين شبابها ورجاله وزعمائه رذيلة الاختلاط الجنسى الشاذ هذا الانتشار المروع ! على أن المصائب التى نزلت بالمرأة الألمانية لم يكن مصدرها جميعا انتشار هذا المرض فهناك ناحية إيجابية أيضا فى التنظيم والتشريع النازى سبب للمرأة الألمانية آلاما لا تحصى ،

وألحقت بها المذلة والمهانة . مثال ذلك ما فعله النازيون إذ حرموا النساء في دولة الريخ الثالث مباشرة حقوقهن السياسية .

فن الحقائق المعروفة أن عدد النابات في مجلس الريخستاج المنحل في ٣١ يولية عام ١٩٣٢ كان يبلغ الثمانية والثلاثين امرأة . نقص إلى خمس وثلاثين في نوفمبر ثم إلى ثلاثين في انتخابات مارس ١٩٣٣ ، ثم اختفى النساء من الريخستاج نهائيا منذ استأثر النازيون بالسلطان المطلق في الدولة . وزيادة على ذلك فقد أصدرت الحكومة البروسيانة في ٢٧ أبريل ١٩٣٤ أمرا يقضى بطرد جميع المتزوجات اللواتي تستطيع أسرتهن إعالةهن من الوظائف ، وظلت الحكومة النازية تتذرع بشتى الوسائل لإنقاص عدد الموظفين إلى أقل عدد ممكن ، وطرد النازيون فيمن طردوا عددا كبيرا من المعلمات بمدارس البنات واستبدلوا بهن الرجال ، وبذلك نقص عدد المدرسات بمدارس البنات العالية في عام ١٣٥ لى (١٩٤١ و٩٠) بعد أن كان قبل استلام النازيين لأزمة الحكم (١١٠ و٣٧٠) . وفي السنة الدراسية ١٩٣٥ — ١٩٣٦ بلغ عدد من يقومون بالتدريس في المعاهد العالية (٥٨٨٨ و٥) كان عدد النساء بينهم (٤٦) لم يعطين إلى جانب ذلك مناصب ثابتة أو مراكز مستقرة . ومع أن عدد المشتغلات بالاعمال الاجتماعية الصرفة ، ظل على ما هو عليه تقريبا مع ازدياد عدد الطبيبات فقد استأثر الرجال بالمراكز المسؤولة ، وقد هدد الدكتور (جيرهارد واجنر) Gerhard Wagner وهو رئيس الأطباء النازيين في ذلك الحين ، في اجتماع عقد في برلين في ديسمبر ١٩٣٤ : « بانهم — أى النازيين — سوف يقضون على كل تربية عالية للنساء » ، إذ قيد النازيون تعليم المرأة العالى بقيود صارمة ، فاصدروا في ٢٣ أبريل ١٩٣٣ قانونا قضى بانقاص عدد الطلبة في الجامعات الألمانية إلى ١٢٠.٠٠٠ طالب ، على أن تبلغ نسبة عدد الطالبات ١٠٪ من هذا المجموع ، أى ١٢.٠٠٠ طالبة . فإذا عرف أن عدد الطالبات في الجامعات الألمانية في آخر سنة مدرسية سبقت وصول النازيين إلى الحكم . بلغ (٢١ و٨٢٩) أى ١٩ و٢ ٪ من مجموع الملتحقين بالجامعات ، لتبين أن عدد الطالبات اللواتي أراد النازيون إخراجهن من الجامعات وحرمانهن الدراسة العالية لم يكن يقل عن (١٠ و٠٠٠) فتاة . ومع أن السلطات النازية لم تلبث أن ألغت هذا القانون في ٩ فبراير ١٩٣٥ ، فان الفتاة الألمانية الراغبة في إتمام دراستها العالية كانت تجد مشقة عظيمة في تحقيق هذه الرغبة .

ولكن إذا حرمت المرأة التعليم العالى ، والفرصة التي تمكنها من مزاولة المهنة التي يقع عليها اختيارها كالطب أو التدريس أو الخدمة الاجتماعية ، فإذا ياترى كان يريد النازيون أن يكون عملها ؟ لم يستطع النازيون الإدلاء برأى صريح حاسم في هذه المسألة ، ولو أنهم قالوا أن الخدمة المنزلية ، هي ميدان المرأة الطبيعي الذي يتلاءم مع أنوثتها . إذ في وسعها أن تعمل

كممرضة أو كمرية للأطفال أو مديرة منزل أو خادمة . وكان من رأيهم قبل اشتداد أزمة الأيدي العاملة خلال سنوات الحرب أن العمل في المصانع أو المكاتب لا يتلاءم مع أنوثة المرأة ، بل ينبغي أن يكون من نصيب الرجل وحده ؛ والظاهر أنهم كانوا يريدون تفريغ أزمة البطالة التي واجهت النازيين في بداية عهدهم . لذلك بذل النازيون جهداً عظيماً لإخراج النساء من ميدان العمل ولكنها كانت جهوداً فاشلة . إذ دلت الإحصائيات الحكومية على أن عدد النساء العاملات قد ارتفع من ٤,٢٧٢,٤٨٧ في يناير ١٩٣٣ إلى ٥,٣٣٧,٥٧٣ في عام ١٩٣٦ أي بزيادة (١,٠٦٥,٠٨٦) امرأة . وسر هذا الفشل أن الرجل المتزوج ظل تحت الحكم النازي عاجزاً عن زيادة كسبه بدرجة تمكنه من الانفاق على أسرته ؛ أضف إلى هذا أن النازيين لم يستطيعوا تحقيق الوعود التي أسرفوا في بذلها للنساء الألمانيات عند بداية حكمهم ؛ ومنها إعداد البيوت ، ذات الطراز الحديث التي ينبغي أن تكون من نصيب كل أسرة ألمانية في دولة الريخ الجديدة ؛ فقد وجد النازيون أن تشييد هذه البيوت وتجهيزها للسكنى من الأمور المستعصية في وقت كان الزعماء يوجهون فيه نشاط الأمة الألمانية نحو الاستعداد للحرب المنتظرة بل لقد كان هذا الاستعداد نفسه من الأسباب التي أدت إلى فشل النازيين في إخراج المرأة من ميادين العمل المختلفة . فإن الحكومة النازية سرعان ما جعلت نشاطها مقصوراً على إنتاج عتاد الحرب ، حتى ظهرت الحاجة الملحة إلى الأيدي العاملة وإلى استخدام النساء في نواحي الاقتصاد الأهلي المتعددة . بل إن النازيين سرعان ما عمدوا إلى إرغام عدد من النساء على ترك العمل في الحوانيت والمكاتب وهو ما يلائم أنوثتهن ، للعمل في المصنع والحقل . وقد حدث هذا حتى قبل نشوب الحرب بمدة طويلة . ثم لم تلبث أن عظمت الحاجة إلى خدمات النساء في مختلف الأعمال الإنتاجية بعد قيام الحرب وإخفاق النازيين في جعلها حرباً خاطفة ، تكفل لهم النصر السريع .

ذلك بأن الحرب أوجدت النازيين أمام مشاكل كثيرة ؛ كان بعضها متعلقاً بضرورة استخدام جميع الوسائل التي من شأنها زيادة الإنتاج الحربي ، ومن أهم هذه الوسائل : الأيدي العاملة ، وكان البعض الآخر متعلقاً بضرورة الإكثار من عدد المقاتلين الذين يرسلون تبعاً إلى ميادين القتال من جهة ، وإلى البلدان التي غزاها الألمان وخضعت لحكمهم من جهة أخرى . وقد أحدث وجود هذه المشكلات تغييراً ملحوظاً في مركز المرأة وفي الحياة بصفة عامة في داخل ألمانيا .

فأما عن الأثر الأول — فقد مر بنا كيف كان عدد النساء العاملات آخذاً في الزيادة بدرجة كبيرة ؛ مما يدل على أن النازيين قد أرغموا إرغاماً بسبب ظروف الحرب والحاجة إلى

الأيدي العاملة على تغيير نظرهم إلى المرأة ، حتى صاروا يعترفون لها بالذكاء والقدرة على التفكير ، وإمكان الاعتماد عليها كأداة نافعة من أدوات الإنتاج الهامة ؛ فأجازوا لامرأة المزارع الذى أرسل إلى ميدان القتال ، أن تدير شؤون المزرعة ، ولزوجة صاحب الحانوت الذى سقط فى ساحة الوغى أن تدير عمله ؛ وهذا بطبيعة الحال إلى جانب عملها (الطبيعى) الذى يتلاءم مع أنوثتها فى البيت والمطبخ . كما أجاز النازيون استخدام الفتيات ضمن القوات المحاربة كعاملات للتليفون والتلغراف . وفى المصانع كذلك . بل إن الدولة ، فى هذه الظروف الجديدة ، صارت تحتم على النساء المتزوجات ، مهما بلغ عدد أطفالهن — أن يكرسن ساعات معينة من كل يوم ، بطريق « التطوع » ، للخدمة العامة كباتعات أو مشغلات فى عمل من الأعمال التى كانت تشرف عليها مكاتب العمل الرسمية ، وهذا من غير نظر إلى ملائمة هذه الأعمال أو عدم ملائمتها لهن . (كما جاء فى إحدى صحف برلين الصادرة فى ١٨ أبريل ١٩٤٢ .
(Berliner Borsenzeitung) وقد نشرت جريدة فرنكفورت (Fransk furter Zeitung) فى عدد ٢٩ مارس ١٩٤٢ ، أنه ينبغى على النساء أن يزاوئن بعض المهن التى يقوم بها الاسكافيون أو السكربائيون ومن اليهم ؛ إلى جانب اشتغالهن بتمريض جرحى الحرب . إذ كان النازيون يطلبون إلى جميع النساء بين سن السادسة عشرة والستين التطوع فى خدمة الصليب الأحمر . ويتبين معنى « التطوع » فى هذه الخدمة « الانسانية » بما نشرته جريدة (فولكشير بيوبختر) (volkischer Beobachter) فى عدد ٢٩ مارس ١٩٤٢ تحت عنوان : « قلوب النساء فى الميدان » ، إذ قالت مامعناه أن حماسة النساء المتطوعات للتمريض من شأنها أن تقلل من الخطأ الذى يرتكبه غيرهن من النساء اللواتى يصلحن لهذا العمل ولكنهن يمتنعن عن التضحية بأوقات فراغن فى هذه الخدمة ! غير أنه من المنتظر أن يدرك أمثال هؤلاء أهمية هذا العمل الآن ! .

أما عن الأثر الثانى ، فقد بذل النازيون كل جهد حتى يقنعوا النساء بضرورة الاكثار من ولادة الأطفال بكل وسيلة ؛ إذ نظموا حملة واسعة لهذا الغرض ؛ وأطلقت الدعاية النازية العنان لنشاطها فى سبيل « معركة الأطفال » التى أرادوا إقناع الشعب الألماني بأن كسبها لا يقل أهمية فى الحقيقة عن كسب معارك الحرب الحامية ضد أعداء دولة الريخ الكثيرين الذين يريدون القضاء على ألمانيا الكبرى وكانت تشرف على هذه الحملة (زعيمة النساء) فى الريخ ، السيدة (شولتز كلينك) Frau Scholtz-klinck ومن عباراتها المأثورة : « أعطونا أطفالا ومدافع ! » وقد أدرك الزعماء النازيون أنه لا مفر لهم عن تغيير نظرهم السابقة نحو المرأة حتى يتسنى نجاح هذه المعركة ؛ لذلك شرعوا يحثون المرأة النوردية على ضرورة العناية

بمظهرها ، وانتقاء الأثواب الجميلة التي تناسبها ، واستخدام المساحيق التي تلائم بشرتها كما صاروا يطلبون من الرجال الابتعاد عن الخشونة و « السلوك » العسكري الجاف في مجالس السيدات ؛ حتى أن زعيم الشباب (بلدورفون شيراش) وسمعته السيئة أشهر من أن يشار إليها لم يلبث أن أعلن في يناير سنة ١٩٣٨ عن إعداد برنامج شامل الغرض منه تجميل الفتيات الألمانيات « سواء أرغبن في ذلك أم رغبن عنه ! » — على حد قوله . ثم أنشأ (فون شيراش) جمعية للفتيات الألمانيات بين الثامنة عشرة والحادية والعشرين أطلق عليها اسم جماعة « العمل والجمال » ، والامان ، وجعل التحاق الفتيات بها إجباريا . ولم يعطل حملة « التجميل » الجديدة سوى نشوب الحرب .

ومع هذا فقد ظل النازيون يطلبون إلى الألمانيات أن يحرصن على جمال أجسامهن وأناقته مظهرهن على الرغم من الصعوبات التي أوجدتها ظروف الحرب

على أن « معركة الأطفال » هذه كان نجاحها يتطلب زيادة في اقبال الشعب الألماني المطردة على الزواج . ومن مبدأ الأمر عنى النازيون بمسألة الزواج لأهمية هذه المسألة من ناحية نقاء الجنس والدم ، وما يترتب على ذلك من تنظيمات اجتماعية وسياسية واقتصادية سبق الحديث عن طرف منها وعن قروض الزواج ، كوسيلة من وسائل التشجيع على الخروج من نطاق العزوبة رغبة في الاكثار من النسل . وقد نفذ قانون قرض الزواج هذا ابتداء من أول أغسطس ١٩٣٣ . وأفاد منه كثيرون ، حتى بلغ عدد القروض التي أعطتها الدولة « للمتزوجين » من بدء العمل به إلى أول مايو ١٩٣٩ (١,٢٠٠,٠٠٠) قرضا . كلفت الخزنة حوالى (٧٥٠,٠٠,٠٠٠) ريخمارك ؛ هذا عددا جملة قروض أخرى أعطيت للقرض نفسه بمعدل ٢٥ ألفا في الشهر الواحد . وتدل الاحصائيات الرسمية على أن نسبة الزواج ارتفعت بالفعل من ٧,٩ في الألف في عام ١٩٣٢ إلى ٩,٤ في الألف في عام ١٩٣٨ ؛ كما ارتفعت نسبة المواليد من ١٥,١ في الألف في عام ١٩٣٢ إلى ١٩,٧ في الألف في عام ١٩٣٨ . وبلغ عدد المواليد حتى أول مايو ١٩٣٩ حوالى المليون طفل ولدوا لآباء استطاعوا الزواج بفضل القروض التي حصلوا عليها من الدولة .

وكذلك كان من وسائل تشجيع الاكثار من النسل أن الدولة أخذت على عاتقها إمداد أصحاب الأسرات الكبيرة بالإعانات حتى أن الرجل والد الأطفال الكثرين صار يحصل على إعانات تزيد قيمتها على ما يمكن أن يحصل عليه بكسبه من عمله العادى . ولم تشترط الدولة لمنح هذه الإعانات أن يكون الأطفال من أسرة واحدة ، بل ان الأسرة التي تتبنى طفلا أو أكثر أو يكون أحد أطفالها من أب آخر وأم أخرى تستطيع أن تحصل كذلك على إعانة الدولة السخية مثلها في ذلك مثل الأسرة العادية المؤلفة من أب وأم وأولادهما . وقد

بدأ النازيون يدفعون هذه الاعانات في اكتوبر ١٩٣٥ ، فبلغ مادفعوه حتى أول مايو ١٩٣٩ حوالى (٢٥٥,٠٠٠,٠٠٠) ريخمارك ، لأطفال بلغ عددهم حوالى (٣,٧٥٠,٠٠٠) أى بمعدل ٦٨ ريخمارك لكل طفل . ولم يلبث أن زاد سخاء النازيين فعدلوا فى شروط منح هذه الاعانات ، وخففوا من قيودها إلى حد كبير فى أكتوبر ١٩٣٧ ، ثم فى ابريل ١٩٣٨ حتى بلغ ماصاروا يدفعونه فى كل شهر (— كما ذكر النازيون أنفسهم فى صيف ١٩٣٩) حوالى ٣٠,٨٠٠,٠٠٠ ريخمارك لعدد من الاطفال يبلغ (٢,٥٠٠,٠٠٠) .

هذا إلى أن النازيين صاروا يصرفون أجوراً عالية لأصحاب الأسر الكبيرة . وذلك عدا تسكينهم للأمهات اللواتى يلدن أطفالا كثيرين ، حتى أعد الهتلر أوسمة خاصة تعطى للأمهات حسبما يكون لهن من أطفال ، فتنال ذات الأربعة أو الخمسة أطفال وساما حديديا وذات الستة أو السبعة وساما فضيا ، وذات الثمانية أو التسعة وساما ذهبيا . وعينت الدولة يوما مشهوداً ، هو يوم مولد الهتلر نفسه (١٢ أغسطس) من كل عام لتوزيع هذه الوسامات فى احتفال رسمى كبير ، وسمته ، يوم الشرف لجميع الأمهات ، وفضلا عن ذلك ضمنت الدولة راحة الحوامل فعملت على تخفيف أعباء العمل ، وإزالة المضنى منه عن كواهلهن ، كما أصدرت قوانين معينة لمعاقبة كل من تحدثه نفسه باهانة الأمهات أو الحوامل كما أن الدولة لم تلبث أن اتخذت اجراءات صارمة لمنع الإجهاض ، وحرمت ذبوع الموضوعات التى تبحث فى وسائل منع الحمل ، كما منعت بيع الأدوية أو الأجهزة الخاصة بذلك .

ومع هذا لم يقنع النازيون فى معركة الاطفال بما أدركوه من نجاح كان فى نظرهم مايزال محدوداً ، فطفقوا يبحثون عن وسائل جديدة وبخاصة عندما حذى وطيس القتال فى ميادين الحرب المختلفة وعظم عدد قتلاهم ، فهداهم التفكير السقيم إلى ابتكار أسلوب جديد للاكثار من النسل ، كان ومايزال منذ بدء الخليقة من الأمور التى حرمتها جميع الشرائع والأديان ، وأنكرتها المقاييس الخلقية انكارا شديدا ، هذا الأسلوب هو تشجيع التناسل خارج نطاق الزوجية الشرعية .

وقد برر النازيون تشجيعهم هذا العمل المنكر بضرورة توفر الكثرة العددية لديهم حتى يستطيعوا فرض سلطانهم على أوروبا ثم على العالم فى النهاية ، وقد افتتح الهتلر نفسه هذه الحملة الجديدة فى سبيل الاكثار من الاطفال عن أى طريق ، فقال يتألف برنامج حركة النساء الوطنيات الاشتراكيات من مادة واحدة فحسب هى الطفل ! . ثم لم يأنف الهتلر من استخدام « الطرق » التى توقع فائدها فى إغراء النساء على إتيان هذا المنكر ، من

ذلك أنه كان ينتهز فرصة انعقاد مؤتمر الحزب السنوى فى نورمبرج ، فيختار نخبة من الشبان الأشداء أصحاب الأجسام المتسقة ذات العضل المقتول ، ويجعلهم يسرون فى عرض بديع أمام الجماهير ، ويلبهم النساء طبعاً — على ألا يرتدى هؤلاء الشبان سوى سراويل قصيرة وأحذية . وحدث فى عام ١٩٣٥ بعد عرض مثل هذا أن وقف (الفوهرر) يخطب الفتيات والسيدات الحاضرات ، فقال :

« وعندما يرى النساء هؤلاء الشبان (من جماعة العمل) يرتدون سراويلهم القصيرة ليس غير ويعرضون صدورهم عارية تماماً ، فإن النساء ولا شك سوف يرددن ما أجمل هؤلاء الشبان ! وما أحلى متعة المرأة بهم ! ، وليس بعد هذا التحريض الرسمى على أتيان الفاحشة شيء . » وقد قال فيلسوف النازية (الفرد روزنبرج) : « إن الأمة الجرمانية ما كانت تستطيع اجتياز الأزمات العصبية التى اعترضت نموها فى الماضى لو أن رجالها آثروا العيش مع امرأة واحدة فحسب ! » ، وقال أيضاً : « سوف ينظر الريخ الألمانى فى المستقبل إلى المرأة التى لا أولاد لها ، سواء كانت متزوجة أو غير متزوجة (!) ، كعضولا يتمتع بالحقوق الكاملة التى يتمتع بها بقية أعضاء هذا المجتمع . وعند الكلام فى هذا الصدد ، لا ينبغى أن تكون جميع العلاقات الجنسية التى تسفر عن ولادة أطفال فى خارج نطاق الزوجية ، موضع مؤاخظة أو عقوبة قانونية ! » ،

ومع هذا فقد كان هناك متحمسون لفكرة الإكثار من الأطفال غير الشرعيين بحيث يعتبر قول (روزنبرج) سائفاً مقبولا . مثال ذلك ما جاء فى صحيفة من صحف (جبهة العمل) فى إحدى المناسبات ، إذ ذكرت أنه من المحتمل جداً أن يكون هؤلاء الأطفال غير الشرعيين أكثر صلاحية من الناحية العنصرية من الأطفال الشرعيين ، لأن الأطفال غير الشرعيين لا بد وأن يكونوا بالضرورة ثمار حب أشد وأقوى عنفاً . وقال الدكتور (لى) Ley رئيس جبهة العمل ورئيس تحرير هذه الجريدة : « إننا نقاوم فى الحقيقة ميولا ضارة عتيقة بالية ، لأنه لا ينبغى أن يترك الزواج حتى يصبح عقبة فى سبيل القوة الدافعة الطبيعية ! ، أى الشهوة البهيمية بمعنى آخر . »

وقد كان لهذه الأقوال وأمثالها آثار بعيدة فى المجتمع الألمانى . فقد نشر مكتب الإحصاء الفدرالى بسويسرة فى جريدة فرنسكفورت اليومية Frankfurter Zeitung بتاريخ ٢١ أغسطس ١٩٣٦ ، إحصاء عن عدد الأولاد المبكر الذين ولدوا قبل مضى تسعة أشهر على زواج والديهم ، فقال أنهم يبلغون فى كل مائة : ١٧ فى فرنسا و ٢٧ فى إيطاليا و ٢٩ فى سويسرة و ٣٧ فى استراليا و نيوزيلندة و ٥١ فى سكسونيا الألمانية ! . ومنذ نشوب الحرب العالمية الثانية شجع الزعماء النازيون الإكثار من هؤلاء الأطفال غير الشرعيين بكل الطرق

وأيد كل من (هس) Hess و (هيملر) Himmler المبدأ الذى أذاعه الدكتور (لى) Ley عن عدم استمرار الزواج الشرعى عقبه تحول دون إطلاق العنان للغزيرة الجنسية . فقال (ردولف هس) : « أن كل مولود جديد له أهمية خاصة وقت الحرب ؛ لأن الحرب تكلف الأمة حياة كثيرين من خيرة رجالها ؛ ولذلك فانه عندما يذهب الشبان الذين ثبت نقاؤهم من الناحية العنصرية إلى الحرب بعد أن يتركوا وراءهم أطفالا لا تجرى في عروقهم دماء آبائهم النقية ، وفي وسعهم نقل هذه الدماء إلى الأجيال المستقبلية ، بينما تجرى في عروقهم كذلك دماء أمهات من الشابات سليكات البنية من الناحية الوراثية ، ولكن كان من المتعذر لسبب ما زواجهن من آباء هؤلاء الأطفال ، عندئذ سوف يبذل كل جهد حتى تترك هذه السكنوز القومية دون أن تلقى ماتستحقه من العناية ، وقال ، (هنريك هيملر) ، « أن الواجب يقضى على السيدات والفتيات الألمانيات اللواتي يجرى في عروقهن الدم الآرى النقى أن يصبحن أمهات لأطفال يلدنهم من آباء يذهبون إلى جبهات القتال المختلفة ، ولو اقتضى الأمر أن يولد هؤلاء الأطفال خارج نطاق الزوجية الشرعية ! ، وقد جاء هذا القول في أمر أصدره (هيملر) في ٢٨ أكتوبر ١٩٤٣ بوصفه رئيسا لقوة البوليس الألماني ووزيرا للداخلية ، إلى جميع جنود الحرس الأسود (S.S) ورجال البوليس ، يدعو فيه إلى الإكثار من « إنتاج » الأطفال سواء أكانوا شرعيين أو غير شرعيين ، ويطمئن الأمهات اللواتي يترملن من جراء وفاة آباء أطفالهن في ساحات القتال سواء أكلن هؤلاء الآباء أزواجا شرعيين أم غير شرعيين على مصير أطفالهن ؛ فيعدهن بأن الدولة ذاتها سوف تقوم بالانفاق عليهن والعناية بتربية أولادهن ، مادامت هذه الحرب قائمة ، وبعد انقضاء الحرب أيضا ؛ لأن واجب جنود الحرس المختارين (S.S) ، وواجب الشابات السليكات ممن يجرى في عروقهن الدم الآرى النقى ، أن يحرصوا جميعا على أن يكون لدى دولة الريخ العدد العظيم من الآريين والآريات لضمان نقاء العنصر الجرماني الخالص وخلوده .

وقد عزز الأستاذة الألمان هذا الرأى الأخير ، فذكر الأستاذ (أرنست بيرجمان) Ernst Bergmann ، ما معناه : « لامناص من أن تنظر الدولة التى تقوم على أساس معقول ! إلى المرأة التى لا ولد لها كأمراة محقرة لا شرف لها ! ، فهناك الآن عدد كبير من الشبان الراغبين في إنشاء الصلات الوثيقة بينهم وبين كثير من السيدات والشابات . وأنه لمن حسن الحظ أن يستطيع الشباب المنحدر من جنس طيب — أى الآرى — سد الرغبة الجنسية لدى عشرين شابة بل واشباعاها ، ولا شك في أن الفتيات من جانبهن يقبلن بسرور على تلبية الدعوة إلى الاكثار من الأطفال ، دون تردد لو اختفت من الوجود نهائيا فكرة الزواج الخاطئة

التي تدعو اليها الحضارة الزائفة زاعمة أن من الضروري أن يتزوج الشاب زوجة واحدة وأن يكون للمرأة بعل واحد ، — إذ أنها تتعارض كل المعارضة مع جميع حقائق الطبيعة وسننها المعروفة ! .

وإذا كانت هذه نصيحة الرجال المسؤولين في دولة الريخ حتى يكسبوا (معركة الأطفال) بأى ثمن ؛ وكانت هذه آراء زعمائهم فيما ينبغي أن يفعله الشبان والشابات في دولتهم من أجل « ملء الأرض ، بالأطفال ، رجال المستقبل ونسائه في عالم النازية المنتظر ، فإنه ولا شك من الجهود الضائعة أن يحاول إنسان إقامة البرهان على أن المقاييس الخلقية قد تغيرت تغيرا كبيرا في دولة الريخ الثالث حتى صارت تختلف تماما عما تواضع عليه البشر في تحديد نوع العلاقات الجنسية التي ينبغي أن تسود كل مجتمع منذ نشأة الحضارة الإنسانية حتى الوقت الحاضر ويكفي للدلالة على مبلغ ما وصلت اليه هذه المعايير الأخلاقية من تدهور ، الإشارة إلى طراز جديد من الاعلانات التي كانت تنشرها الصحف الألمانية . من ذلك ما نشرته صحيفة أسبوعية Süddeutsche Sonntagspost في سبتمبر ١٩٤١ ، عندما أدرج « جندي في العشرين من عمره له بشرة بيضاء وعينان زرقاوان » إعلانا يطلب فيه — « قبل التضحية بنفسه في سبيل الزعيم والوطن ، أن يجتمع بامرأة ألمانية يستطيع أن يضمن لها حملا يوثق ثماره طفلا كثرات يخلفه لعظمة ألمانيا ! » أو ما نشرته هذه الصحيفة نفسها « لقناة ألمانية ترغب في أن تصبح أما لطفل من والد جندي ، يقاتل في سبيل القضية الاشتراكية ! » أو ما نشرته صحيفة أخرى في إعلان الوفيات لإمرأة أرادت إحياء ذكرى والد طفلها (غير الشرعى) فقالت : من أجل الزعيم وألمانيا الكبرى ، قصف المنون عودك ولما تبلغ الثانية والعشرين يا خطيبي العزيز ووالد طفلي في يوم ١٦ أغسطس ١٩٤١ وأنت تقاتل ضد البلاشفة .

أما عدد الأطفال غير الشرعيين في ألمانيا ، فقد بلغ المائة ألف في كل عام . وتذكر الإحصاءات أن هذا العدد مساو لما وصلت إليه نسبة عدد الأطفال غير الشرعيين في عهد جمهورية ويمار ، وأنه لمن المتعذر بتاتا فضلا عن ذلك معرفة عدد الأطفال الذين يولدون قبل مضي المدة القانونية للحمل وهي تسعة شهور .

وللبره أن يتسامل ، وما مصير هؤلاء الأطفال . من شرعيين وغير شرعيين في دولة الريخ الثالث ؟ وكيف ينشأون ؟

والإجابة على هذا السؤال ، تعود بنا مرة أخرى لذكر المتاعب التي كانت تصادفها المرأة في دولة الريخ الثالث . وأولى المشاكل التي كانت تعترضها عقب ولادة الطفل ، هي انتقاء اسم

المولود الجديد . وذلك أن النازيين وضعوا « لتنظيم » اختيار الأسماء في دولتهم قواعد صارمة تقضى باختيار « اسم » من شأنه أن يظهر بوضوح « شخصية » الفرد العنصرية والقومية والجنسية . لذلك كان يتحتم اجتناب الأسماء اليهودية واختيار الأسماء النوردية وحدها ؛ وحتى هذه الأسماء كان ينبغي ألا يسبب النطق بها أى شك فى كون صاحبها نورديا خالصا . وكانت تقبل الأسماء التى من أصل أجنبى إذا شاع استعمالها من زمن قديم حتى صارت جرمانية مثل هانز ، ماريا والياصابات . وكان من الواجب اختيار الأسماء الملائمة لنوع الطفل ذكرا كان أو أنثى ، فلا يسمى الصبى (ماريا) كما درج الكاثوليك على ذلك فى بعض جهات ألمانيا وجعل القانون النازى من الصعوبة بمكان تغيير الأسماء واستبدال غيرها بها ولو أن السلطات الحكومية النازية أخذت لنفسها الحق بمقتضى هذا القانون نفسه فى تغيير أسماء من تريد من الأحياء ومن الأموات أيضا .

وكانت السلطات الحكومية تبرر عملها هذا بقولها إن من واجب وزارة الداخلية فى الحقيقة التدخل للفصل فيما إذا كانت الأسرة جرمانية الأصل آرية ، أو أجنبية أو من جنس غير آرى ، كما أن من حقها أيضا أن تتدخل للفصل فى صحة انتساب الابن لأبيه أو لوالد آخر على أن يسرى قرارها على الأحياء والأموات معا . وقد شرح الدكتور (شميدت كليشنو) Schmidt-Klevenow أحد موظفى (المكتب الرئيسى للحرس الأسود (S.S) لشئون الجنس والوطن) ، مسوغات هذا التدخل فى إحدى صحف برلين بتاريخ ١٧ ديسمبر ١٩٣٦ فقال : « من المعروف جيدا أن نسبة الأطفال المبكر الذين تحمل بهم أماتهم قبل الزواج كبيرة ولذلك فإن الحزب (النازى) والدولة وبقية أعضاء الأسرة ينبغي أن يخولوا جميعا حق مناقشة شرعية الطفل » .

وفى إبريل ١٩٣٨ صدر قانون يخول الحكومة الحق فى اتخاذ الإجراءات اللازمة للتأكد من صحة نسب كل طفل فى كل حالة تدعو فيها المصلحة العامة إلى ذلك سواء أبدى الوالدان ، أو أحدهما شكاً فى صحة نسب الابن أو لم يفعل ذلك ويدل تدخل الحكومة فى أكثر الحالات التى طبق فيها القانون ، على أن غرض السلطات النازية الأول من هذا كله إنما هو التأكد من صحة آرية الأشخاص المشكوك فى جنسهم ، أو الاطمئنان إلى أنهم غير مصابين بعيوب أو أمراض وراثية .

أما المشكلة التالية ، فكانت تربية هؤلاء الأطفال . وقد ذكر ألبر هتلى ما تفعله الدولة النازية لمعالجة هذه المشكلة ، فقال فى إحدى خطبه فى برلين فى يوم أول مايو عام ١٩٣٧ ما معناه : « لقد بدأنا بالشباب ؛ إذ هناك بعض كبار السن السخفاء الذين لا يرجى منهم أى

نفع . . . بيد أن هذا لا يزجنا في شيء فنحن نأخذ منهم أطفالهم ، ونعمل على تنشئتهم كي يصبحوا مخلوقات بشرية المانية جديدة ، ونعهد تربيتهم بكل دقة . والطفل في سن العاشرة لا يدرك شيئا ولا يشعر بأهمية مولده أو نشأته ، ولا اختلاف بين طفل وآخر ، وفي هذه السن نأخذهم ونصنع منهم مجتمعا يظلون من أعضائه حتى يبلغوا الثامنة عشرة . ومع هذا فنحن أيضا ندعهم وشأنهم بعد هذه المرحلة ؛ بل نلحقهم بالحزب ، وبجماعة جند الهجوم (S.A) ؛ وبالحرس الأسود (S.S) ؛ وبعد ذلك يلحقون بالجماعات أو التنظيمات الأخرى أو يرسلون مباشرة إلى المصانع أو إلى جبهة العمل وإلى الخدمة العالية ، ويلحقون أيضا بالجيش مدة عامين .

وهذا ما كان يحدث ! فكان الأطفال يعيشون في بيوتهم حيث يتكفل أبائهم بالإفاق عليهم حتى يبلغوا العاشرة . وفي أثناء ذلك يقوم النازيون بالأشراف والمراقبة ، حتى إذا وجدوا الآباء ينشئون أطفالهم تنشئة لا تتفق مع التعاليم والمبادئ النازية ، انتزعوا هؤلاء الأطفال من أحضانهم . وفي فبراير ١٩٣٧ ، ثم في نوفمبر من العام نفسه ، أصدرت المحاكم الألمانية أحكاما تقضى باعطاء حق تربية الأطفال الذين شكت السلطان الحكومية في عدم أهلية والديهم للقيام بتربيتهم ، للدولة — أى الحزب النازي نفسه .

وفي سائر مراحل التربية التي أشار إليها الهر هتلر في خطابه ، كانت تنحصر مهمة النازيين في قطع الصلة التي تربط بين هؤلاء الشباب والشابات ووالديهم ؛ وذلك بإخماد العواطف البنوية ، وتعويد الشباب والشباب الاعتراز بحياة مستقلة ذات مسؤولية كاملة ، وتنفيهم من « التقاليد البالية الضارة » التي حرص المعلمون القدماء على ضونها وملاحظتها في أثناء تربية النشء وتعليمه ، إذ كانت تقوم — في نظر النازيين — على ضرورة كبت الغرائز الطبيعية ؛ ثم تنفيهم من هؤلاء الأساتذة والمعلمين القدماء أنفسهم وتشجيعهم على الامعان في احتقارهم وامتهانهم ، ثم تلقيهم مبادئ النازية وتعاليمها القائمة على افناء الفرد في الدولة ، والتضحية من أجل الزعيم والإخلاص في خدمة دولة الريح الجديدة ، وما يقتضيه هذا الاخلاص في مذهمهم من ضرورة التجسس على آبائهم وأقاربهم واحتقارهم .

وفي الواقع لم يكن من المتعذر على النازيين بلوغ مآربهم بتاتا بفضل التنظيمات والجماعات العدة التي أوجدوها وأشار إليها الهر هتلر في خطابه ، والتي حتموا على الشباب الالتحاق بها في أثناء عملهم وفي أوقات فراغهم ، والتي كان الغرض منها تنمية الأجسام القوية قبل أي شيء آخر . وقد شرحت إحدى الكاتبات E. O. Lorimer كيف سيطر النازيون على حياة الشباب في دولة الريح ، فقالت « تستغرق تنظيمات فرق الكشف النازية التي تأسست في عام ١٩٣٣

والالتحاق الإجبارى بهامندأول ديسمبر ١٩٣٦، نشاط الصبيان فى كل لحظة من لحظات فراغهم بعد دراستهم وألعابهم الرياضية الاجبارية . فان الصبي بين العاشرة والثالثة عشرة يلتحق بجماعات الشبان الألمان حديثى السن ، (Deutsches Jungvolk) ؛ وبين الرابعة عشرة والثامنة عشرة ، يلتحق بجماعة الشبيبة الهتلرية (Hitler Jugend) ، وعند بلوغه التاسعة عشرة يجبر على العمل مدة ستة شهور فى (خدمة العمل) (Arbeitsdienst) ؛ ثم يقضى بعد ذلك مدة سنتين أخريين فى الخدمة العسكرية . وله بعد هذه المرحلة أن يدخل إحدى الجامعات أو يلتحق بعمل من الأعمال ، أو يحترف إحدى المهن التى يختارها ؛ وفى جميع هذه الحالات لا يكون الشاب حر التصرف فى حياته يوجهها كيفما شاء . والسبب فى هذا ما تحتمه الدولة من الانتماء إلى جماعة جنود الهجوم (S. A) أو الحرس الأسود (S. S) ، أو الانتماء إلى جبهة العمل (Arbeitsfront) وهى بمثابة اتحاد وطنى عام لجميع المستخدمين والذين يخدمونهم ؛ أو أن ينتمى الى جماعة (انتاج الطعام) Reichsnährstand ، أو إلى غير ذلك من التنظيمات الخاضعة لاشراف الدولة . وفى سن الخامسة والثلاثين يدخل فى زمرة (القوة الاحتياطية) ؛ وفى سن الخامسة والأربعين يعتبر ضمن القوات المستعدة للخدمة العسكرية وقت التجنيد العام Landsturm ويعيننا بعد ذلك معرفة ما إذا كان فى استطاعة الفتى بين العاشرة والتاسعة عشرة أن يجد متسعاً من الوقت للدرس والتحصيل فى أثناء إقامته فى المعسكرات وفنادق الشباب (Youth Hostels) ، والقيام برحلات السير على الأقدام ، وممارسة الألعاب الرياضية وما إلى ذلك ؟ لا شك فى أن المشرفين على هذه الشؤون جميعها لا يدعون لحظة تمر من غير أن يزودوا هؤلاء الفتيان بقدر واف من تعاليم ودروس النازية . وكانت جميع هذه الدروس ، تدور حول تمجيد الحرب والقتال واحياء روح المغامرة ، حتى أن كتب الأغاني التى وضعها النازيون للفتيان الألمان ، كانت حافلة بذكر المعارك والحروب ؛ كما أن الكتب المدرسية المعطاة لجماعة « الشبيبة الهتلرية » كانت تحمل الدعوة إلى انتظار المجد والشرف الرفيع بالموت فى ساحة القتال .

ولم يقنع النازيون بالمدارس العادية الموجودة فى دولة الرينخ ، بل أنشأوا أنواعاً جديدة من المدارس يتلقى فيها الأحداث والشبان « الدروس » التى يبعثون تلقينها إليهم لتخريج الرجال الذين ينتظر اسناد مناصب الزعامة فى الحزب النازى اليهم . ومن هذه المدارس (مدارس ، أدولف هتلر) ، والمدارس الاعدادية Aufbau Schools (والمدارس الوطنية السياسية) Nationalpolitische Aualten التى كان يتعلم بها الشبان تمهيداً للالتحاق بالمدارس الحربية .

وقد تناول كثير من الكتاب الاخصائيين بالبحث والتحصيل مسائل التربية والتعليم في ألمانيا النازية ، فوصلوا في ذلك إلى نتائج هامة خلاصتها أن النازيين جريا على عادتهم المعروفة في كل شأن من شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع في دولتهم طبقوا في شؤون التربية والتعليم نظريتهم الفلسفية في الحياة (Weltanschauung) واستطاعوا في خلال سبعة أعوام أن يعيدوا تنظيم شؤون التربية والتعليم في كل درجاتها حتى يصلوا إلى أغراضهم ، وهى أغراض صرح بها وزير معارفهم في حديث له نشرته صحيفة (فولكشير بوباختر) في ١٣ فبراير ١٩٣٨ ، جاء فيه : « تنحصر المهمة التى تضطلع بها التربية عندنا في تخريج الوطنيين الاشتراكيين ! » وقبل ذلك بثلاثة أعوام (١٩٣٥) أعلن (كروجر) W. Kruger مدير جامعة براين أن غرض التربية والتعليم في جامعته ، إنما هو الدعوة إلى نحو البقايا المختلفة من العصر الحر الماضى ، وإنشاء جامعة وطنية اشتراكية في دولة وطنية اشتراكية جديدة . وكذلك وضع (بوهلر) A. Boeumler أحد المشغولين بالتربية والتعليم في ألمانيا ، الغرض من التعليم في بداية مراحل ، فقال إن المدارس الأولية ينبغي أن تصبح مدرسة لمثل الشعب العليا وفلسفته في الحياة ، تحت حماية الدولة . وأما المدارس الثانوية فقد جاء في أقوال وزارة المعارف الألمانية (١٩٣٨) ما يبين الغرض منها ، وهو العمل على إقصاء (مثل الثقافة الانسانية) Bildung وإفساح المكان « لمثل الرجل الجرمانى الذى يؤثر فيه الدماء التى تجرى في عروقه والمصير التاريخى الذى ينتظره » .

وقد جرى النازيون على تطبيق مبدأ (الترابط والتوحيد) (Gleichschaltung) في شؤون التربية والتعليم ومعنى ذلك خضوع تلك الشؤون لرقابة الدولة وإشرافها السياسى لأنه لما كان الغرض من التربية والتعليم أعداد الشبان النازيين الذين لا يعرفون مؤثرا في حياتهم أو موجها لها سوى (الدم والمصير التاريخى) — أى أعدادهم ليكونوا أدوات صالحة لخوض معارك الحروب المنتظرة لتحقيق السيطرة الجرمانية الصحيحة على أوروبا والعالم — فقد صار من أهم واجبات الدولة الإشراف على تربية النشء وتشكيله . قال هتلر في خطاب ألقاه يوم مايو ١٩٣٧ : « لن يسلم الريخ الحديث شبابه الأحداث إلى يد أى انسان ! » وأصبح من المنتظر أن تكون التربية المزمعة « تربية سياسية » نازية قبل أى اعتبار آخر . وابتداء من عام ١٩٣٧ استطاع النازيون تطبيق مبدأ (الزعامة المسئولة) في الجامعات والمدارس حتى خرج الأمر في الجامعات من أيدي المجالس والكميات والمديرين في جميع مسائل التربية وشئون التنظيم إلى أيدي وزراء معينين خلعت عنها ألقاب الزعامة في الجامعات المختلفة فكان لكل جامعة ثلاثة زعماء : زعيم الجامعة Führer يقوم بأعمال المدير ، وزعيم يمثل

طائفة الاساتذة والمدرسين في التنظيم المحلي للحزب (Dozentenführer) ، وزعيم يمثل جماعة الطلاب للغرض نفسه (Studentenführer) ويختار زعيم الجامعة عمداء السكليات وبقية أعضاء مجالس الجامعات . وهذا بينما أضحى مجالس السكليات بمثابة لجان استشارية فقط . وبمقتضى قرار صدر في (٣ مارس ١٩٣٩) أصبح جميع أساتذة الجامعات ومدرسيها في عداد الموظفين المدنيين فكانوا يعينون في وظائفهم من قبل الوزارة ، ولا يستطيعون الانتقال من جامعة إلى أخرى دون موافقتها ، ولو أن الوزارة نفسها تمسكت دائماً بحق نقل من تشاء منهم سواء أوافقوا على ذلك أم عارضوا فيه . وكذلك سيطرت الحكومة على المدارس سيطرة كاملة وكانت مهمتها في هذا الميدان سهلة ، لأن المدرسين كانوا في عداد الموظفين المدنيين منذ مدة طويلة (بمقتضى قانون قديم صدر في عام ١٨٧٢) . ومع هذا فقد تعهد وزير المعارف النازي في فبراير ١٩٣٣ بطرد كل شخص غير جرمانى من جميع المدارس الأولية ، والقضاء على كل ما هو غير جرمانى في هذه المدارس « بعنف وشدة » وفي يولية من العام نفسه ، أُنذر المدرسون بضرورة قطع صلاتهم بالحزب الاشتراكي الديمقراطي ، كما طلب اليهم ان يدرسوا كتاب (كفاحي) لأدولف هتلر دراسة عميقة ، ثم أرغم جميع الموظفين بالمدارس الثانوية على كتابة تعهد بان يطيعوا قوانين الدولة الوطنية الاشتراكية طاعة عمياء .

وقد عمد النازيون إلى القضاء على جميع المراكز الثقافية التي توقعوا معارضتها لنظامهم وتعاليمهم . فطهروا مكتبات المدارس من الكتب التي ألفها اليهود ، أو تضمنت أى امتداح لهذا الشعب ، أو قصرت في إظهار الاحترام الكامل للشعب الجرمانى والرجل الآرى ، كما حتم النازيون على رجال المكتبات أن يختاروا ما يريدون شراؤه من بين الكتب التي اعتبرتها وزارة المعارف ملامة .

وعند النظر في برامج الدراسة النازية يبين مدى التغيير الذى أراد الهتلريون أن يدخلوه على التعليم ، وأثر هذا التغيير فى الناشئة . فقد أصدروا قراراً فى ١٣ سبتمبر ١٩٣٣ يحتم تدريس مادة (البيولوجيا) فى جميع المدارس الثانوية من أدنى الفرق إلى أعلاها ولو أدى ذلك إلى تضحية الرياضيات واللغة الأجنبية ، وفى ١٥ يناير ١٩٣٥ صدر قرار آخر يفسر هذه الخطوة جاء فيه أن (الفوهور) يريد أن يلم كل فتى وفتاة بالمدرسة بمسألة نقاء الجنس وضرورتها . ولذلك ينبغى أن يكون الغرض من تدريس البيولوجيا « إظهار أهمية المحافظة على نقاء الجنس وأدراك ما فى امتزاج الأجناس من خطر ، ومعرفة المسألة اليهودية وقوانين نورمبرج ، والوقوف على حقيقة الإصلاح الذى تم من أجل تحسين الجنس نتيجة للفلسفة وللشريع الوطنى الاشتراكي » . ومعنى هذا أن الغرض من تدريس البيولوجيا ليس إلا تخريج ناشئة تغلى فى صدورها مراحىل الحقد على اليهود . وفضلاً عن ذلك فإن جميع برامج الدراسة تحتم تلقين

التلاميذ دروساً معينة في الاجتماع والعلوم والرياضة والسياسة والاقتصاد والتاريخ ؛ على أن يتم هذا كله في ضوء المبادئ والتعاليم النازية المعروفة . فلا بد للتلميذ أو الطالب من أن يحضر دروساً تتناول القبيلة والجنس ، وعصر ما قبل التاريخ ؛ وأصل الإنسان والسلالات البشرية ، وتطور الشعب الألماني من الناحية السياسية خلال السنوات المائة الأخيرة على وجه الخصوص .

هذه صورة موجزة لما كان يجري في داخل ألمانيا منذ تسلم النازيون أزمة الحكم بها ، ولكن قد يتساءل المرء ، إذا كان الحزب النازي قد أدخل كل هذه التغييرات في حياة الشعب الألماني ، وفرض سيطرته عليه ، بالتدخل في شؤون أفرادها الخاصة ، وانتهاك الحرية الشخصية ، وامتهان المرأة ، والقضاء على مئات الألوف من الألمان سواء أكان ذلك بقتلهم أو بتعقيمهم أو بتخصيمهم تحت ستار عدم صلاحيتهم لأن يكونوا أعضاء نافعين في المجتمع النازي ؛ ثم إذا كان الحزب النازي قد ضرب بجميع المثل الأخلاقية والمبادئ الاجتماعية عرض الحائط ، وانتزع الأبناء من أحضان آبائهم ، ولقنهم إحتقار هؤلاء الأمهات والآباء حتى يفهم عرى الأسرة ويقوض أركانها ، ثم نشأ هؤلاء الأبناء والفتيات المنشئة التي يريدونها استعداداً لخوض غمار الحرب لأحراز السيطرة العالمية إذا كان الأمر كذلك ، فهل رضى الألمان عن هذا كله ، وسلخوا بتلك التغييرات العنيفة عن طيب خاطر وبغير أية مقاومة ؟

لا شك في أن النازيين ، مثلهم في ذلك مثل أية جماعة أخرى يعميها التعصب وتصمم القسوة آذانها ، فتمضى في تنفيذ برامجها لاتلوى على شيء ، — ولا شك في أنهم استطاعوا الحصول على تأييد شطر من المجتمع الألماني ؛ وهم الذين تمكنوا من البقاء في الحكم سنوات أخذوا في أثناءها كل مقاومة ، وهيمموا على تصريف شؤون الشعب المسادية والروحانية . وقد يكون هذا الشطر كبير حقاً . ولكن سنة العمران وطبيعة التقدم وان لا يمكن أن تهيء الفرصة للطغاة دائماً حتى يمضوا في طغيانهم إلى ما لانهاية له . وقدما في أشد عصور الطغيان والفساد كان تيار المقاومة الخفية يجري محجوباً عن الأنظار ، ونشأ أفراد ووجدت جماعات ما كانت ترضى بالعيش في ظلال الجور ، حتى إذا تضافرت عوامل الضعف والتفكك التي لا مناص منها في كل مجتمع يقوم على أساس متداع ، بدأ تيار المقاومة يظهر جلياً ، ثم اشتد جريانه حتى يجرف كل ما يعترض سبيله . وليست ألمانيا الا كغيرها من الدول التي حفظ التاريخ قصصها ، فقد كانت عوامل المقاومة موجودة منذ وصول النازيين إلى الحكم ، ثم بقيت على نشاطها رغم ما بذله النازيون من جهد للقضاء عليها ؛ ومنذ بداية الحرب قويت

هذه المقاومة ؛ ثم زادت شدة وعنفا منذ تذوق الألمان طعم الهزيمة في الميادين الروسية وقد فتحهم طائرات الأمم المتحالفة بقنابلها وحممها ، وأقصت مضاجعهم مباشرة الشعوب المقهورة على المقاومة الإيجابية والسلبية في أرجاء أوروبا المحتلة ؛ وظهر كأنما قد تخلت آلهة النصر نهائيا عن الشعب الألماني المختار . وفي الفصل التالي بيان لهذا كله ، ودليل على أن الدولة الوطنية الاشتراكية قد أخفقت أيما إخفاق في تأليف تلك الكتلة الصلدة المتماسكة التي عدت تأليفها ووجودها في قلب الريخ الألماني شرطا أساسيا لإحراز السيطرة على أوروبا ومن ثم على سائر أنحاء العالم .

البفصل السابع

ألمانيا الأخرى « غير النازية »

كان غرض النازيين من فرض سلطانهم الصارم على الحياة في المجتمع الألماني أن يتمكنوا من تأليف تلك الكتلة الصلدة المتماسكة التي اعتبروا وجودها ضرورياً من أجل إحراز السيطرة العالمية في النهاية ؛ وقد سبق كيف أنه حتى يتسنى لهم ذلك طفقوا منذ وصولهم إلى الحكم في عام ١٩٣٣ ينظمون الحياة الألمانية ويعملون على توجيهها وجهة خاصة قائمة على فلسفة معينة ذات مثل عليا أوحى بها قرائح زعمائهم وفلاسفتهم ، وكانت متفقة في جوهرها وتفصيلاتها مع أغراضهم القريبة والبعيدة في ميادين الاجتماع والاقتصاد والسياسة .

وقد بذل النازيون كل جهودهم حتى يدعموا أركان ذلك (التوجيه المنظم) الذي أقرته فلسفتهم الجديدة والذي عرفه النازيون باسم Weltanschauung ، ومعنى ذلك على حد قول الدكتور (دنكان جونز) Duncan Jones تلك الفلسفة التي تفرض على صاحبها إدراكا خاصا لمعنى الحياة ووجود العالم على نحو يجعل نظره للحياة والعالم بمثابة العقيدة الدينية لديه فيستمسك بها بكل ولاء وإخلاص وتشغل في نفسه جذوة التحمس الشديد لاداعتها في كل مكان دون أن تعاق نشاطه الحدود السياسية وغيرها من الحواجز التي تفصل بين بلدان العالم ، كأنما مهمته في الواقع التبشير بدين جديد . وكان من وسائل دعم ذلك التوجيه المنظم لإرغام الشعب الألماني على قبوله والقضاء على كل معارضة من جانب أولئك الذين ظلوا متشبثين بمثل الحياة العليا « القديمة » ورفضوا هذه « البدعة » الجديدة ، فألقى النازيون بهؤلاء المعارضين في غياهب السجون وأرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال . ثم لجأوا إلى تطبيق قواعد العلوم النفسية لمكسب معركة (التوجيه المنظم) لما كانوا يعلمونه من أثر الدعاية المنظمة القوية في نفوس الأفراد وسلوكهم وأعمالهم فعدت الدعاية النازية المتقنة من وسائل التبشير بهذه الفلسفة الجديدة بين الألمان وبين شعوب الأرض قاطبة فادعوا أن النازية قد نجحت في مهمتها نجاحا عظيما إلى حد أن الريخ الثالث أصبح نازياً لهما ودماً فاستطاع الزعماء بفضل ذلك أن يوجدوا في قلب دولتهم الجديدة كتلة نازية صلبة متماسكة لا يتطرق الضعف

إليها ؛ وكان غرض المهتلين المباشرين من ترويح هذا الادعاء أن يرغبوا الشعب الألماني نفسه على تصديق هذه المزاعم حتى إذا ظل هناك جماعة يتوقون إلى العيش الحر الطليق أسقط في أيديهم أمام هذا السيل الجارف من الدعاية وأنسكروا آمالهم وأحلامهم وراضوا أنفسهم على العيش في ظل السيطرة النازية إلى أن يقضى الله أمراً كان مفعولاً .

وكان إدعاء النازيين أنهم أنشأوا كتلة نازية صلبة متماسكة في قلب الريخ الألماني من أكبر الأكاذيب التاريخية التي كاد ينخدع بها العالم . لأن الريخ الثالث لم يكن نازياً لحماً ودماً ولأنه كانت هناك إلى جانب ألمانيا النازية ، ألمانيا « أخرى » تتألف من كل أولئك الذين ظلوا على الرغم من بطش الجستابو بهم ويُسهم من الحياة في معسكرات الاعتقال يحملون في قلوبهم البغض والكراهية للنازيين ويتربصون بهم الدوائر وينظمون حروباً من المقاومة الإيجابية والسلبية في داخل الريخ نفسه لا تقل في خطرها عن مقاومة الشعوب المقهورة في أوروبا النازية ذاتها .

والأدلة على ذلك كثيرة ، فانه على الرغم من نشاط الدعاية النازية أصّر عدد من الألمان في السنوات التي سبقت نشوب الحرب الأهلية على وضع الكتائب وإعداد البحوث والمقالات وإصدار النشرات والاحصائيات التي حرص النازيون من جانبهم على مصادرتها وإتلافها وتوقيع العقوبة على أصحابها — إذا عرف الجستابو أسماء الناشرين والمؤلفين — وكان أصحاب هذه المطبوعات السرية يحاولون تهريبها عبر الحدود الألمانية حتى يقف العالم الخارجى على حقيقة ما كان يحدث في داخل الريخ الثالث . ولذلك شغل الجستابو ورجال الحدود بمهمة مصادرة هذه المطبوعات والمنشورات وإتلافها ثم معاينة مهربيها .

وقد يخيّل إلى المرء أن الانتصارات التي أحرزها النازيون في ميدان السياسة الخارجية خصوصاً في عام ١٩٣٧ كانت كفيلة باستمالة سواد الشعب الألماني إلى تأييد النظام القائم والقضاء على كل معارضة داخلية ضد النازيين ؛ بيد أن الذى حدث كان على العكس من ذلك تماماً . فقد ظلت هذه المعارضة « السرية » على شدتها حتى أن النازيين استطاعوا في عام ١٩٣٧ إحصاء (١٢٠,٢٨٧) حالة طبعت فيها كتب و منشورات سرية وغير ذلك من المطبوعات غير القانونية ، حدثت في (٤٢٦) حالة منها التهامات دموية وتبودل إطلاق الرصاص بين البوليس النازى والألمان الذين اختاروا التضحية بأنفسهم عن طيب خاطر في سبيل تهريب هذه المطبوعات عبر الحدود إلى العالم الخارجى .

وقد أدرك النازيون على الرغم من الدعاية الكاذبة لتضليل أهل البلاد من جهة ولتضليل الرأى العام في أوروبا وبقية أنحاء العالم من جهة أخرى أنه من المتعذر عليهم التفرغ لشئون

الحرب الخارجية ، تلك الحرب التي هيأوا لها العدة منذ وصولهم إلى الحكم في ألمانيا إلا إذا شددوا الرقابة على مواطنيهم واتخذوا الأهبة للقضاء دون إبطاء على أية معارضة قد تنذر بتصدع الجبهة الداخلية ، ولما كانت مهمة الجستابو الأساسية إحكام هذه الرقابة فقد أعد (هنريك هيملر) Heinrich Himmler رئيس قوة الجستابو وثيقة هامة عرفت باسم « وثيقة هيملر » وزعمها على كبار رؤساء الجيش وضمها أراءه فيما ينبغي اتخاذه من الوسائل والتنظيمات الكفيلة بضمان النصر عند وقوع الحرب المنتظرة ، ووقف العالم على أمر هذه الوثيقة فانكشف سرها في عام ١٩٣٧ ، وكانت وثيقة مطولة — تتألف من حوالى ١٥,٠٠٠ كلمة — تحدث فيها هيملر عن ضرورة تنظيم جماعة الحرس النازى من أصحاب القمصان السوداء (S.S) — Schutz-Staffel تحت قيادته وكانوا في ذلك الحين يبلغون ٢٠٠,٠٠٠ ، ثم أوضح بالتفصيل طرق تنظيمهم كما أشار إلى نوع التربية والتعليم الذى يجب اتباعه لأعداد الرجال المختارين ثم أفرد قسما خاصا من هذا التقرير لوصف نوع المعاملة التى ينبغى أن يعامل بها أصحاب الحظ العاثر الذين يلقون في معسكرات الاعتقال ؛ وانتقل من ذلك إلى وصف أعمال هيئة الجستابو والأسلوب الذى يجرى بمقتضاه توزيع هذه الأعمال على أفرادها .

على أن أهم ما يسترعى النظر في هذه الوثيقة هو عناية هيملر الكبيرة بوصف الأخطار التى تنجم عن وجود ماسماه في تقريره ، بالجبهة الرابعة : أى الميدان الألمانى الداخلى ؛ فكان من أقواله عن هذه الجبهة : « لن نكون مشغولين في الحرب المستقبلية بما يحدث فقط في جبهة الجيش المقاتل برا أو في جبهة الأسطول في البحار أو في جبهة سلاح الطيران في الجو ، بل سوف يكون لدينا جبهة رابعة لميدان القتال (Kriegaschauplatz) ينبغى علينا مراقبتها والعناية بأمرها وهذه الجبهة هى ألمانيا الداخلية . . . ونحن في حاجة كبيرة إلى عدد أكثر من معسكرات الاعتقال . ولقد أعطاني الزعيم (هتلر) سلطات واسعة تجعل من حق إلقاء القبض على أى مخلوق أشتبته في أمره . . . إذ يصبح ضروريا عند بداية الحرب إلقاء القبض على جماهير غفيرة . . . وسوف يتحتم علينا إعدام الجبهة العظمى من هؤلاء الأسرى السياسيين رميا بالرصاص . . . ولذلك فمن الضروري أن يحتل هذه البلاد مالا يقل عن ثلاثين فرقة من الفرق ذات شارة الجمجمة وعظام الموت Totenkopf- Surmbaenne . لأنه إذا عجزنا عن مراقبة هذه الجبهة الرابعة ؛ جبهة الوطن الداخلية ، لتعطيل نشاطها بأية وسيلة فإن الجبهات الثلاث المقاتلة الأخرى في البر والبحر والجو سوف تصاب من الخلف بطعنة نجلاء مافى ذلك ريب ، ومن الواضح أن هيملر كان يشير في قوله هذا إلى تلك الأقصوصة التى أذاعها القائد الألمانى المعروف لودندورف عقب هزيمة الجيش الألمانى في الحرب العالمية الأولى إذ ادعى لودندورف

أن جماعة الخوثة والشيوعيين هم الذين دبروا هزيمة القيصرية بفضل الثورة التي أشعلوا نيرانها في داخل البلاد خلف ظهور المحاربين في ميدان القتال ؛ وهكذا ذكر هيملر في تلخيصه مخاطبا رجال الجيش إن من واجبه بل من واجب كل إنسان يشغل مركزا مسؤولا أن يدرك ما لهذا الميدان الداخلي من أهمية كبيرة « إذ في هذا الميدان وحده سوف يتقرر مصيرنا عند نشوب الحرب وعلى النجاح أو الإخفاق في هذا الميدان وحده يتوقف أمر حياتنا أو موتنا » ثم قال « وقد أصدر الزعيم إلى أمره لحل هذه المسألة بطريقة حازمة صارمة ، كما أعطاني سلطات لاحد لها لتنفيذ أوامره »

هذا موجز تقرير هيملر وكان من الطبيعي ألا يضيع رئيس قوه الجيستا بو وقته سدى في تفسير الموقف الداخلي في ألمانيا ، وفي تفصيل الخطط التي يجب اتخاذها لمكافهة ما أسماه (الجبهة الرابعة) الداخلية إذا كان خطر هذه الجبهة ضئيلا أو أن المعارضة المتوقعة ظهورها في حالة نشوب الحرب ضئيلة لا وزن لها ، بل إن السلطات الحكومية ما لبثت أن اتخذت بعد نشوب الحرب بعض تدابير يتضح من صرامتها ومعارضتها لمبادئ القانون والعدالة مقدار ما كانت تخشاه هذه السلطات من أخطار المقاومة الخفية ؛ فقد أشارت إلى أحد هذه التدابير جريدة فرنكفورتر زيتونج في عددها الصادر في ٢١ يونية ١٩٤٠ فقالت « تهمل من الآن فصاعدا بمقتضى قرار أصدرته وزارة الدفاع مدة الحبس المنصوص عليها في الأحكام الصادرة بالأشغال الشاقة مدة الحرب على شرط أن تكون هذه الأحكام قد صدرت في جرائم ارتكبت في أثناء الحرب ؛ ومعنى ذلك من الوجهة العملية أن أحكام الأشغال الشاقة تظل سارية من تلقاء نفسها طوال مدة الحرب الحالية ، ؛ أى أنه لا يحدث إفراج عن أحد هؤلاء المحبوسين مهما قصرت مدة الحبس المحكوم بها عليهم ما دامت الحرب قائمة . وغنى عن البيان أن الجرائم التي يعنىها هذا الأمر كانت تلك التي اتصلت بأعمال المقاومة من إيجابية وسلبية في داخل الريخ الألماني وذلك منذ أخذت هذه المقاومة تشتد وتتسع رقعة نشاطها بعد قيام الحرب الأهلية على وجه الخصوص وبالرغم من تلك الانتصارات الحاطفة التي أحرزها النازيون في جبهات الحرب المختلفة ؛ إذ أنه عقب نشوب الحرب ألقى الجيستا بو القبض على مئات الأهلين وأعدوا منهم عددا كبيرا ثم ألقوا بما بقي منهم في غياهب السجون وأرسلوهم إلى معسكرات الاعتقال ، وقد أمكن العثور على أسماء أشخاص عديدين من هؤلاء الضحايا أعضاء تلك « الجبهة الرابعة » التي تحدث عنها هيملر في « وثيقه عام ١٩٣٧ » السابقة ، وكان ذلك بفضل ما نشرته الصحف النازية نفسها بين وقت وآخر من أنباءهم . فقد درجت هذه الصحف على نشر أسماء الأفراد الذين ثبتت إدانتهم وصدرت أحكام ضدهم فضلا عن

أنها كانت تذكر نوع الجريمة التي ارتكبها هؤلاء واستحقوا من أجلها عقوبة الإعدام أو الحبس ، وقد ذكرت كذلك التواريخ التي نفذت فيها هذه العقوبات . ويتضح من القوائم التي نشرتها الصحف النازية وقتذاك أن عدد الأفراد الذين أعدمهم النازيون بين ١٩ أكتوبر ١٩٣٩ و ١٥ سبتمبر ١٩٤١ بلغ خمسين في داخل الريخ نشرت الصحف النازية أسماءهم وتواريخ إعدامهم ونوع الجرائم التي ارتكبوها وكانت هذه الجرائم متنوعة ، منها جريمة الخيانة العظمى وأعمال التخريب والاستماع إلى الإذاعات الأجنبية وإيواء الطيارين الأعداء والاشتراك في أحزاب أو جماعات معارضة للنظام القائم وغير ذلك ؛ أما أولئك الذين قتلهم الجستابو وعرفت أسماؤهم بين ٢٤ أكتوبر ١٩٣٩ و ١٢ سبتمبر ١٩٤١ — أى في الوقت الذي كان النازيون قد بلغوا فيه ذروة قوتهم وبسطوا سلطانهم على رقعة شاسعة من أوروبا — فقد بلغوا (٣٣) شخصا ؛ فضلا عن ذلك فقد صدرت أحكام بالسجن تتراوح مدتها بين ١٢ ، ١٠٨ شهرا على عدد من الأفراد بلغ (٦٩) بين ديسمبر ١٩٣٩ ونوفمبر ١٩٤١ وذلك بسبب استماعهم للإذاعة البريطانية (B.B.C) وأعدم واحد في نورمبرج لهذا السبب نفسه في ٢٠ مايو ١٩٤١ .

على أنه مما ينبغي ذكره أن الإحصائيات الآتية — وهي كما هو ظاهر لغاية نهاية عام ١٩٤١ لا تشمل على جميع ما صدر من أحكام بالحبس أو بالإعدام في ألمانيا خلال هذه المدة فقد غصت السجون بالرجال والنساء بسبب الاستماع إلى الإذاعات الأجنبية عموما أو لإظهار الاحتقار عند الحديث عن حكومة الريخ أو السخر بشخص الزعيم هتلر أو ترويج الإشاعات والأخبار الكاذبة أو التي ينجم عن إذاعتها ضرر أو التسبب في ضياع قطع الآلات من المصانع و (الورش) أو إبداء العطف على أسرى الحرب — باعطائهم بعض لفافات التبغ أو الأطعمة أو المشروبات ، أو معايشرة العمال الأجانب المستخرين في خدمة الريخ معايشرة الصديق والخليل وقد منع النازيون الشباب الألمان على وجه الخصوص من معايشرة البولنديين كما منعوا الرجال الألمان من مخاطبة البولنديات .

وواضح في صرامة هذه الأحكام وكثرتها أن ألمانيا ذاتها كانت تعاني نوعا من المقاومة الإيجابية والسلبية لا يقل في شدته عن مقاومة الشعوب الأوروبية المقهورة وقتذاك فإذا تذكرنا أن عدد القادرين على المقاومة الإيجابية كان قليلا من جراء تجنيد كل صالح للخدمة العسكرية في ألمانيا وإرساله إلى ميادين القتال أو إلى البلدان المحتلة وأدركنا أن الإحصائيات التي جمعت والحوادث المتفرقة التي عرفت مما كانت تنشره الصحف النازية لا يمكن بأي حال أن تكون كاملة أو تصف كل ما كان يحدث من وقائع لأن النازيين إنما كانوا يقصدون بما ينشرونه

تذكير سواد الشعب بأنه من الخير كل الخير الاقلاع عن المقاومة والرضا بالعيش في ظل النظام القائم ، وعرفنا أنه لم يكن من صالح النازيين بتاتا أن ينشروا على الملأ كافة ما كان يحدث من ضروب المقاومة خوفا من تصدع الجبهة الداخلية — إذا تذكرنا ذلك كله أمكننا أن نقف على مدى المقاومة التي كان يصادفها النازيون في داخل الريخ الثالث نفسه .

بيد أن أكثر ما كان يخشاه هؤلاء في الحقيقة إنما هو انتشار (التخريب) في داخل المصانع الألمانية ، فقد وقعت حوادث من هذا النوع لاريب في أنها كانت كثيرة وقد أمكن الوقوف على شيء منها مما نشرته الصحف النازية وقتذاك ، مثال ذلك ما حدث في مصنع (شمينيتز) Chemnitz للأسلحة حيث وقع ما لا يقل عن (١٧٩) حادث إلتلاف في خلال شهر واحد (فبراير ١٩٤٢) ، أو ذلك التخريب الذي عطلت بسببه محطة (فورباخ) Forbach لتوليد الكهرباء ، وما يجدر ذكره أنه قبل حدوث هذا التخريب ببضعة أيام وزعت عدة منشورات ضد النازية بين العمال وفي القرى المجاورة وألقى الجستابو القبض على كثيرين لهذا السبب ، وكان من حوادث التخريب ذات الخطر أيضا تلك الانفجارات التي خربت المصانع في (سباندאו) Spandau قرب برلين في الوقت نفسه .

وعلى ذلك كان متعذراً على المرء أن يفكر وجود المعارضة الداخلية في ألمانيا ضد السادة النازيين على الرغم مما ابتكره هؤلاء من أساليب الدعاية لاقناع العالم الخارجي في ذلك الحين بأن دولتهم قد أصبحت نازية لحما ودما . وفيما يلي سوف يجد القارئ الدليل تلو الدليل على أن النازيين لم يستطيعوا بتاتا إخماد هذه المعارضة رغم قسوتهم ، بل إن هذه المعارضة نبتت منذ وصولهم إلى الحكم وبقيت إلى وقت إنهيار دولتهم ، وكان من أسباب ازدياد قوتها نشوب الحرب الأهلية ، إذ سرعان ما أظهرت الحرب بطلان دعاوى النازيين الذين وعدوا مواطنيهم بأنها سوف تكون حربا خاطفة تنتهى بعد شهور معدودة لا يلبث أبناء الريخ الثالث بعدها حتى يحدوا أنفسهم سادة شعوب العالم قاطبة .

وأسباب وجود هذه المعارضة الداخلية كثيرة ترتبط في جوهرها ارتباطا وثيقا بتلك الخطوة التي اتبعها النازيون منذ وصولوا إلى الحكم كي يؤلفوا كتلة صلبة متماسكة في قلب الريخ الألماني ، فجروا في سياستهم الداخلية على أسلوب خاص كان الغرض منه أن يصبغوا الحياة العامة والخاصة في الريخ الألماني بصبغة نازية بحمته . وعلى ذلك كان مصدر المعارضة الشديد أن شطراً كبيراً من الشعب الألماني نفسه ما كان يرضى بتاتا أن يرى الزعماء الجدد يضيقون عليه السبل حتى يحرموه حرية اختيار نوع الحياة التي يريد أن يختارها ، فضلا عن أنهم كانوا يتدخلون في عقائده الدينية ويعملون لفرض سيطرتهم على الكنائس والمذاهب المختلفة

اليرغموها على قبول تلك الفلسفة التي شاموا أن يبنوا عليها مثلهم العليا في الحياة وادعوا أنها فلسفة روحية تختلف كل الاختلاف عن الفلسفة القديمة التي قالوا إنها كانت يهودية مادية ، زد على ذلك أن أساليب النازيين في شئون التربية والتعليم — ما كانت لتجلب رضا شطر كبير من الاهلين الذين راعهم أن يروا دعائم الأسرة تهدم وفلذات أكبادهم يصبخون بانخراطهم في سلك الشباب الهتلري والحزب النازي نفسه ، من الغلاة المتطرفين الذين لا يعرفون لأهلهم كرامة ولا يعترفون للوالدين بحق من الحقوق ، ثم لا يترددون في أن يبلغوا أمر آبائهم الى السلطات الحكومية إذا أظهر الآباء تدمراً من الأحوال السائدة أو تبرماتها فيكون جزاؤهم من جراء تجسس ، أنبائهم عليهم تمضية بقية العمر في غياهب السجون أو معسكرات الاعتقال ولم يكن من المنتظر أن تحف وطأة المعارضة بعد قيام الحرب العالمية الثانية لانه سرعان ما نجم عن إخفاق النازيين في إحراز النصر السريع الخاطف عدد من المشكلات لم يكن الزعماء النازيون قد اتخذوا العدة من قبل لمواجهة اللهم إلا إذا كنا نعتبر الالتجاء إلى وسائل الحبس والاعتقال والإعدام حلولاً مؤقتة لمعالجة المعضلات . وأهم هذه المشكلات نظام التكوين وشده ، ذلك بأن الأفراد العاديين ظلوا زمناً طويلاً قبل نشوب الحرب الهتلرية محرومين كثيراً من ضروريات الحياة وكانوا يستعصون عنها بما كان يقدمه لهم علماء ، النازيين وخبرائهم من صنوف المعوضات ، Ersatz في المأكل والمشرب والملبس ؛ وكان الفرد لا ينال حاجته من هذه المعوضات إلا بقدر معين وبمقتضى بطاقة التكوين المعطاة له ؛ وقد أحكم النازيون الرقابة على شؤون التكوين منذ عام ١٩٣٦ ، أى منذ بدأوا ينفذون (برنامج السنوات الأربع) المشهور بأشراف (هرمان جورنج) وكان الغرض من هذا البرنامج أن تصبح ألمانيا النازية دولة تعتمد على الاكتفاء الذاتي في حياتها الاقتصادية ، فتتقصص من الواردات ما أمكنها ذلك ؛ وتبذل كل جهد لزيادة الصادرات زيادة عظيمة حتى يجتمع لديها فائض ، تستخدمه في جلب المواد الخام اللازمة لصناعة الحرب ؛ ومنذ عام ١٩٣٦ كذلك نظمت الدعاية النازية برنامجاً واسعاً على أساس « الاستغناء عن الزبدة والاكتفاء من صنع المدافع ! » ، فكان من الطبيعي أن يشهد حرمان الفرد عند نشوب الحرب ، وكان أول من أحس وطأة هذا الحرمان الشديد المرأة الألمانية ربة البيت التي وقع على عاتقها تدبير حاجتها وحاجات زوجها وأولادها . على أنه لما كانت أسباب المعارضة الداخلية الأخرى كثيرة يضيق المقام عن التبسط في ذكرها فقد يكفي اختيار عدد منها لإقامة الحجة على أن (هنريك هيملر) كان صادقاً عندما تحدث في وثيقته عن وجود جهة رابعة في داخل ألمانيا . وأهم أسباب المعارضة تدمير المرأة الألمانية وغضبها من النازيين

واشتداد كراهية الأهلين لرجال الحزب النازي والخلاف الذي حدث بين مختلف الكائنات والمذاهب في دولة الريخ والسلطات الحكومية وإقدام النازيين على الحرب مع الروس وتطور الموقف الحربي في غير مصلحة الألمان عقب دخول الولايات المتحدة الأمريكية الحرب وافتضاح أمر هرمان جورنج وظهور كذبه عندما كثرت الإغارات ليلا ونهارا على برلين وعلى مراكز الصناعة والانتاج الألمانية بعد أن كان يؤكد لمواطنيه استحالة ذلك .

وكان تدمير المرأة في ألمانيا النازية راجعا قبل كل شيء إلى صعوبة التموين ، فقد أدخل النازيون نظام (الوجبة ذات الصنف الواحد) Eintopfgericht قبل بدء الحرب العالمية الثانية بخمسة أعوام على الأقل وطلبوا إلى ربات البيوت التبرع بكل ما يمكن توفيره من نفقات تلزم لطهي أكثر من هذا الصنف الواحد ، لصندوق إعانات الشتاء ، الذي خصصه النازيون من سنوات مضت للانفاق منه على العاطلين أو الفقراء ؛ وخلال سنوات السلم عمد النازيون رغبة في أن يتأكدوا من اتباع ربات البيوت لهذا النظام والعمل به إلى إرسال عمالهم من جنود الهجوم (S.A) أو الحرس الأسود (S.S) لفحص (مطابخ) البيوت والأطعمة التي بها من وقت لآخر ثم ما لبثوا حتى زادوا هذا التدخل بدعوى إنشاء « جهة » جديدة لا غنى عن وجودها لتجاسد برنامج السنوات الأربع ، أسموها « جهة المطبخ » .

وفي عام ١٩٣٦ كان العثور على البن الجيد والشاي من الأمور المستعصية ، ثم اختفت (الزبدة) من عالم الوجود — بدعوى اتفاق المال اللازم لانتاج أو شراء ذلك الطعام الكلى في صنع المدافع والأسلحة — ثم اختفى البيض وتبعه الخبز الأبيض واستعير عنه بخبز مخلوط أدكن اللون تشتمز منه النفوس ، وقلت اللحوم وتعذر الحصول على الأطعمة المحفوظة . ومنذ عام ١٩٣٦ كذلك خرجت الصحيفة الوطنية الاشتراكية Nationalsozialistische Korrespondenz تقول في أحد أعداد نوفمبر ، أنه يجب أن يكون لدى الشعب الألماني ، « معدة سياسية » ، ولذلك نصحت الجريدة بضرورة الإقلال من الدهون واللحوم والإكثار بدلا من ذلك من الأسماك والخضراوات ، ونصحت بتفضيل الخبز الأسود على الأبيض كما نصحت بأجادة المضغ للتأكد من استخلاص المواد المغذية في الطعام ، وادعى النازيون أن الإكثار من الأكل خيانة للوطن ! ولم يكن في استطاعة الفرد إذا أراد أن يسد رمقة أن يجد حاجته في المطاعم العامة لأنها صارت لا تقدم سوى صحاف معدودة ؛ وقد حدث هذا كله قبل نشوب الحرب الهتلرية بمدة طويلة

ولما كان توزيع الأغذية جميعها قائما على نظام البطاقات فقد تحتم على المرأة أن تقف في طوابير

أمام الحوانيت في أوقات توزيع هذه الأغذية وبيعها وكثيرا ما كان يحدث أن تعود المرأة إلى بيتها دون قضاء حاجتها بسبب نفاد ما تريده ، وأدرك النازيون ما يسببه ذلك من تدمير السيدات وغضبهن فأعدوا طائفة من النساء مهمتهن ملاحظة « المشتريات » والتجسس عليهن حتى لا تتفوه إحداهن بشيء يهين سمعة السلطات الحكومية .

ثم سوغ النازيون هذا النظام بقولهم : ان كثيرا من ربات البيوت يتسلط عليهن الخوف الشديد إذا توقعن العجز عن شراء حاجتهن وهذا الخوف لاسيما إلى الخلاص منه لأنهن لا يثقن بان هناك شيئا اسمه الغذاء يحصلون فيه على ما يردن بل انك لتجدهن منتظرات خارج الحوانيت قبل أن تفتح أبوابها ، فيسعين بهذا المسلك الشقاء والتعب لا لأشخاصهن فحسب بل وللباعة والتجار كذلك ، على أن تسلم المرأة بالبطاقة التي بيدها كان لا يعنى أنها تستطيع دائما الحصول على المقدار المدون بهذه البطاقة ، فقد حدث في شتاء ١٩٤١ — ١٩٤٢ مثلا أن اختفت البطاطس من الأسواق ، وبلغ عدد الحوانيت التي أرغمت على إغلاق أبوابها من جراء نقص الأغذية وعدم وجودها حتى ١٥ مارس ١٩٤٣ حوالي المائة ألف في مختلف أنحاء الريخ ، وسبب ذلك زيادة متاعب المرأة الألمانية واضطرها إلى الشراء من (السوق السوداء) ثم الالتجاء إلى (المقايضة) ولما كانت السلطات الحكومية لا ترى غضاضة كبيرة في ذبوع هذه الوسائل غير القانونية للبيع والشراء فقد زاد عدد الأسواق السوداء زيادة عظيمة ، وأقبل الأهليون على نظام المقايضة بشغف كبير .

ولم يكن منشأ صعوبات المرأة في عالم النازية نقص الأغذية وعدم وجودها فحسب ؛ بل أن النازيين كانوا قد بدأوا منذ مدة طويلة حملة واسعة حتى يقتصد الناس في استعمال الصابون ومع قلة هذا الصنف كان النوع الموجود منه من المعوضات Ersatz مصنوعا من المواد الرديئة ويؤدي استعماله إلى بلاء الملابس مما خلق صعوبات جديدة للمرأة الألمانية لأن الحصول على ملابس جديدة كان قد أصبح من أشق الأمور وأبعدها متاعا في دولة الريخ الثالث ، وكان للنازيين في هذه المسألة أفكار عجيبية ، فانهم كما كانوا يعتبرون الأكثار من الأكل خيانة للوطن فقد أعلنوا كذلك أن ارتداء الملابس الجميدة ذات المنظر الحسن خيانة ، وفضلا عن ذلك فانه لم يقتصر إصدار القرارات الصارمة لتنظيم استهلاك الملابس أو شراء الجديد منها . مثال ذلك أنهم كانوا يحدون ما يجب أن يبلغه طول قمصان الرجال وعدد الجيوب في بذلاتهم وحرموا الأكام أو الذبول الطويلة إلى غير ذلك . وفي ١٨ مايو ١٩٣٧ كتب عمدة بلدة (بيرماسنس) Birmasens : من الملاحظ أن الأموات كثيرا ما يهيئون للدفن في أردية ثمينة وزينات عظيمة ، ومن واجبي أن أسترعى انتباهكم لأمر من واجب كل مواطن أن

يعطيه ما يستحقه من عناية كبيرة ، ذلك أنه لا ينبغي دفن الموتى متدثرين بملابس أو أردية ثمينة وغالية ، وفي أول يناير ١٩٤٣ صدرت بطاقة جديدة للملابس يسرى العمل بها مدة ثمانية عشر شهراً أنقصت مقدار المنسوجات المرخص باعطائها في أثناء هذه المدة ، وفضلاً عن ذلك فإن أحداً ما كان في وسعه الانتفاع بهذه البطاقة إلا إذا أثبت حاجته الملحة إلى الملابس وأقام الدليل على أن ما يوجد لديه منها قد بات من المتعذر رتق فتوقها أو حياكة ما يلي من أجزائها ، وقد أعطى النازيون عمالهم الحق في فحص خزانات الملابس في البيوت للتأكد من أن المرأة لا تخفي في مكان ما ثياباً أخرى لم يتطرق إليها البلي ، وزادت محنة الملابس هذه عند نشوب الحرب مع روسيا ، ذلك أن الهتلريين أرغموا ربات البيوت على التبرع بالمعاطف والأردية الثقيلة والأغطية الصوفية (البطاطين) للجنود المقاتلين في الجبهة الروسية ، وذلك علاوة على ما كانت المرأة ترغم على التبرع به عادة كل شتاء (لصندوق إعانة الشتاء) .

وقديماً أكرّثت الدعاية النازية من بذل الوعود لاستمالة المرأة الألمانية ، وكان من أهم هذه الوعود تهيئة البيوت الصحية الحديثة ذات الحداثات الصغيرة ، ولكنهم لم يمر عام واحد على وصولهم إلى الحكم حتى كان قد أوقف بناء المنازل الجديدة ، ومنذ عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٦ قرر النازيون قصر جهودهم على الانتاج الحربي فسبب ذلك زوال حلم آخر من الأحلام اللذيذة التي كانت المرأة الألمانية تمنى النفس بتحقيقها وكان من الأسباب القوية التي دفعتها إلى تأييد الحزب النازي في الانتخابات الأولى للريخستاج ثم لرياسة دولة الريخ ذاتها . وزادت محنة المرأة في ألمانيا عندما كثرت الإغارات الليلية والنهارية على المدن وهدمت قذائف الأعداء بيوتاً عدة لا سبيل إلى إعادة بنائها ، ناهيك عن التفكير في بناء غيرها ، فنجم عن ذلك أن ارتفعت الإيجارات ارتفاعاً فاحشاً حتى أن إيجار الشقة التي كانت مؤلفة من ثلاث غرف بلغ في برلين خمسة عشر جنيهًا إنجليزيًا في الشهر الواحد . على أن مشكلة السكنى هذه كانت مرتبطة بمشكلة أخرى لا تقل عنها خطراً نجمت عن تعذر العثور على الخادومات والمربيات والمرضعات ؛ وكان سبب ذلك : تعبئة النساء جميعاً في خدمة الحرب ، ثم صرامة النظام الذي تحتم على ربة البيت أن تتبعه إذا قدر لها العثور على خادمة من بين أولئك البولنديات اللواتي انتزعن النازيون الفاتحون من أوطانهم وأرسلوهن في عربات البهائم للخدمة في البيوت أو العمل في مواخير الدعارة الرسمية ، إذ كان يتحتم على ربة البيت الألمانية ألا تسمح لخادمتها البولندية بالراحة من عملها أو تظهر نحوها شيئاً من العطف والشفقة حتى إذا عرف عنها لين الجانب وحسن المعاملة حرمت في التو والساعة من خادمتها .

ولكن ماذا كانت الوسيلة التي استطاعت بها المرأة الألمانية وهي التي حتم عليها النظام النازي أن تعيش في شبه عزلة ، ثم أقصاها عن جميع الوظائف أن تعبر بها عما شعرت به من حزن وألم وبأس علاوة على عجزها عن إدراك ما كانت تتطلبه الحرب من تضحيات لا غنى عنها في عرف النازيين من أجل إحراز السيطرة العالمية ؟ وجدت المرأة الألمانية المتدمرة الحزينة المتألمة اليائسة وسيله مؤاتية لظهار ما كانت تسكنه من شعور في إصرارها على نعي زوجها أو ولدها أو شقيقها أو أى عزيز لديها عقب ورود الأخبار منبئة بسقوطه في ساحة الوغى بعيداً عن أهله وعشيرته ؛ فقد انقضى الزمن الذي كانت تجد فيه المرأة الألمانية عزاء وسلوى بل نغراً ومجداً في موت عزيزها من أجل شخص (الفوهرر) العظيم أو قضية الوطنية الاشتراكية المقدسة بعد ما امتد أجل الحرب وطالت الحملة الروسية على وجه الخصوص وتحطمت آمالها في النصر السريع الخاطف وزاد عيشها سوءاً في داخل الريخ ؛ وعبثاً صارت تحاول السلطات الحكومية لإرغام الزوجات والأمهات على إتباع صيغة معينة عند النعي تنص على « سقوط المقاتل في الميدان من أجل الفوهرر والوطن » . وكانت الصحف عند بداية الحرب تنشر قوائم النعي على هذه الصورة . ولكنها ما لبثت عند اشتداد سخط الزوجات والأمهات حتى أفسحت أعمدها لأنباء النعي تصوغها المرأة كما تريد وتشتهي . فتذكر كيف أن عزيزها قد عاد إلى الميدان بعد فترة وجيزة أمضاها بين أهله وعشيرته ، فلم ينقض يومان على عودته حتى قتل في أرض أجنبية في بلاد روسيا الثائرة الموحشة ! . وهكذا تضمنت أنباء النعي إشارة صريحة إلى مقدار ما كانت تعانيه الأمهات والزوجات من آلام مبرحة وبأس عظيم لا يمكن أن يخفف من حدته القول بأن أبنائهن وأزواجهن إنما ضحوا بأنفسهم في سبيل الزعيم العظيم أو قضية الوطنية الاشتراكية المقدسة أو من أجل الوطن العزيز !

وكان مما زاد في حزن المرأة الألمانية التي فقدت ولدها أو زوجها أنها كانت ترى عدداً كبيراً من الشبان الأقوياء والرجال الصالحين للخدمة العسكرية يتمعون بالوظائف التي أعدها عليهم الحزب النازي في داخل البلاد عند انخراطهم في سلك « الشباب الهتلري » ، أو « جبهة العمل » ، أو غير ذلك من الهيئات والمنظمات النازية ؛ وذلك عدا العدد العظيم من جنود الهجوم والحرس الأسود ورجال الجستابو الذين انتشروا في أرجاء البلاد بحجة الإشراف على الجبهة الداخلية ، واعتمدت الحكومة عليهم في دعم نفوذها والقضاء على أية بادرة من بوادر الترد والعصيان في الريخ الألماني .

وقصة تلك القوات التي كانت تتألف منها شراذم الهجوم ووحدات الحرس الأسود وهيئة الجستابو عجيبة حقاً ، إذ أن توزيع هذه القوات عند بداية الحرب حدث على نحو

يضمن قبل أى شيء آخر تحقيق مآرب الزعماء النازيين ، فى ضرورة السهر على استتباب الأمر للحكومة ودعم أركان النظام القائم عن طريق مراقبة القوات المحاربة فى خطوط القتال الأمامية فضلاً عن مراقبة الأهلىن فى داخل الرىخ نفسه . وبيان ذلك أن الهر هتلر أسرع عقب نشوب الحرب إلى تقسيم الحرس الأسود (S.S.) فرىقين : فرىق عهد إليه الاشراف والمراقبة على خطوط القتال فى وحدات صغيرة تنبث بين الجنود فى الجهات المختلفة فى الميدان الروسى خاصة وفريق استبقى فى داخل البلاد نفسها لتأيد سلطان الحزب النازى . وكانت مهمة الفريق الأول مراقبة الجنود المقاتلة ومنع انتشار روح التذمر بينهم والحيلولة دون حدوث أية حركة قد يقوم بها الجيش المحارب من أجل التقهقر أو الانسحاب مهما اشتدت ضربات العدو وعظمت خسائر الجيش ، وكان يطلق على هذا الفريق اسم (زملاء المحاربين) Waffen-S.S. وكان عددهم حوالى ٣٥٠,٠٠٠ ؛ أما الفريق الثانى فقد بلغ عدد رجاله ٢٥٠,٠٠٠ ، وكان هتلر قد سمح لوحدات من الحرس الأسود أن تشترك فى القتال فى بداية الحرب عندما بدأ النصر يبدو سهلاً رخيصاً ، كما اشترك الحرس الأسود فى القتال عندما بدأ الزحف على روسيا ؛ غير أنه بعد أن تبين للزعيم أن الحملة الروسية لن تنقضى قبل الشتاء التالى (١٩٤١ — ١٩٤٢) أسرع فى استدعاء هذه الوحدات المقاتلة وجعل عملها مقصوراً على مناوشة العصابات الروسية فى المؤخرة ، وبعد ديسمبر ١٩٤١ اختص الحرس الأسود بأعمال الارهاب خلف الخطوط الأمامية ، فأصبحت مهمتهم أن يقتلوا الفلاحين الروس والنساء والأطفال من قرية إلى أخرى ومن مكان إلى آخر وتسليط سوط العذاب على أبدانهم جميعاً . ومنذ ديسمبر سنة ١٩٤١ تألفت كذلك من الحرس الأسود وحدات اتخذت مكانها فى مؤخرة الجيش الألمانى المحارب وكانت مهمتها السهر على منع حوادث التمرد والعصيان فى صفوف المقاتلين فى الخطوط الأمامية ومنع هؤلاء المقاتلين من التقهقر بشتى الوسائل ، فضلاً عن ذلك فقد عهد هتلر بمهمة مراقبة وحدات الجيش فى خطوط القتال الأمامية إلى جماعات من شرادم الهجوم (S.A.) ورجال الجستابو .

وبلغ عدد الرجال الذين كانت تتألف منهم شرادم الهجوم حسب إحصاء أدلى به (لوتز) Lutze رئيس أركان حرب هذه الشرادم إلى جريدة سويدية فى مايو ١٩٤٢ حوالى مليون وأربعمائة ألف جندى كان عدد الموجود منهم فعلاً فى خطوط القتال (٩٨٩,٠٠٠) بينما ظل أكثر من أربعمائة ألف منتشرين فى أنحاء الرىخ لتوطيد دعائم الحسك النازى ومراقبة الجبهة الداخلية . وكان عدد الجستابو فى تلك الآونة حوالى أربعمائة ألف وجد منهم فى داخل ألمانيا ذاتها حوالى ربع مليون بينما انتشر الباقون فى أنحاء أوروبا المحتلة ،

فاذا أضيف عدد رجال الحرس الأسود (S.S.) إلى عدد جنود الهجوم (S.A.) من كلفوا مراقبة الجبهة الداخلية ، ثم أضيف إلى هذين الفريقين رجال الجستابو المنتشرون في أرجاء الريخ الثالث لبلغ عدد الرجال الأشداء الأصحاء من هذه الفئات الثلاث (٩٠٠,٠٠٠) رجل أقاموا بداخل البلاد بدلاً من الذهاب إلى خطوط القتال الأمامية والدفاع عن القوهر ومبادئ الوطنية الاشتراكية المقدسة وأرض الوطن العزيز ! وكان هذا الرقم الضخم لا يشمل بطبيعة الحال أعضاء حزب النازي العاملين أو الموظفين في هيئات الحزب ومنظماته المختلفة ذات الخلايا المتعددة الموزعة في كل مدينة وقرية من مدن وقرى الريخ الألماني ، وقد بلغ عدد هؤلاء الموظفين والأعضاء بعض مئات الألوف .

ومع أن وجود هذا العدد الضخم من الرجال الصالحين للقتال بعيدين عن ميادين الحرب كان وحده من أكبر العوامل التي سببت كراهية شطر كبير من الأهلين للحزب النازي وزعمائه فإن هذه الكراهية كانت ترجع أيضاً إلى ذلك الفرع العظيم الذي استبد بالأهلين من بطش قوات الحرس الأسود ورجال الجستابو وقسمتهم ، وليس أدل على مبلغ هذا الفرع مما روته جريدة سويدية Svenaka Dagbladet بعددها الصادر في (مالمو) Malmo في ١٥ مايو سنة ١٩٤٢ من أن ثلاثة من الرجال انتحلوا شخصية أعضاء من الجستابو ودخلوا أحد المساكن في برلين زاعمين أنهم إنما حضروا لإجراء تفتيش دقيق بأمر من السلطات الحكومية فمكثهم هذا الادعاء من الاستيلاء على جميع قطع الأثاث وغير ذلك من النفائس التي راقت في أعينهم ، بينما وقف أهل البيت مكتوفي الأيدي لا يبدون حراكاً يعقد الخوف ألسنتهم ويذهب الرعب برشدهم فبقوا على هذه الحالة مدة حتى إذا هدا روع أحدهم وجد الشجاعة الكافية للذهاب إلى مركز البوليس يقص ما جرى ، ولكن أحداً لم يهتم بالبحث عن هؤلاء اللصوص . وفي الواقع لم يكن هذا الحادث الأول والآخر من نوعه ، فقد وقعت عدة سرقات مشابهة لهذه منذ وصل النازيون إلى الحكم وبدأت تنتشر في طول البلاد وعرضها منظمات جنود الهجوم والحرس الأسود والجستابو ، حتى إن لفظ الجستابو كان وحده كفيلاً بالقاء الرعب والفرع في نفوس الأهلين ، ثم تطايرت الإشاعات عن نشاط هؤلاء الجستابو المرعبين ، وما كانوا يأتونه من جرائم وفظائع ، وسرعان ما بلغت هذه الإشاعات حداً جعل السلطات الحكومية تبادر في مارس ١٩٤٢ بتكذيبها تمكيداً قاطعاً وتحذر الأهلين من الاستماع إلى أولئك الذين كانوا يروجون هذه الأباطيل، على حد قول الصحف النازية . وكان من أهم أسباب المقاومة الداخلية اضطهاد النازيين للكميunistين الكاثوليك والبروتستانتية . وقد بدأ عداؤ النازيين للكميunistة الكاثوليك قبل وصولهم إلى الحكم بـ من

وكان من أهم أسباب المقاومة الداخلية اضطهاد النازيين للكنيستين الكاثوليكية والبروتستنتية وقد بدأ عداؤهم النازيين للكنيسة الكاثوليكية قبل وصولهم إلى الحكم بزمان طويل يدل على ذلك بيان أصدره أساقفة بافاريا في عام ١٩٣١ احتجاجا على الحركة النازية بسبب مبادئها المتعلقة بالعنصرية وتفضيل الجنس الآري على ما عداها من الأجناس وموقف النازيين من الكتاب المقدس وتدخلهم في أعمال القساوسة ومنع بعضهم من القيام بوظائفهم الدينية ، فقد عمد النازيون في أول الأمر إلى استجلاب مودة المعتدلين من رجال الدين الكاثوليك الذين أبدوا استعدادهم لتخفيف معارضتهم ضد النازية على أمل أن يفضى هذا التساهل من جانبهم إلى إزالة شيء من أسباب العداوة الذي بدا مستحكما بين النازيين والكنيسة الكاثوليكية ، وفي تلك السنوات الأولى التزم هتلر خطة الحيلة والحذر في علاقاته مع الكاثوليك لأن شعور الكاثوليك في ألمانيا ضد الشيوعية كان شعورا قويا فلم يكن من مصلحة النازية بتاتا إثارة عداوة الكاثوليك ضدهم بدرجة ظاهرة ؛ وأحرز هتلر انتصارا كبيرا عند ما استطاع أن يعقد مع الفاتيكان معاهدة (concordat) في يولية ١٩٣٣ لأن إبرام ذلك الاتفاق كفّل على حد قول النازيين أنفسهم اعتراف الكنيسة الكاثوليكية بالوطنية الاشتراكية اعترافا نهائيا . وكان الكونكردرات ينص على أن يقسم كل أسقف عند تعيينه في أسقفية يمين الولاء للدولة الألمانية وحرّم على القساوسة الانضمام إلى الأحزاب السياسية أو مساعدة هذه الأحزاب مهما كانت أغراضها ، أما النازيون فقد تعهدوا في نظير ذلك بأن يعطوا الحرية الكاملة لمدارس الكاثوليك والجماعات الدينية الكاثوليكية ما دامت لا تهدف إلى أغراض سياسية ثم تعهدوا بعدم تدخل الدولة في عقائد الأفراد وكل ما كان متصلا بشئون حياتهم الدينية ، وألا يتعرضوا للأطفال الكاثوليك بشيء .

غير أن النازيين الذين كانوا قد وصلوا إلى الحكم قبل هذا الاتفاق بشهور معدودة ، كانوا يبيتون النية على نقض التزاماتهم عند أول بادرة ؛ وفضلا عن ذلك فإن مضيقهم في تنفيذ برنامجهم الداخلي لتأليف تلك الكتلة الصلبة المتماسكة التي أرادوا إنشاءها في قلب الرنخ الألماني ما لبث حتى أثار ضدهم احتجاج الكنيسة الكاثوليكية ، وكان سببا في استحكام العداوة بين النازيين والكاثوليك في الرنخ الثالث ، فقد أصدر النازيون بعد مضي ستة أيام من توقيعهم الكونكردرات قانون التعقيم ، الذي سبق الحديث عنه ، فأثاروا بذلك شعور الكاثوليك لأن التعقيم يتعارض مع عقائدهم الدينية ولا يمكن أن يوافقوا عليه بحال من الأحوال ، وعدوا إصدار هذا القانون تحديا صريحا لهم وتوقع النازيون أن يمتنع الكاثوليك عن تنفيذه وأن ينقد القساوسة هذا القانون نقدا مرّا ، وتحقق ما توقعوه إذ ألقي الكاردينال (فولهابر) Faulhaber ، عظة ،

في آخر عام ١٩٣٣ بين فيها موقف الكنيسة الكاثوليكية رسمياً من مسألة النسل والتعقيم وكانها كان إفصاح الكنيسة الكاثوليكية عن موقفها من هذا القانون كل ما يتفق به النازيون حتى يعلنوا على الملأ أن رجال الدين الكاثوليك امتهنوا الكونكرادات ونقضوا ميثاق الولاء الذي أقسموه للدولة الألمانية وأنهم مصرون على المضي في عدائهم للوطنية الاشتراكية . وعلى ذلك شرع النازيون يكمنون الصحف الكاثوليكية في غير توان وفي بداية العام التالي (١٩٣٤) بدأ الفريد روزنبرج بعد حملته لانتزاع الشباب الألماني من أحضان الكنيسة ولما كان هتلر يأخذ أهفته في تلك الآونة لضمان نجاح الاستفتاء في إقليم السار وانضمامه إلى ألمانيا وكان النفوذ الكاثوليكي في هذا الإقليم قوياً فقد رأى هتلر عدم الظهور بمظهر العداء الصريح للكاتوليكية، ووعده بصون حقوق الكنيسة الكاثوليكية. وتنفيذ مواد الكونكرادات بكل أمانة ، غير أن هذه الوعود لم تسكف لانتعاج رجال الدين الكاثوليك بأن النازية لا تريد شراكمة كنيسةهم فأعد أساقفتهم في اجتماعهم السنوي وقتذاك في بلدة (فولدا) (خطاباً رعويًا) أظهر فيه إنزعاجهم من سير الأمور وعدم اطمئنانهم إليه . ولكن أحداً من الأفراد لم يقرأ هذا الخطاب لأن الجستابو سرعان ما صادروه وأتلفوا كل أثر له . واشتد عداء النازيين للكاتوليكية فأعلن زعيم الشباب الهتلري (بلدورفون شيراش) الحرب السافرة ضد المنظمات الكاثوليكية (مارس ١٩٣٤) ؛ وأسست معاملة فتیان الكشافة الكاثوليك في كل ظرف ومناسبة ، وانتهز الهتلريون عودة فريق من هؤلاء الفتیان بعد زيارة قاموا بها إلى رومة في غضون عام ١٩٣٥ ففاجأهم رجال البوليس السري في أثناء عودتهم واعتصبوا منهم آلات التصوير والمسابع والصلبان ومزقوا ملابسهم ، وفي العام التالي نشط عداء النازيين للكاتوليكية فأتوا خنق الصحافة الكاثوليكية ، وكانوا قد بدأوا يكمنون أفواها منذ وصولهم إلى الحكم رويداً رويداً . وفي عام ١٩٣٨ كانت قد حلت كل منظمات الشباب الكاثوليكي تقريباً ولم يبق في الميدان سوى (الشباب الهتلري) ودأب النازيون على إظهار الكاثوليك بمظهر أولئك الذين يضمرون العداء للدولة دائماً ولا يحترمون القوانين ويلطخون سمعة الرايخ الألماني . فأصدروا قوانين لمنع تصدير النقد الألماني إلى الخارج وكان معنى هذا تعذر سداد الديون المترتبة على كل تلك الهيئات والمؤسسات الدينية التي اضطرت أيام تدهور المارك الألماني في عهد (جمهورية ويمار) إلى استدانتها من الخارج إلا إذا لجأت إلى التهريب لأن هذه الهيئات والمؤسسات الدينية لم تكن بطبيعة الحال تشتغل بالتجارة حتى يمكنها أن تسدد ديونها بفضل ما تصدره من سلع فلم تكن ثم وسيلة لتسديد الديون غير تهريب النقد ومخالفة أوامر الحكومة وفضلاً عن ذلك فقد بدأ النازيون في أوائل عام ١٩٣٧ حملة واسعة الغرض منها اتهام القساوسة

والرهبان والراهبات بسوء الخلق . ونشرت الصحف النازية بعضا من كبيرة حوادث هذه الاتهامات المخزية ووعدت بتقديم ما لا يقل عن ألف من هؤلاء القساوسة والراهبات إلى المحاكمة ، وشجعت السلطات افراد الشعب على البحث عن مرتكبي الموبقات من رجال الدين الكاثوليك ولكن هذه الحملة الواسعة أسفرت عن أدانة خمسة وثمانين قسيسا من بين خمسة وعشرين ألفا في الرينخ ولم يثبت على راهبة ما أية تهمة من تلك التهم الشنعاء على أن هذا الفشل لم يمنع النازيين من الامعان في اضطهاد رجال الدين الكاثوليك من أجل سلامة الدولة على حد قولهم ، لعدة أسباب من أهمها أن الكنيسة الكاثوليكية ذات ثقافة جنسية فضلا عن أنها لم تكن مؤسسة وطنية لأن اتجاهاها وميولها مصطبغة بصبغة دوالية ولا يمكن أن يعد أعضاؤه مواطنين بمعنى الكلمة لما كان لهم من علاقات مع سائر الكاثوليك في الخارج . وهكذا استطاع النازيون في غضون ثمانية أعوام من بدء سيطرتهم أن يلقوا في السجون حوالى خمسة آلاف قسيس .

وعظمت محنة الكاثوليكية بعد نشوب الحرب الهتلرية ، وكان من وسائل إرهابها مصادرة أملاك الكنائس والجماعات الدينية ، فصادر الجستابو في عام ١٩٤١ مرا كز (جماعة يسوع) وبيت الراهبات في مونستر بوسفاليا ومرا كز جماعة القديس أوغسطين بالقرب من (بون) في الراين وبلغ عدد مرا كز هذه الجماعة التي صادرها الجستابو حتى أواخر عام ١٩٤١ ثلاثة عشر مركزا . وفي مارس ١٩٤٢ أعلن أسقف برلين أن النازيين صادروا كثيرا من أملاك الكنيسة الكاثوليكية وفي أبريل من العام نفسه أغلق النازيون أديرة البندكتيين في شتي نواحي ألمانيا . ولكن في عام ١٩٤٢ كانت الولايات المتحدة الأمريكية قد دخلت الحرب ضد ألمانيا واشتدت غارات قوات الطيران البريطانية على المناطق الغربية لاسيما وأن الجيش الألماني كان يزحف على روسيا ، وأخذت أركان الجبهة الداخلية في التصدع على الرغم من قسوة النازيين وبطش رجال الجستابو . وفي هذه الظروف رفع رجال الكاثوليك أصواتهم فجأة يتحدثون فلسفة النظام الهتلري ويهددون بتقويض أركانه . وصحیح أن قادة الكاثوليك قالوا إن الامتثال لأوامر الدولة والخضوع لقوانينها واجب على كل فرد ، ولكنهم صاروا يطالبون في الوقت نفسه بتغيير النظم القائمة وإنشاء نظام آخر بدلا من نظام الزعامة المسئولة ، فكان معنى ذلك تسديد ضربات المعارضة ضد النظام النازي بأجمعه . وألقى أسقف مونستر الكونت (جان) Galen عظامه الثلاث المشهورة في غضون شهرى يولييه وأغسطس من عام ١٩٤١ وحمل على وثنية النازيين حملة شديدة داعيا الآباء إلى إمعان النظر في مستقبل أبنائهم ، والمسيحيين إلى اتباع تعاليم الكنيسة الصحيحة ، فلا يقتلوا النفس التي حرم الله قتلها ، ولا يتخذوا من دعوى

تخليص المرضى من آلامهم والمجتمع من المعتوهين مسوغا لارتكاب جرائم القتل ، وأطال الكونت (جان) الحديث عن (الوصايا العشر) فوضح لمستمعيه إن مصادرة الأملاك — على غرار ما كان يفعل النازيون — سرقة صريحة ، وإن الحب الطليق ، وإنتاج الأبناء لخدمة الريخ خارج نطاق الزوجية ، زنا ومعصية ، وأن عدم احترام الآباء والأمهات عقوب ونكران وأن عبادة الطبيعة والدولة والجنس زيغ وكفران . وفي آخر العام نفسه ألقى الكردينال (فولهبر) عظة في كستدرائية ميونخ عدد فيها الاتهامات التي كان يكيلها النازيون للكنيسة الكاثوليكية ثم أخذ يدحض هذه المفتريات الواحدة بعد الأخرى وأظهر ما كان يفعله النازيون — على حد قوله — لاقتلاع جذور الكنيسة . وفي مارس ١٩٤٢ قرىء في الكنائس (خطاب رعوى) وضعه الأساقفة الكاثوليك وفي العام التالي كان أعداء الكنيسة الكاثوليكية للنازية سافرا ، فانفض كثيرون من حول الهتلرية ، وزادت مقاومة المتذمرين من نظام النازيين شدة على شدتها .

وكان مما قوى حركة المقاومة الدينية ، موقف النازيين من البروتستنتية في ألمانيا فقد بدأوا بإحكام رقابة الدولة على الكنيسة البروتستنتية منذ استتب لهم الأمر في الريخ فعينوا (قومسيارين) للإشراف على شئون الكنائس البروتستنتية في بروسيا وسكسونيا وغيرها عام ١٩٣٣ ومنعوا نشر كل ما كان يتناول المسائل الكنسية (١٩٣٤) ، وارتكبوا غير ذلك من الأعمال التي أثارت المقاومة ضدهم . وألقى النازيون القبض على كبار رجال الدين البروتستنت في وترمبرج وبافاريا (١٩٣٤) وأرسلوا القساوسة البروتستنت خصوصا في سكسونيا ونساو — هس إلى معسكرات الاعتقال ، وقبضوا على سبعمئة منهم في أنحاء بروسيا لأنهم قرأوا من فوق المنابر احتجاجا ضد تلك الوثنية الجديدة ، التي أراد النازيون أن يستعصوا بها عن الأديان جميعها (١٩٣٥) ونفوا عددا عظيما من القساوسة البروتستنت في (بروسيا) وغيرها . وعندما أُلِف المعارضون البروتستنت كنيسة جديدة أسموها الكنيسة الاعترافية ، حتى يتحرروا من القيود التي فرضها النازيون على الكنيسة البروتستنتية ، عطلت السلطات الحكومية إقامة الشعائر بالكنائس الاعترافية وصادرت أموالها وفرضت رقابة شديدة على مطبوعاتها غير أن التدابير النازية لم تخضع من شوكة الاعترافيين وظهر زعماء أمثال مارتن نيمولر وغيره قادوا المعارضة ضد الهتلرية بشجاعة فائقة وضحي كثيرون بأنفسهم في سبيل تعزيز العقائد المسيحية الصحيحة فقدم (نيمولر) وإخوانه مذكرة إلى الفوهرر — يتساملون فيها عن نوايا النازية تجاه الديانة المسيحية (١٩٣٦) ثم تكررت احتجاجاتهم في العام التالي وفي يولييه أُلِى النازيون القبض على (نيمولر) وفي فبراير ١٩٣٨ قدموه للحاكم ثم أرسلوه

إلى معسكرات الاعتقال . وعندما بدأ الحرب اشتد الضيق على الكائنات الاعترافية (١٩٣٩) فلم يسعها إزاء انتصارات النازيين الباهرة في مراحل الحرب الأولى وانتشار رجال الجستابو في طول البلاد وعرضها سوى أن تطأطأ الرأس انتظارا لساعة الخلاص . وكانت الحرب التي شنها هتلر على روسيا مؤذنة بأن هذه الساعة لا بد آتية . ذلك بأن الحرب الروسية كانت من أهم الأسباب التي أدت إلى ازدياد المقاومة ضد النظام الهتلري وتصعد الجبهة الرابعة نهائيا فضلا عن أنها كانت بمثابة المعول الذي هدم ذلك البنيان الشاخ : آلة الحرب النازية . فانه بمجرد أن سرى التذمر في الجيش بين صفوف الجنود وضباطهم وكبار قوادهم ، بات إنهميار ألمانيا أمرا لا مفر من حدوثه .

فقد عرف عن الألمان من قديم الزمن أنهم يعملون بتنظيم الجيش عناية كبيرة ، ومع ذلك قد يخفى على الكثيرين أن الجيش الألماني كان يعد أعظم الجيوش الديمقراطية إطلاقا بعد الجيش الأحمر وسبب ذلك أن الألمان حين خسروا الحرب العالمية الأولى ، رغبوا في الانتفاع من دروس الهزيمة القاسية وقد وجدوا أن النظام القيصري القديم كان من عوامل تلك الهزيمة إذ كان القواد والضباط والجنود يؤلفون طبقات منفصلة جعلت من المتعذر قيام الألفة والتفاهم بين الرتب العسكرية المختلفة . ولذلك حرص الألمان منذ أيام جمهورية ويمار ، على أن يزيلوا هذه الفوارق على الأقل بين الضباط وضباط الصف وبقية الجنود وعندما وصل النازيون إلى الحكم درجوا على ذلك حتى خرج إلى عالم الوجود في النهاية جيش (ديمقراطي) شديد التماسك دقيق النظام ، يشعر أفراده شعورا قويا بأنهم إنما يؤلفون مجموعة واحدة تربط بينهم جميعا أواصر التفاني في خدمة الوطن . وعلى ذلك ظل الجيش الألماني في مراحل الحرب العالمية الثانية قوة متماسكة لا يمكن أن يجد الوهن اليها سبيلا وكان من أسباب ذلك أن جميع الانتصارات التي أحرزها النازيون حتى منتصف عام ١٩٤١ ، كانت انتصارات سهلة لم تكلفهم جهودا كبيرة بل كانت كل القوة التي اعتمد عليها الألمان في كسب معاركهم لا تزيد على ربع مليون رجل وحوالي اثني عشرة فرقة من فرق الهجوم المصفحة وبضعة آلاف من رجال الطيران والغواصات . أي أن النازيين — بعبارة أخرى — اعتمدوا في احراز انتصاراتهم على (الجيش المحترف) ، وعماده الجنود المدربون الذين خدموا زمنا طويلا وتغلغل فيهم روح التنظيم العسكري الألماني وعرفوا تقاليد الجيش الألماني وحرصوا على الذود عنها ، ولكن الأحوال لم تلبث أن تغيرت عندما اضطر النازيون منذ أن بدأت الحرب الروسية في يونيو ١٩٤١ إلى تجنيد كل شاب في سن الخدمة العسكرية صالح لحمل السلاح فضموا إلى الجيش الألماني فرقا جديدة جمعوا جنودها من بين أعضاء تلك (الجبهة الرابعة) التي كان

يخافها (هيملر) كل الخوف منذ عام ١٩٣٧ ويرى فيها عوامل انحلال عاجل أو آجل إذا تركت وشأنها ولم يفرض عليها (الجستابو) نطقا من المراقبة الشديدة ولم يكن (هيملر) في مخاوفه هذه مخطئا أو مغاليا .

فان هذه (الجبهة الرابعة) التي قام أعضاؤها - من الصناع والعمال والزراع والموظفين ، المدنيين - بجميع أنواع المقاومة الايجابية والسلبية في داخل الريخ الألماني ، على النحو الذي تقدم ذكره : لم يلبث أن ظهر نشاطها في ميادين القتال أيضا . وبخاصة في الميدان الروسى الكبير الذى كان يتطلب من الألمان حشد الألوف من شبان الريخ لمنازلة الجحافل الروسية ولاجدال في أن تلك المقاومة كانت مقصودة فضلا عن أنها كانت نتيجة حتمية لماحل بالجنتود من التعب والملل والشكوى من سوء التموين والتذمر من قلة الملابس والتعرض لبرد الروسيا القارص واليأس من احراز النصر السريع ، على نحو ماكان يعدهم به الهر هتلر من جانب ويغمر بهم الهر جوبلز بدعايته الواسعة العريضة من جانب آخر ، وقد ظهرت المقاومة في أشكال متنوعة كان منها هروب المقاتلة الألمان وتسليمهم من غير قتال وامتناعهم عن تنفيذ أوامر الهجوم وتفضيلهم التقهقر في الميدان على مواجهة العدو ثم التذرع بشتى الوسائل عقب وقوعهم في الأسر واطمئنانهم إلى أنهم قد أصبحوا بعيدين عن مخالب الجستابو لاطهار كراهيتهم وبغضهم للنظام النازى وللزعيم ، وعصايته ، ومالبثت حوادث هذه المقاومة أن استرعت أنظار الروس عقب نشوب الحرب بينهم وبين النازيين وذلك على الرغم من أن انتصارات الألمان كانت قد جعلتهم في الشهور الأولى من عام ١٩٤٢ على مقربة من ليننجراد وتجاوزت بهم (سمولنسك) ومكشتم من التوغل في الأوكرين ، فبدأ الروس يدرسون أحوال الهاربين والأسرى الألمان دراسة منظمة تلقى ضوءا كبيرا على حقيقة هذا النوع من المقاومة وسواء كانت هذه المقاومة ذات أثر فعال في اندحار النازيين في النهاية أو تضافرت عوامل أخرى أشد خطرا على تقويض دعائم الريخ الثالث فان وجود هذه المقاومة في مراحل الحرب الأولى دليل على أن الهتلريين قد أخفقوا في استئالة سواد الأمة الألمانية إلى تأييد ذلك النظام ، الذى فرضوه على ألمانيا فرضا ثم أرادوا تطبيقه على بقية أوروبا النازية ، وأسطع برهان على هذا الاخفاق ان الجندى الألمانى الذى عمد إلى الفرار من الخطوط الامامية أو التسليم أو عصيان الاوامر أو عدم الثبات أمام العدو في بداية الحرب مع روسيا كان من غير شك لايجدى في تلك الفلسفة التى قامت عليها دعائم النظام النازى أية مثل عليها خليقة بتضحية النفس وبذها رخيصة في سبيل تحقيقها .

فقد أخذ عدد الهاربين من المقاتلة الألمان إلى الجيش الأحمر يزداد منذ بداية الحملة الروسية

حتى بلغ درجة جعلت من المتعذر الاعتقاد بأن حوادث الحرب كانت حوادث فردية ولا تدل على فقدان الرغبة في القتال لدى شطر من الجنود الألمان في الجبهة الشرقية . ومنذ ١٨ مارس ١٩٤٢ أشارت صحيفة النازيين الرسمية (فولكشير بيويختر) إلى هذه الحالة إشارة خفية عندما قالت : « إن الجنود الألمان يفكرون في البرد والقمل وغيره من كلام أكثر مما يفكرون في وطنهم فإذا فتح جندي فاه في الجبهة الروسية فعل ذلك دائما للشكوى من البرد أو من أن مطبخ الميدان لا يعد الطعام في موعده ، أو من أن الخبز قديم أو غير ذلك من الشكاوى » . وجاء في مفكرة يومية عثر عليها الروس بين أوراق (الفريد روهيل) أحد الضباط الألمان الذين سقطوا في الميدان الأوسط بالقرب من (أفافو) في غربي مورتزيسك في آخر يناير ١٩٤٢ ما يؤيد إنتشار روح التذمر في الجيش أبان الحملة الروسية فقد دون هذا الضابط في مذكرته بتاريخ ٢٨ ديسمبر ١٩٤١ « أنه من الصعب على المرء أن يفهم ما يحدث الآن ؛ فاننا نتقهقر . مع أننا لم نتقهقر في بولندا ؛ ولم نتقهقر في فرنسا أو اليونان ؛ ولكن هنا في روسيا ، بدلا من التقدم إلى الأمام بدأنا لسبب ما نتقهقر . وهذا أمر يصعب فهمه لاسيما وأن (الزعيم) أكد لنا أن الروس سوف يخرون صرعى وأن الحملة الروسية لا بد منتهية في ختام عام ١٩٤١ حتى يستطيع الانتهاء من الانجليز أيضا في عام ١٩٤٢ ولكن هذه الآمال تهازل الآن كأنها بيت من الورق » وكتب الضابط أيضا في ٨ يناير ١٩٤٢ : « لقد أصبح جنودنا غير أولئك الذين عهدناهم من قبل . أنهم الآن يلزمون الصمت ويصعب على المرء أن يجد من يتحدث إليه منهم بل إنه يبدو عليهم التجهم وعدم الثقة وصحیح أن الجنود مازالوا يخشون بأس الضباط ولكن العلاقات القائمة بين الطرفين قد تغيرت نوعا ما حتى أن الإنسان ليشعر بوجود توتر غير طبيعي وذلك نذير سوء » : وكتب في اليوم التالي « اختفى من فرقنا أمس ثلاثة رجال ، ولم يكن هذا الحادث الأول من نوعه . والظاهر أنهم هربوا أو سلبوا للعدو ... » وكتب في ٢٠ يناير : « اخترق الروس صفوفنا ثانية . ونحن في خطر التطويق وخسارتنا جسيمة ؛ والجنود متجهمون . يبدو عليهم الوجوم ؛ وحيدالو أمكن معرفة ما يحول بخاطرهم . ولكنهم يلزمون الصمت دائما . وهذا الصمت يرهق أعصابنا كثيرا » . وذكر في ٢١ يناير : « لاشك في أن الجنود يكثرون من الكلام فيما بينهم . ولم يعد النظام دقيقا . وحدث أمس أن الجندي (هانز إيبتر) أرسل الى مركز أمانى للمراقبة ولكنه سرعان ما رجع الى الجنود لاهثا مدعورا ولم يعد الى مركزه الا بعد أن هدد بإطلاق الرصاص عليه ، وفي ٢٢ يناير كتب يقول « تزداد نفسية الجنود سوءا يوما بعد يوم ... وقد حدث أمس أن رفض عدد منهم القيام بهجوم مضاد ، حتى اضطررنا الى تهديدهم

باطلاق نيران المدافع الرشاشة عليهم . وقد حاول ثلاثة من الرجال التسليم الى العدو ، فاعدموا رميا بالرصاص : ان التجددات التي تصل اليها هي من رجال الاحتياطى غير المدربين
وأخيرا دون في مذكرته بتاريخ ٢٤ يناير : « وصلت اليها أوامر تحتم علينا عدم التقهقر خطوة واحدة وقد أُنذر الضباط بأنهم سوف يقدمون الى المحاكم العسكرية اذا انسحبوا أو تقهقروا قبل أن تصل اليهم أوامر بذلك ، ولكن اصدار الأوامر شيء ، واطاعتها شيء آخر . ويبدو أن القيادة العامة لا تدرى بكل ما يجرى في هذه الجبهات على وجهه الصحيح ... ان معركة اليوم يقصد من وراءها الاستيلاء على (أفاروفو) ... ، وفي هذه المعركة قضى صاحب المذكرات نحبه .

ومن أمثلة التسليم المقصود الى العدو ما وقع في أكتوبر ١٩٤١ في الجبهة الشمالية عندما أرغم جنود إحدى الايات المشاة على رفع راية التسليم البيضاء فقد غادروا أما كتبهم آخذين معهم ضابطهم وسلموا أنفسهم لرجال الجيش الأحمر . وقد حدث أن وقف أحد هؤلاء الجنود خطيباً يتنبا بقرب انهيار النازية ويحض الجنود الألمان على وقف القتال . وحدث في فبراير ١٩٤٢ أن عهد الى فريق من جنود المشاة بمهمة تغطية تقهقر الجيش ، ولكنهم بدلا من ذلك لم يطلقوا رصاصة واحدة على العدو ؛ وعندما اقترب الروس منهم ، أرسل رئيسهم مندوبا يبلغهم رغبة جنوده في التسليم . ، وفي غير الميدان الروسى أمثلة عدة للهرب من الجيش والتسليم للعدو ورفض القتال حتى أن القيادة العليا الألمانية وجدت من الضروري ارسال الجسستابو وطائفة من الجنود المتحمسين للنازية للانضمام الى القوات المحاربة في الميدان لمراقبة الهاربين أو الراغبين في التسليم أو الممتنعين عن تنفيذ الأوامر والقبض عليهم وتقديمهم الى المحاكم العسكرية أو اطلاق الرصاص عليهم بدلا من ذلك في التو والساعة . فقد حدث في نوفمبر سنة ١٩٤١ أن رفضت وحدة ألمانية في ليل Lille على حدود فرنسا الشمالية الشرقية مغادرة الثكنات والانتقال الى الجبهة الشرقية ، فاطلق الرصاص على تسعة وعشرين منهم ، والقي القبض على ثلاثمائة ؛ وأعدم في الشهر نفسه ستة من الجنود الألمان في بتسامو في طرف فنلندة الشمالى لمحاولة الهرب ؛ وفي ٢٣ ديسمبر ١٩٤١ حدث في قرية (ميمايخوفو) بالقرب من (بلجورود) أن رفض تسعون جنديا اطاعة أوامر الهجوم فاطلق الرصاص عليهم وفي يناير ١٩٤٢ أطلق الرصاص على عدد من جند الآلاى السابع والثلاثين بعد المائة بسبب التردد والعصيان ؛ وفي نفس الشهر أعدم ثلاثة عشر جنديا ألمانيا في (اسن) وثمان في (ابيزج) لرفضهم الذهاب الى الجبهة الشرقية ؛ وفي فبراير ١٩٤٢ أعدم ثلاثة وستون من الألمان في (نانسى) بفرنسا لأنهم رفضوا الذهاب الى خطوط القتال الروسية ؛ وفي نفس الشهر هرب عشرة جنود في أثناء نقلهم بالسكة الحديد من أحد المراكز بفرنسا وضبط واحد منهم فانتحر قبل محاكمته .

وثمة ظاهرة أخيرة تدل على مبلغ ما كان هناك من شعور عدائي مشترك بين أسرى الحرب الألمان نحو النازية وزعيمها أنه لم تكد السلطات السوفيتية في معسكرات أسرى الحرب تسمح بتأليف الجمعيات الأدبية للخطابة والمناظرة وما إلى ذلك حتى انتهز هؤلاء الفرصة للخوض في مساوىء الوطنية الاشتراكية والتدمير الذى تم على أيدي الزعماء النازيين الذين ألقوا تلبية لأطعامهم وخدمة لمآربهم الشخصية بملايين الرجال من الألمان ومن حلفائهم ،المكرهين، على التعاون معهم إلى ميادين القتال .

وكان من المتوقع بطبيعة الحال أن تشجع السلطات السوفيتية هذه الحركة فسمحت بذهاب الوفود من الأسرى الألمان لزيارة أسرى الحرب الرومانيين وغيرهم لنشر الدعوة ضد النازية وبيان مبلغ الأخطار التى تستهدف لها البلاد المحتلة من جراء تعاونها مع النازيين ، وزيادة على ذلك أذنت السلطات السوفيتية بعقد اجتماعات كبيرة يحضرها مندوبون عن معسكرات أسرى الحرب جميعا لتوضيح موقفهم من النازية وتوثيق العلاقات بين كافة أسرى الحرب على أساس التخلص من الهر هتلر والنازيين كخطوة لا غنى عنها لنشر ألوية السلام على أوروبا وفى يناير ١٩٤٣ اجتمع فى أحد معسكرات أسرى الحرب فى الروسيا مندوبون عن سائر معسكرات الأسرى بلغ عددهم ٨٧٦ وكان معظم المندوبين من الألمان برئاسة (الاونباشى) ردولف وولف من برلين ثم كثرت اجتماعات أسرى الحرب فى الشهور التالية ، فحدث فى فبراير أن حضر إلى المعسكر رقم ٩٥ حوالى مائة وتسعون مندوبا يمثلون ١٢٤٢ من ضباط الصف فى المعسكرات الأخرى . وبعد أسابيع قليلة أى فى أواخر مارس عقد الأسرى الألمان الذين وقعوا فى الأسر بين ديسمبر ١٩٤١ وفبراير ١٩٤٢ اجتماعا فى المعسكر رقم ٧٤ واتخذوا قرارا طويلا ، ختموه بعبارة رنانة . « لتسقط الحرب ، وليسقط هتلر وعصابته ، وليجى النضال من أجل ألمانيا الحرة ؟ . وفى فبراير ومارس من العام نفسه أصدر ثمانية وعشرون ضابطا من أسرى الحرب الألمان فى روسيا نداء طويلا أذاعته المحطات الروسية وكذلك المحطات السرية فى الرينخ الثالث عدة مرات ، أوضح فيه الضباط لأبناء وطنهم كيف غرر هتلر وعصابته بأهل البلاد وزجوا بهم من أجل أطعامهم الجنونية فى حرب يفنى فيها مئات الألوف من الشباب سدى وأنه لا يمكن أن تنتهى ما دام هتلر فى الحكم لأنه لن يعقد انسان أى صلح معه بينما تستطيع حكومة وطنية يؤيدها الجيش ويولها الشعب نفعه أن تحصل لألمانيا على صلح خلىق بأمة عظيمة ، فكان هذا النداء دعوة صريحة للثورة على النازيين فى ألمانيا .

وقد يتبادر الى الذهن أن أسرى الحرب كانوا مدفوعين لظروفهم الخاصة إلى إظهار هذا

العداء وهذا البغض نحو النازية وزعيمها ولكن الحقيقة كانت على عكس ذلك تماما ، بل إن هناك من الامثلة الكثيرة الأخرى ما يكفي لإظهار مبلغ التصدع في الجيش الألماني وقتذاك ولعل من أخطر هذه الحوادث ما وقع في إقليم (القوقاز) الفرنسي على الحدود الشرقية بين فرنسا والمانيا في فبراير ١٩٤٢ ، عندما التحم الجند الألمان مع حرس (هيملر) في معارك دموية كما حدث بالقرب من باريس في الوقت نفسه أن أعدم ثمانية من الجنود الألمان لارتكابهم جريمة التخريب ومحاولة الهرب وفي (بار دويش) في تشيكوسلوفاكيا سار الجنود الألمان في مظاهرة كبيرة فطافوا بشوارع المدينة وهم يصيحون : نطلب الصلح ونريد العودة إلى الوطن ، فما لبث رجال (هيملر) أن حضروا مسرعين وأطلقوا الرصاص ، فقتلوا من المتظاهرين ثمانية وجرحوا ثلاثين وألقوا القبض على ستين منهم وحدث في أوائل عام ١٩٤٣ أن اختفى فجأة عدد من القواد في ظروف غامضة كان من بينهم الجنرال فون ريشناو عدا غيره من كبار الضباط الألمان . وقد أذاعت المحطات السرية الحرة الألمانية وقتذاك تفصيلات عن ظروف اختفائهم ثم إعدامهم بعد ذلك ويتمين من هذه التفصيلات أن احد عشر ضابطا من كبار رجال الطيران الألمان الذين قتلهم (الجستابو) كانوا جميعا قد وقعوا بأسمائهم على مذكرة ، يعارضون فيها هيملر فكان توقيعهم على هذه المذكرة السبب المباشر لسفك دمائهم .

وكان (هيملر) قد طلب في ذلك الحين أن يكون لدى فرق الحرس النازي من أصحاب القمصان السود (S.S) الخاضعين لرياسته قوة منفصلة من السلاح الجوى خاصة بها ؛ فلقى هذا الطلب معارضة شديدة من الجنرال (براونشيتش) ومن هيئة القيادة العليا للجيش الألماني ومن جانب فريق من كبار الضباط وخصوصا في سلاح الطيران وكانت حجة المعارضين أنه ينبغي الاحتفاظ بوحدة القيادة العليا العسكرية وعدم تجزئتها وأنه مادامت التنظيمات النازية الحزبية المعروفة ، وهي فرق الهجوم ، وفرق الحرس قد دخلت في خدمة الجيش فقد أصبح من المتحتم عليها الخضوع التام لنظامه . وأمام هذه المعارضة ، رأى (هيملر) أن يلجأ إلى (هتلر) حتى يحصل على تأييده ولكن (هتلر) كما كانت عادته في هذه الأمور ظل مترددا ورأى تأجيل الفصل في هذا الموضوع ؛ وعندئذ وجد الضباط والقواد بدورهم وكانوا قد فاتحوا (هتلر) نفسه في الأمر أن يستميلوا إلى جانبهم (هرمان جورنج) . بيد أن (جورنج) الذي كان قد بدأ يفقد في تلك الآونة ذلك النفوذ القديم الذي تمتع به طويلا ، لم يلبث أن رأى من مصلحته عدم القطع برأى حاسم قد يرضى فريقا ويغضب فريقا آخر وفضل بدلا من ذلك أن تظل علاقته طيبة مع الجماعتين ، ولكنه لما كان يرى في شخص (هيملر) منافسا

خطيراً له فقد لجأ إلى استخدام الجنرال (ميلش) وسيطا لدى كبار ضباط الطيران في السلاح الجوي حتى يطلب اليهم إعداد مذكرة ، في هذا الموضوع يرفعونها إلى هتلر ؛ متضمنة احتجاجاً شديداً على ما يريده (هيملر) . وقد أعد هؤلاء الضباط المذكرة فعلاً ، وكان عددهم احدى عشر وعلى رأسهم كل من (أوديت) ، (مولدرز) و (فون فيرا) و (ويلبرج) . فكانت نتيجة ذلك أن اختفى الموقعون عليها في أيام قليلة ؛ فجاء هذا الحادث دليلاً جديداً إلى جانب حوادث أخرى من نوعه على أن الضعف قد بدأ يتطرق إلى قوة الحرب الألمانية بسبب ذلك الانقسام القائم على وجه الخصوص بين المنظمات النازية العسكرية ، وهي تنظيمات حزبية وقوة الجيش المقاتلة النظامية في ألمانيا . وحدث انقساماً كبيراً بين كبار القواد الألمان فشل الألمان في الاحتفاظ بستاينجراد في أواخر عام ١٩٤٢ ، واضطراهم إلى تسليمها للروس ثم التمهق المستمر في الجبهة الروسية منذ نوفمبر من العام نفسه إلى أواخر ١٩٤٣ ، وبدأ جماعة من الضباط الألمان في الجبهة الروسية يضعون الخطط من أيام تسليم (فون بولوس) في ستاينجراد لاسقاط هتلر ، وسرعان ما تطورت هذه الخطط بعد ذلك حتى أصبحت مؤامرة طفق أصحابها يضعون التدابير لاغتياله وكادت المؤامرة تنجح وقتذاك لولا أن الصدفة وحدها جعلت هتلر يغادر مركز القيادة قبل تنفيذها بحوالى خمس وعشرين دقيقة .

وكانت معركة ستاينجراد فائحة شؤم على الجيوش الهتلرية . إذ انهالت عليها الضربات من كل جانب فنزلت القوات البريطانية والسكندرية في جنوبي إيطاليا في سبتمبر ١٩٤٣ واستمر زحفهم إلى الشمال طوال العام التالى وأزال سقوط (كاسينو) العقبات التي كانت تعترض سبيل الحلفاء في الطريق إلى روما (مايو ١٩٤٤) فتمهق الألمان بدون نظام أمام الغزاة . وفي أوائل يونية نزلت القوات البريطانية والأمريكية من البحر والجو على ساحل أوروبا الغربى في مقاطعة نورمانديا فأعلن تشرشل في مجلس العموم البريطانى في ٦ يونيه ١٩٤٤ بدء الغزو وفتح الجبهة الثانية . وبدأ كما قد أطبقت جحافل الحلفاء على قاعدة هتلر ، التي ظلت مصدر رعب وفزع ردها من الزمن وأنه لا مفر من تقويض أركانها بسرعة خاطفة وعندئذ أفاق الزعماء النازيون من غفلتهم . وكان من المتوقع أن يتضافروا على دفع هذه الكارثة التي نزلت بساحتهم ولكن بدلا من ذلك فوجئ العالم يوم ٢٠ يوليه ١٩٤٤ بإذاعة من برلين أن فريق القواد المتدمرين في الجيش الألمانى منذ أيام الحملة الروسية أرادوا اغتيال هتلر ؛ ومع أن العناية الالهية وحدها - على حد قول اذاعتهم - هي التي أنقذت هتلر من الموت في (أوبرسالزبرج) وأن جوبلز استطاع أن يحبط محاولة ، عصبة كبار الضباط للاستيلاء على مبانى الحكومة في برلين ، فإن الأمر كان على جانب عظيم من الخطر إذ ثبت أن عدداً من كبار القواد الذين

قادوا الجيوش الألمانية المنتصرة في السنوات الماضية كانوا ضالعين مع المتأمرين أو كانوا على الأقل من الناقين على هتلر وجماعته ، فعزل هؤلاء من مركز القيادة ، وكانوا الفيلد مارشال فون رونشتد القائد العام السابق للجيش الألماني في غرب أوروبا والفيلد مارشال فون براوششت قائد القوات الألمانية البرية العام سابقا والفيلد مارشال فون بوك أحد قواد الجيش في روسيا وزملاؤه الثلاثة في الحملة الروسية الفيلد مارشال فون ليبب والفيلد مارشال فون مانشتين والفيلد مارشال فون كلايست ، ثم الجنرال فون فالسكنهاوسن القائد العام السابق في هولنده وفضلا عن ذلك فقد تمردت وحدات من القوات البرية والبحرية وقام الأهلون بحركة عصيان واسعة في المناطق الصناعية التي خربتها قذائف طائرات الحلفاء في ستوتجارت وشواينفرت وبريمن وميونخ ونشبت الثورة بين وحدات من الجيش الألماني في جنوبي ألمانيا واشتبك الجيش مع الجستابو في جهات مختلفة بألمانيا ووقعت مصادمات بين شرادم الهجوم وجنود الجيش الألماني في فرنسا في بوردو ولیموج ونيم ونانت وأعطى القوهرر هيملر سلطات واسعة فقام الآخر بعمليات تطهير واسعة قاسية فانقض الجستابو على كل من اشتبهوا في أمره بعدمونه رميا بالرصاص أو يرسلونه إلى معسكرات الاعتقال ؛ ونفذ الاعدام في كثير من المقبوض عليهم وأودع غياهب السجن عديدون من العلماء والنبلاء ورجال المال والصناعة . وتألفت في أوائل أغسطس ١٩٤٤ (محكمة الشرف) وكانت مهمتها عزل القواد الذين تحوم حولهم الريب في الجيش ورفع أسمائهم إلى هتلر حتى يتخذ قرارا بتقديمهم إلى (محكمة الشعب الألمانية) فباشرت محكمة الشرف مهمتها وأصدرت قرارها بإدانة كثير من القواد وفصلهم من خدمة الجيش وبعد محاكمة دامت يومين أصدرت محكمة الشعب الألمانية أحكامها على ثمانين من القواد بالاعدام ثم نفذ فيهم الحكم شنقا .

ووسط هذا الاضطراب الشامل ظلت تجيء الأخبار السيئة من كل جانب منبهة بتخرج الأمور في الميدان الروسي والجهة الغربية وميدان إيطاليا ، ولم يحدث إعدام القواد المتأمرين أو الضالعين معهم أو انتحار فريق منهم أى تأثير في بقية الضباط والقواد المتدمرين في الجيش الألماني حتى أنه في أوائل سبتمبر كان شغل هؤلاء الشاغل لإفساد جميع الخطط التي كان يضعها القوهرر لمنع إطباق العدو على دولة الزعامة المسؤولة ، فقد رفض الجنرال فون شولتز أن ينفذ أوامر هتلر له بتدمير أقصى ما يمكن تدميره من باريس حتى يتأخر زحف الحلفاء في فرنسا وبلجيكا وعظم الشعور بأن إهتمام القواد الألمان كان منصرفا إلى محاولة إدخال قوات الحلفاء الزاحفة من الغرب إلى ألمانيا قبل وصول الروس إليها واعترف جوبلز بحرج موقف ألمانيا في منتصف سبتمبر . وفي أواخر الشهر نفسه بعث فون رونشتد بتقرير عن سوء الموقف

في الجهة الغربية فاشتد القلق بالهر هتلر وفقد السيطرة على أعصابه إذ بات متيقنا من تدهور الروح المعنوية في نفوس قواد الجيش الألماني وذلك علاوة على ما كان يخاومه من ريبة شديدة في ولائهم أو في عزيمتهم الصمود أمام العدو ، ولمس هتلر تدهور الروح المعنوية في أقرب الناس صلة به وتطايرت الشائعات أن هيملر وجوبلز وجورننج وغيرهم من كبار رجال حكومة الرايخ الثالث يعدون العدة للفرار من ألمانيا حينما يرون بوادر الانهيار التام تلوح الأبصار . ولكن إطباق الروس عليهم من جانب وقوات الأمريكيين والبريطانيين من جانب آخر ، لم يدع هؤلاء الزعماء والقواد فرصة للهرب ، وكان الروس أول من طرق أبواب برلين ، ونشطت طائرات الحلفاء في تسديد الضربات القاصمة إلى قلب الرايخ الألماني . وكان على أثر إحدى هذه الغارات الشديدة أن لقي الهر هتلر حتفه تحت أنقاض دار المستشارية في ١ — ٢ مايو ١٩٤٥ واختلقت مصائر بقية الزعماء فآثر جوبلز الانتحار أما بقية الزعماء فقد قدمهم الحلفاء المنتصرون إلى المحاكمة في نورمبرج إحدى معاقل النازية وأصدرت المحكمة العسكرية الدولية حكم الإعدام على المرشال هرمان جورننج والمرشال ويلهلم كيتل والجنرال ألفريد يودل وهانز فرانك ويوليوس شترايخر وساميس انكوارت ويواكيم فون ريبنتروب وأرنست كالتمبروتر والفريد روزنبرج وييلهلم فريك وفريتز سوكل وصدر حكم الإعدام أيضا غيايبا على مارتن بورمان الذي اختلفت الآراء في مصيره كما حكمت بالسجن المؤبد على رودلف هيس والأميرال رايدر وولتر فونك وحكمت على الأميرال دونتز بالسجن عشر سنوات وبخمس عشرة عاما على فون نوراث وبعشرين سنة على بالدورفون شيراخ والبرت سبير وقد أفرج عن كل من هيلمار شاخت وهانز فريتش وفرانز فون بابن وكان إصدار الحكم بتاريخ أول أكتوبر ١٩٤٦ وقد نفذ حكم الإعدام شتقا في ١٦ أكتوبر ١٩٤٦ وأما جورننج فقد انتحر قبل تنفيذ الحكم بساعات وقد أحرقت جثث الأحد عشر زعيما فصارت رمادا تذروه الرياح .

الفصل التاسع

السلام الدائم

كانت خاتمة حياة الزعماء والفلاسفة النازيين على النحو الذي شهدناه قصاصا عادلا لجماعة توهموا أو زين لهم الشيطان أن باستطاعتهم أن يفرضوا سيطرتهم على العالم أجمع اذا هم أحكموا تدبيرهم فسلبوا الشعوب حرياتها ، وأرغموا الأمم على الخضوع لسلطانهم ولم تكن ثم مذوحة عن انهيار دولتهم في النهاية لأن ذلك (النظام الجديد) الذي ابتكره خيالهم كان مبنيا على قواعد مستمدة من « فلسفة » هي أقرب الى الخلط منها الى شيء اخر : فلسفة تقسم الأمم والشعوب الى طبقات وطوائف من السادة المبعجلين الذين توهموا أن من حقهم الأذى فرض سيطرتهم وسلطانهم على بقية أبناء البشر لا لسبب سوى أن القدر على حد قولهم قد أجرى في عروقهم دما نقياً وأنشأ هؤلاء السادة في تربة لا تنتج غير الرجال الممتازين وأما من عداهم فن الهوام والحشرات التي يجب ابادتها أو معاملتها معاملة الرقيق . وأى نظام ذلك الذى طمع النازيون فى ارغام الشعوب على قبوله وهم من الناحية السياسية يريدون الرجوع بالعالم الأوروبى الى تنظيم عصور مضت وانقضت وصار ينظر اليه الناس على أنه مرحلة من مراحل التطور الإنشائى كان لابد للعالم من اجتيازها حتى يصل الى هذه الدرجة من الرقى المادى والمعنوى فى هذا القرن العشرين . وأى نظام ذلك الذى طمع فيه النازيون فى ارغام الشعوب على قبوله وهم من الناحية الاقتصادية يريدون نهب الأمم وسلب ثروتها بطرق بعيدة عن الحق والقانون

لقد أفلح النازيون بتدبيرهم أن يستثيروا المقاومة ضدهم من كل جانب وعلى الرغم من أن دعايتهم المنظمة القوية كانت تذيع فى أرجاء العالم أن الفوهرر والقادة النازيين استطاعوا أن يجعلوا من دولة الريح الثالث كتلة نازية لحما ودما فان عوامل الضعف كانت تعمل رويدا رويدا لتقويض أركان هذه الدولة ؛ وهل كان يتسنى للفوهرر وسائر الزعماء أن يخدموا فى صدور تلك الشعوب المقهورة جذوة الأمل فى الخلاص من سلطانهم مهما امتد به الزمن وهم الذين حطموا حياة هذه الشعوب من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية حتى أن أوروبا الآن ما تزال تعانى آثار الاحتلال النازى .

وقديما كان من برنامج النازيين أن يعيدوا تكوين البنيان الاقتصادي بأوروبا على نحو يكفل تحقيق غرضين أولهما جعل الجرمان الخلق أرباب الصناعة والمال وحدهم وأصحاب السيطرة والسلطان بفضل ما يسبغه النشاط الصناعي عليهم من قوة فيزدادون جاها ورقيا بينما تنصرف بقية الأمم في القارة الأوروبية إلى العناية بشئون الزراعة فتخط منزلتهم ويصبحون بمرور الزمن عبيداً أرقاء ، وأما الغرض الثاني فهو أن يحطموا كيان الأمم الأوروبية إلى حد يستحيل معه إعادة بنائها إذا قدر لدولتهم الانهيار وخيل إلى النازيين أنهم ما داموا في دست الأحكام بأوروبا كانت عبقريتهم الفذة كفيلة وحدها برعاية النظام الذي وضعوه وأما إذا انقضى عهدهم لسبب لم يكن في حساباتهم فلن يستطيع أحد من بعدهم منع أوروبا بأجمعها من الانهيار بعد انهيارهم ، ولا جدال في أن النازيين أفلحوا في تطبيق نظامهم الجديد وبالطريقة التي هدهم إليها تفكير فلاسفتهم وزعمائهم ؛ ولكنه لا جدال كذلك في أن هذا النجاح نفسه كان المعول الذي هدم به النازيون بنيانهم الشاخ في أوروبا . ويرجع ذلك إلى أسباب ثلاثة

أولاً أن نجاحهم في تطبيق نظامهم الجديد حرك الشعوب في البلدان المفتوحة إلى المقاومة بشتى ضروبها ، وأخفقت صرامة النازيين كما فشل الجستابو في إقتلاع جذور هذه المقاومة بل صارت تشدد وتقوى كلما غلا النازيون في تطبيق نظامهم فكانت قلعته الهتلرية (قلعة من الورق) ما لبثت أن تداعت أركانها عند أول طارق لأنها ما كانت تضم أقواما مستعدين لبذل نفوسهم من أجل الذود عنها ومنع العدو من إقتحامها ، وأما السبب الثاني فهو أن الوقت كان ألزم ما يكون لنجاح تطبيق هذا النظام من الناحية الاقتصادية بينما أقدم النازيون السكارى بنشوة الانتصار الخاطف ولذته على أجراء التغييرات الاقتصادية التي اقتضاها تطبيق النظام الجديد دون أن يتخذوا التدابير التي تكفل الاطمئنان الى أن سيظرتهم باقية مخلدة .

وأنى لهم أن يفعلوا ذلك فالأمر التي انتزعت من مواطنها بقضها وقضيضها وشتت أفرادها أو أرسلوا للعمل مسخرين في خدمة الريخ في أنحاء أوروبا المحتلة كان لا بد لاستقرارها في مواضعها الجديدة من عامل الوقت ، وفضلا عن ذلك فانه ما كان يكفي أن تشغل المصانع من الروهر مثلا إلى ألمانيا الجنوبية الشرقية أو يطلب إلى أهل المقاطعات الفرنسية الشمالية الشرقية أن يتصرفوا بجهودهم على الزراعة أو تصدر الأوامر بإبطال التعدين في فرنسا المحتلة كذلك ، أو تهيم بولندة لادماجها في الريخ الصناعي بعد إبادة أهلها أو ترغم البلدان المفتوحة على اعتبار برلين عاصمة العالم النازي المالية أو غير ذلك من أباطيل الاقتصاد النازي فما كان يكفي ذلك كله لأن يخلق أوروبا خلقا اقتصاديا جديدا بين طرفة عين وانتباهتها ،

ناهيك بعدم ملائمة هذا النظام لطبيعة تكوين القارة ذاتها وبحاجته إلى وقت طويل حتى ترسخ قواعده وتتوطد أركانه . فلما عجز النازيون عن كسب الوقت ، بات العمل الانتاجي معطلا في بلدان أوروبا المفتوحة حتى إذا ما حانت الساعة وزحفت جيوش العدو عليهم استحالت عليهم أن يجدوا موارد كافية لمتابعة إنتاج عتاد الحرب ففعل ذلك بهنيتهم . وأما السبب الثالث فانه كان من مقتضيات العمل بهذا النظام الجديد أن يكون الريخ الثالث نفسه هو المحور الذي يدور عليه هذا النظام بأجمعه ومنذ استتب للنازيين الحكم والسلطان في ألمانيا عملوا على تهئية دولة الريخ - أو دولة الزعامة المسؤولة - على حشد قوتهم لاحتلال المركز الذي كان ينتظرها في عهدها الجديد ، فأحكموا تطبيق قواعد النظام الجديد في ألمانيا قبل أن يطبقوه في أوروبا المحتلة بنحو ستة أعوام ؛ فأوجدوا بذلك نواة تلك المقاومة الداخلية التي أرغمت هنريك هيملر على إعداد العدة لاختدادها قبل نشوب الحرب الهتلرية بعامين تقريبا . وكان من أثر نجاح النازيين الظاهر في تطبيق النظام الجديد في أوروبا نتيجة لانتصاراتهم الخاطفة الأولى أن زاد خطر الجبهة الرابعة الداخلية . وأخفق الجيستابو في داخل الريخ كما أخفقوا في أوروبا المحتلة في إخماد هذه المقاومة ولم تفلح السجون ومعسكرات الاعتقال ووسائل الإبادة والقتل في صون هذه الجبهة من التصدع وفضلا عن ذلك فقد انتقلت عدوى المقاومة إلى الجند والضباط والقواد ، فاضمحت الروح المعنوية في الألمان جميعا ، وكانت محاولة النازيين في تأليف تلك الكتلة الصلبة المتناسكة في قلب الريخ الثالث المعول نفسه الذي قوض دعائم سيطرتهم في الداخل والخارج معا .

والآن وقد زالت دولة النازيين من الوجود بقضها وقضيضها حق لنا أن نتساءل ماذا يكون ذلك النظام الذي يجب أن يحل في ألمانيا محل النظام النازي القديم . وهل يكفي أن يعد أقطاب الدول المنتصرة تلك الشعوب التي ذاقت الأمرين من احتلال النازيين لبلادهم بأنه ما دام النازيون قد زالت دولتهم ودمرت أنظمتهم ومنشآتهم وأعدم زعمائهم أو انتحروا فإن ذلك وحده ومن تلقاء نفسه كفيل بعودة الأمور إلى مجاريها ومؤذن بأن المستقبل لابد منطو على العيش الرغيد والحياة المطمئنة الهادئة ؛ أم أنه لا مناص من التفكير العميق لابتكار أجدى الوسائل العملية لتحقيق هذه الآمال واتاحة الفرصة لتلك الشعوب حتى تتحرر من خوف الاعتماد عليها في عقر دارها من جانب طغاة آخرين غاشمين ؟ أو هل يسمح المنتصرون باعطاء الألمان فرصة ثانية تمكنهم من السعى لفرض تلك السيطرة الجرمانية على أوروبا من جديد ؟ في الماضي القريب ادعى أنصار سياسة التسكين والتهذية ، أن هناك فروقا بين سواد الشعب الألماني وطغمة النازيين ؛ وأن توقيع العقوبة على الجناة المسؤولين عن الحرب الهتلرية

لا يقتضى إلحاق الأذى بالأمة الألمانية . واتخذوا دليلا على وجود هذه الفوارق تلك المقاومة الإيجابية والسلبية التى أبداها فريق من الألمان الناقمين على النازية ومع هذا فقد علمنا التاريخ أن الشعب الألماني كجموعة لا يقل فى نزوعه إلى السيطرة والطمع فى السيادة وخوض غمار الحرب من أجل تحقيق هذه السيطرة وتلك السيادة عن قاداته وزعمائه ، وكذلك علمتنا التجارب القريبة أن هذا الشعب الألماني الذى قد يبدو أفراده كل على حدة ، مساكين وادعين ، لا يقل فى مجموعته كأمة عن قاداته وزعمائه اندفاعا وراء السيطرة والسيادة . ومن ميزات هذا الشعب القدرة على الانتعاش واجتياز الأزمات الاقتصادية بسرعة تدعو إلى العجب ؛ ولسكنها تدعو فى الوقت نفسه إلى الشفاق على بقية الشعوب المجاورة له ، لأن هذا الانتعاش الاقتصادى يعترن دائما بالرغبة فى الفتح والتوسع . فهل يسمح الألمان بأن ينتعشوا اقتصاديا بحيث يتمكنون من تجهيز آلة الحرب المخربة من جديد والقذف بالشعوب الأوروبية وبغيرهم من شعوب العالم فى أتون الحرب مرة ثانية ؟ وما يزال الاعتقاد سائدا بأن منشأ الحرب الهتلرية والحرب العالمية الأولى كذلك هو حاجة ألمانيا إلى موارد طبيعية لا توجد فى بلادها ، ولا غنى عن جلبها من الخارج لتنظيم حياتها الاقتصادية . أى أن الدافع إلى الحرب الأخيرة كما كان الحال فى الحروب السابقة دافع اقتصادى ومع أنه مما يخرج عن موضوع هذا الكتاب مناقشة هذا الاعتقاد السائد عن جوهر العوامل التى أدت إلى قيام الحرب العالمية الثانية ، فانه مما يحذر ذكره أن كافة المحاولات التى بذلها أقطاب سياسة التهدة والتسكين ، وبخاصة فى عامى ١٩٣٨ ، ١٩٣٩ باستخدام رجال المال والصناعة لاقتناع النازيين بالعدول عن إثارة الحرب كان نصيبها الفشل . وكان أصحاب تلك السياسة يرمون إلى عقد اتفاقات اقتصادية مع الرينخ الثالث لخدمة التجارة الألمانية فى أوروبا الجنوبية الشرقية وفى أفريقية الجنوبية (البريطانية) والسويد وغير ذلك من الأقطار . أضف إلى هذا أنهم حاولوا اقراض ألمانيا (فى لندن بوليه ١٩٣٩) ألف مليون من الجنيهات الإنجليزية لمعاونتها على تحويل إنتاجها الصناعى الحربى إلى إنتاج سلمى نظير أن يجرى الرينخ الثالث تعديلا جوهريا فى سياسته الخارجية على أساس تخفيض تسليحه تحت مراقبة دولية وإخلاء تشكوصلوفافيا بيد أن النازيين - كما كان يتوقع - ما لبشوا أن رفضوا هذه العروض السخية وعلة ذلك أن دافع الحرب لم يصبح فى الحقيقة اقتصاديا صرفا كما كان الحال فى القرن الماضى على وجه الخصوص . لأنه منذ تقدم الفنون الصناعية ، وتطبيق الطرق العلمية الحديثة فى الصناعة بحيث أمكن إنتاج طراز الطائرات الجديدة أضحت النضال من أجل إحراز السيطرة العالمية هو الذى يحرك الحوادث ويكيف سياسة الدول فبدلا من أن تظل (الدولة الوطنية) وحدة التنظيم السياسى كما كان الحال فى عصور النشاط

الاقتصادي أضحت (القارة) وحدة ذلك التنظيم . وقد حاول أحد الكتاب المعاصرين (ه . ن . بريلسفورد) تلخيص ذلك في قوله « كانت القاطرة البخارية سببا في حدوث الانقلاب الصناعي كذلك كان استخدام الطائرة بداية عصر الوحدة القارية ، ولم تكن محاولة النازيين فرض السيطرة الجرمانية على القارة الأوروبية سوى مظهر من مظاهر تلك العوامل الجديدة التي برزت في ميدان السياسة الدولية من أجل إحراز التفوق والسيطرة على العالم وهذا ما يفسر إخفاق الساسة « المهدئين » في الفترة التي سبقت قيام الحرب الأخيرة . لذلك كان من العيب أن تعاد تجربة « التهدة » مرة ثانية كعلاج لتجنب الأمم والشعوب ويلات حرب أخرى يثيرها الألمان كما فعلوا في الحربين العالميتين الأولى والثانية ومن العيب كذلك أن يرغب واضعو الصلح المنتظر في أن تعود الأمور إلى ما كانت عليه قبل السيطرة النازية .

ولكنه إذا كان قد ثبت إخفاق سياسة « التهدة » والتسكين ، في إقناع الألمان بالعدول عن استخدام الحرب كوسيلة لفض مشكلاتهم الاقتصادية والسياسية مع بقية الأمم وكان معروفا أن التنظيم الذي بنى على أساس معاهدات الصلح في فرساي في عام ١٩١٩ ، وما نفع عن هذه المعاهدات حتى عام ١٩٣٩ ، قد أسفر عن تمكن الألمان من إشعال نار الحرب العالمية الثانية ، ولا أمل لذلك في سلام دائم إذا أعطى الألمان الفرصة لاعادة تمثيل الرواية من جديد فما القواعد التي ينبغي على الساسة أن يبنوا على هديها صرح السلام المنتظر ؟ وبعبارة أخرى ، ما ذلك النظام الذي يجب أن يجرى بمقتضاه تنظيم شؤون العالم حتى يتجنب البشر ويلات الحروب في المستقبل ؟

على أن البحث في هذه المسألة يفت المفكرين والكتاب الإقتصاديين والسياسيين منذ نشوب الحرب الأخيرة وبعد انتهائها ، وقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى ولعل أصحاب التهدة والتسكين أخفضهم صوتاً وأقلهم أنصاراً . أما أولئك الذين لا يريدون أن يفوتوا تجارب الماضي القريب دون الاستفادة من عبرها ومواعظها ، فقد تنوعت آراؤهم فيما ينبغي اتخاذ من وسائل تكفل استمرار السلم في المستقبل أجيالا عدة ولعل أظهر ما جاء في هذا الصدد ، ما ذكره (پول اينتزج) أحد أعلام المفكرين الأوروبيين في الإقتصاد والسياسة فن قوله أن هناك ولاشك نظام آخر في الاستطاعة أن يشغل مكان النظام الجديد الذي أوجده النازيون ، وذلك بأن يطبق النظام الجديد الهتلري تطبيقا عكسيا . أي أنه ينبغي أن يجرى ضد ألمانيا ذاتها تطبيق كافة المبادئ والقواعد التي أرادت أن تسترشد بها في تحقيق سيطرتها على أوروبا والعالم . ومعنى ذلك أن يعامل الشعب الألماني بالمعاملة القاسية التي اقمها البولنديون التعمساء من الألمان . فإنه لما كانت ألمانيا قد تعمدت إبادة الشعب البولندي بأسلوب منظم

فهناك ما يبرر تكليف البولنديين بأن يحكموا الأمة الجرمانية على أن تطلق يدهم حتى ينتقموا لأنفسهم مما أصابهم على يد الألمان باتباع نفس الوسائل التي اتبعها هؤلاء لأبادتهم وذلك بأن يحشدوا الجماعات الغفيرة من الألمان ويطلقوا الرصاص عليهم أو يحرّموهم الطعام حتى يموتوا جوعاً ويطردهم من بيوتهم في أثناء الشتاء حتى يهلكوا برّد إلى غير ذلك مما كان يفعله الألمان في بولندا . وفضلاً عن ذلك فإن تطبيق النظام الجديد النازي تطبيقاً عكسياً يعنى مصادرة الأطعمة الألمانية وموارد أغذية الشعب الألماني وتقييد نشاط الألمان الإنتاجي والحد منه ، مادام الحكم أو الفاتحون ، البولنديون لا يفيدون من هذا النشاط شيئاً لمصلحتهم . ومن المتعذر أن يعارض انسان في ذلك كله بحجة أن هذا الحل القاسي لا يتفق مع القواعد الخلقية أو المبادئ الإنسانية ، لأن ألمانيا فعلت ذلك وأكبر الظن أنها لن تتردد في العودة إليه إذا سمحت أمامها الفرصة مرة أخرى في المستقبل بيد أن ما فعله الهتلريون في الماضي القريب وما تزال الإنسانية تشكو آثاره من الشكوى ، لا يمكن أن تلجأ إليه الديمقراطية الصحيحة لحل مشكلة الحرية والسلم مهما كان حل هذه المشكلة متوقفاً على مدى نجاحها في إزالة الخطر الألماني .

على أن هناك لحسن الحظ حل آخر ، قد لا يفضي العمل به إلى ضمان السلم ضماناً تاماً ولكن من مزاياه على حد قول إيتنزج تعطيل قدرة ألمانيا على فعل الشر تعطيلاً كبيراً ولهذا الحل ناحية سياسية وأخرى إقتصادية . فمن الناحية السياسية ، يبدو عند تطبيق (النظام الجديد) تطبيقاً عكسياً أن تجزئة الريخ بعد الحاق الهزيمة به أمر لا مفر منه . ومعنى هذا أن تسترجع الدويلات والإمارات الكبيرة الألمانية ذلك الاستقلال القديم الذي تمتعت به قبل أن يتم اتحاد ألمانيا المعروف في عام ١٨٧١ ، فتستعيد هذا الإستقلال كل من النمسا وبافاريا ، وورتمبرج وبادن وسكسونيا وغيرها . وكذلك ينبغي أن تقام من (الراين) دولة حاضرة ، لأن استيلاء بروسيا على أرض (الراين) حديث العهد نسبياً ، ولذلك لا يتصف أهلها بتلك البروسانية الصميمة ، على غرار ما يظهر في ألمانيا الشرقية . وفي هذه الامارات والدويلات المستقلة كافة ، ينبغي أن يكون التاج من نصيب الاسرات القديمة التي حكمت هذه البلاد في الماضي ، والتي ما يزال لها اتباع ومريدون في ألمانيا لأن من شأن ذلك مساعدة هذه (الدول الجرمانية) على الاستقرار ودعم استقلالها وبقائها منفصلة كل الانفصال في حياتها المستقلة الجديدة عن بروسيا ولكنه لما كانت بروسيا ذاتها من أيام فردريك الأعظم قد أقامت البرهان مرة بعد الأخرى على طغيانها وإمعانها في العدوان ، واثارة الحروب ، فقد سقط حقها في أن تصبح دولة مستقلة ، ضمن مجموعة الدول الألمانية الأخرى المستقلة ومع أنه من

مقتضيات نجاح هذا الحل السياسي أن يحتل ألمانيا جنود الحلفاء المنتصرين في الحرب الأخيرة إلا أن هذا الاحتلال ينبغي أن يكون احتلالاً مؤقتاً في هذه الدول الألمانية المستقلة ، ماعداً روسيا وقد تدعو الحاجة إلى احتلال روسيا وحدها احتلالاً دائماً .

ومن الناحية الاقتصادية يقتضى هذا الحل أيضاً تطبيق (النظام الهتلري الجديد) على ألمانيا تطبيقاً عكسياً فمن المعروف أنه كان من أهداف ذلك النظام أن تصبح ألمانيا مركز الصناعة وإنتاج الأسلحة وعتاد الحرب في أوروبا ، ثم حرمان سائر الشعوب من صناعاتها على أن تصبح مهمة هذه الشعوب مجرد انتاج السلع التي تطلبها ألمانيا وتقديم العمال الأرقاء الذين يسخرون في خدمة الصناعة الألمانية . ولذلك ينبغي حرمان ألمانيا المهزومة من صناعاتها إلى حد بعيد فتمحى من الوجود كافة الصناعات المستخدمة في انتاج معدات الحرب وأدوات القتال ، كما يجب تقليل الصناعات التي يمكن تحويلها لمثل ذلك هذا إلى أنه يجب أن توضع الصناعات الباقية مباشرة تحت إشراف الأمم المنتصرة ورقابتها كما يجب الحد من قدرة ألمانيا على انتاج الخامات والنفط وأدوات الحرب الضرورية .

ولما كان حرمان ألمانيا من الصناعة يترتب عليه نقص ظاهر في حاجتها إلى السكك الحديدية وطرق النقل السريع الأخرى ، فقد بات ضرورياً خفض طاقة العمل في الخطوط الحديدية ذات الأهمية العسكرية أما إذا نجم عن ذلك كله تعطل عدد كبير من العمال الألمان كما هو منتظر فإن تطبيق هذا النظام العكسي لا يترك هؤلاء المتعطلين دون عمل إذ يجب استخدامهم أولاً في الأعمال الإنشائية في البلدان التي وقعت فريسة في قبضة الألمان إبان سيطرتهم فدمروا مصانعها ومبانيها وخرّبوا حقولها فإذا فرغ العمال من هذه الأعمال العمرانية استخدموا في إقامة خطوط قوية من التحصينات في البلدان التي تكرر في الماضي اعتداء الألمان عليها . وفضلاً عن ذلك يجب أن يتألف من هؤلاء العمال الألمان (مورد) لا ينضب له معين يوضع تحت تصرف الدول حتى تستقدم كل دولة من هذا (المورد) العدد الذي تريد استخدامه في جميع الأعمال التي لا تتطلب مهارة فنية . والسبب في ضرورة وجود هذا (المورد) أنه لما كان من واجب الديمقراطية الصحيحة أن تسهر على دوام السلام وهذا أمر يستحيل تحقيقه إلا إذا احتفظ بحيوش جرارة فمن المنتظر أن تقل الأيدي العاملة في هذه الدول من جراء تجنيد شبابها في الخدمة العسكرية ، ولذلك لا مندوحة عن أن تبحث هذه الدول عن وسيلة تسد هذا النقص المنتظر في الأيدي العاملة بها ، فيصبح العمال الألمان ذلك (المورد) الدائم التي تستطيع الدول أن تستقدم منه ما تريده وكل هذا يتفق مع المبادئ التي كان يطبقها الألمان مع ضحاياهم ، مع فارق واحد ، هو أن العمال الألمان سوف يعاملون معاملة الأناسي .

أضف إلى هذا أنه كان يعرف عن نوايا ألمانيا إذا قدر لها الانتصار أنها تريد أن تنشئ من (الجنس الجرمانى الحاكم) جنسا مهمته الحرب والقتال والاضطلاع بالأعمال التى تتطلب مهارة فنية ليس غير بينما يستخدم ملايين العمال من بين الأجناس التى قد نخضعهم لسلطانها فى الأعمال ، والوضيعة ، ومن الممكن تنفيذ هذه الخطة بشكل عكسى فترغم ألمانيا على تقديم الأيدي العاملة ، ليحلوا محل الرجال الذين تتألف منهم تلك القوة العسكرية التى عليها صون السلم من أن يتعكر مرة ثانية إذا ما حدث الألمان أنفسهم أن يحاولوا مرة أخرى تحقيق أغراض عدوانية .

وهناك وسائل عدة لتطبيق مبدأ (الجمال الحيوى) الألمانى تطبيقا عكسيا فقد سبق القول أنه كان من أهم أغراض (النظام الاقتصادى الجديد) الذى وضعه هتلر أن يجرى تعديل الحياة الاقتصادية فى البلدان المجاورة على نحو يجعل تسكوتها ملائما لحاجات ألمانيا الاقتصادية . ولذلك فإن عكس العمل بهذا المبدأ معناه منع الاقتصاد الوطنى فى هذه البلدان من أن يكون مكملًا لنظام الاقتصاد الألمانى ، ولا جدال فى أن مثل ذلك من مصلحة هذه البلدان وسوف تجد فيه الضمان الكافى لسلامتها . لأنه إذا امتنعت البلدان عن إنتاج ما تحتاج إليه ألمانيا فإن ألمانيا لن تستطيع أن تحصل على ما تريده من خامات ونفط وما إلى ذلك فلا يتجدد عندئذ عدوانها عليها وعلاوة على ذلك فإن خلو هذه البلدان من المنتجات اللازمة لألمانيا من شأنه أن يصرف الألمان عن الطمع فى غزوها وامتلاكها ، من ذلك أن زوال موارد النفط الرومانية يساعد ولا شك إلى حد كبير على تقليل مدى اعتماد ألمانيا على أوروبا الجنوبية الشرقية فى سد مطالب الحرب التى تحتاج إليها ومن الممكن استغلال موارد النفط فى رومانيا بسرعة عظيمة دون التقيد بأية اعتبارات تجارية حتى ينضب معين آبارها .

ولا تكون رومانيا موضع أطماع جديدة من جانب الألمان فى المستقبل وعلى كل حال يسود الظن اليوم أن موارد النفط فى رومانيا قد أشرفت على النضوب ؛ ولذلك كان من واجب الدول الحبة للسلام أن تبذل كل جهد بالتعاون مع رومانيا ذاتها لإخراج رومانيا من قائمة مناطق انتاج النفط الهامة فإذا أضيف هذا إلى تحطيم منشآت صنع النفط كيميائيا بتحطيم مصانع تقطيره لأصبح من المتعذر على ألمانيا أن تغامر بحرب عدائية مرة ثانية .

وثمة مثال آخر ، هو (فول الصويا) الذى شجعت ألمانيا على زراعته والإكثار من إنتاجه فى بلدان أوروبا الجنوبية الشرقية فى السنوات القليلة التى سبقت الحرب الأخيرة وفى أثناء سنوات الحرب أيضا وقد فعلت ألمانيا ذلك لأن هذا المحصول يستخدم غذاء للإنسان وعلفا للماشية ويمكن استخراج الزيوت منه واستعماله سمادا وينمو فول الصويا بكثرة عظيمة فى

الصين واليابان وغيرهما من بلدان الشرق الأقصى ولذلك يجب حرمان ألمانيا من الحصول عليه من أوروبا الجنوبية الشرقية حتى يكون اعتمادها كله في سد حاجتها منه على (منشوكو) وغيرها من البلدان البعيدة إذ أنه لا معنى من الناحية الاقتصادية لأن يرخص بانتاج (فول الصويا) لبلدان لا تساعد أحوالها الطبيعية أو أجور العمال فيها على انتاجه بالكميات الهائلة التي تنتجها (منشوكو) ؛ ومن الأوفق ان تستورد ألمانيا حاجتها منه من (منشوكو) بطريق البحر الطويل . دون أن يشجع زراعة هذا الصنف في أوروبا الجنوبية الشرقية إذ إهتمام ألمانيا بادخال زراعته في هذه الأقاليم لم يكن عبثا . ولا جدال في انه إذا ظلت أوروبا الجنوبية تنتج (فول الصويا) وتمد به ألمانيا فان الوقت لن يطول كثيرا قبل أن تجد ألمانيا ما يسهل عليها إثارة حرب عالمية ثالثة .

ومن مصلحة البلدان الجنوبية الشرقية في أوروبا أن تعمل على إنشاء الصناعات بأرضها حتى تصبح دولا صناعية ولو إلى حد محدود لأن ذلك من شأنه أن يقلل من اعتمادها على المصنوعات التي تستوردها من ألمانيا ؛ وتقتصر وارداتها من ألمانيا على بعض السلع السكالية فبذلك تفقد الصادرات الألمانية أسواقها في هذا الجزء من أوروبا ؛ ويمكن الاستعاضة عن هذه الأسواق المفقودة بأن تظل الأسواق في البلدان الواقعة وراء البحار مفتوحة لتصريف الصادرات الألمانية كما أن ألمانيا يجب أن تظل معتمدة كذلك في وارداتها من النفط والحامات على ما تصدره اليها هذه البلدان النائية

وأما نتيجة هذا (النظام) فهي أن ألمانيا سوف تبقى معتمدة في سد حاجاتها الضرورية على استمرار تجارتها الخارجية عبر البحار ولا يلحق ذلك أى أذى بها في وقت السلم ، بينما يزيد في مقدار الصعوبات التي تصادفها في وقت الحرب زيادة كبيرة ، فلا تقدم بسبب هذه الصعوبات المتوقعة على إشعال حرب ثانية .

بيد أنه لا مناص من أن يسفر تطبيق هذا (النظام) عن خفض مستوى المعيشة في ألمانيا . ولكنه لما كان من المتوقع أن تعنى ألمانيا بالزراعة عناية كبيرة ويرسل العمال الألمان إلى بلادهم دفعات من أجور الخدمة التي يحصلون عليها في الخارج ويمرح الجيش الألماني ويعنى الألمان من نفقات جيوش الاحتلال في بلادهم . فان من شأن ذلك جميعه أن يخفف كثيرا من وطأة هبوط مستوى المعيشة في ألمانيا ولو أنه من الطبيعي أن يظل هذا الهبوط ملحوظا ؛ ومع ذلك فهناك ما يمكن أن يجد فيه الشعب الألماني ما يعوضه شيئا كثيرا عما قد يلقاه من شظف العيش وهو تيقنه من أن زعماءه لن يسمح لهم بأن يقذفوا بألمانيا في حرب جديدة وأن يستغلوا مواردها من أجل التسليح مرة ثانية . وقد لا يرضى عن هذه الحال جيل من الألمان

نشأ على الاعتقاد بأن الجنس الجرمانى له وحده حق السيادة على سائر الأجناس . ولكن على العالم أن يواجه أمرين لا ثالث لهما : إما خفض مستوى المعيشة فى ألمانيا وهو أمر لا مفر منه ، وإما الاستهداف لحرب جديدة ولذلك فإنه من خطل الرأى أن يعارض أحد فىما ينتظر من خفض مستوى المعيشة فى ألمانيا لأسباب إنسانية وكذلك من الخطأ معارضة ذلك بدعوى أن العالم سوف يخسر كثيرا إذا أضحي ثمانون مليوناً من الجرمان يعيشون عيشة غير رحية إلى حد ما ووجه الخطأ فى مثل هذه الأقوال أن شيئا لا يمكن أن يعدل خطر تعرض العالم لأهوال الحرب مرة ثانية بل إن الاهتمام بصون السلام يجب أن يلغى إلغاء جميع الاعتبارات الأخرى ولا يمكن من غير شك أن ينظر لإنسان إلى هذا النظام المقترح على أنه من الحلول المثالية لأنه من المتعذر الحصول على حلول مثالية ولا يعيش البشر فى عالم مثالى وكل ما هنالك أن يختار الإنسان بين طائفتين من المزايا والأفكار ومن شأن تطبيق (النظام الجديد) تطبيقا عكسيا أو بعبارة أخرى العمل (بالنظام الجديد المعكوس) أن يقلل كثيرا من خطر نشوب حرب أخرى بفضل اتباع وسائل قد تبدو شاقة مرهقة إذا قيست بتلك التى أوجدتها معاهدة فرساي ولو أنها من الناحية الإنسانية تفوق كثيرا ما كانت تتبعه ألمانيا .

ويتطلب تطبيق هذا (النظام الجديد المعكوس) وضع خطة محكمة لتنظيم الدول وفى كل دولة على حدة . أى أنه ينبغى استخدام العمال الألمان (المجندين) أو (المسخرين) للخدمة فى أوروبا على نحو لا يسبب تعطلا عن العمل فى البلدان التى تستخدمهم ، فمن المعروف أن الحكومة الفرنسية بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى رفضت أن يقوم العمال الألمان بإعادة بناء المنشآت فى الجهات المخربة فى فرنسا بدعوى أن استخدامهم يضر بمصلحة العمال الفرنسيين وبمصلحة الصناعات الفرنسية وهذا صحيح ولا شك إذا اتبع نظام (الباب المفتوح) الذى لا يقيد الهجرة من بلد إلى آخر ولذلك سوف يجد العمال الفرنسيون ، وتجد الصناعات الفرنسية عند وضع خطة التنظيم المحكم ما يستنفد كل الوقت فى إنتاج السلع والبضائع التى تدعو الحاجة المستمرة إليها لسد المطالب اليومية والعادية ، وينجم عن استخدام العمال الألمان لذلك عدم الحاجة إلى خفض مستوى المعيشة من أجل تيسير العمل فى إعادة بناء الأملاك والمنشآت المخربة وعلاوة على ذلك فإنه بعد أن يتم هذا العمل الإنشائى ينبغى أن يوجد هذا التنظيم مجالا دائما لاستخدام العمال الألمان دون أن يترتب على ذلك تعطل العمال الوطنيين فى البلدان المختلفة وهناك ما يدعو إلى احتمال زوال الحاجة إلى بقاء الرقابة الدائمة على الدول الجرمانية غير البروسانية إذ من المحتمل كثيرا أن تستقر الأمور فى هذه الدول فتقتصر عنايتها على النشاط السلبى بينما يدرك أهلها أن فى استطاعتهم وقد نبذوا جانباً أطعاهم فى غزو شعوب

العالم وإخضاعها لسلطانهم أن يبتوا لأنفسهم صرحا من الحياة المطمئنة الرضية . بل إنه ليكاد يكون أمرا مفروغا منه أن يؤدي إحكام رقابة الأمم المنتصرة على بروسيا إلى الحد من معرفة البروسيين وكسر حدة أطماعهم الشعبية ومن المسلم به أن هذه العجرفة والأطماع البروسيانة كانت المسئولة عن ذلك التخريب الذي حدث بأوروبا وتلك الآلام التي ما زالت تقاسمها الإنسانية .

والواقع أنه إذا أدركت بروسيا أنه لم يعد في استطاعتها بعد هذه الهزيمة المشكرة أن تعود إلى التسليح مرة أخرى على نحو ما حدث بين عامي ١٩٣٣ ، ١٩٣٩ فإن ذلك في حد ذاته قد يضعف كثيرا ذلك الروح الحربي الذي يميز بروسيا من غيرها ولا يشجعه وقد يأتي الوقت الذي يمكننا أن نرى فيه الأمة البروسيانة وقد اتخذت مكانها بين مجموعة الأمم الحرة في ظل المساواة الشاملة مساهمة في تلك الجهود التي يجب أن يبذلها الجميع متضامنين من أجل رفاهية العالم وسعادة الإنسانية .

تلك حقيقة المشكلات التي يواجهها أقطاب الأمم المنتصرة بعد الحرب الأخيرة وإنا نرجو الله صادقين أن يوفقهم وأن يستهدفوا رفاهية العالم وسعادة الإنسانية وهم يضعون شروط الصلح النهائية .

مصادر البحث

- ٢ — عن الموقف السياسى فى المانيا وأوروبا قبل ظهور النازية وفى عهدها .
ب — عن المانيا والنازية .
ح — عن النظام الجديد ، والمشكلات التى ترتبت على تطبيقه .
د — عن أوروبا المحتلة ، والمقاومة .
هـ — عن أهداف الديمقراطيات المتحالفة ومشروعات السلام .

(١)

1. Averoff, M. 3 Histoires d'une Resistance. Caire 1942.
2. La Lutte de la Grece, 28 oct 1940—30 Mai. 1941. Paris 1941.
3. Bojanov, B. Avec Stalint dans le Kremlin. Paris 1930.
4. Barbusse, H. Staline—Un Homme Nouveau. Paris 1935.
5. Biglaud, E. The Riddle of the Kremlin. London 1940.
6. Birdsall, B. Versailles Twenty Years After. London 1941.
7. Blue Book, The Govesnment—Documents Concerning German—Polish Relations and the Outbreak of Hostilities Between Great Britain and Germany on Sept. 3, 1939. London 1939.
8. Bruce, M. British Foreign Policy. London 1939.
9. Ciano, The Ciano Diaries 1939—1943, New York 1946.
10. Citrine, Sir W. My Finnish Diary. London 1940.
11. Clark. G. N. Holland and the War. Oxford 1941.
12. Belgium and the War. Oxford 1942.
13. Duchess of Atholl. Search Light on Spain. London 1938.
14. Duff, Ch. A Key to Victory : Spain. London 1940.
15. Duff, S. G. Europe and the Czechs. London 1938.
16. Dutt, R. P. World Politics 1918—1936. London 1936.
17. Eastman, M. Stalin's Russia and the Crisis in Socialism. London 1940.
18. Fischer, L. Stalin and Hitler. London 1940.
19. Franzero, C.M. Inside Italy. London 1941.
20. Garrat G. T. Europe's Dance of Death. London 1940.
21. Mussolini's Roman Empire. London 1938.
22. Gilbert, E. W. How the Map of Europe was Changed. 1938—1940 London 1940.
23. Golding, C. From Versailles to Danzing. London 1940.
24. Gunther, J. Inside Europe. London 1936.
25. Johnson, H. The Soviet Power. New York 1940.
26. Jackson J. H. Finland. London 1938.
27. Jerrold, D. Britain and Europe 1900—1940. London 1941.
28. Jones E. The Attack From Within. London 1941.
29. Lévy, L. Vérités Sur La France. London 1941.
30. Lippmann, W. U. S. Foreign Policy. London 1944.
31. Massock, R. G. Italy From Within. London 1943.

32. Melville, C. F. *Balkan Racket*. London 1941.
33. Nicolson, H. *Why Britain is at War*. London 1940.
34. Owen, F. *The Three Dictators*. London 1940.
35. Pares, B. *Russia*. London. 1941.
36. Pentad. *The Remaking of Italy*. London 1941.
37. Price, G. W. *I know These Dictators*. London 1937.
38. Salvemini and La Piana. *What To Do With Italy*. London 1943.
39. S. K. *Agent In Italy*. London 1943.
40. Sturmthal, A. *The Tragedy of European Labour 1918—1939*. London 1944.
41. Theimer, W. *An A B C of Internatinal Affairs*. London 1940.
42. Tissier, Lt. Col. Pierre. *The Government of Vichy*. London 1942.
43. Treves, P. *Italy Yesterday Today and Tomorrow* London 1942.
44. Ullmann, S. de. *the Epic of the Finnish Nation*. London 1944.
45. Volpe, G. *Histoire Du Mouvement Fascite*. Roma (?)
46. Ward, B. *Italian Foreign Policy*. Oxford 1941.
47. Waterfield, G. *What Happened to France*. London 1941.
48. Weaver, D. *Front Page Europe*. London 1943.
49. Werner, M. *The Battle For The World*. London 1941.
50. Woodward, E. L. *The Origins of War*, Oxford 1941.
51. Zacharoff, L. *"We made a mistake." Hitler*, London 1942.

(۷)

52. Banse, E. *Germany, Prepare for War !* (Trans. Alan Harris) London 1935.
53. Bartlett, V. *Nazi Germany Explained*. London 1933.
54. Borkenau, F. *The New German Empire*. London 1938.
55. (a). Cooper R.W. *The Nuremberg Trial*. Lodon 1947.
55. Brintzer, C. and Grossband, B. *Germans Versus Huns*. London 1941
56. Dalton, H. *Hitler's War : Before and After*. London 1941.
57. Dodds, E. R. *Minds In The Making*. London 1941.
58. Duncan—Jones, A. S. *The Crooked Cross*. London 1940.
59. Einzig, P. *Bloodless Invasion*. London 1938.
60. Forster, E.M. *Nordic Twilight* London 1940.
61. Fraenkel, N. *The Other Germany -* London 1943
62. ————— *Help Us Germans To Beat The Nazis !* London 1940.
63. Gangulee, N. *The Mind And Face of Nazi Germany*. London 1942.
64. Gibbs, Ph. *European Journey . . .* London 1934.
65. Giles, O.C. *The Gestapo*. Oxford 1940.
66. Gregory, R. *Science in Chains*. London 1942.
67. Heiden, K. *History of National Socialism*. London 1934.
68. ————— *Hitler*. London 1936.
69. ————— *One Man Against Europe*. London 1939.
70. Hitler, A. *My Struggle*. London 1936.
71. Keane, R. *Germany What Next ?* London 1939.
72. Kirpatrick, C. *Nazi Germany. Its Woman And Family Life*. London 1940.
73. Knickerbocker, H.R. *Is Tommorrow Hitler's*. London 1942.
74. Knox, R. *Nazi And Nazarene*. London 1940.
75. Lend, E. *Underground Struggle in Germany*. London 1938.

76. Lichtenberger, H. The Third Reich (Trans. Koppel S. Pinson) London 1938.
77. Lorant, S. I was Hitler's Prisoner. London 1941.
78. Lorimer, E. O. What Hitler Wants. London 1939.
79. Moeller Van Den Bruck. German's Third Empire (Trans. E. O. Lorimer).
London 1934
80. Mower, E. Germany Puts The Clock Back. London 1938.
81. Oliveira, A. R. A People's History of Germany. London 1942.
82. Rauschning, H. Hitler Speaks. London 1934.
83. Read, D. The Burning of the Reichstag. London 1934.
84. ——— Insanity Fair. London 1938.
85. Roberts, S. The House that Hitler Built. London 1938.
86. Schütz, W.W. German Home Front. London 1943.
87. Smith, A. D. Guilty Germans? London 1942.
88. Sington, D. and Weidenfeld, A. The Goebels Experiment. London 1942.
89. Strasser, O. History In My Time. London 1941.
90. Tabouis, G. Blackmail Or War. London 1938.
91. Thomas, K. Women In Nazi Germany. London 1943.
92. Thyssen, F. I paid Hitler. London 1941.
92. (a) Trevor- oper, H. R. The Last Days Of Hitler. London 1947.
93. Weaver, D. The Diplomacy of the Third Reich. London (?)
94. Wolfe, L. By Order of the Gestapo. London 1942.
95. Zarek. O. German Kultur. London 1943.

(>)

96. Angell, N. You And The Refugee. London 1939.
97. Beales, A.C.F. The Catholic Church And International Order. London 1941.
98. Carr, E.H. Propaganda in International Politics. Oxford 1940.
99. Chakotin, S. The Rape of the Masses. London 1940.
100. Deuel, W. People Under Hitler. London 1942
101. Einzig, P. Hitler's New Order in Europe. London 1941.
102. ——— Europe in Chains. London 1941.
103. Gentile, A-S. Le "Racisme" devant La Science. Caire 1942.
104. Hadham, J. God in a World at War. London 1941.
105. Harsch, J.C. Pattern o f Conquest. London 1942.
106. Hoden, M, A-Diary of World Affairs. London 1941.
107. Horsefield, J.K. The Real Cost of the War. London 1941.
108. Huxley, J. Argument of Blood. London 1941.
109. Kuczymski, R. R. "Lviing-Space". Oxford 1940.
110. Lafitte, F. The Internment of Aliens. London 1940.
111. Miller, D. You Can't Do Business with Hitler. London 1942.
112. Parkes, J. The Jewish Question. Oxford 1940.
113. ——— An Enemy of the People : Antisemitism. London 1945.
114. Rauschning, H. Hitler wants the World! London 1941.
115. Reveille, Th. The Spoil of Europe. London 1942.
116. Ruppin, A. The Jewish Fate and Future. London 1940.
117. Samuel, M. The Great Hatred. London 1943.
118. Simpson, J. H. The Refugee Question. London 1939.
119. Slater, H. Home Guard for Victory. London 1941.

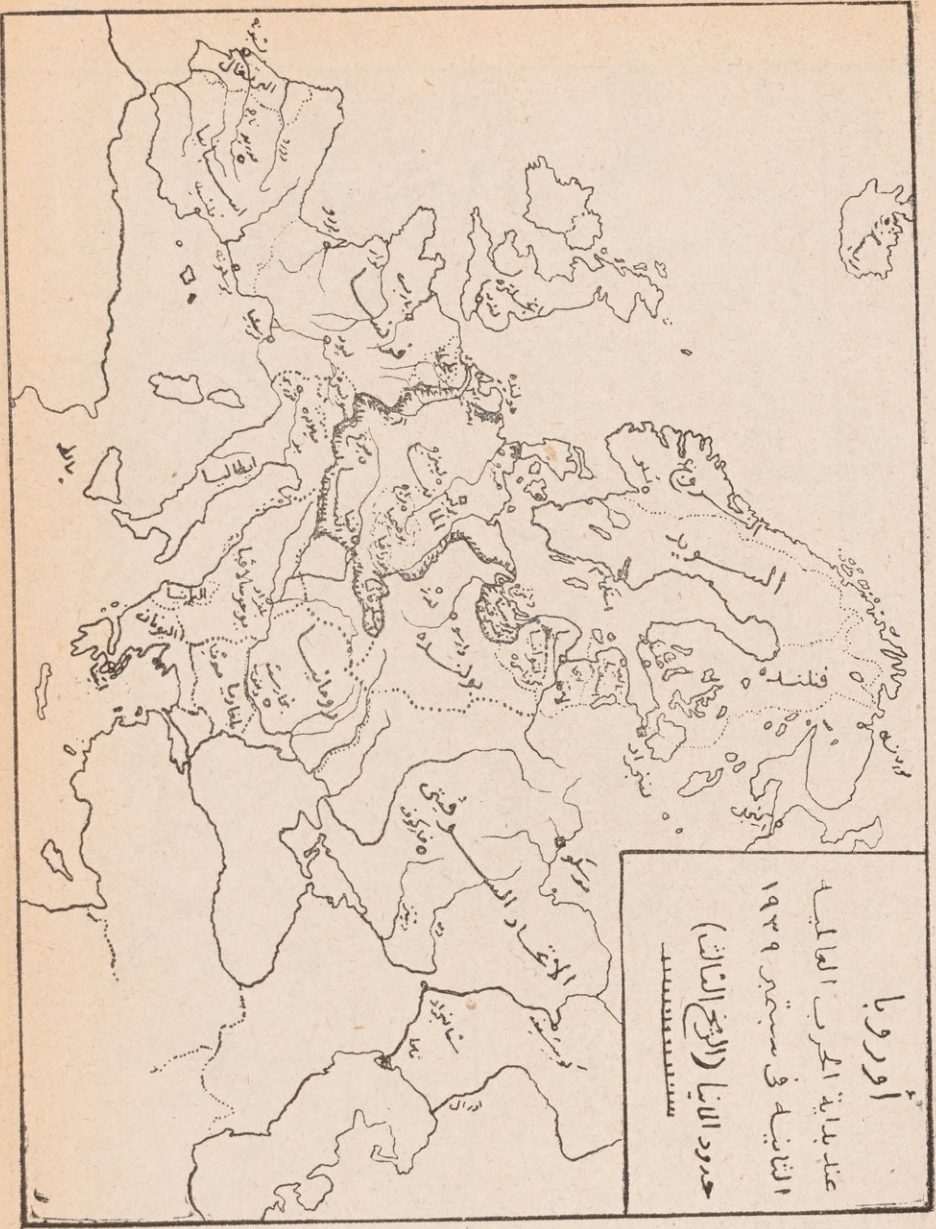
120. Thomas, J. Warfare by Words. London 1942.
121. Wilson, D. Germany's 'New Order,' Oxford 1941.

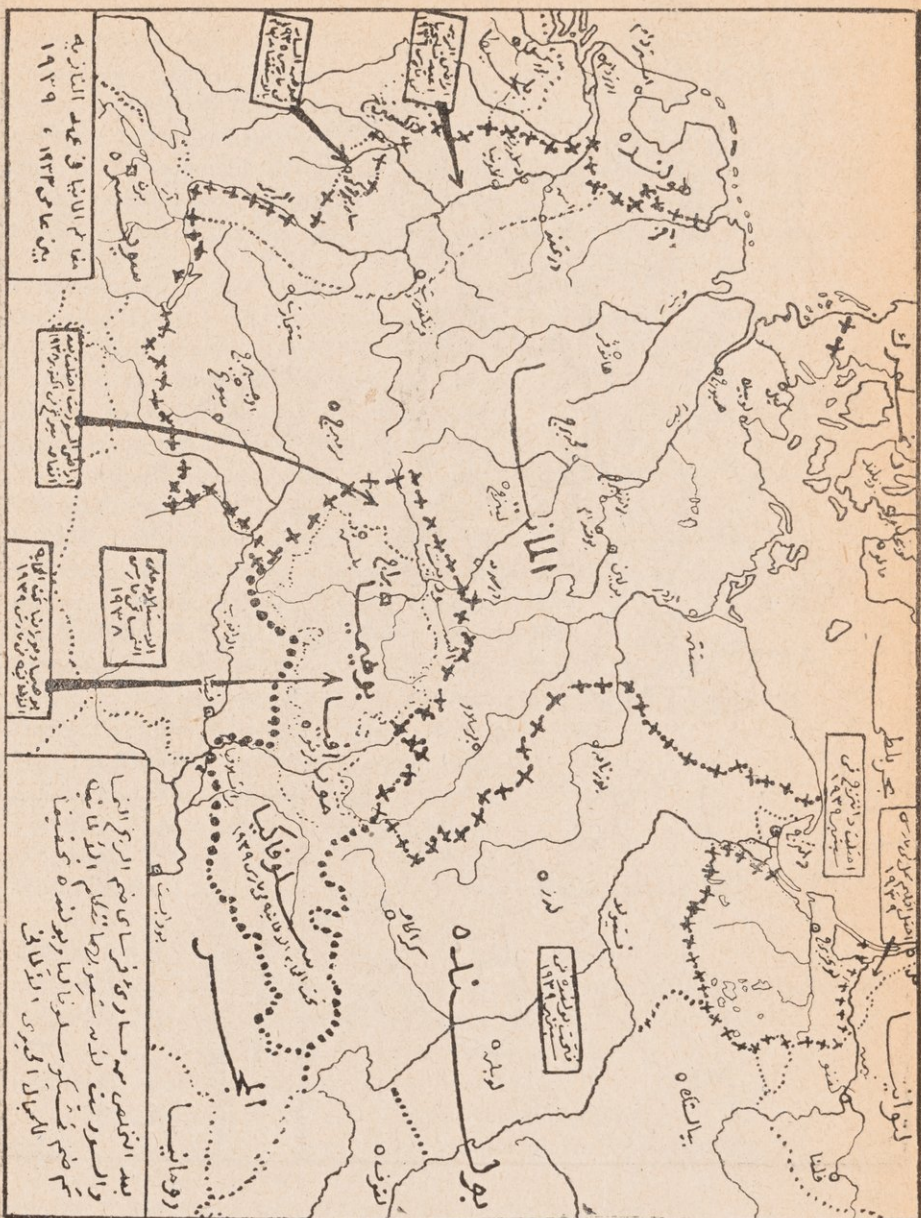
(ۛ)

122. Amyntor. Victors in Chains-Greek Resistance 1942—3. London 1943.
123. Anonymous. "All Gaul is Divided." Letters From Occupied France. London. 1941.
124. Brome, V. Europe's Free-Press. London 1943.
125. De Jong, L. Holland fights the Nazis. London 1941.
126. Duff, S. G. A German Protectorate. The Czechs under Nazi Rule. London 1942.
127. Dutch, O. Pall over Europe. London 1942.
128. Europe Under Hitler. In Prospect and in Practice. [Roy. Inst. of Inter. Affairs . Oxford 1941.
129. Feuchtwanger, L. The Devil in France. London 1943,
130. Gathorne-Hardy, G. M. Norway and the War. London 1941.
131. Gudme, S. Denmark : Hitler's 'Model Protectorate'. London 1942.
132. Hasek, J. The Good Soldier Schweik. London. 1940.
133. Kernan, Th. Report on France. London 1942.
134. Kraus, R. Europe in Revolt, London 1943.
135. Mackworth, C. Czechoslovakia Fights Back. London 1942.
136. 'Michael'. France Still Lives. London 1942.
137. Motz, R. Belgium Unvanquished. London 1942.
138. Myklebost, T. They Came as Friends. (Nazi-Occupied Norway). London 1943.
139. Palmer, P. Denmark in Nazi Chains. London 1942.
140. Polish Doctor-A. I saw Poland Suffer. London 1941.
141. Pruszyński, K. Poland Fights Back. London 1941.
142. Simon, V. The Gestapo at work in Norway. (Forward By..). London 1942.
143. Tayler, E. L. The Strategy of Terror. New York. 1940.
144. Segal, S. Nazi Rule in Poland. London 1943.
145. Sudjic, N. J. Yugoslavia in Arms. London 1942.
146. Volterkis, A. In Gestapo Service. Cairo 1944.
147. Woodman, D. Europe Rises. London 1943.
148. Worm-Müller, J. C. Norway Revolts against the Nazis. London 1941.

(ۛ)

149. Acland, R. Uuser Kampf. (Our Struggle). London 1949.
150. America Looks to the Future. (Four Speeches by American Statesmen). Oxford 1942.
151. Angell, N. The Great Illusion Now. London 1939.
152. ————— Why Freedom Matters. London 1940.
153. Brailsford, H. N. America our Ally. London 1940.
154. Dallin, D. J. Russia and Postwar Europe. New Haven 1943.
155. Einzig, P. Appeasement Before, During, and After the War. London 1941.
156. Evans. R. Prelude to Peace. London 1943.
157. Glover, E. The Psychology of Fear and Courage. London 1941.
158. Goodhart, A. Ouels Actes De Guerre Sont Justifiables ? Oxford 1941.
159. Hancock, W. K. Argument of Empire. London 1943.
160. ————— Empire in the Changing world. London 1944.
161. Joad, C. E. M. what is at stake, and why not say so ? London 1940.
162. Laski, H. J. Where do we go from here ? London 1941.
163. Milne, A. A. War with Honour. London 1940.
164. Wells, H. G. The Common Sense of war and Peace. London 1940.



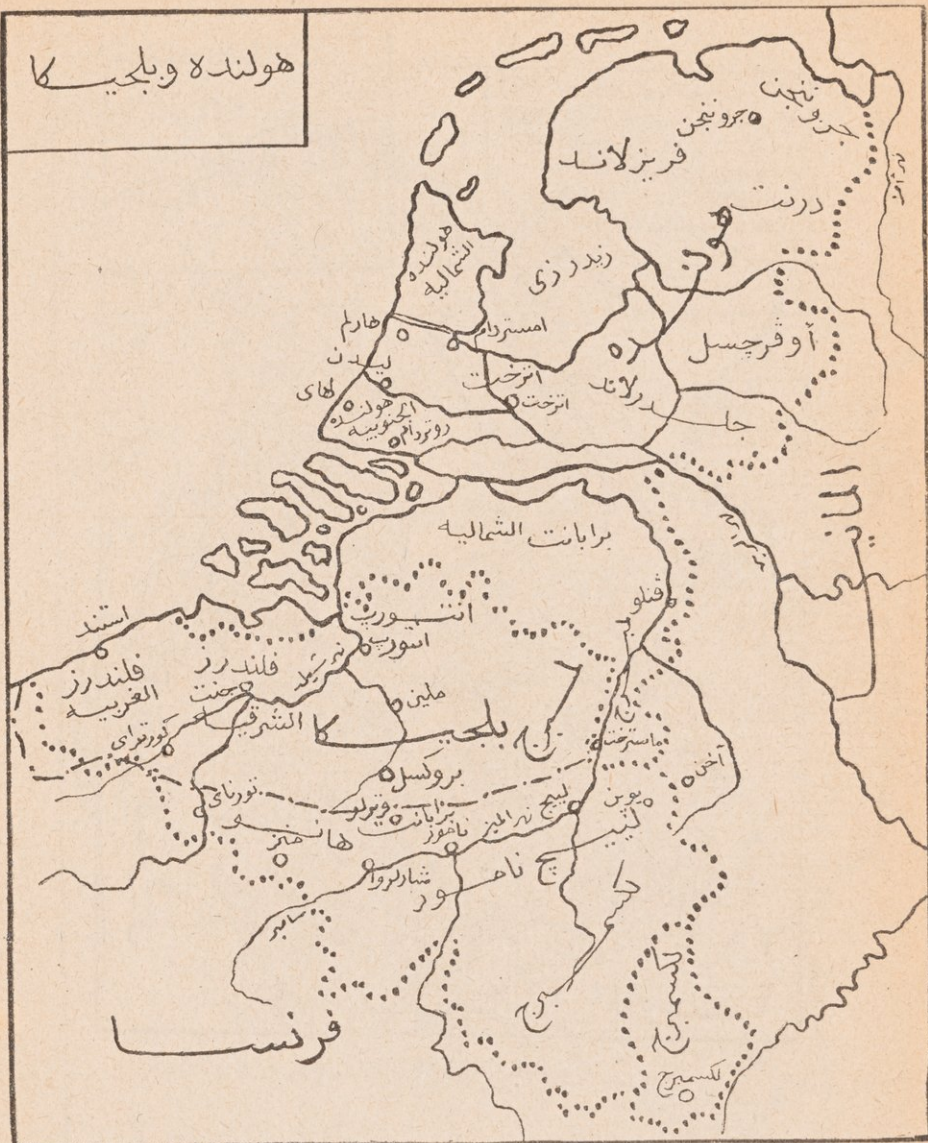




أوردوا باسمه إلى عام ١٠٠٠ م كما رسمها الأناضوليون
الولايات التابعة للامبراطورية وقتها



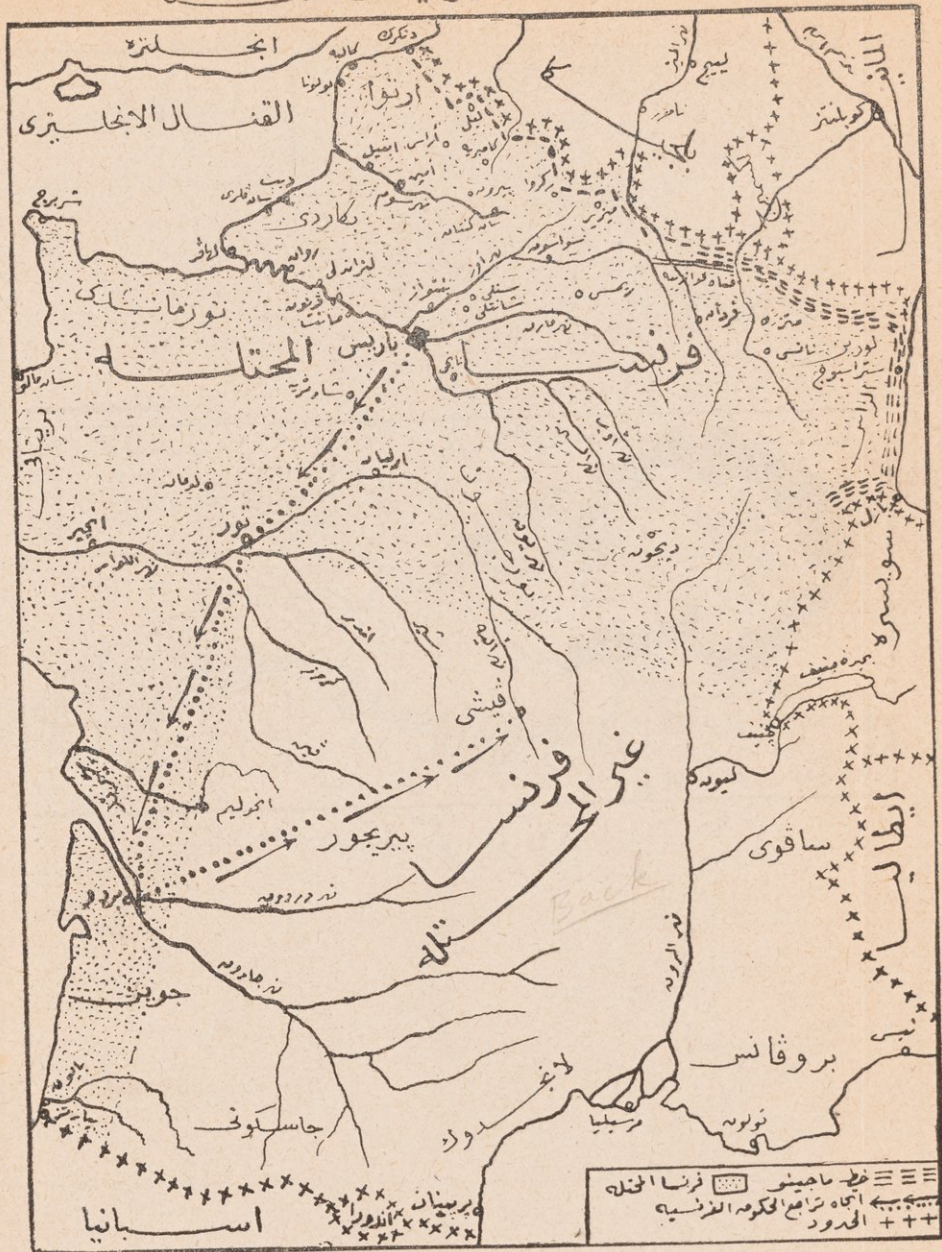
هولند و بلجیکا



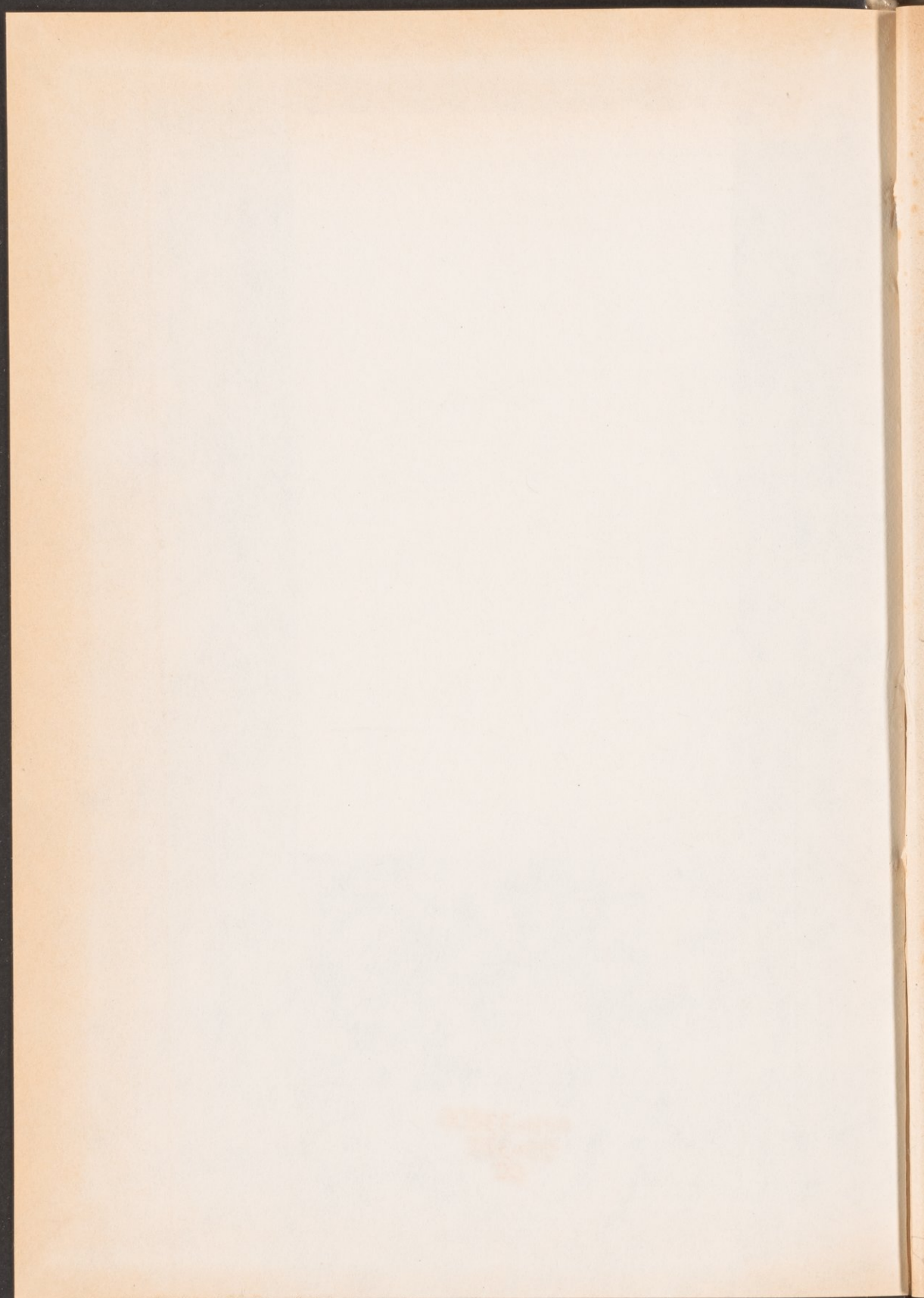


تقسيم تشيكوسلوفاكيا

خريطة فرنسا في يونيو سنة ١٩٤٠



*PB-33806
75-31T
CC



Date Due

[illegible]

Demco 38-297



NYU - BOBST



31142 02839 9031

D743 .S48

Dirasah fi

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

المن ٣٠